الأمثال

من الكتاب والسنة

لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي

من علماء القرن الثالث الهجري

تحقيق

علي محمد البجاوي

مكتبة

دار التراث

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله رب العالمين . والصلاةُ والسلام على أشرف المرسلين .

وبعـدُ فهذا كتاب « الأَمثال من الكتاب والسنة » لإمام من أئمة المسلمين هو أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى .

أُقدمه محقَّقاً للقراء بعد أن ظلَّ – على ما أَعلم – منسيّا إلى الآن ، لم تمتدّ إليه يد فتخرجه للناس .

بل لم يـكن يعرفُه إلا القليل الذين أَشاروا إليه حين كتبوا فى موضوعه « الأَمثال » ؛ ومن هؤلاء الأُستاذ محمود بن الشريف فى كتابه « الأَمثال فى القرآن » ، وإن كان قد ذكره باسم « رسائل الحكيم الترمذى » [1] .

بل إنَّ القرطبى فى تفسيره رجع إلى هـذا الكتاب ، ونقل عنه ، ولكن يذكره باسم « نوادر الأُصول [2] » ، وهو غير كتابنا هـذا كما سترى بعد .

والكتابُ كما ستراه فى ثلاثة أَقسام : الأَمثال من القرآن . الأَمثال من الأَحاديث والأَخبار . أَمثال الحكماء .

---

(١) الأمثال من القرآن : ١٢٠

(٢) الجزء السابع من تفسير القرطبى : ٣٢٢ مثلا . وانظر هامش صفحة ١٦ من هـذا الـكتاب .

ويدخل فى هذا القسم الأخير أمثالٌ من عند الحكيم الترمذى نفسه .

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه هنا أن المؤلفَ لم يقصد الاستقصاءَ فى واحد من هذه الأقسام ؛ بدليل أنه ترك كثيراً من أمثال القرآن الكريم ، وأمثال الأخبار .

وفى رأيى أنه قصد إلى نماذج من هذه الأمثال فيها عظة وعبرة ، وتعليم وفقه ، وحكمة ودين ، وحاول دائماً أن يكونَ أثره عظيما ، وعظاته أشمل .

على أنه فى كل ما جاء به كان يدورُ فى محيط القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، حتى تلك الأمثال التى رواها عن الحكماء والعلماء ، والتى ساقها من عنده — أيدها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ليعزز آراءه ، مما يدلُّ على إيمانٍ صحيح ورغبة أكيدة فى محاولة الوصول إلى عقل القارئ والأخذِ بيده إلى الطريق المستقيم .

وهو حين يشرح بعضَ الآيات فى سياق موضوعه كان يتجه أحياناً إلى تفسير صوفى فيه بعضُ الغموض ، فحاولتُ جهدى أن أقربّ هذا التفسير إلى القارئ ، وذلك بشَرْح بَعْضِ ما يحتاجُ إلى شرح فيه ، أو بإثبات تفسير هذه الآيات من كتب التفسير

المعروفة ، و أثبتُّ ذلك فى هامش الكتاب ؛ لأُعين القارئ على الفهم ، و أضعَ بين يديه ما يساعده على الموازنة .

هـذا الكتاب

هذا الكتاب فى مجموعة مخطوطة من مؤلفات الحكيم الترمذى ، وفى الصفحة الأولى منها ما يأتى :

مجموع فيه اثنا عشر كتاباً للحكيم الترمذى :

الأول – كتاب الصلاة ومقاصدها .

الثانى – الحج و أسراره .

الثالث – الاحتياطات [1] .

الرابع – الجمل اللازم معرفتها .

الخامس – الفروق ومنع الترادف – من أجل مصنفه [2] .

السادس – حقيقة الآدمية ، واسمه الكتاب « الرياضة فى تعلق الأمر بالخالق » .

السابع – غرس الموحدين [3] .

---

(١) وهو فى خلوص العبادة والاحتياط من النفس .

(٢) وهو فى ذكر الأفعال والأخلاق الفاضلة وأضدادها وبيان الفرق بينها . قال السبكى (٢ – ٢٠) : ليس فى بابه مثله ، يفرق فيه بين المداراة والمداهنة ، والمحاجة والمجادلة ، والمناظرة والمغالبة ، والانتصار والانتقام ، وهلم جرا . . من أمور متقاربة المعـنى .

(٣) وهو فى بيان الصلاة والطهارة وأدائهما على وجههما .

الثامن – الأعضاء والنفس [1] ، وفيه تفسير آيات عظيمة .

التاسع – منازل العباد من العبادة [2] .

العاشر – العقل والهوى [3] – وهو جليل الفوائد .

الحادى عشر – الأمثال من الكتاب من السنة ، ومن كلامه – مفيد جداً . وهو هذا الكتاب الذى عرفناك به .

الثانى عشر – كتاب « المنهيات » أو « المناهى » وهو غريب فى بابه [4] .

جميع هذه الكتب المذكورة من مصنفات الأستاذ العلامة العالم الأوحد الإمام الحكيم أبو عبد الله محمد بن على الترمذى قَدَّس الله رُوحَه .

وفى أعلى الجانب الأيسر من هذه الصفحة تمليك غير مقروء ،

---

(١) أوله : الحمد لله ولى الحمد وأهله . . . أما ما سألت عن صفة القلب [illegible]ائه وصفة الصدر وأحواله وصفة النفس . .

(٢) أوله بعد الديباجة : أما بعد فإنكم سألتمونى وصف منازل العباد من هذا الدين وأن أذكر لكم فى كل منزلة منها من طريق الكتاب المنزل والحديث المأثور – ما يكون شاهداً على وصفى . . .

(٣) وأوله : باب العقل والهوى ، وللعقل خمسون ـ أعوان ، وللهوى خمسون ـ أعوان . عد فيه أقسام العقل والهوى مفسراً كل قسم على حدة ، الموجود منه عشرون قسما من أقسام العقل فقط ، وينتهى ما فيه إلى تعريف الشكر . . .

(٤) جمع الأحاديث النبوية الواردة فى النهى .

وتحته : تشرف بتملكه أفقر الورى صالح بن مصطفى رضى الله تعالى عنه .

وبعد المكتوب فى النسخة المغربية ما يأتى :

الشيخ الإمام الأجل أبو المكارم الحسين بن محمد بن عثمان . . . والعلامة بدر الدين شمس المعرفة ، تاج السنة ، سراج الأمة ، ناصر الحق ، ناصح . . . . .

مؤلف الكتاب (١)

هو أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن شير الترمذى المؤذن . المعروف بالحكيم . متكلم سُنىّ ، ومحدث متصوّف ، وفقيه حنفى ، من أجلّ كتّاب مشايخ خراسان ، عالم بالحديث وأصول الدين من أهل ترمذ ، سمع الكثير من الحديث بخراسان والعراق ، وحدّث عن أبيه ، وعن قُتيبة بن سعيد . وروى عنه يحيى بن منصور القاضى وغيره من علماء نيسابور .

وكان إماماً من أئمة المسلمين ، له المصنفات فى أصول الدين ،

---

(١) رجعنا فى هـذه الترجمة إلى المصادر الآتية :
لسان الميزان لابن حجر : ٥ — ٣٠٨ ، الأعلام للزركلى : ٧ — ١٥٦ ، طبقات السبكى : ٢ — ٢٠ ، دائرة المعارف الإسلامية : ٥ — ٢٢٧ ، كشف الظنون : ١ — ٩٣٨ ، معجم سركيس : ٦٣٣ ، حلية الأولياء : ١٠ — ٢٢٣

ومعالى الحديث . وله كتاب « نواد الأصول » مشهور ، رواه عنه جماعة بخراسان .

وهو عالم متواضع . قد نقل عنه أنه كان يقول[1] : ما وضعْتُ حرفاً على حرف ليُنْقَلَ عنى . ولا ليُنْسبَ إلىّ شئٌ منه ، ولكن كنتُ إذا اشتدَّ على وقتى أتسلَّى بمصنَّفاتى .

وقيل إنه هجر ترمذ فى آخر عُمْره بسبب تصنيفه كتاب « ختم الولاية وعلل الشريعة » ، وحُمل إلى بَلْخ ، فأكرموه لموافقته لهم فى المذهب – يعنى الرأى .

قال فى لسان الميزان :

وبلغنى أن أبا عثمان سُئل عنه فقال : تنبَّئُوا عنه شرًّا من غير سبب . وذكره القُشَيْرى فى الرسالة ، وقال : كان من كبار الشيوخ ، وله تصانيف فى علوم القوم .

وقال فى دائرة المعارف الإسلامية : وهو يدعو إلى الأخلاق الشريفة ، ويلعن فى كتابه « الأقباس » النِّفَاق بأنواعه ، ويرفض الحِيَلَ التى كان يلجأ إليها المفتون فى عصره . قال : ويُعَدُّ الترمذى بحقٍّ رائدَ ابن عربى الذى جاء بعده بثلاثة قرون ، فدرسه عن كثَب وأعجب به .

وقد ردَّ ابنُ حجر على ابن العديم حين وصفه بأنه لم يكن من

(١) الحلية : ١٠ – ٢٣٣

أهل الحديث .... وقال : لعمرى ، لقد بالغ ابنُ العديم فى ذلك ؛ ولولا أنَّ كلامه يتضمن النقلَ عن الأئمة لما ذكرته ، ولم أقف لهذا الرجل مع جلالته على ترجمة شافية .

وذكرهُ أبو نعيم فى الحلية [1] ، فقال :

صنَّف التصانيف الكثيرة فى الحديث ، وهو مستقيم الطريق ، تابع للأثر ، يردُّ على المرجئة وغيرهم من المخالفين ، وذكر شيئاً من كلامه ؛ منها قوله :

كفى بالمرءِ عَيْبًا أَنْ يسرَّه ما يضرُّه . ومنها قوله ـ وقد سئل عن الخلق ، فقال : ضَعْفٌ ظاهر ، ودَعْوى عريضة .

واضطرب مُؤَرخوه فى تاريخ وفاته ؛ فمنهم من قال : إنه توفى سنة ٢٥٥ هـ [2] ومنهم مَنْ أَرّخ وفاته سنة ٢٨٥ [3] ، ومنهم

---

(١) الحلية : ١٠ ـ ٢٣٣

(٢) ممن قال ذلك مفهرس المخطوطات فى القسم الأول من فهرس المخطوطات المطبوع سنة ١٩٦١ صفحة ٤٣٤ ، ومنهم المعلق على لسان الميزان (٥ ـ ٣١٠) ، إذ قال : الحكيم الترمذى المتوفى شهيداً سنة خمس وخمسين ومائتين . والله أعلم ، وأشار صاحب الأعلام (٧ ـ ١٥٦) إلى هـذا أيضاً فقال : فمنهم من قال : إنه توفى سنة ٢٥٥ هـ . كذلك صاحب كشف الظنون صفحة ٩٣٨ ، إذ يقول : الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ (خمس وخمسين ومائتين) .

(٣) ومنهم دائرة المعارف الإسلامية ٥ ـ ٢٢٧

مَنْ جعل وفاته سنة ٣٢٠ هـ [١].

وقال فى الأعلام (٧ — ١٥٦) : وينقض الأول أن السبكى يذكر أنه حدث عنه بنيسابور سنة ٢٨٥ هـ ، كما ينقض الثانى قول ابن حجر [٢] أن الأنبارى سمع منه سنة ٣١٨ هـ.

مؤلفاته

سبق أنْ ذكرنا من مؤلفاته اثنى عشر كتاباً حين أثْبَتنا صورةَ ما جاءَ فى الصفحة الأُولى من مجموع كتبه :

ونضيف إلى ذلك من كتبه ما يأتى :

١٣ — تحصيل نظائر القرآن ، وفى أوله — بعد الديباجة :

أما بعد ، فإنما نظرنا فى هذا الكتاب المؤلف فى نظائر القرآن فوجدنا الكلمة الواحدة مُفَسَّرة على وجوه ، فتدبَّرْنَا ذلك ، فإذا التفسير الذى فسرناه إنما اختلفت الألفاظُ فى تفسيره ، ومرجعُ ذلك إلى حكمة واحدة.

١٤ — الرد على المعطلة . . .

١٥ — المسائل المكنونة ، وأولها بعد الديباجة : جهد النفس حجاب المنَّة ، وجهد القلب هتك حجاب المنَّة .

(١) من هؤلاء لسان الميزان لابن حجر : ٥ — ٣١٠ ، إذ قال : عاش إلى حدود العشرين وثلاثمائة ، فإن الأنبارى ذكر أنه سمع منه سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة . وعاش نحوا من تسعين سنة . والله أعلم ، وكذلك قال فى الأعلام (٧ — ١٥٦) : وفاته نحــو سنة ٣٢٠ هـ .

(٢): انظر الهامش السابق .

وهى كلها مخطوطة فى دار الكتب [1]

١٦ – ختم الولاية وعلل الشريعة [2] .

١٧ – نوادر الأصول [3] .

١٨ – الأقباس [4] .

١٩ – رسائل الترمذى ؛ وهى مجموعة الكتب التى أشرنا إليها سابقا ، وقد سمّاها هذا الاسم مفهرس مخطوطات دار الكتب ، مع أنها نسخة مكتوبة عن إحدى النسختين المخطوطتين فى الدار لهذه المجموعة .

* * *

زاد كتاب الأعلام فى كتبه أيضاً :

٢٠ – الأكياس والمغترون – تصوف .

وزاد السبكى فى كتبه :

٢١ – عود الأمر .

---

(١) فهرس المخطوطات .

(٢) لسان الميزان (٥ – ٣٠٨) ؛ ودائرة المعارف الإسلامية : ٥ – ٢٢٧

(٣) نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسول ؛ قال صاحب كشف الظنون(٩٣٨) : وعليه زوائد لجلال الدين السيوطى ، وهو الملقب سلوة العارفين وبستان الموحدين ، وله مختصر قدر ثلثه طبع فى الآستانة ١٢٤٩ هـ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية .

وقال فى دائرة المعارف :

« وقد بقى من تآليفه ما يَقْرُبُ من ثلاثين مصنفا . أسلوبها مُطْنب بعض الشئ ولكنها مع هذا حافلةٌ بالأسانيد .

وكان أول من صنَّف فى طبقات الصوفية . ولكننا لم نعرف هذا الكتاب إلاَّ من النقول التى أَخذَتْ منه .

* * *

ونظرة إلى هذه الآثار التى تركها المؤلف تُوحى بما كان عليه من ثقافة دينية واسعة ، وتدلُّ على اتجاه واضح فيه إلى بثِّ روح الدعوة . وإيمان وثيق بها .

قال فى دائرة المعارف الإسلامية :

« وقد أراد الترمذى أن يُخرِّج تخريجاً عقلياًّ الفرائض الشرعية فى كتبه « علل العبودية » ، « وشرح الصلاة » ، « والحج وأسراره » » .

نسخ الكتاب

فى دار الكتب المصرية من الكتاب نسختان [١] :

الأُولى بخط مغربى دقيق جدا ، به بعضُ الضبط ، وهى مصورة بالفوتستات عن نسخة خطية محفوظة – بالمكتبة الأَهلية –

---

(١) كل منهما ضمن مجموعة الكتب التى أشرنا إليها .

باريس [1] رقم ٥٠١٨ ، ويظنّ أنها من مخطوطات القرن الخامس الهجرى ، ضمن مجموعة من لوحة ١٤١ – ١٨٤ ، فى كل لوحة صفحتان ، ورقمها ٢١٨١٧ ب ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ا).

والنسخة الأُخرى مصورة بالفوتستات أيضاً [1] ، عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة عاشر أفندى بالآستانة رقم ١٤٧٩ ضمن مجموعة من لوحة ٤٢ – ٩٧ ، وكل لوحة بها صفحتان ، وهى بخط فارسى جميل ، لولا أن بها بَعْضَ كلمات غير واضحة فى التصوير ، وهى قليلة على كل حال ، وبها أيضاً بعضُ الضبط الدقيق ، ورقمها ٢١٨١٦ ب ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ب).

ومما ينبغى التنبيه عليه هنا أن هذه النسخة قد امتازت عن سابقتها بأن بها عناوين جانبية . انتفعْتُ بها فى العناوين التى وضعتها لموضوعات الكتاب فى ثنايا السطور ، مميزة بحروف غير حروف الكتاب ، وهى عناوين دقيقة ، فصّلت موضوع الكتاب ، وبينت أجزاءه ، وحددت للقارئ أهدافه [2].

وأرى أن هذه العناوين من وَضْع كاتب النسخة ، فهى غير موجودة فى النسخة المغربية السابقة.

---

(١) فهرس المخطوطات – القسم الأول ، القاهرة ١٩٦١

(٢) بدار الكتب نسخة ثالثة منقولة بقلم أحد النساخ ، ولكنها – لكثرة ما فيها من تحريف ، لا تستحق أن تكون مرجعاً للتحقيق ؛ بل لا يصلح .

عملى فى الكتاب

قابلت النصَّ على النسختين ، وأشَرتُ فى الهوامش إلى الاختلاف بينهما إن وجد ، وضبطت ما يحتاج إلى الضبط ، لأُعين القارئ على الفهم . وخرَّجت الآيات القرآنية ، وأثبتُّ فى الهوامش سُوَرَها ، وأرقامَ آياتها ، وكنتُ أحياناً أُكمِّل الآية إذا كان المعنى يحتاج إلى هذه التكملة .

وخرّجتُ الأحاديث النبوية ، بالرجوع إلى كتب السنة ، وأشرت إلى ذلك فى هوامش الكتاب .

وشرحت بَعْضَ الألفاظِ التى تحتاجُ إلى شرح ، وأثبتُّ فى بعض الأحيان تفسير الآيات [1] من كتب التفسير المعروفة.

وأشرت دائماً إلى مراجع التفسير ، والبحث ، والشرح ، والضبط ، من كتب التفسير والحديث ، واللغة ، والتراجم ، وغيرها ، مما تراه فى هوامش الكتاب .

ووضَعْتُ أكثر العناوين التى وجدتها مثبتة فى النسخة الفارسية ، وميزتها بحروف غير حروف الكتاب .

وختمت الكتاب بفهارس منوعة تعين على البحث فيه والإفادة منه .

---

(١) سبقت الإشارة إلى سبب ذلك .

بقى أن أقول : إن فى نسختى الكتاب بعْضَ عبارات – وهى والحمد لله قليلة – لم أهْتَدِ إلى الصواب فيها ، فتركتُها كما هى ، وقلتُ – فى الهامش : هذا بالأُصول .

ولعل غيرى يكون أَهْدَى منى إلى الصواب فيها .

والله أَسأَلُ أَنْ ينفعَ به قَدْرَ ما بذلتُ من جهد وما قَصَدْتُ من خير ، وهو نعم المولى ونعم النَّصِير .

مصر الجديدة : ربيع الأول ١٣٩٥ هـ
ابريل سنة ١٩٧٥ م

علي محمد البجاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

[٤٣] عونكَ اللَّهمَّ وَحْدَك ، الحمدُ لله وَلِيِّ الحمد وأهله ، والصَّلاةُ على رسوله محمد وآله أجمعين.

قال الإمامُ محمد بن على التِّرْمذيّ الحكيم رَحِمَه الله :

أما بَعْدُ فإنكَ سأَلْتَنِى عن شأْنِ الأَمثالِ وضَرْبِها للناس ؛ فاعلم أنَّ الله تعالى ضرب الأَمثالَ للعباد فى تنزيله ؛ لقوله تعالى [١] : (ويَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ للناسِ واللهُ بكلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ). وقال جلَّ ذِكْرُه [٢] : (وضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ) . وقال جلَّ ذِكْرُه [٣] : (ضَرَبَ لَكُمْ مثَلاً مِنْ أَنْفُسكم) .

ثم اعْلَمْ بأَنَّ ضَرْبَ الأَمثالِ لِمَنْ غاب عن الأَشياء ، وخفِيَتْ عليه الأَشياءُ ؛ فالعبادُ يحتاجون إلى ضَرْب الأَمثالِ لَمّا خفيت عليهم الأَشياءُ ؛ فضرب الله لهم مثلا من عند أَنفسهم ، لا مِنْ عند نفسه ؛ لِيُدْرِكُوا ماغاب عنهم ؛ فأَمّا مَنْ لا يَخْفَى عليه شىءٌ فى الأَرض ولا فى السّماءِ فلا يحتاجُ إلى الأَمثال ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرا .

فلا جَرَمَ [٤] ماضرب الأَمثالَ من نفسه لنفسه ؛ وكيف ولامِثْلَ

---

(١) سورة النور ، آية ٣٥

(٢) سورة إبراهيم ، آية ٤٥

(٣) سورة الروم ، آية ٢٨

(٤) لاجرم : لابد ، حقا ، لامحالة(القاموس) :

له ، ولا شبيه له ؛ فلذلك قال جلّ ذكره[1] : (فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّهِ الأَمْثَالَ) .

فالأَمثالُ نموذجات الحكمة لِمَا غابَ عن الأَسماع والأَبصار ؛ لتهدِيَ النفوسَ بما أَدركَتْ عِيَانا[2] .

فمن تدبير اللهِ لعباده أَنْ ضربَ لهم الأَمثال من أَنفسهم ، لحاجتهم إليها ؛ ليَعْقِلُوا بها ، فيدركوا ماغابَ عن أَبصارهم وأَسماعهم الظاهرة ؛ فمَنْ عقَل الأَمثالَ سمّاه اللهُ تعالى فى كتابه عالما ؛ لقوله تعالى[3] : (وتِلْكَ الأَمثالُ نَضْرِبُها للناسِ وما يَعْقِلُها إِلَّا العالِمُون) .

الأمثــال مرآة النفس

فالأَمثالُ مِرْآةُ النفسِ . والأَنوار – أنوار الصفات – مرآةُ القَلْبِ ؛ وإن الله تعالى جعل على الأَفئدة أَسماعًا وأَبصارًا ، وجعل فى الرُّءوس أَسماعًا وأَبصارًا ؛ فما أَدركت أَسماعُ الرءوس وأَبصارُها أَيْقَنَ به القَلْبُ ، واستقرت النَّفْسُ ، واتَّسعت فى علم [ذلك][4] وانْشَرح صَدْرُه بذلك ؛ وما غاب عن أَسماع الرءوس وأَبصارها ،

---

(١) سورة النحل ، آية ٧٤ (٢) عيانا : معاينة .

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٤٣ . نضربها : نبينها . ومايعقلها : مايفهمها .العالمون : العالمون بالله . كما روى جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه . (تفسير القرطبى : (١٣ – ٣٤٦) .

(٤) من ب ، ح .

وجاءت أخبارُها عن الله — وتلك الأشياء مكنونة — أيْقَن القَلْب بذلك . ولكن تحيّرت النفسُ وتذَبْذَبت .

وإنّ النفس مستقَرُّها فى الجَوْف . والقلبْ مستَقَرّه فى الصَّدر فوق النفس ؛ فالقلبُ كدَلْوٍ معلّق فى الصَّدر بعُروقِه وبما فيه من المكنون ؛ وتحته النَّفْسُ . وفيها الشهواتُ . والهوى رِيح مِنْ تنفُّس النار خرجت إلى محلِّ الشهوات بباب النار . واحتملت نَسيمَها وأفراحَها حتى أوردَتْها على النفس ، فإذا هبّت ريحُ الهَوَى[١] بأَمرٍ ، وجاءت بذلك النسيم والفَرَح إلى النفس ، تحركت النفس وفارت ، ودَبّ [٢] فى العروق طيبُها ولذَّتها فى أسرع مِنَ اللحظة ، فإذا أخذت النَّفْسُ فى التذَبْذُب والتمايل والاهتشاش[٣] إلى ما تَصَوَّر وتَمَثَّل[٤] لها فى الصَّدر تحرَّك القَلْبُ وتمايل هكذا وهكذا مِنْ وصولِ تلك اللَّذةِ إليه ، فإذا لم يكن فى القلب شئٌ يُثْقِلُه ويسكِّنه مال إلى النَّفْس ، فاتَّفَقَا واتَّسقَا [٥] على تلك الشهوات ؛ فإنْ كانت تلك مَنْهِيًّا عنها ، فبرز إلى الأركان فِعْلها ؛ فصارت مَعْصيةً وذَنْبًا .

وإنما يثقل القَلْبُ بالعِلم بالله ؛ لأَن العلمَ بالله يُورِثُ الخَشْيَةَ ،

(١) فى جـ : الهواء .   (٢) هذا فى ا ، جـ .
(٣) الهشاسة والهشاش : الارتياح والخفة والنشاط ، واهتشه : استخفه .
(٤) فى ا : ويمثل .   (٥) اتسقا : اجتمعا واستويا .

فإذا تـأَدّتْ تلك الخَشْيَةُ إلى النفس ذَبُلَتْ وتركت التردد ؛ فاستقرّ القَلْبُ .

العلم بالله يورث الحياء

والعِلْم باللهيُورثُ الحياءَ ، فإذا تـأَدّى ذلك الحياءُ إلى النفس انكسرت وخَجِلَتْ ؛ فإذا جهل القلبُ رَبَّه صار صفةُ القلبِ مع النفس على ما وصفنا بَدِيًّا [1] .

والقلبُ مُوقِنٌ بالله تعالى بيقين التوحيد ، فإذا جاءت نوائبُ الأمورِ استقرَّ القلبُ بذلك اليقين ؛ لأَنه ليس فى القَلْبِ شهوةٌ ، وتذبذبت النفس وترددت بالشهوة التى فيها .

فإذا ضُربت لها الأَمثالُ صار ذلك الأَمرُ لها بذلك المَثَل كالمُعَاينة ؛ كالذى ينظرُ فى المرآة فيُبْصِرُ فيها وَجْهَهُ ، ويُبْصِرُ بها مَنْ خَلْفه ؛ لأَنَّ ذلك المثلَ قد عاينه بِبَصرِ الرأس ، فإذا عايَنَ هذا أَدركَ ذلك الذى غاب عنه بهذا ؛ فسكنت النَّفْسُ ، وانقادَتْ للقَلْب ، واستقرّت تحت القَلْبِ فى معدنها ؛ فهى كالعِمَاد لسَطْحِ البيت ؛ فإذا تحرَّكَ العِمادُ تحركَ السّطح وانهار وتبدّد العِمَادُ .

الأمثال من القرآن

فضرب اللهُ الأَمثالَ لنُفُوسِ العباد ، حتى يُدْرِكوا ما غاب عن أَسماعهم وأَبصارهم الظاهرةِ ، بما عايَنُوا ؛ فابتدأَ فى تنزيله ،

(١) بديا : ابتداء .

فضرب مَثَل المنافقين ؛ فقال جلَّ ذِكره[١] : (وإذا لَقُوا الذين آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينهم قالوا إنَّا معَكُمْ إنما نَحْن مُسْتَهْزِئُون . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم وَيَمُدُّهُم فى طُغْيَانِهم يَعْمَهُون . أُولئكَ الذين اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدَى فما رَبِحَتْ تجارتُهم وما كانوا مُهْتَدِينِ . مَثَلُهُم كمثَلِ الذى استوْقَدَ نارًا ، فلما أَضاءَتْ ماحَوْلَهُ ذهبَ اللهُ بنُورِهم وتركَهُمْ فى ظُلُمات لايُبْصِرون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لايَرْجِعُون) [٢] .

مثـل المنـافقين

قال : مثَلُ المنافقِ الذى تكلَّم بكلمةِ الإيمان مُرائيا للناس ، كان له نُورٌ ، بمنزلةِ المستَوْقِد نارًا يَمْشِى فى ضَوْئِها مادامت تتَّقِدُ نارُه ، فإذا تركَ الإيمانَ صار فى ظلمة كمَنْ أُطفِئت نارُه ، فقام لا يَهْتَـدِى ولا يُبْصر ذلِكَ .

ثم قال : ذهب اللهُ بنورهم ؛ أى بإيمانهم الذى تكلَّموا به ؛

(١) سورة البقرة ، آية ١٤ — ١٨

(٢) خلوا : ذهبوا وانصرفوا. الشياطين : جمع شيطان ؛ قال ابن عباس : الشياطين : رؤساء الـكفر .

وقال الـكلبى : الشياطين : شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان. مستهزئون : مكذبون ، أو ساخرون . الله يستهزئ بهم : ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم . ويمدهم : يطيل لهم المدة ، ويمهلهم . طغيانهم : كفرهم وضلالهم . يعمهون : يعمون ، أو يترددون متحيرين فى الـكفر . استوقد : أوقد . فهم لايرجعون ؛ أى إلى الحق لسابق علم الله فيهم (القرطبى : (١ — ٢٠٦)

وتركهم فى ظلمات لايُبْصرون . فى ضلالةٍ لايُبْصرون الْهُدَى . هذا قول مُقَاتِل [١] .

وقال قَتَادة : هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى للمنافِقِ الذى تكلَّم بكلمةِ الإيمانِ ظاهرًا ؛ فناكَحَ ووَارثَ بها ، وحقَن بها دَمَه ومالَه ؛ فلما كان عند الموت ولم يَكُ مُصَدِّقا بها سُلِبَتْ عنه ، فتُرِك فى كَرْب وظُلمة ، فتحيَّر فيها كما كانت معاملتُه فى الدنيا فى حَقِّ اللهِ سبحانه وتعالى .

وقال مجاهد رحِمَه الله : أَضاءت ماحوْلَه [٢] إلى إقبالهم إلى المؤمنين . وذهب بنورهم ، يعنى ذهابَ نورِهم عند إقبالهم إلى المشركين : فالمنافقُ قلبه متحدِّرٌ [٣] لايستقرُّ فيه شيءٌ كلَّما برق فيه نُورُ الحق خرج من الجانِب الآخر ، فقَلْبُه كنَفَق اليَرْبُوع [٤] ؛ يدخل من باب [٤٤] ويخرج من بابْ .

مثـل اليهـود مـع النبى

وهذه الآيةُ مَثَلُ اليَهُودِ مع نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ مثَلُهم كمثلِ رجُلٍ يكونُ فى ضِيق وتَعَبٍ وشدّة وظُلْمةٍ ، يَنْتظِرُ الفَرَج

(١) هو مقاتل بن سليمان ، من أعلام المفسرين ، توفى سنة ١٥٠هـ.

(٢) فى ابن كثير (١ — ٥٣) : أما إضاءة ماحولهم فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى .

(٣) فى ج : منحدر .

(٤) النفق : سرب فى الأرض له مخلص إلى مكان . ونافقاء اليربوع : إحدى جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها ، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق (القاموس — نفق) .

والمَخْرَج والضياء والنُّور؛ كانوا ينتظرون خروجَ محمّد صلى الله عليه وسلم ؛ وعرفوا أنه الحق فكذَّبوه وحسدوه مخافةَ أَن يَذْهبَ عنهم عِزُّهم ومَأْكَلَتُهم[1] .

ذهب الله بنورهم ؛ أى بالحَلَاوَةِ التى كانت فى قلوبهم عقوبةً لهم بجحودهم ، وتركَهُمْ فى ظلماتٍ لا يُبْصرون الهُدَى .

وأيضا مثَلُهم كمثل الذى استَوْقَدَ نارًا فى مَفَازةٍ[2] مُهْلِكة لِيَأْمَن بها ، فلما أضاءت ماحوله أُطفئت نارُه ، وبَقِىَ فى ظلمة ، فكذلك اليهود استنصروا به قَبْلَ خروجه ، وطلبوا خُرَوجَه ليأْمَنُوا من سيْفِ الفُرقة ، فلمّا جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنةُ الله على الكافرين — يعنى اليهود .

وبئس مااشتروا به أنفسهم : بئس ماربحوا بعِوَضٍ قليلٍ من الدنيا ، وهوماكانوا يُصِيبون من سِفْلَةَ[3] اليهود من المَأْكَلَةِ فى كل عام .

مثـل المنافقين بتكذيب القـرآن

وقيل[4] : (أَو كصَيِّب من السّماء)[5] ؛ أى مَثَل المنافقين

(١) المأكلة : الميرة ، وما أكل .
(٢) المفازة : الصحراء لاماء بها .
(٣) سفلة اليهود : أسافلهم وغوغاؤهم .
(٤) سورة البقرة ، آية ١٩ (٥) الصيب : المطر .

فى القرآن مع القرآن كقَوْمٍ نزلوا فى فَلَاةٍ[١] لَيْلاً ، فجاءهم مطرٌ شديد ؛ وإنما شبّه القرآن بالمطر ؛ لأَنَّ حياةَ الناس فى المطر ، كما أن فى القرآن حياةً ومنفعةً لمن آمَنَ به .

فمَثَلُ المنافقين بتكذيب القرآن كمثل مطر نزل من السماء ليلا قُرّا[٢] وفيه البرق وشدة الرعد .

يقول : (فيه ظلماتٌ) : يقول فى هذا المطر ظلماتٌ ورَعْدٌ وبَرْق ،يقول : يمطر فى ليلةٍ مُظْلمة ؛ وفى ذلك المطر رَعْدٌ وبرق ، فمثَلُ المطر مثل القرآن ، كما أنّ فى المطر حياةً ، كذلك فى القرآن حياةً لمن آمَنَ به ، وحياة الآخرة بالإيمان .

ومثل الظلمات مثل الكفر . ومثل الرَّعد ما خُوِّفوا به من الوَعِيد . ومثل البَرْقِ الذى فى المطر مثَلُ الإيمان ، وهو النورُ الذى فى القرآن يهتدى الناسُ ببيان القرآنِ كما يَهْتَدِى الناسُ فى مثل تلك الليلة بالبرق . شَبَّه القرآن بالمطر ، وشبّه تخويف القرآن بالرعد.

مثل آخر قوله[٣] : (يَجْعَلُونَ أَصابِعَهم فى آذانِهم من الصَّواعق حَذَرَ المَوْتِ) . أَى من خوف الصَّوتِ مِنْ شدَّة الرَّعد ، هكذا مثَلُ المنافق إذا سمع قراءَةَ القرآن مِنْ مُحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلم ختم على

---

(١) الفلاة : القفر أو المفازة لاماء فيها .

(٢) فى حـ : قرى . والمثبت فى ا ، ب . والقر : البرد .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٩ .

أُذُنَيْهِ كراهةً له . بمنزلةِ الذى يجعلُ إصبعيه فى أُذنيه من شدّة الصاعقة حذَر الموت ؛ فالمنافِقُ يجعلُ إصبعيه فى أُذُنيه ، ولا يسمَعُ إلى صوتِ النبىّ صلّى الله عليه وسلم مخافةَ أَنْ يتّعِظَ به وتدخُلَ حلاوةُ قراءته فى قَلْبه .

مثـل الذين كفروا

مثَلُ[1] الذين كفَرُوا أَنَّ قلوبهم قاسيةٌ كالحجارة أو أشدّ قسوةً ، ثم وصف أَنَّ من الحجارة ماقد يخرج منها الرطوبة ، ويَهْبِطُ مِنْ خشية الله ؛ أى يخرُّ ساجِدا ؛ [والقلوبُ القاسيةُ لاتلين ، ولا ترطب ، ولا تخشع ، ولا تخرُّ ساجدةً][2] .

ومَثَل[3] الَّذين كفَرُوا كمَثَلِ الَّذى يَنْعِقُ بما لَايَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً ونِداءً . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لايَعْقِلُون ؛ أَى لايفهم معانى الكلام الذى يتّعِظُ به ، ليس له من معانى القرآن وكلامِ الخير إلا دورة[4] الكلام .

مثـل محمد صلى اللـه عليـه وسلم مع الكافر

يعنى مَثَلُ محمد صلَّى الله عليه وسلم مع الكافر كمَثَل الرَّاعِى

---

(١) البقرة — ٧٤ : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله) .

(٢) ليس فى ب ، ج (٣) سورة البقرة ، آية ١٧١

(٤) هذا فى ج . وفى ب : دروة . وفى ا : وردة . وفى القرطبى (٢ — ٢١٥) : قال الطبرى : ليس للناعق إلا النداء الذى يتعبه وينصبه .

مع البهيمة يَنْعِقُ الراعى بالبهيمة ؛ ولا تسمع إلاَّ دعاءً ونداءً ، أى تسمَعُ الصَّوتَ ولا تعقِلُ مايُقَال لها ، كذا الكافِرُ يسمَعُ مواعظَ القرآن ولا يعقِلُ كالبهيمة ، لا يَسْمَعُون [١] إلاَّ صوتًا .

ثم قال [٢] : صُمٌّ عن الحقِّ فلا يَسْمَعُون الهُدَى ؛ وبُكْمٌ ، أى خُرْس عن الكلام بالحق يتباكَمُونَ [٣] فلا يتكلمون بالهُدَى . عُمْى عن الحق لايُبْصِرون الهُدَى ، فهم لايعقِلُون ؛ يعنى لايعقلون مايقولُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، ولا يرغبون فى الحق ؛ وذلك لأَنَّ النَّبى صلى اللهُ عليه وسلم دعاهم إلى التوحيد ومواعظ القرآن حيث قال جلَّ ذِكْرُه [٤] : (وإذا قِيلَ لهم اتَّبِعُوا ما أَنْزَل اللهُ قالوا : بل نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنَا [٥] عليه آباءَنا) ؛ فقال جلَّ ذِكْرُه : قل أَوَلَوْ كان آباؤُهم لايَعْقِلُون شَيْئًا من الدين ، ولا يقرّون بوحدانية الله ، ولا يهتدون إلى سنَّةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم أَفتَتَّبِعونهم ؟

ثم ضرب لهم مثل البهيمة فى قوله عزَّ وجلَّ [٦] : (أَوْ كالَّذى مَرَّ على قَرْيَةٍ وهى خاوِيةٌ على عُرُوشها قال : أَنّى يُحْيِى هذه الله بعد

---

(١) هذا فى الأصول كلها .

(٢) الآية نفسها (١٧١) .

(٣) يتباكمون : يريد أنهم يظهرون أنهم غير قادرين على الكلام .

(٤) سورة البقرة ، آية ١٧٠

(٥) فى الأصول : ماوجدنا — تحريف . وألفينا : وجدنا .

(٦) سورة البقرة ، آية ٢٥٩

مَوْتِها ، فأَمَاتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعَثَهُ ، قال : كم لبثْتَ ؟ قال : لبثْتُ يومًا أَو بَعْضَ يَوْمٍ . قال : بل لبثْتَ مائةَ عامٍ فانْظُر إلى طَعامِك وشَرَابك لم يَتسَنَّهْ وانظر إلى حِمَارِكَ ولِنَجْعلَك آيةً للناس ، وانْظُر إلى العِظَام كيف نُنْشِزُها ثم نَكْسُوها لَحْمًا ، فلما تَبَيَّنَ لَه قال : أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ على كل شئ قَدِير) (١) .

فتحيرَّتْ نَفْسُه كيف يُحْيِي هذه الله بعد مَوْتِها فأَماتَهُ اللهُ مائةَ عام ، ثم بَعَثَهُ ، ثم أمره أن ينظرَ إلى حِماره كيف أَحْيَاه ، فأَراهُ بما حضره ماغاب عنه .

فى شأن الخليــل :

وقال فى شأْن الخليل صلوات الله عليه (٢) : (رَبِّ أَرِنِى كيْفَ تُحْيِى الموتى) . فَتَحَنَّنَ قَلْبُه إلى رُؤْية صنْع اللهِ ، فأَكرمه بالمُعَاينة لإحياء تلك الطيور . وقد كان مُوقِنًا بأَنَّه فاعل ، ولكنه حَنَّ قلبه إلى رؤية صُنْع ربوبيته ،فأَكرمه اللهُ بها (٣) . . حتى اطْمَأَنَّ قَلْبُه وسكن الحَنِين .

مثـل المنفـق ماله فى طاعة اللـه

مثل المُنْفِق مالَه فى طاعة الله تعالى [٤٥] قوله تعالى (٤) : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُون أَموالَهم فى سبيلِ اللهِ كمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ

(١) الذى مر على القرية هو عزير ، أو إرمياء ، وكان نبيا . (القرطبى : ٣-٢٨٩) .
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٦٠ (٣) بياض فى ا : مكانه فى ج : وطوى له .
(٤) سورة البقرة ، آية ٢٦١

سَنَابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حبّة ، واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ) . كذلك الذى يتصدق بماله لوَجْهِ الله تعالى . والله يضاعفُ لمن يشاءُ ؛ أىْ يضاعفُ له ثوابَه فى الآخرة بالتربية[١] من واحد إلى سبعمائة ، وإلى سبعمائة ألف ، وإلى ألفى ألْف إلى ماشاءَ الله من الإضعاف مما لا غايَة له . والله واسعٌ : يعنى جَوَادٌ بتلك الأَضعاف ؛ وأضعاف الصَّدقة عليهم بما نَوَوْا فيها .

ثم قال[٢] : (الَّذين يُنْفِقُون أَمْوالَهم فى سبيل الله ثم لا يُتْبِعُون ما أَنْفَقُوا مَنًّا) على الله (ولا أَذًى) لصاحبها ، أى الفقير. والمنُّ على الله ألاَّ يرى التوفيقَ منه ، فلَهُمْ أَجْرُهم عند ربِّهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون .

ثم ذكر مَثَل مَنْ يَمُنُّ على مَنْ يتصدَّق عليه بأَلاَّ يرى التوفيق من الله تعالى ، ويُؤْذِى الفقير ؛ فقال[٣] : مثَلُه كمَثَلِ الذى يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ[٤] الناس ، ولا يؤمنُ بالله واليوم الآخر ، يعنى لا يُصدِّقُ بالبعث الذى فيه جزاءُ الأعمال ؛ فهذا مُنْفِقٌ أنفقَ مالَه فأَبطل شِرْكهُ إنفاقَه وصدقتَه ، كما أَبطل المنُّ والأَذى صدقَة المؤمن .

---

(١) التربية : التغذية ، وهو يريد الزيادة والتنمية .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٦٢

(٣) سورة البقرة . آية ٢٦٤ . والآية : يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله . . .

(٤) رئاء الناس : ينفق ليقال جواد ، وليثنى عليه بأنواع الثناء .

ثم ذكر مَثَلَ نفقة المصدِّق بالبعث المحتسب بالإيتاء ، يريد بها وَجْهَ الله تعالى مِنْ غير مَنٍّ ولا أَذًى ، فقال[1] [٤٥] : ومَثَلُ الذين يُنْفِقُون أموالَهم ابْتِغَاءَ[2] مَرْضَاةِ الله وتَثْبِيتًا[3] من أَنْفُسِهِم ؛ أى تحقيقا وتصديقا من قلوبهم ، كمثل جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ[4] ، أى بستان فى بُقْعَة مُرتفعة طَيِّبة ، فأَصابها وَابِل ؛ أى المطر الشديد ، فآتت أُكُلَها[5] ضِعْفَين ، أى أخرجت ثَمَرها ضِعْفَين .

مثـل المـرائى والمشرك

ثم ذكر مَثَل[6] المُرَائى والمشرك كمَثَلِ صَفْوَان[7] عليه تُرَابٌ فأَصابهُ وابل : المطر الشديد ، فلا يَبْقَى من ذلك التُّرَاب على ذلك الصَّفا[8] شَيْءٌ ، كذلك صدَقَةُ المُشرك والمرائى الذى يمن ويُؤْذِى الفقيرَ لايَحْصُلُ له شَىْءٌ من الثواب يوم الجزاء .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٦٥

(٢) ابتغاء : طلب .

(٣) تثبيتا : أى يتثبتون أين يضعون صدقاتهم . أو تصديقا ، ويقينا ، واحتسابا من أنفسهم .

(٤) الجنة : البستان . الربوة : المكان المرتفع .

(٥) أكلها : الثمر الذى يؤكل .

(٦) سورة البقرة ، آية ٢٦٤ ، وهذه الآية قبل سابقتها ، والآية : ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان . . .

(٧) الصفوان : الحجر الكبير الأملس .

(٨) الصفاة : الحجر الصلد الضخم لاينبت ، وجمعه صفوات وصفا .

مثـل ما ينفقون فى هـذه الدنيـا

مثل سَفِلَة اليهودِ قوله تعالى[١] : مَثَلُ مايُنْفِقُونَ فى هذه الحياةِ الدنيا — يعنى سَفِلَة اليهودِ من الطعام والثمار على رؤسائهم وأحبارهم ؛ وهم كَعْب بن الأَشرف وأصحابُه ، يريدون بها الآخرة ، مثلهم كمَثَلِ رِيح فيها صِرٌّ[٢] — يعنى برد شديد ، أصابت الرِّيحُ الباردة حَرْثَ قومٍ ظلَمُوا أَنفسهم ، فأَهلكته ، وماظلمهم الله ، فلم يُبْقِ منه شيئا ، كذلك أهلك الله نفقة اليهودِ فلم تنفعهم نفقاتهم .

ويقال : مثَلُ ماينفقون فى هذه الحياةِ الدنيا فى غير طاعة الله تعالى — يعنى اليهود — وينفقون أموالَهم فى عداوة محمّد صلّى الله عليه وسلم ؛ ينفقون أموالَهم على أحبارهم ليَذُبُّوا[٣] عن دينهم ؛ ويعادُونَ محمّداً صلّى الله عليه وسلم كمثَل رِيح فيها صِرٌّ ، بَرْد ، وهو السَّمُوم ، أصابت زَرْعَ قومٍ ظلموا أَنْفُسهم لمَنْعِ حَقِّ اللهِ عليهم ، فأَحرقَتْهُ الرِّيحُ ، وما ظلمهم اللهُ بهلاك حَرْثهم ، ولكن كانوا أَنفسهم يظلمون بمَنْعِ حقِّ اللهِ سبحانه وتعالى عنه .

ويقال : هذا مثَلٌ فى شَأْن الكفار ، قال : مثل نَفَقَتِهم فى أعمال

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١١٧ ، والآية : مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

(٢) صر : برد شديد ، أو صوت الريح الشديدة .   (٣) يذبوا : يدافعوا .

الخير كمثل رِيح فيها صِرّ ، أى برد ؛ لأنَّ قلوبَهم خلَتْ عن حرارة نُورِ الإيمان ، فماتت عن الله تعالى وبردت . فذلك البَرْدُ أهلك أعمالَهم الحسنَة ، فلم يُقبل منها شئ ؛ لأنها صارت إلى الله بلا حرارة من نور التوحيد ونور الحياة بالإيمان .

أَلَا ترى أَنَّ الميتَ إذا خرج منه الرّوحُ والنفَس كيف يبرد ويَجْمُدُ الذى فيه من الدّم .

وضرب فيهم مَثَلا آخر فى سورة إبراهيم عليه السلام ، فقال[1] : (مَثَلُ الَّذينَ كفَرُوا بربِّهم أعمالُهم كرَمَادٍ اشتدَّتْ به الرّيحُ فى يَوْمٍ عاصِفٍ) ، فلم يَرَوا منه شيئا من ذلك التراب .

كذا الكفَّار لايَقْدِرون على ثواب شيء مما عملوا فى الدنيا ، ولا يَنْفَعهم ؛ لأنهم اتَّخَذُوا أهواءهم آلهةً من دون الله ، وعملوا بأهوائهم لا بِنُور الإيمان ، فجاءت رِيحُ الهوى فذَرَتْه فى النار .

مثل الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها

مثَلُ[2] الذى آتَيْنَاه آياتنا فانْسَلَخَ منها فمثَلُه كمثَل الكَلْب

(١) سورة إبراهيم ، آية ١٨ ، والآية : مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد.

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٧٥ ، ١٧٦ . والآيتان : واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .

إنْ تحملْ عليه يلْهَثْ أَو تتركه يلهث[١] ؛ وذلك[٢] لأنَّ الكلب مَيِّت الفُؤاد من بين السباع ؛ وذلك فيما رُوِى لنا عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : لما أُهبط آدمُ عليه السلام إلى الأَرض وَسْوَس العدوُّ إلى السِّبَاع إنَّ هذا عدوّ لكم فاقتلوه ،جاءت الوحوش فاحتَوَشَتْه[٣] واجتمعوا عليه ؛ وجاء العدّو فَأَشْلَى[٤] الكَلْبَ حتى ينبح ، فأَوّل مَنْ حمل عليه الكلب ؛ فتخوّف آدَمُ عليه السلام فنُودى أَن يا آدم لاتَخَفْ. فأُعطى العصا الذي[٥] لموسى عليه السلام فضربه بذلك ؛ فذلَّله وهزمه[٦] ، ثم أُمر بأَن يمسح يده على رَأْسِه فأَلِفَه به وبوَلده بعد التذلّل ؛ ثم أَشْلَاه على السباع ، فحمل عليها معادِيًا لها إلى يوم القيامة ، وصار يحرسهم ويصطادلهم . فلما وصل إليه سلطانُ العصا [الذى][٧] جُعل فيها صار الكَلْبُ ميّت الفؤاد فبَقِى فيه

(١) انسلخ منها : نزع منه العلم الذى كان يعلمه . فاتبعه الشيطان : لحق به . ولهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .

(٢) والقرطبى (٧ — ٣٢٣) ، وقد نسب هذا الكلام إلى الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول .

(٣) احتوش القوم الصيد : أنفره بعضهم على بعض ، وعلى فلان : جعلوه وسطهم .

(٤) الإشلاء : الإغراء .

(٥) فى الأصول كلها : الذى ،وفى القرطبى : فنزل جبريل بالعصا التى صرفت إلى موسى بمدين .

(٦) فى ب : وهربه .

(٧) من ج .

اللَّهث إلى يوم القيامة . حمَلْتَ عليه أو لم تَحْمِلْ ، فلم تزل تلك العَصَا فى حفْظِ الله تتداولها الأَيْدِى إلى وقْتِ موسى عليه السلام .

ويقال : كانت تلك العصا مِنْ آسِ الجنة [١] ، فذلك الذى آتاهُ الله من الكرامة مالو أَراد أَنْ يَصْرِفَها إلى الآخرة لحصل له ذلك ؛ لقوله تعالى [٢] : ولو شِئْنَا لرَفَعْنَاه [٣] بها ؛ أى لو صرفها إلى الآخرة آتيناه ذلك ، ولكنه أَخْلَد [٤] إلى الأَرض ، صرفها فى وُجوهِ الدُّنيا التى هى للفناء ، وركب الهوى ، وقصد إلى كليمنا ، كما قصد الكَلْبُ إلى صَفيِّنا ؛ فصار مَثَله مثل الكلب ؛ فمعنى قوله : مَثَلُه كمَثَلِ الكَلْب ؛ أى إن هذا الذى صار كَلْبًا وهو بلعم [٥] إنْ رأى آياتنا وعِبَرنا لم يَتَّعِظ ، وإن لم ير لم يَتَّعِظ ؛ لأنه انسلخ مما آتيناه .

مثـــل الحياة الدنيـــا

وقال [٦] : (إنما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزَلْنَاهُ من السماء فاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأَرض [٧] مما يأْكل الناسُ والأَنعامُ حتى إذا أَخَذَت

---

(١) والقرطبى : ٧ — ٣٢٣

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٧٦

(٣) لرفعناه : يريد بلعام بن باعوراء .

(٤) أخلد إلى الأرض : ركن إليها وسكن إلى لذاتها .

(٥) هو بلعام .

(٦) سورة يونس ، آية ٢٤

(٧) اختلط به نبات الأرض : اختلط النبات بالمطر ؛ أى شرب منه فتندى وحسن واخضر .

الأَرضُ زُخْرُفَها[١] وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهلُها أَنهم قادرونَ[٢] عليها أَتاها أَمْرُنا[٣] ليلاً أو نَهارا ، فجعلناها حَصِيدًا[٤] كأَنْ لم[٥] تَغْنَ بالأَمْسِ ، كذلك نفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكَّرُون) .

فأَراهم اللهُ عاقبةَ أَمْرِ الدنيا وفَنائِها بما عايَنُوا من انقضاءِ أَيام الربيع كيف تلاشت زِينتُها وبَهْجتُها ، كذا حال زينةِ الدنيا .

وقال فى شأْن الرؤيا من أَمر الكواكب والشمس والقمر ، فهى شعبة من هذا ،وَأُرِيها فى منامه ،وضرب له شأْن الآخرة بالكواكب والشمس والقمر مثلا : (وكُلاًّ[٦] نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسل مانُثَبِّتُ به فُؤَادَك) .

فإذا كانت الأَخبارُ المتقادمة فيها تثبيتٌ للفؤاد كان فيما أَراك اللهُ بِبَصَرِ رَأْسِكَ وسَمْعِ أُذُنِك ماله تثبيتٌ للفؤاد .

وقال فى شأْن داود صلَّى الله عليه وسلَّم من قول الملكين[٧] :

---

(١) زخرفها : زينتها وحسنها .

(٢) قادرون عليها : على حصادها والانتفاع بها .

(٣) أمرنا : عذابنا ، أو أمرنا بهلاكها .

(٤) حصيدا : محصودة مقطوعة لاشئ فيها .

(٥) كأن لم تغن بالأمس : أى كأنها لم تكن عامرة .

(٦) سورة هود ، آية ١٢٠

(٧) سورة ص ، آية ٢٣

(إنَّ هذا أخي له تِسْعٌ وتِسْعُون نعجةً ولي نعجةٌ واحدة ، فقال: **أَكْفِلْنيها** وعَزَّني في الخطاب[1]) . يُعَرِّفه قُبْحَ ما أتاه .

مثـــل المـــاء الذى جرى فى الأودية

وضرب الله مثلا ليُبيِّن الحقَّ من الباطل فقال[2] : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فسالَتْ أَوْدِيةٌ بقَدَرِها[3] فاحتمل السَّيْلُ زَبَدًا رابيًا[4] ومِمَّا يُوقدِونَ عليه في النار ابتغاءَ حِلْيَة أَو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه ، كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأَما الزَّبَدُ فيذهبُ جُفَاءً[5] وأما ماينفع النَّاسَ فيمكُثُ في الأَرض كذلك يضربُ الله الأَمثال) .

فالحقُّ مثلُ الماءِ الذى جرى في الأَوْدِيَة. فسالت أوديةٌ بقدَرِها ؛ أي اختلط الحقُّ بالباطل ، لأَن النَّفْس جاءَت بأَباطِيلها ومُنَاها وشهواتها التى هى إلى فناءٍ ، فمنَّتها فاغترَّبها القَلْب ، والحق لايَفْنَى ولا يَبْلى . فقوله : أنزل من السماءِ ماءً ؛ أى القرآن ؛ شبَّه القرآن بالماءِ ، لأَنَّ فيه منفعةَ الدِّين من الأَحكام والشرائِع ، كما أَنَّ في المطر منفعة الدنيا ، ثم شبَّه القلوبَ بالأَودية

(١) أكفلنيها : انزل لى عنها حتى أكفلها . وقال ابن عباس : أعطنيها وتحول لى عنها . عزنى فى الخطاب : غلبنى .

(٢) سورة الرعد ، آية ١٧

(٣) بقدرها : بقدر ملئها .

(٤) زبدا رابيا : طالعا عاليا مرتفعا .

(٥) الجفاء : ماأجفاه الوادى ؛ أى رمى به .

لأنه وجد النُّورُ فى القلب مَنْفذًا ومجازًا ، كما وجد الماءُ فى هذه الأَودية منفذًا ومَجَازًا . ثم شبَّه القلوبَ بالسَّيل ،وشَبَّهَ الباطلَ بالزَّبَدِ الذى يَعْلُو فَوْقَ الماء ؛ فكلُّ قلب لم يتفكَّر ولم يَعْتَبر . ولم يَرْغَب فى الحق خذَله اللهُ تعالى ، ووجدت الظلمةُ والْهوَى فى قلبه مَنْفَذًا ومجازا ، كما أَنَّ السيلَ وجد فى الأَوْدِية مَنْفَذا ومجازا ، فلما خُذل هذا القلبُ احتمل الباطلَ كما احتمل السيلُ الزَّبَد الرابى . وإذا وَجَد القلبُ التوفيقَ فتفكَّر واعتبر احتمل الحقَّ كما انتفع الناسُ من الماءِ الصافى ؛ ثم وصف الحقَّ والباطل لصاحبهما فقال : فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ [٤٦] جُفَاءً - يعنى تَذْهبُ منفعتُه ، كذا الباطل تَذْهَبُ منفعتهُ على صاحبه فى الدنيا والآخرة . وأَمّا ماينفع الناسَ فيمكثُ فى الأَرض ؛ وهو الماءُ الصَّافى . كذلك الحقّ : شبّه الحقَّ بالماءِ الصَّافى ؛ لأَنه تَبْقَى منفعتُه لصاحبه فى الدنيا والآخرة كما يبقَى الماءُ لمن أَخذه .

مثـل الكافر إذا دعا

ومَثَل[١] الكافر إذا دَعَا كباسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وما هو ببالغه ؛ أَى لايُستَجابُ دعاءُ الكافر كما لايَبْلغ الماءَ الذى بَسطَ

(١) سورة الرعد ، آية ١٤ ، والآية : له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال .

له دعوة الحق : لله دعوة الصدق . وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق ؛ وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ، فإنه لايدعى فيه إلا إياه . لايستجيبون لهم بشئ : لايستجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء .

كفَّيْه . لقوله تعالى : (وما دُعَاءُ الكافِرين إلا فى ضَلال) ؛ أى إلا فى باطل .

مثــل كلمة طيبــة

وقال [١] : **ومثَلُ** كَلِمةٍ طَيِّبَةٍ كشجَرَةٍ طَيِّبَة ؛ وهى كلمةُ الشهادةِ [٢] ، طابَتْ واستنارت ، وتفرَّعَت بالأعمال الصَّالحة ، وكلمة الشِّركِ كشجرة خَبِيثة [٣] ، وهى الحنظلةُ [٤] ، ليس لها قرار ولا قائمة ، فهى ساقطةٌ بالأَرض.

مثــل أعمــال الــكفار

وقال [٥] : مَثَلُ أعمالِ الكفارِ كرَمَاد اشتدَّتْ به الرِّيحُ فى يوم عاصفٍ . فالكفَّار اتخذوا أَهْواءَهم آلهةً مِنْ دون اللهِ ، وعملوا بأَهوائهم ؛ فجاءَت رِيحُ الأَهواءِ فذَرته فى النار .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٢٤ ، ٢٥ . والآيتان : ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون .

(٢) فى القرطبى : قال ابن عباس: الكلمة الطيبة لاإله إلا الله، والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد : الكلمة الطيبة الإيمان (٩ — ٣٥٩) .

(٣) سورة إبراهيم، آية ٢٦ : وهى : ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

(٤) فى القرطبى : الكلمة الخبيثة كلمة الكفر ، والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل .

(٥) سورة إبراهيم ، آية ١٨

والآية : مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شئ ، ذلك هو الضلال البعيد .

وقال فيمن افترى على الله كذبا [١] : (ويَجْعَلُون لله البناتِ سبحانَهُ ولهم مايَشْتَهُونَ) .

أى إن كنتم لاتَرْضَوْن لأَنفسكم البنات وتُؤْثِرُون لأَنفسكم البنين فكيف نَسَبْتُم إلىّ مالا تَرْضَون لأَنفسكم .

وقال [٢] : (ومَنْ يُشْرِكْ بالله فكأَنما خَرَّ من السَّماءِ فتَخْطَفَه الطَّيْرُ أَو تَهْوى به الرِّيحُ فى مَكَانٍ سَحِيقٍ [٣]) ؛ فإذا أَشرك بالله فقد سقَط عند الله ، وبَرِئَ اللهُ منه ، فاختطفه العَدُوُّ ، وهَوَى به رِيحُ الهوى إلى قَعْرِ النار .

مثل الوثن الذى يعبدونه من دون الله

ومثَل الوَثَن الذى يعبدونه من دُونِ الله كمثل عبد مملوك لايَقْدِرُ على دانق ولا حبَّة قوله تعالى [٤] : (ضرَبَ اللهُ مثلا عَبْدًا مَمْلوكا لايَقْدِرُ على شَيْءٍ ومَنْ رزَقْنَاهُ مِنَّا رزْقًا حسَنًا ، فهو يُنْفِقُ منه سِرًّا وجَهْرًا ، هل يستوون ، الحمدُ لله ، بل أَكثَرهُم لايعلمون [٥]). قال : فكيف سوَّيْتُمُوه بى و أَنا الرازقُ أُنْفِقُ عليكم .

---

(١) سورة النحل ، آية ٥٧

(٢) سورة الحج ، آية ٣١

(٣) فى القرطبى : تخطفه الطير : تقطعه بمخالبها . سحيق : بعيد .

(٤) سورة النحل ، آية ٧٥

(٥) عبدا مملوكا ... : أى كما لايستوى عندكم عبد مملوك لايقدر من أمره على شئ ورجل حر قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام .

وضرب مثلا آخر . فقال[١] : (وضرب الله مَثَلاً رجُلَيْن أحَدُهما أبْكَمُ لايَقْدِر على شئ وهو كَلٌّ[٢] على مَوْلاه أيْنَما يُوَجِّهْه لايَأْتِ بخير ، هل يستوى هو ومَنْ يأْمُرُ بالعَدْلِ وهو على صراط مستقيم) ، كيف عدلتمونى فى العبادة وأنا لَسْتُ بأَبْكم ، خلقتُكم بكلمة واحدة ، وأقدرتكم مِنْ قُدْرتى على دُنيا محشوَّة بالنعم ، أعُولُكم وأُطعمكم ولا تطعمونى . وهذه الآية والآية التى قبلها قد ذكرنا مَعَانيهما فى مَوْضعٍ آخر وسطَّرناهما .

مثـــل ناقض العهـــد

وضربَ اللهُ فى ناقض العَهْدِ مثلا ، فقال[٣] : (ولاتَكُونُوا كالَّتى نَقَضَتْ غَزْلَها من بعد قُوّة أَنْكاثا تَتَّخِذُونَ أيمانَكم دَخَلاً بينكم أَنْ تكونَ أُمّةٌ هى أَرْبَى من أُمة إنما يَبْلُوكمُ اللهُ به ولَيُبَيِّنَن لكم يَوْمَ القيامةِ ما كنتم فيه تختلفون[٤]) ، فقال : مثل الذى نقض العَهْدَ كمثل الغَزْل التى نقضت تلك المرأة الحمقاءُ .

كان لعمرو بن كعب بن سعد بنتٌ تسمَّى رَيْطة ، وكانت

---

(١) سورة النحل ، آية ٧٦

(٢) كل على مولاه : ثقل على وليه وقرابته .

(٣) سورة النحل ، آية ٩٢

(٤) فى القرطبى (١٠ — ١٧١) :

شبهت هذه الآية الذى يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله فتلا محكما ثم تحله . دخلا : الدخل : الخديعة والغش . أربى : أكثر .

إذا غزلت الصوفَ أَوشيئاً آخر نقضته لحُمْقها ، فقال : ولاتَنْقضوا ؛ أَى لاتنكثوا العُهودَ بعد توكيدها كما نقضت تلك الحمقاءُ غَزْلها من بعد قُوة : من بعد إبرامه . أنكاثا : يعنى نَقْضًا ، فلا هو غَزْل تَنْتَفِعُ به ولاصوف يُنْتَفع به ، فكذا الذى يُعْطِى العهد ثم ينقضُه لاهو وَفى بالعَهْد إذا أَعطاه ولا هو ترك العَهْد فلم يُعطه .

وضرب مثلا آخر لناقض العهد ، فقال[1] : (ولاتَتَّخِذُوا أَيْمَانَكم دَخَلاً بينكم فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثبوتها وتَذُوقوا[2] السُّوءَ بما صَدَدْتم عن سبيلِ اللهِ ولكُمْ عذابٌ عَظيمٌ) ؛ أَى[3] عهودكم بالمكر والخديعة . فَتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها : يَقولُ إنَّ ناقضَ العهد يَزِلُّ فى دِينه عن الطاعة كما تَزِلُّ قَدَمُ الرّجل بعد الاستقامة .

مثل لأصنام أهل مكة

وضرب مثلا لأَصنام أَهْلِ مكَّة ، فقال[4] : (يأَيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا له إنَّ الَّذين تَدْعونَ من دُونِ اللهِ لن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ولو اجتمعوا له وإنْ يَسْلُبهم الذُّبابُ شيئًا لايَسْتَنْقِذونَه منه ضعفَ الطالِبُ والمطلوب[5]) .

---

(١) سورة النحل ، آية : ٩٤

(٢) ذوق السوء فى الدنيا : مايحل بهم من المكروه .

(٣) عهودكم : تفسير لقوله : أيمانكم .

(٤) سورة الحج ، آية ٧٣

(٥) الاستنقاذ ، والإنقاذ : التخليص .

قال : أراهم الله ضَعْفَ الذُّبَابِ وعَجْزَه عن القُدْرةِ ليَعْلَمُوا عَجْزَ أصنامِهم التى لاتتحرَّكُ وليس فيها حياة ـ أنها أقل وأضعفُ غياثا عن الذُّباب ، فكيف تكونُ شريكةً للقادر ؟

وقال[1] : (لَوْ كَانَ فيهما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فسُبْحَان اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُون) ، يُرِيهم أنَّ الشركاء يتزاحَمُونَ ويتفاوَتُون بأهوائهم وإراداتهم ، فلو كان لى شُركاءُ كما تزعمون لفسد التدبير ولزالَتَا. وقال[2] : (إذًا لذَهَبَ كلُّ إِلَهٍ بِما خَلَقَ ولَعَلاَ بَعْضُهم على بَعْض).

مثل قلب المؤمن وأعماله وقلب الكافر وأعماله

وضرب مثلاً لقَلْبِ المؤمن وأعماله وقَلْبِ الكافر وأعماله ؛ فقال[3] : (اللهُ نُورُ السَّموات والأَرْضِ مَثَلُ نُورِه كَمِشْكَاة فيها مِصْباحٌ ،المِصْبَاحُ فى زُجَاجَةٍ ،الزُّجاجَةُ كأَنَّها كَوْكبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرةٍ مُبَاركَةٍ زَيْتُونَةٍ لاشَرْقيَّةٍ ولا غَرْبيَّةٍ يكادُ زَيْتُها يُضِىءُ ولولم تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُور على نورٍ ، يَهْدِى الله لنُوره مَنْ يَشاءُ ويَضْربُ الله الأَمْثَالَ للناسِ ، واللهُ بكلِّ شَىءٍ عَليمٌ[4]) .

(١) سورة الأنبياء ، آية ٢٢ (٢) سورة المؤمنون ، آية ٩١

(٣) سورة النور ، آية ٣٥

(٤) المشكاة : الخرق فى الحائط .وقيل : عمود القنديل الذى فيه الفتيلة . وقال مجاهد: هى القنديل. لاشرقية ولا غربية : الشرقية التى تصيبها الشمس إذا شرقت ، ولا تصيبها إذا غربت ، والغربية عكسها ؛ أى إنها شجرة فى صحراء ومنكشف من الأرض، لايواريها عن الشمس شئ ، وهو أجود لزيتها ؛ فليست خالصة للشرق ؛ فتسمى شرقية ، ولا للغرب فتسمى غربية ؛ بل هى شرقية غربية .

ضرب المثلَ لنورِه فى قَلبِ المُؤْمِن ليُعْلِمَه قدْرَه ومَنْزلتَه ؛ فدلَّه بالحاضرعلَى ما أَعدَّ له فى الآجِل ؛ فنَفْسُ المؤمِن مِثْلُ بَيْتٍ ، وقَلْبُه مثلُ قِنْديل ، ومعرفتُه مثلُ السِّرَاج ، وفَمُه مِثْلُ الباب ، ولسانُه مثل المِفْتَاح . والقِنديلُ معَلَّقٌ فيه دُهْنُها من اليَقِين ، والفَتيلةُ من الزُّهد ، وزُجاجُها من الرضا ، وعلائقها من العَقْل ؛ إذا فتح المؤمنُ لسانَه بإقرار مافى قلبه ؛ فاستضاء المِصْباحُ مِنْ كُوَّتِه [1] إلى عَرْش الله تعَالى ؛ فكلامُه نورٌ ، وعمَلُه نور ، وظاهرُه نور ، وباطنُه نور ، ومَدْخله فى الأَعمال نُور ، ومَخْرَجه منها نُور ، ومَصِيره يوم القيامة إلى النور .

مثــل أعمال الكفرة

وقال [2] : مثَلُ أَعمالِ الكفَرة كالسَّراب الذى يَحْسَبُه الظَّمآنُ [3] ماءً . حتى إذا قدم عليه غدًا أَكذبه [4] أُمْنيته ، وساقَهُ عَطْشَانَ [5]

(١) الكوة — بفتح الكاف وبضمها : الخرق فى الحائط .

(٢) سورة النور ، آية ٣٩ ، ٤٠ ، والآيتان : والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور .

(٣) السراب : ما يرى نصف النهار فى اشتداد الحر كالماء فى المفازة يلتصق بالأرض . يحسبه : يظنه . الظمآن : العطشان .

(٤) فى ج : كذبه . والمثبت فى ا ، ب .

(٥) فى ج : عطشانا .

إلى النار ؛ وهو قوله تعالى[1] : (فوفَّاهُ حِسابَه) ؛ مستعدًّا لعذابه ، ويُجَازِيه بِعمله .

ظلمات[2] بعضُها فَوْقَ بعض : ضرب مثل صَدْرِه وقَلْبه وعمله بظلمة البحر والمَوْج والسحاب ؛ فالبَحْرُ قَلْبُه المُظْلِمُ والمُتَحَيِّر ، والمَوْج[3] شِركه ، والسَّحاب أعماله السَّيئة ؛ إذا أخرج يَدَهُ لم يَكَدْ يَرَاهَا ؛ أى لم يَرَهَا [هو][4] البتَّة . ولم يكد ؛ أىْ ولم يكد أنْ يَرَاها ؛ فكذا قَلْبُ الكافرِ مُظْلِمٌ فى صَدْرٍ مُظْلم ، فى جسدٍ مظلم ، لايُبْصر نُورَ الإيمانِ ، ولم يُرِد أن يراهُ .

ويقال : سَمْعُه ظُلْمَة ، وبَصَرُه ظُلْمَة ، ولسانُه ظُلْمة ، وقَلْبُه ظُلْمَة ؛ فذلكَ قولُه تعالى[2] : ظلماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْض . ومَنْ لم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فما لَهُ مِنْ نُور .

مثــل بيت العنكبوت

ثم ضرب مَثَلا آخر للكافر ؛ فقال[5] : (مثل الذين اتخذوا من دونِ اللهِ أولياءَ كَمثَلِ العَنْكَبُوت اتَّخذَتْ بَيْتًا) .

قوله : اتَّخَذُوا ؛ أى عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ أولياءَ ؛ أى بالربوبية ،

---

(١) من الآية ٣٩ من سورة النور .
(٢) من الآية ٤٠ من سورة النور ، وقد تقدمت كاملة .
(٣) فى ج : والمورد .
(٤) من هامش (ب) .
(٥) سورة العنكبوت ، آية ٤١ : والآية : مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

لايَنْفَعهم فى الآخرة ، كما لايَنْفَعُ بيتُ العنكبوت العنكبوتَ فى حَرٍّ ولا قُرٍّ[1] ؛ فكذا ضعف الصَّنَم ؛ ثم قال : وإنَّ أَوْهَنَ[2] البيوتِ لبَيْتُ العنكبوت لايستر ، ولا ينفعُ ، ولا يَدْفَعُ حَرّاً ولا بَرْدًا ؛ كذا كل معبود دُونه ؛ أى إن الكافر عارٍ[3] عن ستر اللهِ يخرُج إلى الله عاريًا فلا يكسى ، وتَبْدُو فَضائحُه وقبائحه على رُءُوس الأَشهاد .

مثـل الشرك

وضرب مثلاً آخرَ للشرك ؛ قال[4] : (ضربَ لَـكُمْ مثلاً مِنْ أَنْفُسِكم هل لكم مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكم مِنْ شُرَكاءَ فيما رَزَقْنَاكم فأَنتم فيه سواءٌ تخافُونَهم كخِيفَتِكم أَنفُسكم كذلكَ نفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يَعْقِلُون) . معناه : هل أَنتم تجعلونَ عَبِيدَكم شُركاءَ فيما أَعطيناكم ؛ فأَنتم فيه سواءٌ . تخافُونَهم ؛ أَى تخافونَ مِنْ لائمة عَبِيدِكم إِنْ لم تشاركوهم فى أَمْوَالكم [٤٧] كخِيفتكم أَنْفُسَكم ؛ أَى كلائمةِ أَهلِ الميراث من الأَولاد والقرابات إن لم يُعْطُوا الميراثَ .

معناه لايخافُ المخلوقُ من شركة عَبْدِه فى ماله فى حياته وبَعْدَ مماته ، كما يخافُ من أَهله و أَولاده وقَرَابته ؛ فكذا جميع الخلائقِ عبيدُهُ ، وإماؤه ، لايخافُ منهم الشَّرِكةَ فى مُلْكِه .

---

(١) القر : البرد .

(٢) أوهن البيوت : أضعف البيوت .

(٣) فى ج : عارى .

(٤) سورة الروم ، آية ٢٨

مثــل المشرك

وضرب مثلا آخر لأهل الشرك ، فقال[1] : (ضَرَبَ اللهُ مثلاً رجُلاً فيه شُركاءُ مُتَشَاكِسُونَ ورَجُلا سَلَمًا لرجُلٍ ، هل يَسْتَوِيان مَثَلاً ، الحَمْدُ لله ، بل أكثَرُهُم لايعلمون[2]) .

فالموَحِّدُ أَسْلَم وجْهَهُ لِلهِ وَحْدَه ، والمشركُ أسلم وجهه لأرباب متفرِّقين ، فكيف حالُه فى الدنيا فى بَعث عبوديته[3] لهم ؟ وكيف حالُه فى الآخرة ؛ فهو و أربابُه فى النار .

مثــل المنافقين

مَثَلُ[4] المنافقين[5] مع بنى قُرَيْظَة وبَيْعَتهم إياهم كمثل الشيطان مع برصيصا[6] ؛ إذ قال للإنسان : اكفُرْ ، فلمّا كفر قال

(١) سورة الزمر ، آية ٢٩

(٢) متشاكسون : مختلفون . ورجلا سلما : خالصا لسيد واحد ؛ وهو مثل من من يعبد الله وحده. هل يستويان مثلا : هذا الذى يخدم جماعة شركاء، أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، لايلقاه رجل إلا جره واستخدمه ، فهو يلقى منهم العناء والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لايرضى واحدا منهم بخدمته لـكثرة الحقوق فى رقبته ، والذى يخدم واحدا لاينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم ؟

(٣) فى الأصول : عبودته ، وهى بمعنى عبودية .

(٤) سورة الحشر ، آية ١٦ ، والآية : كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين .

(٥) فى القرطبى (١٨ — ٣٧) : هذا ضرب مثل للمنافقين واليهود فى تخاذلهم وعدم الوفاء فى نصرتهم .

(٦) والقرطبى : (١٨ — ٣٧) .

الشيطان له : إني بَرِيءٌ منكَ : تَبرأ منه - تبايَعُوا مع يهود بني قريظة إنّا معكم للقتال على محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، فلما آلَ الأَمْرُ إلى القتال تبرّءُوا منهم ، وعاقبةُ الكُلِّ فى النارِ كعاقبة الّذين [1] فى النار .

مثـل الذين حملوا التـوراة

وقال [2] : (مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثم لم يَحْمِلُوها كمثل الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسفارًا [3]) .

شبَّه اليهودَ بالحُمُر ؛ لأنهم تَحمَّلوا دراسةَ التوراةِ ، وتركوا العملَ بها ، فأَتعبوا أبدانَهم ، ولم يَنْتَفِعوا بها .

فهذه الأَمثال نموذجات ماغاب عن العين والأَسماع لِتُدرِكَ النفوسُ ما أَدركَتْ عيانا لما أُنْبِئَ .

الأمثـال من الأخبـار

ومافى الأَخبار مِنْ ضَرْبِ الأَمثالِ أَكثر مِنْ أَنْ يُحْصى ، نذكر بعضها :

قال : حدثنا سفيان ، حدَّثنيه أبو الزَّعْراءِ عَمْرو بن عَمرو ، وسمعه ابن عمه ، أَى الأَحوص ، عن أَبيه ، عن رسولِ الله صلَّى الله

(١) فى الأصول : اللذين .

(٢) سورة الجمعة ، آية ٥ ، والآية : مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لايهدى القوم الظالمين ؛

(٣) السفر : الكتاب الكبير ، أو جزء من أجزاء التوراة .

عليه وسلَّم ، قال[١] : أرأيتَ لو كان لكَ عَبْدَان أحدهما يكذبك ويخونُك ولا يصدقك ، والآخر لايكذبك ولا يَخُونك ويصدقك ؛ أيُّهما أحبُّ إليك ؟ قلتُ : الذى لايكذبنى ولا يخوننى ويصدقنى. قال: فكذلك أنْتُم عَبِيدُ ربِّكم ، أرأيتَ لو كان لك إبل[٢] ؛ فجدعْتَ هذه ، فقلت صَرْماء[٣] ، وتشقّ هذه وتقول بَحِيرة[٤] ، فساعِدُ اللهِ أشدُّ ، ومُوسَاهُ أَحَدّ ، لو شاء أنْ يأْتيكَ بها صَرْماءَ فَعَلَ .

عن عُثمان رضى الله عنه قال: قَيِّدُوا العلْمَ. قلنا : وما تَقْيِيدُه ؟ قال : تعلَّمُوه وعَلِّموه واستَنْسِخُوه ؛ فإنه يُوشكُ أنْ يَذْهبَ العلماءُ ويَبْقَى القُرَّاءُ لايجاوِزُ قراءةَ أحدهم تَرَاقيه[٥] .

مثل العالم

ومنها : قال عليه السلام : إنما مَثَل العالم كمَثَل ينبوع من ماء يسقِي بلدَه ومَنْ مَرَّ به ، كذا العالم ينتفِعُ به أَهْلُ بلده ومن مرَّ به .

مثل الرسول فى الدعوة

ومنها : قال عليه السلام : مَثَلِى فى الدَّعْوة مثلُ سيِّد بَنَى دارا ،

(١) الفائق : ٢ — ٢٠ (٢) فى الأصول : إبلا .

(٣) فى الفائق واللسان : صرم . وهو جمع صريمة ؛ وهى التى صرمت أذنها ، أى قطعت .

(٤) البحيرة : التى بحرت أذنها ؛ أى شقت .

(٥) تراقيه : جمع ترقوة ، وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق ، وهما ترقوتان من الجانبين (النهاية) .

واتخذَ مَأْدبة ، وبعثَ دَاعيًا يَدْعو إلى مَأْدبته فى داره ، فالسّيدُ هو اللهُ تعالى ، والمأْدُبةُ الجنة ، والداعى أنا .

مثل الآدمى ومثل الموت

ومنها قال عليه السلام[1] :مَثَلُ الآدَمِىّ ومثَل الموتِ كمثل رجُلٍ له ثلاثةٌ من الخلاَّن ؛ فقال أَحدُهم له : هذا مالى فخُذْ مِنْهُ ماشئْتَ ، و أَعْطِ منه ماشئْتَ ، ودَعْ ماشئت .

وقال الآخر : أَنا معكَ أَحملك لى مادمْتَ حيًّا ، فإذا متَّ تركتُك .

وقال الثالث : أَنا معك أَدخل معك ، و أَخرجُ معك متَّ أو حَيِيت .

فالأَوَّلُ ماله . والثانى عَشيرتهُ . والثالث عَمَلُه حيثما كان فهو معه .

مثـل القــرآن

ومنها ماروَى نافع عن ابن عمر رضِىَ الله عنهما[2] : مثَل القرآن[3] مثل الإبِلِ المعَقَّلة[4] إنْ عقلها صاحبُها أَمسكها عليه ، وإن أَرسلها مِنْ عُقلها ذهبت .

(١) وانظر الإصابة : ٤ — ٢١٨

(٢) صحيح مسلم : ٥٤٣

(٣) فى صحيح مسلم : إنما مثل صاحب القرآن .

(٤) المعقلة : المشدودة بعقال ، أى حبل .

مثل من لعب الميسر

ومنها قوله عليه السلام : مثل مَنْ لَعِبَ المَيْسر ثم قام يصلى كمثل الذى يتوضّأُ بالقَيْح ودَمِ الخنزير ثم قام فصلّى ، فيقول : قد يقبلُ اللهُ صلاَتَه .

مثــل قارىء القــرآن

ومنها قوله صلّى الله عليه وسلّم : مَثَلُ القرآن مثل جِرابٍ فيه مِسْكٌ قد ربط فمهُ ، فإن فتحة فاح ريحُ المسك ، وإنْ تركه مربوطا كان مِسْكا موضوعًا ؛ فإن قرأْت القرآن وإلاّ فهو فى صَدْرِك .

وقال صلّى الله عليه وسلم أيضا [1] : مَثَلُ المُؤْمنِ الذى يَقْرأُ القرآن كمثل الأُتْرُجّة [2] ، طعمُها طيّب ، وريحُها طيّب . ومثل المؤمن الذى لايَقْرَأُ القرآنَ كمثل التَّمْرةِ طَعْمُها طيِّب ولا رِيحَ لها .

مثــل المنافق القارىء للقرآن وغير القارىء له

ومَثَل المنافق الذى يَقْرَأُ القرآنَ كمثل الرَّيْحَانَةِ ريحُها طيِّبٌ وطعمها مرّ . ومَثَلُ المنافق الذى لايَقْرَأُ القرآن كمثل الحَنْظَلةِ ، طَعْمُها مُرٌّ ولا رِيح لها .

مثــل الــكافر

ومثَل الكافر كشجرةٍ خَبِيثة طَعْمُها مُرٌّ خبيث لاخَيْرَ ولا أَصل ، اجْتُثَّت ؛ أى انْتُزِعت من فوق الأَرض مالها من قَرَار ؛ أى من أَصل ،

(١) صحيح مسلم : ٥٤٩ ، وسنن النسائى : ١٠٨

(٢) الأترجة : ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون، يشبه البطيخ .

بِأَدْنَى رِيح تقَعُ على وَجْهِ الأَرض ،وتخرج من أَصلها ؛ كذا كلمة الكفر [١] .

مثـــل كلمـــة الشهادة

ومَثَلُ كلمةِ الشهادة من المؤمن كمثَلِ شَجَرةٍ طيِّبةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفرْعُها فى السماء . تُؤْتِى أُكُلَها كلّ حِينٍ بإِذْنِ ربِّها ، ويضربُ اللهُ الأَمْثَالَ للناس لعلهم يتذكرون [٢] .

مثل من يقرأ القرآن وهو يعلم تفسيره أو لا يعلم

ومنها ماحدثنى به عمر بن أَبى عمرا بإسناده عن سفيان بن حسين ، قال :قال لى إياس بن معاوية : إنى أَراك قد لهجت بعلم القرآن ، فاقرأْ علىَّ سورةً وفسِّرها حتى أَنْظُرَ أَيْنَ تقع. فقرأْتُ عليه سورةً وفسّرتُها .فقال :ياسفيان ، لاعِلْمَ أَشْرفُ من عِلْمِ القرآنِ . وهل تَدْرِى مامَثَلُ مَنْ يقرأ القرآن وهو يعلم تفسيره أَولا يعلم ؟

مَثَلهُ مَثَلُ قومٍ جاءهم كتابٌ من صاحبٍ لهم ليلا ، وليس عندهم مِصباح ، فقد دخلهم بهذا الكتاب رَوْعةٌ [٣] ، لايَدْرُون مافيه ؛ فهم خائفون . فإذا جاءهم المصباحُ عَرفُوا مافيه .

---

(١) فى سورة إبراهيم ، الآية ٢٦ : ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

(٢) من الآيتين ٢٤ ، ٢٥ ، من سورة إبراهيم .

(٣) الروعة : الفزعة ، والخوف .

مثـــل من أعطى القرآن ولم يعط الايمان

وعن علي رضي الله عنه قال : أخبركم بمن أُعْطِيَ القرآن ولم يُعْطَ الإيمانَ ، ومن أعْطِي الإيمانَ ولم يُعْطَ القُرْآن ، ومَنْ أُعطى القرآن والإيمان . ومن لم يُعْطَ القرآن ولا الإيمان : فأما من أُعطى الإيمان ولم يُعْطَ القرآن فهو بمنزلة تَمَرةٍ طيبةِ الطَّعْمِ لاريح لها ؛ ومنزلة من أُعطى القرآن ولم يُعْطَ الإيمانَ منزلة الآسَةِ (١) طيّبة الرّيح خبيثة الطعم ؛ ومنزلةُ من أُعطى القرآن والإيمان بمنزلة الأُتْرُجّة(٢) طيِّبةُ الطعم ، طيّبةُ الرّيح ؛ ومنزلة من لم يُعْطَ القرآن ولا الإيمان مثل الحَنْظَلة خَبيثة الطعم خبيثة الرِّيح .

مثـل الرسول والأنبيـاء

ومنها ماروُى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال (٣) : قال رسولُ

---

(١) الآسة : شجرة ، وجمعه آس (القاموس) .

(٢) الأترجة : ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون ، يشبه البطيخ . يجلو اللون والكلف ، وقشره في الثياب يمنع السوس ، وهو نافع من أنواع السموم وشمه بأنواعه في أيام الوباء نافع . ومن خواصه أن الجن لاتدخل بيتا فيه أترجة كما حكى الجلال في التوشيح . قال شيخنا : قيل : ومنه تظهر حكمة تشبيه قارئ القرآن به في حديث الصحيحين وغيرهما (تاج العروس) ، وهو يشير إلى الحديث الآتي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذى لايقرأ القرآن مثل التمرة لاريح لها وطعمها حلو . ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذى لايقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر (صحيح مسلم ٥٤٩

(٣) صحيح مسلم : ١٧٩١

الله صلَّى الله عليه وسلم : مَثلي ومَثَلُ الأنبياء كمثل رجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا ، فعجِبَ له الناسُ فقالوا : واللهِ ما رأينا مِثْلَ هذا البُنْيانِ لولا موضع اللَّبِنة ؛ فكنْتُ أنا موضِعَ تلك اللَّبنة (١) .

مثـــل المنفق ومثـــل البخيل

ومنها ما رُوى عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم أنه قال(٢) : مَثَلُ المُنْفِق(٣) ومثَل البَخيل كمثل رَجُلين عليهما جُبَّتَان(٤) من حَديد من لَدُن ثُديِّهما إلى تَراقِيهما ، فأَمّا المُنْفِقُ فلا يُنْفِق شيئًا إلا سَبَغَتْ(٥) على جِلْدِه حتى توارِىَ بنانَه وتَعْفُو أَثره (٦) .

مثـــل الصلوات الخمس

[٤٨] ومنها(٧) ما رُوى عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قال: أرأيتَ(٨) لو أَنَّ نَهْرًا بباب أَحدِكم يغتَسِلُ [منه](٩) كلَّ يوم خَمْسَ مرات ما تقولون ؟ هل يَبْقَى من دَرَنِه (١٠) شَىْءٌ ؟

---

(١) فى صحيح مسلم : فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء .
(٢) صحيح مسلم : ٧٠٨ .
(٣) فى صحيح مسلم : مثل البخيل والمتصدق .
(٤) فى مسلم : جنتان ، أو جبتان .
(٥) سبغت : كملت واتسعت .
(٦) تعفو أثره : يمحى أثر مشيه بسبوغها وكما لها .
قال فى شرح مسلم : وهو تمثيل لنماء المال بالصدقة والإنفاق ، والبخل بضد ذلك .
(٧) صحيح مسلم : ٤٦٣ (٨) فى صحيح مسلم : أرأيتم .
(٩) من صحيح مسلم . (١٠) الدرن : الوسخ .

قالوا : لا . قال : ذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس يَمْحُو اللهُ بها الخَطَايا .

مثـل لموت المرأة المعجب بهـا زوجهـا

وعن القاسم بن محمد أنه قال : هلكت امرأةٌ لى ، فأتانى محمد بن كعب القُرَظى يُعَزِّينى بها ، فقال لى : إنه كان عالم فى بنى إسرائيل ، وكان له امرأةٌ وكان بها مُعْجَبا ، فماتت فوجَد عليها (١) وَجْدًا شديدًا ، ولقِىَ عليها أسفاً (٢) ، حتى خلا فى بيت ، وأغلق على نفسه ، واحتجَبَ عن الناس ، فلم يكن يدخلُ عليه أحَدٌ ؛ وإنَّ امرأةً سمعت به ، فجاءته فقالت : إن لى إليه حاجةً أسْتَفْتيه فيها ، وليس يُجْزِينى إلاَّ مُشافهته .

فذهب الناسُ ولزمت بابَه ، وقالت : مالى منه بُدٌّ. فقال له قائل : إنَّ هاهنا امرأةً أرادت أنْ تستَفْتِيك ، وقالت : إنى أُريد مشافهتَه ؛ وقد ذهب الناسُ ؛ وهى لاتفارقُ البابَ . قال : ائذنوا لها .

فدخلت عليه فقالت : إنى جئتُ أستَفْتِيكَ فى أمر . قال : وما هو ؟ قالت : إنى استعَرْتُ من جارة لى حُليًّا ، فكنت ألبسه وأُعيره ، فلبث عندى زمانًا ، ثم إنَّهم أرْسلُوا إلىّ فيه ، أفأَرُدُّه عليهم ؟ قال : نعم . قالت : إنَّه مكثَ عندى زمانا . قال : ذاكَ أحقُّ لردِّك إياه عليهم حين أعَارُوكه . فقالت : أى رحمكَ الله ! أفتتأسَّف على ما أعارك الله تعالى ، ثم أخذه ، وهو أحق به منك !

(١) وجد عليها : حزن عليها . (٢) الأسف : أشد الحزن .

فأبصر ما هو فيه ، ونفعه الله تعالى بقولها .

الصيام جنة

ومنها ماروى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال [1] : الصِّيامُ جُنَّة [2] كجُنَّة أحدكم من القِتَال .

وعنه صلى الله عليه وسلّم قال : حُسن الحِفَاظ [3] صيامُ ثلاثة أيّام من الشَّهْرِ .

مثل من جاء مسجده

ومنها ماروى عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : مَنْ جاءَ مسجدى هذا لم يأْتِ إلاَّ لخير يتعلَّمه أو يُعلِّمه ؛ فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله تعالى ؛ ومَنْ جاءَ لغير ذلك فهو بمنزلة رجل يَنْظُرُ إلى متاعِ غيره .

مثل الرؤيا حين تعبر

ورُوى عن أبى قِلاَبة رَوَاه قال : مثل الرؤيا حين تعبر كمَثَل رجُلٍ أُمِر أن يرفع إحدى رجليه ويضَع أخرى ، فهو ينتظرُ متى يُؤْمَر بوَضْعها فتستقرّ الرّؤيا على ماتعبّر عليه ، فلا يحدِّث إلاَّ عالما أو نَاصِحًا .

مثلكم ومثل اليهود والنصارى

ومنها ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مَثَلكم ومَثَلُ اليهود والنصارى كمثل رجُلٍ استعمل عُمّالا ؛ فقال : مَن

---

(١) صحيح مسلم : ٨٠٦
(٢) الصيام جنة : معناه ستر ومانع من الرفث والآثام ، ومانع أيضا من النار .
(٣) الحفاظ : المحافظة والمواظبة (القاموس) .

يعمَل عملا من صلاةِ الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهودُ .

ثم قال : مَنْ يعمل لى من نِصْفِ النهارِ إلى صلاةِ العصر على قِيراط قيراط؟ فعملت النصارى . ثم قال : من يعملُ من صلاة العَصْر إلى صلاةِ المغرب على قيراطين قيراطين ؟ ألاَ فأَنْتم .

فغضبت اليهودُ والنصارى ، وقالوا : نحن أَكثرُ أعمالا ، وأَقلُّ عطاءً . فقال : أَظلمتكم مِنْ حقِّكم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : فإنما هو فَضْلى أُوتيه مَنْ أَشَاءُ .

النـــاس كابل مائة

ومنها مارُوى عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أَنه قال : إنما الناسُ كالإبل المائة لاتكاد تَجِدُفيها راحلة [1] .

---

(١) صحيح مسلم : ١٩٧٣ ، وفى النهاية (رحل) . وفيه : تجدون الناس كإبل مائة ليس فيها راحلة . والراحلة من الإبل : البعير القوى على الأسفار والأحمال ، والذكر والأنثى فيه سواء . والهاء فيها للمبالغة ، وهى التى يختارها الرجل لمركبه ورحله على النجابة وتمام الخلق وحسن المنظر ، فإذا كانت فى جماعة الإبل عرفت .

وفى النهاية (إبل) : الناس كإبل مائة لاتجدفيها راحلة : يعنى أن المرضى المنتخب من الناس فى عزه وجوده كالنجيب من الإبل القوى على الأحمال والأسفار الذى لايوجد فى كثير من الإبل

قال الأزهرى : الذى عندى فيه أن الله ذم الدنيا وحذر العباد سوء مغبتها وضرب لهم فيها الأمثال ليعتبروا ويحذروا ، كقوله تعالى : إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا . وما أشبهها من الآى . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحذرهم ماحذرهم الله ، ويزهدهم فيها ؛ فرغب أصحابه بعده فيها ، وتنافسوا عليها حتى كان الزهد فى النادر القليل منهم . فقال : تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة ؛ أى إن الكامل فى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة قليل كقلة الراحلة فى الإبل ، والراحلة : هى البعير القوى على الأسفار والأحمال النجيب التام الخلق الحسن المنظر ، ويقع على الذكر والأنثى ؛

مثل المؤمن مثل النخلة

ورُوى عن مجاهدرحمه ، الله قال : صحبْتُ ابْنَ عمرَ رضى الله عنه من مكة إلى المدينة ، . فما سمعته يحدِّثُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاَّ هذا الحديث : مثل المؤمن مثل النخلة إن جالَسْتَه نَفَعك ، وإن شاركتَه نفعك ، وإن شاورته نفعك ، وإن صاحَبْتَه نفعك ، وكلُّ شئ من شأْنه منافع ؛ فكذلك النخلة كلُّ شئ من شأْنها مَنَافع .

مثــل الصحابة

ومنها مارُوى عن ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، قال : مَثَلُ أَصحابى فى الناس كمثل المِلح فى الطعام ؛ لايصلح الطعامُ إلا بالملح .

مثــل الرسول صلى اللــه عليه وسلم

ومنها مارُوى عن أَبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم (١) : إنَّما مَثَلى ومَثَلكم مثلُ رجُلٍ أَوْقَد نارًا فهو يَذُبُّ عنها أَنْ يقع فيها الجَرَاد والفَرَاش ، وإنى آخذٌ بحُجَزِكم (٢) أَنْ تَقَعُوا فى النار .

---

(١) صحيح مسلم : ١٧٨٩ ، ١٧٩٠

(٢) بحجزكم : الحجز : جمع حجزة ، وهى معقد الإزار والسراويل .

مثـــل المؤمنين

ومنها ماروى عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم أنه قال[١] : مَثَلُ المؤمنين فى تَوَادّهِمْ وتَرَاحُمِهم، كمثل الجَسَدِ إذا اشتكى شىءٌ[٢] منه تَداعَى [٣] سائِرُه بالحُمَّى والسَّهَر .

ومنها ماروِىَ عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم أنه قال [٤] : مَثَلُ الَّذِى اسْتَرَدَّ ماوهَبَ مَثَلُ الكلب يَقِئُ فيأْكل قَيْئَه .

مثــل التـــاجر

ومنها ماروِى عن على بن الحسين رحمهم الله أنه قال : إنما مَثَلُ أَحَدِكم مَثَلُ التاجر يحسب الربْح ولا يوفى رَأْسَ ماله ، يوفى أَحدكم التطوّع ، ولا يوفى الفَرِيضة .

ومنها ماروِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال [٥] : مَثَلُ المؤمن ومثل الإيمان كمثل فرس فى آخِيَّته يَجُول ثم يرجع إلى آخيَّته ؛ وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان ، و أَطعموا طعامَكم الأَتقياءَ ، و أَوْلُوا معروفكم المؤمنين .

(١) صحيح مسلم : ١٩٩٩

(٢) فى مسلم : عضو منه .

(٣) تداعى له سائر الجسد : دعا بعضه بعضا إلى المشاركة فى ذلك . سائره : باقيه .

(٤) صحيح مسلم : ١٢٤٠ ، ١٢٤١

(٥) النهاية (أخا) . والآخية : حبيل أو عود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة وتشد فيها الدابة ، وجمعها الأواخى . قال: ومعنى الحديث أنه يبعد عن ربه بالذنوب وأصل إيمانه ثابت .

مثـل المنـافق

ومنها قوله صلَّى الله عليه وسلم [١] : مَثَلُ المنافق مثل الشاة العائرة[٢] بين الغنَمَيْن تتردَّد بينهما مرَّةً إلى هذه ومرّة إلى هذه .

ومنها قولُه صلَّى الله عليه وسلم : مَثَل المنافق مَثَلُ رجلٍ فى نَهْرٍ يَسْبَحُ فيه ، فلما بلغ أَنْ يقطعَه نُودِى من الجانب الآخر ، فرجع إلى ذلك الصَّوت ، ثم نُودِى من هاهنا فأَجاب ، ثم رجع ؛ فبينما هو فى تردُّده إذ عَلَا آذِىٌّ[٣] ، وهو الموج ، فغرقه .

مثـل النبى ومثـل الساعة

ومنها قولُه صلَّى الله عليه وسلم : مثَلى ومثَل الساعة كفرسى[٤] رِهَانٍ سبق أَحدُهما الآخر بأُذُنِه .

ومنهاقوله صلَّى اللهعليهوسلَّم :مثلى كمثل قَوْمٍ بَعثُوا طَلِيعةً[٥] ، فرأَى العدوَّ فجاء ليخبرهم أَنَّ العدوَّ قد هجم فلاَحَ[٦] بثَوْبِه مَخَافةَ أَن يَسْبقَه العدوُّ .

---

(١) صحيح مسلم : ٢١٤٦ ، والنهاية (عير) .

(٢) العائرة : المترددة الحائرة بين قطيعين لاتدرى أيهما تتبع .

(٣) الآذى : الموج الشديد .

(٤) فرسى رهان : يتسابقان إلى غاية .

(٥) الطليعة : الذى يبعث ليطلع طلع العدو (النهاية) .

(٦) لاح : بدا وظهر . ولاح الرجل : خاف وحاذر ، وبسيفه لمع به كلوح (القاموس) .

خمس كلمات وأمثالها

وقال صلّى الله عليه وسلم : إنَّ يحيى بن زَكريّا عليهما السّلام أَمره اللهُ تعالى أن يَأْمُرَ قَوْمَهُ بخَمْسِ كلمات ، وأَنْ يضرب لهم مثَلا . فقال : إن الله تعالى أمرنى أَنْ آمُرَكم أَنْ تَعْبُدوه ولا تُشركوا به شيئًا ؛ ومَثَلُ ذلك كمثل رَجُلٍ اشترى عَبْدًا من خَالص ماله ، فذهب العَبْدُ فعمل لغيره ، فأَيُّكم يحبُّ أَن يُؤْتى إليه ذلك.

وأمرنى أَنْ آمرَكم بالصلاة ؛ ومَثَلُ ذلك مَثَلُ رجلٍ دخل على ملك فهو يُناجيه حَوَائجه وهو يسمَعُ له ويَقْضِى له الحوائج .

وأَمَرنى أن آمُرَكم بالصدقة ؛ ومَثَل ذلك مَثَلُ رجل قتل قتيلا فهرب مِنْ وَطَنه مخافة أَن يُؤْخَذبه ، فبعث [٤٩] إلى أَهْله ، فقال : مَاينفعكم إزْعَاجى مِنْ وطنى ، فأَنَا أُؤَدِّى إليكم دِيَةَ قَتِيلكم نجومًا (١) ، وأَرجع إلى وَطنِى ، فرَضُوا بذلك ؛ فما زال يُؤَدِّى نُجُومَه حتى فَكَّ رَقَبته .

وأَمركم بالصِّيام ؛ ومَثَلُ ذلك كمثل رجل لَقِىَ العَدُوَّ فى جُنَّة حَصِينةٍ ، فما وجد فى الجُنَّة مِنْ خَلَل وصل إليه سلاحُ العدوِّ .

وأَمَركم بذِكْرِ الله ، ومَثَل ذلك كمثَل رجل أَتاه فَوْجٌ من عدوٍّ من ناحية ، فهو يحارِبُهم ؛ ثم أَتاه فوجٌ آخر من

(١) نجوما : تنجيم الدين : هو أن يقدر عطاؤه فى أوقات معلومة متتابعة مشاهرة أو مسانأة (اللسان — نجم) .

ناحية أخرى ، وأتاهُ الفَوْجُ من كل ناحية ؛ فلما رأى ذلك ترك مُحَارَبَتَهم ، ودخل الحِصْنَ.. وأغلق الباب على نفسه ،وكذلك ذِكر الله تعالى .

مثـل المصلى الذى لا يتم ركوعه وسجوده

ورُوِى عن أَبى بُرْدَة بن أَبى موسى ، عن أَبى سلام الأَسود رضى الله عنهم — أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَأَى رجلاً يَنْقُر [١] فى صلاته ،لايُتِمُّ الركوعَ والسُّجود ،فقال : لو مات هذا مات على غير مِلَّة محمد صلَّى الله عليه وسلم ؛ فإذا صَلَّيتم فأَتِمُّوا الرُّكوعَ والسجودَ ؛ فإِنَّ مثَلَ المُصَلِّى الذى لايُتِمّ ركوعَه ولا سجودَه كمثل الجائع الذى يأْكُل المَرَّةَ والمَرتين لاتُغْنيان عنه شيئًا .

قال أَبو بُرْدة : قلت لأَبى سلام : مَنْ حدَّثَك بهذا عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ؟ قال : حدثنى أُمَراءُ الأَجناد :يَزِيد بن أَبى سفيان [٢] ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وشُرَحْبِيل ابن حَسَنَة [٣] .

فهذه الأَمثال كلُّها ضربَها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُرِيَهُمْ ماغاب عنهم بما حضر .

(١) ينقر فى صلاته : يصلى النقرى ، وينقر فى صلاته نقر الديك (أساس البلاغة)

(٢) يزيد بن أبى سفيان بن حرب الأموى : أمير صحابى من رجالات بنى أمية شجاعة وحزما ، وهو أخو معاوية ، توفى سنة ١٨ هـ

(٣) شرحبيل بن حسنة : هو شرحبيل بن عبد الله : من مهاجرة الحبشة ، وكان واليا على الشام لعمر على ربع من أرباعها ، وتوفى بها سنة ١٨ هـ ، وهو ابن سبع وستين سنة .

الحكماء يضربون الأمثـال

ولم يزل الحكماءُ يضربون الأَمثال :

مثـل العلمـاء

مثل العلماءِ مثلُ النجوم التي يُقْتَدَى بها ، والأَعلام[1] التي يُهتدى بها إذا تغيَّبَتْ عنهم تحيَّرُوا ، وإذا تركوها ضَلُّوا .

مثـل الامام

مثل الإمامِ مثل عينٍ صافية[2] يخرج منها نَهْرٌ عظيم ، يخوضُه الناسُ ، فيكدِّرُونَه ، فيأْتى عليها صَفْوةُ العَيْن ، فيصير صافيا من تلك الكُدُورة . فإذا كانت الكدورةُ من قِبَل العَيْن فسد النَّهْر فكيف يصْفو ؟ فلم يكن من الحِيلة إلاَّ سدَّ النهر .

مثـل النـاس والامام

مثَلُ الناسِ والإمام كمثَلِ الفُسْطاط[3] لايقومُ إلا بعَمُود ، ولا يقوم العَمُود إلا بالأَوتاد ، فكلما نُزِع وتدٌ[4] ازداد العمودُ وَهنًا.[5]

مثـل الجليس الصالح والسـوء

مَثَلُ الجليس الصالح مثل صاحب المِسْكِ إنْ لم يُصِبْك منه شَيءٌ أَصابك من رِيحه . ومثل جَليس السَّوءِ مِثْلُ كِيْر[6] الحدَّاد ، إذا جالَسْتَه إنْ لم يُصِبْك من سَوادِه أَصابك من دُخَانه .

(١) الأعلام : جمع علم : ماينصب فى الطريق يهتدى به (القاموس) .
(٢) فى ا ، ب ، ج : صافى .
(٣) الفسطاط : السرادق .
(٤) فى الأصول : وتدا .
(٥) وهن : ضعف .
(٦) الكير : زق ينفخ فيه الحداد .

مثل القلب

مَثَل القَلْب مَثَلُ حدَقَةِ العين فإن أَدْنَى [1] شَيْءٍ يشغل العينَ . والقلبُ أيضا يشغله أَدْنى شيء .

مثل العالم

مَثَلُ العالم مثل العطَّار إنْ مررْتَ به وجدْتَ رائحةَ الطِّيب ؛ وإنْ جالَسْتَه أصابك الَّلطْخُ [2] من العِطْر ؛ وإن صاحبته تناولْتَ منه الطِّيب ؛ فترجع إلى أهلك بذلك .

مثل المؤمن المنتبه

مَثَلُ المؤمن المُنْتَبه مَثَلُ وَلدٍ فَتَح عينيه من النوم فأَبْصَر مائةَ ألف ثَدْيٍ وحجْرٍ لم يلتفت إلى واحدٍ منها مالم يجد ريح أُمِّه ، فحينئذ يتعلَّقُ بثدييها ، ويدخل في حِجْرها ؛ لأَنَّ ريح الأُمِّ ريحُ الرأْفة . ولذلك قال الصِّديق لعمر رضى الله عنهما — حين طلَّقَ امرأَته وأَراد أنْ يأْخذَ ولدَه منها ؛ فمنعه أَبو بكر رضى الله عنه ، وقضَى به للأُمِّ ؛ وقال : رِيحُها ولِقَاحُها [3] خَيْرٌ له منكَ ياعُمر .

فالعاقلُ أيضا لمّا وجد رائحةَ رأْفةِ الرؤوف الجوادِ الكريم ، ونظر إلى إحسانه لدَيْه ، لايلتفتُ إلى شيءٍ سواه ، حتى يَصِلَ إليه ؛ فهذا الصَّادق في قول : لا إِلَهَ إلاَّ الله ، علم أَنَّ الأَشياءَ التى تضرُّ وتَنْفَعُ

---

(١) أدنى : أقل .

(٢) لطخه — كمنعه : لوثه فتلطخ . ولطخ من سحاب ونحوه : قليل منه .

(٣) اللقاح : يريد لبنها .

كلّها من الله . فلم يتعلّقْ قَلْبه بِشَيء من أسباب الضّر والنفع ، وردَّ وَلَهَ [1] قَلْبه فى تلك الأَشياء إلى أُلوهيّة الله تعالى ؛ لأَنه عايَنَ أَنَّ هذه الأَوْدية كلّها تتفجَّرُ من تلكَ العين . وَبِقَدْرِ [2] ماينصبُّ من تلك العين التى منها تَسِيلُ هذه الأَودية . فلم يغتر بالأَوْدِية ؛ ومَنْ حُجب عن رؤية تلك لم يجد قرارًا لكثرة ملاحظته الأَوْدية واديًا واديا ، فمتى يستفرغ رُؤْية الأَودية ؟ ومتى يَقْدِر أَنْ يتعلَّق بشىءٍ منها ؟ لأَن كل وادٍ يدعوه إلى نفسه ، فقَلْبُه ذو شُعَب . ونفسُه غير مطمئنة إلى شىء منهم [3] ؛ فهى كالرِّيشةِ ؛ يطير مرّة إلى هذا ، ومرّة إلى هذا إلى مالا يَتَناهَى .

مثـل المؤمن المخطىء الغـافل

ومثل المؤمن المُخْطِىء [4] الغافل مَثَلُ رجلٍ فى خَرِبة فى فَلَاة من الأَرض يَأْتيه صَوْتٌ من كلِّ جانب يَدْعوه ولا يَدْرى مَنْ يجيب ولِمَنْ يُجيب ، وإلى مَنْ يَطْمئنُّ . فهو أَسِيرُ كلِّ ناعق ؛ فالمُؤْمن مِنْ شَرْطه أَنْ يطمئِنَّ إلى ربه ، ويَفْرغ فى كلِّ شىءٍ إلى رَبِّه ، ويتعلَّق فى كل أَمْرٍ بربّه .

---

(١) الوله : ذهاب العقل من شدة الحب أو الحزن ، أو الخوف .

(٢) فى حـ : فبقدر .

(٣) هذا فى الأصول .

(٤) فى ب ، جـ : المخط .

مثـــل العـــاقل المحق

ومَثَلُ العاقل المُحقّ فى إسلامه مَثَلُ رجُلٍ باعَ دارًا هو ساكِنُها ، فقيل له : سَلِّمْ مابِعْتَ ، فخرجَ مِنْ ساعته ، وترك [١] ثَقَلَه ثَمّة [٢] ، وقال للمشترى : هذا كلُّه لكَ مع الدّار من غير بَيْع ، ووهبتُ الثمنَ لك أيضا .

مثـــل المؤمن المخلط

ومَثَل المؤمن المخْلط [٣] مثل مَنْ باع دارًا هو فيها ساكن ، فلما قيل له سَلِّمْ مابعْتَ قام من موضعه ، وجمع ثَقَلَه فى زاوية أُخرى من الدار ، وجلس ثَمَّة ؛ فإذا قيل له ثانيا : سَلِّم مابِعْتَ ذهب إلى زاوية أُخرى مع ثَقَله ، ولا يزال دَأْبُه [٤] هكذا فى التسليم ؛ يتحوَّلُ من مكان إلى مكان ، ويفرغ ناحية ، ويشغل أُخرى إلى أَنْ يَقْبِضَ الثمنَ ، ويسلم ويخرج منها ؛ فالمُؤْمن مِنْ شَرْطه تسليمُ النَّفْسِ إلى اللهتعالى فى كل شىء ، فلو اقتحم النَّهْيَ ، وفَرَّط فى الأَمر ، صار كمن سلَّم بَعْضَ النفس دُونَ البعض ، كمن تحوَّل من زاوية إلى زاويةَ ؛ لاتَسْخُو نَفْسُه بتسليم ماباع ؛ فالمسلمُ باع نَفْسَه ومالَه مِن مَوْلاه

(١) الثقل : متاع المسافر وحشمه ، وكل شئ نفيس مصون .

(٢) ثمة : هناك .

(٣) المخلط : الذى يخلط الأشياء فيلبسها على السامعين والناظرين ، ويقال : هو امرؤ خلط : لايستقيم أبدا .

(٤) دأبه : شأنه وعادته .

يقولُ له[١] : (إن الله اشْتَرَى من المؤمنينَ أَنْفُسَهم و أَمْوَالَهم بأَنَّ لهم الجنةَ يُقَاتِلُونَ فى سبيل اللهِ فيَقْتُلونَ ويُقْتَلُون وَعْدًا عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقُرآنِ وَمَنْ أَوْفى بعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فاسْتَبْشِرُوا ببَيْعِكم الذى بايَعْتُم به ، وذلك هو الفوزُ العظيم . التائبُون العابِدُون الحامِدُون السائِحون الراكعُون الساجدونَ الآمِرُون بالمعروفِ والناهونَ عن المُنْكَرِ والحافظونَ لحدود الله ، وبَشِّرِ المؤمنين) ؛ وصيّر تسليمه فى عشر خصال مذكورة فى الآية ، وجعل منها الجنة ؛ فكلّما وَفَى تحصيله [٢] منها فقد سلّم جُزْءًا من المَبِيع ، ثم مع هذا يقتضى رَبَّه الثَّمَن . فلو عقل هذا كيف يَسْتَحِي من رَبِّه اليوم إلى أَنْ يَجِىءَ قَبْضُ الثَّمن ؟

مثــل المصلى الساهى

مَثَلُ المُصَلِّى الذى يُصَلِّى ويكون ساهيًا فى قَلْبه كمثَلِ رَجُلٍ جَنَى فى حقِّ الأَمير ثم نَدِم ، فاستجمع خدَمَه وخَوَلَه [٣] ، وتوجَّه إلى بابِ الملك معتذرًا ؛ فلما قام بين يدى الملك بشاكِرِيَّته [٤] وخَدَمِه ، ووقف بهم عليه مُعْتَذِرين مِمَّا كان منه ومِنْ خدَمِه من سُوءِ الأَدب ، صفح عنه وحُيِّى وأُكْرِم . ومَنْ أَقبل إلى الملك ثم زاغ عنه فى الطريق

---

(١) سورة التوبة ، آية ١١١ ، ١١٢ (٢) فى ج : تحصله .

(٣) الخول : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية (القاموس) .

(٤) الشاكرى : الأجير والمستخدم — معرب . (القاموس) .

وبعث بشاكريته وخدمه حتى وقفوا مقام الاعتذار ومحلّ الكرامة ، ولما أقبل الملك إليه ليقبل عُذْره ويُحسن إليه ، أعْرَضَ عن مقام [٥٠] الاعتذار ، وشغل بِنهْماته[١] ، وترك خدمه وخَوَله بين يدى الملك مُعْتَذرًا منه ؛ أفليس من مقالة الملك أن يقول : أنْتَ الذى جنَيْتَ فى حقّى ، وتركْتَ أمْرى ، وضيَّعْتَ أمورى ؛ وهؤلاء الخَدَمُ إنما حضروا لأجْلك ، فأقَمْتَهُم مقامَ الاعتذار عنك ، واشتغلت بِنَهْماتك[١] ! أليس أنه ممقوت ، ولا يُعْبَأُ باعتذار خَوَله فيما هنا لك ؟

مثـــل الدعوات دون حضور القلب

وكذا مثل دعواته التى تَجْرى على لسانه بدون حضور القَلْب رغْبَةً ورَهْبَةً كمثل سائلٍ يقفُ على بابٍ يسألُ شيئا ، ولم يلبث ، ومَضى لسبيله ، فأُخرج له ماطلب فلم يَجِدوه ، فيُدْخَل[٢] فى الدار مع ماأُخرج له ويقول : لم يمكث السائلُ على بابنا . فلم يزل هذا دَأْب[٣] هذا المسكين على كل باب حتى صار محرومًا ؛ كذا هذا الداعى ؛ والتقريبُ معلوم .

مثـــل من يثنى على ربه عن غفلة

ومثل مَنْ يُثْنِى على ربِّه عن غَفْلة كمثَلِ مَنْ جَنَى إليكَ جِنَايَة ، فلم يَعْتَذِرْ حالةَ الإفاقة حتى شَرِب وسَكِر ، فجاءَ فى حال سُكْره ووقف

(١) النهمة : الحاجة . والشهوة فى الشئ ؛ وهو منهوم بكذا : مولع به .

(٢) يدخل فى الدار : يدخل حامل طلبه . مع ماأخرجه أهل الدار له .

(٣) دأبه : شأنه وعادته .

بين يديك ، وقَبَّل قدَميك ،ومدَحاك بمدائح السّكارى ؛ أوليس من مَقَالتك إن هذا لا يَعْقِلُ مايقول . ولا مايَعمل ، فلَسْتَ تَعْبَأُ بِقَوْله وفِعْله ؛ كذا هذا .

مثل من يثنى ولا يعلم معنى ما نطق به

ومَثَلُ مَنْ يُثْنِى على ربِّه فى غَفْلةٍ ولايَعْلَمُ مامعنى مانطق به كمَثَل رَجُلٍ أتى بشِعْرٍ فى دفْتَرٍ بابَ الملك ، فقرأه عليه من الدَّفْتر ؛ فقال له الملك : ماهذا ؟ قال : هذا مَدْحُك الذى مدحْتُك . فقال له الملك : عقلْتَ ما أثنيت ؟ قال : لا ، إلاَّ أنى علمتُ أنَّ هذا ثناءٌ . فقال له الملك : فمِنْ أى شىءٍ عقلْتَ أنه ثناءٌ ، فلعله هجاءٌ ؛ فتحيَّر الرّجلُ فلم يَبْقَ له شىءٌ إلا أنْ يقولَ : هذا طمع فى نَوَال شىءٌ ؛ فجعل هذا الثناء سببًا لنَوَاله ، فيعطونه شيئاً ويخرجونه من بابه .

مثل من يثنى ويعقل معنى الثناء تعريفا

ومثَل مَنْ يُثْنِى على رَبِّه وهو يَعْقلُ معناه ، ولكن لايعقله عَقْلَ المُشَاهدةِ ، كمثَلِ شاعرٍ أتى بابَ الملك بشِعْرٍ يُثْنِى عليه ، فلما أنشده قال له الملك : عَرَفْتَنِى بهذه الخصال أمْ عُرِّفت به ؟ قال : لا ، بل عُرِّفْتُ به فى السوق أنك هذا [1] .

فسقطَتْ مَنْزلتهُ عند الملك . و أنا لَهُ من معروفه على قَدْرِ انحطاطِ قَدْرِه وسقُوطِ منزلته .

(١) هذا فى الأصول .

مثـــل من يننى ويعقل عقل مشاهدة

ومثل مَنْ عَقَله عَقْلَ مشاهدةٍ بِقلبه ، فقال : عَرفْتُك بهذه الخصال معرفةً أَشدَّ من معرفتى بنفسى ، فإنَّ معرفتى بكَ لا تصير نكرة أبدًا . فيقول له الملك : إذًا لاأُجَهِّلُك [١] علمك فيَّ ، ولا أجعل معرفتك لى نكرةً أبدًا ، ولا يَقينَك شكًّا ، ولا بصرك عَمًى ، ولا هُدَاك حَيْرةً وضَلَالة ، وأُوفى لكَ بجميع ماعرَفتنى ؛ إن عرَفْتَنى جوَادًا فجُودى لك ، وإن عَرفْتَنى رَحيمًا فرَحْمَتى لك . وإنْ عرفْتَنى كريمًا فكَرَمى لك ، وإن عَرَفْتَنى رَءُوفًا فرأفَتى لك ، وإن عَرَفْتَنى لطيفًا فَلُطْفى لك ، وإن عرفْتَ قَدْرى فمحبَّتى لك ، ولك المَزيد مِنْ فَضْلى ودوامُ هذه الأَشياء ؛ وليس يحسنُ بى أَنْ تَعرِفنى بشىءٍ فأُريك من نفسى خلافَ ذلك حتى تَصيرَ مَعْرِفتُك لى نكرةً ؛ أنا كما عرفتنى [٢] حق المعرفة ، و أنا أُوجِبُ لك ماعرفتنى به ليكُونَ ماعرفتنى به ظاهرًا مكشوفاً بارزًا ؛ وهو قوله صلَّى الله عليه وسلَّم : لو عرفْتُم اللهَ حَقَّ معرفته لزالت بدعائكم الجبالُ ، ولو خِفْتُم الله حقَّ خِيفَته [٣] لتعلمتم العِلْمَ الذى لا جَهْلَ معه ؛ فمن عرَفه حقَّ المعرفة عرفه بالقُدرة ؛ ومَنْ عرفه بالقُدرة لم تَعْظُم فى عينه زوالُ الجبال عن مكانها . ومَنْ

---

(١) جهله : نسبه إلى الجهل .

(٢) فى ج . ب : كما عرفتنى فى حق المعرفة .

(٣) خيفته : خوفه وخشيته .

عرف كرَمَه حقيقةً لم تَعظُمْ فى عَيْنِه أنْ تُجاب دعوتهُ فى إزالةِ الجبال عن مكانها ، ومَنْ خافه حَقَّ الخِيفَةَ زال عنه الجَهْلُ ؛ لأَنَّ نورَ الخوفِ من الذَّات ، فإذا أَشرقَ ذلك النورُ خاف حقَّ الخِيفَةِ وطار الجهلُ ؛ لأَنَّ القَلْبَ حَيِىَ بالله ؛ وإنما الجهلُ من الموت والعِلْمُ من الحياةِ .

مثل التالى كتاب الله فى غفلة

ومثَلُ التَّالى كتابَ اللهِ فى غَفْلَةٍ كمثل رَجُلٍ بين يديه حِقَاق[1] ، فى كل حُقَّة منها جَوْهرٌ بعثَه إليه الملِكُ ، فهو فى غِطَاءٍ عن تلك الجواهر ؛ ففى حُقَّة منها ياقوتةٌ حمراءُ ؛ وفى أخرى منها ياقوتةٌ صفراءُ ؛ وفى أُخرى ياقوتةٌ زَرْقاءُ ؛ وفى أُخرى ياقوتةٌ خَضْرَاءُ ، وفى أُخرى لُؤْلُؤَة بَيْضَاءُ صافية ؛ فليس له من تلك الجواهر إلا عَدَّ الحقَاق وإحصاؤها ، وهو يَعْلَمُ أنها ثمينةٌ نَفِيسة[2] ، ولكن لا يَلْتَذُّ بها ولا يتغنَّى بها ؛ لأَنَّ عَيْنَه إنما تأْخذ الحِقَاق ، ونَفْسُه تُحسّ ماتَرَى عَيْنُه ، وعِلْمُه بنَفَاستها و أَثْمَانها عِلْمٌ لا يحرِّكه ، ولا يَبْعَثُه ، ولا يَهِيجُه إلى شىءٍ ؛ فهو كالناعس قد أَخذه رِيحُ النوم ، فهو فى نفسه ثَقيل ؛ فإذا فتَّش الحُقَّة فأَبصر جواهر تتلأْلأُ ، ونظر إلى

---

(١) الحقة : وعاء من خشب ، جمعه حق ، وحقوق ، وحقاق .

(٢) نفيسة : يتنافس فيها ، ويرغب .

شيء ملأ نَفْسه سرورًا ، وسَبى قلبُه بها ، فإذا نَظَر فيها فوَجَد اسْمَهُ مكتوبًا عليها منقوشا فاشْتَدَّ عَجَبُه ، وتضاعف سرورُه وبَهْجَتُه ، وتاه في البهجة ؛ فسرورُه بنفاسةِ تلك الجوهرة يهنِّيه ، ويُهَنِّيه في اسْمِه الذي وجده منقوشا على تلك الياقوتة ؛ فقال في نفسه : صار لي إلى الملك محلاً ؛ بعث إليَّ جوهرًا مِثْلَ هذه ، واسْمِي منقوشٌ عليها ، يُعَرِّفُني ذلك مَحَلِّي عنده ؛ إني قد أَعدَدْتُ لكَ هذه الجواهر وباِسْمِك ؛ لعَظِيمِ قَدْرِك عندي ، وكَثْرةِ بالي بك ، ورَفيع مَحَلِّك عندي ، وحُبِّي لك ؛ فكيف يكون حالُ هذا العبد من الفَرَح والسرور ؛ ككتاب اللهِ تعالى . كلام عَزِيز ، حروف منسوقة [١] مؤلَّفة ، أَلَّفَها رَبُّ العالمين بحكمته البالغة — ومعنى قوله البالغة ؛ أي بلغَتْ تلك الحكمة يَوْمَ المقادير ، ومنها خرجَتْ إلى العِبَاد ، فصارت حكمَةً ؛ فقيل : حكمة بالغة ؛ أي تَبْلُغُ بصاحبها عِلْمَ المقادير ، فمن بلغ عِلْمَ المقادير فقد وَفَر حظُّه من العلم ، كما وفر [٢] الحظُّ للخضر عليه السّلام حتى ساح في المفَاوز ، وخاض البحار ، وعَبرَ معابِر العِبرَ بحظِّه من علم [٣] المقادير . فرأى في كل شيء ربوبيَّة العزيز القهَّار — فذلك تأليفُ عجزَتْ عنه الملائكةُ والرُّسلُ والثَّقَلاَن [٤] وجميع الخلق ؛

(١) منسوقة : نسقت الدر نسقا : نظمته ، ونسقت الكلام نسقا : عطفت بعضه على بعض . وكلام نسق : على نظام واحد .

(٢) وفر حظه : تم وكمل . (٣) في ب : من العلم .

(٤) الثقلان : الجن والإنس .

لأنه وَضَع فى كلِّ حرفٍ لعباده شيئا ؛ فهو أَعلَمُ بما يحتاجُ إليه عِبَادُه من تلكَ الأَشياءِ ، فألَّف الحروف للأَشياءِ الموضوعة فى الحروف ، يخاطبهم بها ، وهى لَطَائفُ وبُشْرَى ، ووَعْدٌ ووَعيد ، ونِذَارة[1] وتأْديب ، وتَحضيض[2] وتنديب[3] ، وأنباءُ مامضى ، وأَنباءُ ماهو كائن فى الدَّارَيْن ؛ فذلك قوله تعالى[4] : (لَئِن اجْتَمَعتِ الإِنْسُ والجنُّ على أَنْ يَأْتُوا بمثْلِ هذا القرآنِ لايَأْتُونَ بمثْلِه ولو كان بَعْضُهم لبعضٍ ظَهِيراً[5]) ، فمن غَبِىَ[6] فهْمُه عن هذا تحيَّر فيه .

ولو قال قائل : كيف لايَقْدِرُون أَنْ يأْتُوا بمثله ، وإنما هو لسانُ العرب ، فمن شاءَ ساق[7] [كلا مابهذه اللغة ، فكيف لايمازجه ولا يُدَانيه .

وهذا هوس[8] وكلام المنهوكين[9] الذين أَعينُهم فى غطاءٍ عن ذِكْرِه . وإنما معرفتهُم رَبَّهم على أَلْسنتهم .

(١) نذارة — بكسر النون : إنذار .
(٢) تحضيض : حث .
(٣) ندبه إلى الأمر : دعاه وحثه ووجهه (القاموس) .
(٤) سورة الإسراء ، آية ٨٨ .
(٥) الظهير : المعين . (٦) فى ج : عيى .
(٧) من هنا إلى آخر مابين القوسين ساقط فى ب ، وهو فى ا ، ج .
(٨) الهوس : طرف من الجنون (القاموس) .
(٩) المنهوكين : يقال : نهكته الحمى : هزلته . ونهكه السلطان عقوبة : بالغ فى ذلك . أو هى : والمتهوكين . والمتهوك : المتحير .

وإنما عَجزت الجنُّ والإنْس عن تَـأْليف مثله ؛ لأَنَّ جميعَ الكلام الذى أبرزه ربُّ العالمين للعباد إنما هو تسعٌ وعشرون حَرْفا وَضَعَ فى كل حرف أَمْرًا من أُموره ، وأَعلم خَواصَّهُ بذلك من الأَنبياء ، وخاصِّ الأَولياء ؛ فمَنْ دام على ذلك الأَمْرِ وخالصه وصفاه ، فاستوجب هذا النور الأَعظم الذى إذا أَشرق فى صَدْرِه ، وطالع مافى حَشْوِ كلِّ حَرْفٍ من هذه الحروف فعندها يَعْقِلُ تـأْليفَ رَبِّ العالمين.

قالَ له قائل : اشرح لنا شيئا نَفْهَمُ به بَعْضَ ماوصَفْتَ .

قال : نُبَيِّنُ ذلك فى قوله : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمن الرحيم) : ففِى الباءِ بَهَاؤه [1] ، وفى السين سنَاؤه [2] ، وفى الميم مَجْده ؛ فمن أُعطِى فى قلبه سِراجًا فأَنَارَ ذلك السراجُ فى صَدْرِه عايَنَ فُؤَادُه ذلك البَهاءَ والسناءَ والمَجْد ، وعايَن ما أَجْرَى إليه ربُّ العالمين من بهائه وسنائه ومَجْد ؛ فأَوْصَل إليه فى دِينه ودُنياه ، فإذا عايَن فؤادُه ذلك كان كمثلِ مَنْ وَضَعَ بين يديه حُقَّة [3] وقدعلم أنه فيها جوهر ثمين نَفيس يَخْطَفُ الأَبصارَ تَلأْلُؤُه فيضىءُ القلوبَ شغوفا به ، فهو فى ذلك حَيْرَان لا يَلْتَذُّ ولا يَبْتَهج [4] به ؛ لأَنه سكران أو نائم ؛ فالسكرانُ

---

(١) البهاء : الحسن والجمال .

(٢) السناء : الرفعة .

(٣) الحقة : وعاء من خشب .

(٤) البهجة : الحسن ، وبهج به فهو بهيج ، وابتهج بالشئ إذا فرح به .

والنائم لاحَظَّ لهما من اللذة والبهجة ؛ فإذا رَفع عن الحُقَّة رأْسها [1] ، وتلألأَ ذلك الجوهرُ فى وَجهه يكادُ يَخْطَفُ بَصَرَه ؛ وسبى قلبه ؛ فإذا رأى اسْمَه منقوشا على ذلك الجوهر كاد يَنْصدِعُ [2] قَلْبه فَرَحَا وسرورا بما اطَّلَعَ مِنْ حاله عند الملك .

قال له قائل : زِدْنا فى شَرْحه .

قال : نَزَّلَ ربُّنَا جلَّ جلالُه كلامَه تنزيلا ؛ فهو كلام مؤلَّفٌ محشوٌّ كل حرف بما فيه حَشَاه ، ثم تكلَّم به ، ثم أَنزله ، فلو عقلتَ هذا لدهشت من قَبْلِ أَنْ تسمُو إلى حَشْوِه .

مثل الناظر إلى حروف القرآن

مَثَلُ الناظر إلى حروف القرآن كمثل رجُل اشتدَّ شوقهُ إلى حبيب غائبٍ ، فوجد له كتابا بخَطِّه ؛ فهاج شوقُه ، ثم نظر إلى آثارِ أَصابعِه وصُنْع يده فالتذَّ بها ، فسكن إلى وجودِ لذَّته ساعةً ، وتقطع أَيامُ شوقه ، فكذا المشتاقُ إلى لقائه إذا وقع بَصَرُه على خطِّ الحروف ، وتراءى له بُدُوّ هذه الحروف من عِند مَليكه ، والمُجْرَى من الوحى إلى صَدْرِه ومستودعه وهو الحِفْظ الذى قد قُرِنَ بالعقل ، واؤْتمن عليه ؛ والتذَّ بها ، وسكن غليانُ شَوْقِ مَنْ لا يجدُ إلى ماوجد مِنْ آثارِ كلامه ،

---

(١) يريد غطاءها .

(٢) ينصدع : ينشق .

وهو تأليفُ تلك الحروف قولاً ثم كلاما ، فإنه قال وتكلَّم .

قال له قائل : ماهذا ؟

قال : القول وهو تَرْجيعُ الصوت ، فذلك الترجيع هو القولُ مأْخوذٌ من الإقَالة والقيلُولة ؛ والكلام هو سُلْطَان تكلُّم القلب ؛ أَى يُؤَثِّر عليه ، ولذلك سميت الجراحة كَلْما ، لأَنه لابُدَّ مؤثر فيها (١) .

مثــل التالى كتاب الله من غير تفهم

ومثلُ التالى كتاب الله من غير تفَهُّم ولا تَدَبُّرٍ كمثل رَجُل جمع الحلى من أُناس عارِيَّة ، وفيها جواهر نَفِيسة مُثْمَنة (٢) ، فجعلها فى صُرَّة ثم عَلَّقلهافى عُنقه كهيئة جَرَسِ البعير ؛ فذلك الصوتُ من الجرس كائن ، والجرس مثمن عظيم الثمن بجَوْهره ، فماذا له من تلك الجواهر ؟ وماذا له مِنْ ذلك الضوء إلا الإخبار بأَنى على الطريق .

مثــل من يربى القــرآن

ومثل مَنْ يُرَبِّى القرآن كمثل رجل آوَى يتيما إلى منزله وكفَلَهُ وكساه وأَطعمه وسَقَاه ، ونَزَّهَه (٣) ، ونَقَّاه ، ووَقاه من الآفات والأَدْنَاس ، وجعل حِجْرَه له (٤) حواءً فهو يَغْسلُه بيده ، ويَنقِّيه كما لولده ، ويرشفه ، ويقوم عليه فى جميع أَحواله ؛

(١) فى ج : لأنه يؤثر فيها . (٢) أثمنت الشئ : بعته بثمن . وثمنت الشئ تثمينا جعلت له ثمنا بالحدس والتخمين .

(٣) فى ح : وترضه — تحريف . (٤) الحواء : جماعة البيوت المتدانية .

فلا يزال دَأبه [١] معه ؛ يتربىّ هذا اليتيمُ فى حِجْره إلى أَنْ يُدْرِك ، فإذا أدرك فعَرفَ تَرْبيَتَه فشكر له وقام له بالبنوَّة ؛ يحْمِى عنه فى كل مكان ، ويذُب عنه ، ويدفع عنه ، ويربيه فى وَقْتِ ضَعْفه وكِبرَ سِنّه .

وآخر رام تَرْبِيَةَ هذا اليتيم فأدخله بيته ساعَةً من نهار ، فأعطاه كِسْرَة خُبْزٍ وشيئا من عِنب ، ثم أخذ بيده وأقامَه على قارِعة الطريق ؛ فإذا أدرك هذا اليتيم مَدْرَكَ الرجال قَلَّ مايلتفتُ إلى هذا ، وإنما يعرف له بقَدْرِ مارأى من تلك الكسرات والعناقيد .

فكذا مَنْ قرأ كلامَ الله عز وجل فى كل يوم وِرْدًا أوجُزْءًا ، ثم وضعه فى ناحية من بيت ، ولم يقم بين يديه ، فالقرآن فى زماننا كاليتيم الذى ليس له مأْوى مُلْقًى على قارعة الطريق ، لايُؤْبَه به ، ولا يتكفَّل أَحَدٌ بتربيته ؛ فالمُحْسِنُ من أَهْلِ هذا الزمان كمن أدخل اليتيم فى بيته ساعةً ، فأطعمه شيئا وسقاه ، ثم أعرض عنه وترك كفالته

فالقرآنُ إنما يَلِجُ صدورا طاهرة نَقِيَّة ؛ فإذا لم يجد تلك الصدور فهو كاليتيم الذى لايجدُ كفيلا ولا مَأْوى . وقد قال جلَّ ذِكْرُه [٢] : (يـأهل الكتابِ قد جاءكم رسولُنا يبيِّن لكم كثيرا ممّا كُنْتُم تُخْفُون

(١) دأبه : شأنه .

(٢) سورة المائدة ، آية ١٥

من الكتاب ويَعْفُو عن كثير . قد جاءَكم مِنَ الله نُورٌ وكتابٌ مُبين) .

قال : كتاب مُبين من الله الحروفَ المؤلفةَ التى تضمنت المعانى ، والنور كسوة تلك الحروف أَهداها رَبُّ العزة إلى هذه الأُمةِ ، قد تضمَّنَها الوَحْىُ حتى أَوصلها إلى الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، وتَلَقَّتْها الأَذهانُ والعقول ، وأَخذَتْها منه ؛ قال جَلَّ ذِكره [١] : (وإِنَّهُ لتَذْكِرَةٌ للمتقين) . فالتذكرة كدفتر حساب ؛ [يرجع إليه] [٢] فى كلِّ يوم وساعة ،إذا أَصبح ينظرُ فيه فيدبِّر أَمْرَه من التذكرة مما أَحكمه وردَّه إلى الديوان الأَكبر الذى فيه جملةُ حسابِ تجارته ، فالمتَّقِى ينظر فيه كلَّ يوم يتدبر أَمره فيه ومنه ، ويقابِلُ أَمورَه مما أَمَرَ الله فيه ، ويسوِّيه وَيتلافى ماضاعَ منه وماقَصَّرَ فيه ؛ ثم يُؤَدِّيه إلى ديوان اللهِ عزَّ وجل ، وهو اللَّوْحُ المحفوظُ .

ثم قال [٣] : (وإِنَّه لحَسْرَةٌ على الكافرين) .

فإذا رأَى الكافرُ مايصْنَعُ القرآنُ بأَهله من الثناءِ عليهم بين يَدَىِ اللهِ عزَّ وجل ، ونظر إلى كرامة اللهِ على أَهلِ القرآن صار ذلك كلُّه حسرةً عليه ، وتقطَّعَ قلبهُ حسرات .

---

(١) سورة الحاقة ، آية ٤٨ .

(٢) مكانها بياض فى ب ، ج، ومطموس فى ا .

(٣) سورة الحاقة ، آية ٥٠

ثم قال[١] : (وإنه لحقُّ اليَقين) ؛ أى هذا القرآنُ من حق اليقين ؛ أى كما أعطيتكم من نُورِ المعرفة ، فاستقرت قلوبُكم ، و أيقنت بربُوبيتى وبوحدانيتى فاطمأَنَّتْ نفوسُكم بى ، وآمنت ، كان مِنْ حَقِّ ذلك اليقين علينا أَنْ أُنزِل كلامى إليكم لتَسْكُنَ به تلك الصدور التى استقرَّ اليقينُ فى تلك القلوب فيها ، ويُجَاوِرُه بأَحسن المجاورة ، فهذا حَقُّه ،] ويساكته فى مُستقره ، فاليقينُ فى القلب ، وكلامى فى الصُّدور ، وهو ساحَةُ اليقين ؛ فذلك حقُّ اليَقين .

مثــل من يقــرأ القرآن من غير تدبر

ومثَلُ مَنْ يقرؤه من غير تدبُّر كجَرَسٍ على بَعِير ، فالسّائق للجمال تسير من أمامِه[٢] بصوت ذلك الجرس لثقالتها ، ليس عندهم إلا ذلك الصَّوت فى أسماعهم .

مثل التالى لكتاب اللــه

ومثلُ التَّالى لكتاب الله تعالى مثل رَجُلٍ طاهرٍ طيِّب ، له محبوب له حَنين إليه أَخذ حُبُّه قَلْبه ، وهُو بِهِ مشغوف ، يَمْضُغ شيئاً فى فمه . فإذا وجدَ ذلك الشىء فى فمه كيف يلتذُّ به ؟ وكيف يَجدُ حلاوتَه فى حَلْقِه وصَدْرِه ، فلا يملّ مِنْ مضْغِه وازْدِرَاد[٣] رِيقه

(١) سورة الحاقة ، آية ٥١

(٢) فى ب : فالسابق . . من أمامها .

(٣) زرد اللقمة وازدردها : بلعها .

بذلك الشيء . فكذا التالى لكتاب الله تعالى إذا فكّر أنّ هذا كلامٌ تكلَّمَ به ربُّ العالمين ، وأنزَله ، ومكَّن له فى صَدْرِى[1] حتى تردَّد واستقر ؛ وأقدرنى على استخراجه من صَدْرى حتى اختلج به لسانى ، مُستعينًا بالحنَك والأَسْنَان والشَّفتين ، فتُرَدَّدُ كَلِمهُ المنزَّلُ الذى تكلَّمَ به ، وأنزله فيما بين صدرى وشفتى ، وقرَّت عينُه بهذه الفكرة والتدبُّر ، وابتدأ بترددها فى فمه ولسانه وحَلْقه وشَفتيه ، هذا مِنْ قبل أن يشتغلَ بلطائفه ومعانيه ، قال الله عز وجلَّ[2] :(إنه لقرآنٌ كريم) ، وقال[3] : (بَلْ هُوَ قرآنٌ مَجيد). وقال :(وإنه لكتابٌ عَزِيز)[4] ومُهَيْمِن[5] ؛ فوصف كلامَه بالكرَم والمَجْدِ والعزِّ والهَيْمَنة.

فأَمّا كرَمُه فمِنْ سهولته الممزوجة باللُّطف والتقريب والتعليل. وأمّا مجادَتُه ففى الأَمر والنهى . وأمّا عِزُّه ففى شَرَف الألفاظ . وأما هَيْمنَتُه ففى نَفْى الأَشباه ونَزَاهة القلوب .

التمثيل والتشبيه

فإنْ نَفَر نافِرٌ مِنْ هذا فقال : أليس هذا تشبيه ؟ قيل له : هذا تمثيل ، وليس بتشبيه . قال : والتمثيل أن تَصِفَ شيئًا غاب عَنْكَ فتمثِّل له فى الشاهد ليقفَ على ما يُؤدّى معنى الغائب.

(١) هذا فى الأصول . (٢) سورة الواقعة ، آية ٧٧

(٣) سورة البروج ، آية ٢١

(٤) فى قوله تعالى فى سورة فصلت ، آية ٤١ : وإنه لكتاب عزيز .

(٥) فى قوله تعالى : وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه (سورة المائدة ، آية ٤٨) .

قال : مِثْل ماذَا ؟ قال : جاءَنا عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنه قال : لما كلَّم اللهُ تعالى موسى عليه السلام يوم الطُّورِ ، ورجع إلى بَنِي إسرائيل رأَوْا على وَجْهه من النُّور والبهاء مالم يَرَوْه قَبْلَ ذلك ؛ فقام إليه اثْنَا عَشَر سِبْطًا [1] ، فقالوا [2] : ياموسى . إنكَ سمِعْتَ كلامَ رَبِّكَ فصِفْهُ لنا . فقال : سبحانَ الله ! إنه لا يُوصفُ – قالها ثلاثَ مرات . قالوا : فشَبِّهْهُ لنا . فقال : سبحانَ الله ! إنَّه لا يُشْبِهُهُ شيئًا – ثلاث مرات . قالوا : ياموسى ، فبَيِّن لنا منه شيئًا نَفْهَم . قال : سمعْتُ كلامَ ربِّيَ لا رِيبةَ فيه ولا شُبْهة كأَشدِّ رَعْد خلَقه اللهُ في أَشدِّ صواعق خلقها اللهُ في أَحْلَى حلاوةِ مَنْطِق . ما خَطَر على قلبِ بَشَرٍ قطُّ . فقلت : يارَبِّ . أهكذا كلامك ؟ قال : لا ، ياموسى ، إنما كلَّمْتُك بقوّة عشرة آلاف لسان . ولى قوةُ الأَلْسُن [3] كلِّها ، ولو كلمتك بِكُنْهِ [4] كلامي لم تكُ شيئًا .

رُوِى عن الحُوَيْرِث أنه قال : كلَّمَ اللهُ موسى عليه السلام بقدر ما أَطَاق ، ولو كلَّمه بغير ذلك لم يُطِق ؛ فليس هذا بتشبيه ؛ فقد

---

(١) السبط : القبيلة من اليهود ، وجمعه أسباط (القاموس) .
(٢) تفسير ابن كثير : ٤٢٧
(٣) فى ابن كثير : الألسنة .
(٤) كنه : حقيقة .

عَلِمَ المؤمنون الذين عرفُوا اللهَ صِدْقًا ويقينا أَنَّ كلامَه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولكن حلاوةَ الكلامِ ، وبَرَكة [١] الكلام ، وذَوْق [٢] الكلام ؛ واصلٌ إلى قلوبِ الموحِّدين ، فهيَّج أنوارَ المعرفةِ والتوحيد مِنْ مَعْدنها [٣] ، ثم أخلص إليهامِنَ الحَلاَوة والبركة والذوق . ولكل هيج معمل ، ولكل معمل ثَمَرة ، ولكلِّ ثَمَرةِ طَعْم ولذَّة سِوَى المَنْفَعة ؛ وإنَّما أَسْمَعَ اللهُ تعالى كلمهُ موسى صلوات الله عليه لاختصاصه بذلك ، فلو لم يَكُنْ له حَلاوةٌ ولذاذة مانَفَعَتْهُ هذه الخصوصية وطَعْمه ولذَّته .

ورُوِى فى الخبر أنه قال : ياموسى ، إنى مُتَوَفِّيكَ . قال موسى : يارَبِّ ، مَنْ يغسلنى ؟ قال : بحسبك [٤] طُهْرى . قال : ياربِّ ، مَنْ يَبْكِى علىّ ؟ قال : الجنُّ والشَّجَر .

أفلا ترى أن كلامه قد طهَّره ، ومِنْ دون هذا [٥] نُودِىَ عمَلا .

المرأة التى فى لسانها بذاء :

بلغنا أنّ امرأةً كان فى لسانها بَذَاء [٦] ، فوافَتْ رسولَ الله صلَّى

---

(١) فى ب ، أ : وركة .

(٢) فى حـ : وذرو الكلام . وفى اللسان (ذرا) : فى حديث على كرم الله وجهه : يذور الرواية ذرو الهشيم ، أى يسرد الرواية كما تنسف الريح هشيم النبت . فذرو الكلام معناه سرده . وفيه أيضا : والذرو : الخلق . والمثبت فى ا ، ب .

(٣) المعدن : معدن كل شىء حيث يكون أصله . (المصباح) .

(٤) بحسبك : يكفيك .

(٥) فى حـ : يوذى . والمثبت فى ا ، ب .

(٦) البذاء : الكلام القبيح .

الله عليه وسلَّم وهو يَمْضُغُ اللَّحَم ، فقالت : أَطْعِمْنى منه يارسولَ الله . فناوَلها مِنَ الذى بين يديه ، فقالت : لا ، إلاَّ الذى فى فَمِك ، فأَخرج عليه السّلام من فَمِهِ وناوَلها ، فابتلعَتْهُ المرأةْ ، فذهب عنها البَذاءُ ، وظهرت عليها غَضَاضة[1] وعَفَافة وحَيَاءٌ .

فهذا مِنْ آدَمِىّ أكرمه اللهُ تعالى وطهَّره ، فكيف بكلامٍ تكلَّم به ربٌّ العزَّة ؟ ولذلك قال[2] : (وشِفَاءٌ لِمَا فى الصُّدور) .

وقد قال فى شأْن النَّحْل[3] : (يَخرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلوانُه فيه شِفَاءٌ للناس) .

فالَّذى يَلْعق العَسَل يُصيبه الشِّفَاءُ ؛ لأَنَّ ذلك شرابٌ خرج من جَوْفِ مَنْ تذلَّلَ لوَحْيِ الله ، وسلكَ سُبُلَ رَبِّه الذى سبَّل له ، فصار بذلك شفاءً للبدن ، وحلاوةً فى المطعم ؛ فما ظَنُّك بكلامِ ربِّ العزَّة ؟
وإنَّما يتحيَّر فى هذا مَنْ كان قَلْبُه سَكْرَان عن الله ، يحبُّ النفس ، ويُحِبُّ الشهوات ؛ فأَمَّا مَنْ أَفاقَ مِنْ سُكْرِه ، وحَيِيَ قَلْبُه بالله فانْتَبَه فهو وَاجِدٌ لهذا .

وكما أَنَّ السّكرانَ من الشراب لايَجِدُ طعْمَ العَسل ولَذاذَته إذا

(١) الغضاضة : الذلة . وغض طرفه غضاضة : خفضة .

(٢) سورة يونس ، آية ٥٧ ، والآية : يأيها الناس ، قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

(٣) سورة النحل ، آية ٦٩ .

لعقه . فكذا السَّكْرَان مِنْ حُبّ الشهوات لايَجدُ طَعْمَ كلامِ الله ولا لذَاذته ، ولا يكون له شفَاءٌ لا فى الفَم . ولا فى الجَوف ، ولا فى القلب ؛ وهو عبدٌ [١] آبِقٌ مُعَاقب بإِبَاقِه ؛ قال الله عزَّ وجلَّ [٢] (سَأَصْرِفُ عن آياتِىَ الَّذين يتكبَّرُونَ فى الأَرْض بغَيْرِ الْحَقِّ)

وكلُّ مَنْ تكبَّر على اللهِ أَهانه اللهُ تعالى ،وذلَّله ورَمَى به فى إكرام نفسه ، وطلبِ عِزِّها ورِفْعَتِها ، فقد عُوقِبَ بأَنْ صرف قَلْبَهُ عن آياتِه حتى لايَفْهمها ، ولايَجِد حلاوَتَها ولالذَاذتَها .

مثـل التالى ولا يعلم التفسير

مثَلُ التالى كتابَ الله تعالى ولا يَعْلَمُ تفسيره كمثَلِ مَلِكٍ كتب إلى عامله كتابًا فيه أَمْرٌ ونَهْىٌ ووَعْدٌ ووَعيد على تَضْييع أَمْرِه ؛ فاستظهره هذا العامل ، فقام ببعضه فى الأُمور التى أَوْعَدَ [٣] عليها ، وضَيَّعَ البَعْضَ التى وَعَد عليها ، فأَخذ هذا العاملُ فى كلِّ يوم يقرأُ هذا الكتابَ ، وكلَّما أَتى على وَعيدٍ [٤] وتَهَوُّل على النفس طَرَّبَ [٥] فيه ورَفع صوْتَه ، كأَنه يَتَغَنَّى بأَغَانِى السُّرور ؛ وكلما أَتى على طَمَعٍ ونَوَال ، وبُشْرَى وكرامة ، ذَبُلَ وتكاسَل ؛ وربَّما يتثاءَبُ فى

---

(١) أبق العبد : إذا هرب من سيده .

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٤٦

(٣) الوعد فى الخير ، والإيعاد فى الشر .

(٤) التهول : إظهار ماهالك من شئ .

(٥) طرب : الإطراب : كالتطريب والتغنى .

قراءته ، فقرأه على تلك الهيئةِ كالمَصْرُوع والمَجْنُون ، فإنّه[١] فى القرآن أمرٌ ونَهْى . ووَعْد ووَعِيد . وذِكْرُ أنباء القرون للطمَع والتخويف . وضَرْبِ الأَمثال . وذِكرُ الآلاء[٢] . وذكر المِنَن واللّطائف ، فإذا لم يَعْلَمْ هذا كلّه ، ورَضِىَ من نفسه بالقراءة فقط ، فكأنّه العامِلُ يقرأُ كلَّ يوم كتابَ الملك ، ويَتْرُك مافيه من المَعَانى بمنزلة رَجُل يَسْلُكُ طريقا قَفْرًا يستقبله عِقابٌ[٣] يحتاجُ إلى قَطْعها ، وهو[٤] أثقال الصدق فى أَمْره ونَهْيه ، ومرّةً يستَقْبله مفاوِزُ وهو وَعِيده ، ومرّة يستقبله فَلَاة مُعْطِشة ومَجَاعة ، وهى منازلُ قَوْمٍ وصَفها فى تنزيله ، ومَدحهم بها ، ومرّةً يستقبله فَضَاءٌ من الأَرض فيها رِياضٌ من خُضر ، وهى ذِكر النعم ، ومرةً يستقبله فى تلك الأَرْضِ بساتين ذاتُ وَرْد وبَانٍ[٥] وياسمين ، وهو ذِكْرُ المِنَنِ ، ومرّة يَهْجُم على أَغراسٍ[٦] فى تلك البساتين ، وهى تلكَ الحظوظ التى هَيّأَ له من آلائه ، وتلك اللطائف المذكورة ، ومرة تستقبله أَرْضٌ شَاكَة مَسْبَعة[٧] ، وهى ذِكْر النفوس ومكايِد الشيطان.

---

(١) فى حـ : فان .
(٢) الآلاء : النعم .
(٣) عقاب : جمع عقبة .
(٤) هذا فى الأصول .
(٥) البان : شجر ، ولحب ثمره دهن طيب .
(٦) أغراس : جمع غرس ، المغروس .
(٧) أرض شاكة : كثيرة الشوك . ومسبعة : كثير السباع .

فهذا القرآنُ كائن فيه هذه الألوان ؛ فمن قرأ القرآن لظَهْرِه[١] مرّت عليه هذه الأشياءُ ومرَّ بها وهو عنها سَكْرَان أو نائم ، فيطرب ويُظْهر السّرور فى وَقْت الأحزان والانكسار ، ويَرْفَعُ صوته فى وقت الخَفْض والخُشُوع ،ويَنْشَط فى حال الانقباض ، ويتحازَنُ[٢] فى وقت السّرور والبَهْجَة .

مثـل من يقرأ القرآن بألحان

فمثل ذلك مثل ملكٍ أمر المنادِى أن ينادِى فى الرعيّة بوعيد هائلٍ يكادُ أَنْ تَشِيبَ منه الرّءُوس ، فنادَى بنداءٍ طَرَّب فيه وتغنّى ، وجاءَ بألْحانِ السّرور ، أفليس يَمْقُتُه الملكُ على ذلك ويُغيظه .

ولو أنَّ رجلا تَلاَ هذه الآية[٣] : (واتَّقُوا يومًا تُرْجَعُون فيه إلى الله) . أو تلاَ هذه الآية[٤] : (فوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمعين) أو تلا : ([٥] إذ الأَغْلالُ فى أعناقهم والسَّلاسِلُ يُسْحَبُون. فى الحَمِيم ثم فى النارِ يُسْجَرُون) ،ثم قال فى آخر ذلك[٦] :(ذلكم بما كُنْتُم تَفْرَحُون فى الأَرْض بغَير الحقِّ وبما كنْتُم تَمْرَحُون) . فهو يرَى نَفْسَه فى

---

(١) لظهره : يريد غير متفهم له . وفى الحديث : ما نزل من القرآن آية إلا لها ظهروبطن (تاج العروس — طلع).

(٢) يتحازن : يظهر الحزن .

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٨١

(٤) سورة الحجر ، آية ٩٢ .

(٥) سورة غافر ، آية ٧١، ٧٢ . يسجرون : يحرقون .

(٦) سورة غافر ، آية ٧٥

الفَرَح والمرح إلى قَرْنِهِ وقَدَمه ؛ فرجَّع بقراءة هذه الآيات وطرَّب ، وجاءَ بألحان السُّرور .

ثم قرأ [١] : (وبَشِّر الْمُؤْمنين بأَنَّ لهم مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبيرًا). (يومَ [٢] تَرَى المُؤْمنين والمؤمنات يَسْعَى نُورهم بين أَيْديهم وبأَيمانهم بُشْراكُمُ الْيَومَ جَنَّاتٌ تَجْرى من تحتها الأَنهارُ خالدين فيها ذلكَ هو الفَوزُ العظيم) ؛ فأخذ يتحازَنُ ، ويَخْفِضُ فى صوته وتَرْجيعه ، ويئنُّ فيها ،ويُخْرِجُ صَوْتَه [٣] أصوات الثَّكالى ، وإذا قرأ قوله تعالى [٤] : (يومئذٍ تُعْرَضون لا تَخْفَى منكم خافيةٌ) ،يُغَنِّى فى صَوْته ولَحْنِه ، وأرسل كلَّ صوت كالمُتَنَشِّط المسرور .

وإذا قرأ صفةَ الجُود [٥] : « هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ» تمثَّلَ فى تلاوتهِ كهيئةِ أَهْلِ المصائب ،وذَبُل وانكسر .

فلو أنَّ عَبْدًا مِن عبيد أَهْلِ الدنيا بَشَّرَه مولاه [٦] بشئ أَوْ أَمَّلَهُ نوَالاً [٧] ، أو أَطْمَعه فى بُشْرى انقبض وعبس وَجْهُه ، أو إذا أَوْعَده أو وبَّخه فى شئ انبسط وضَحِك فى وَجْهِهِ — لمَقته [٨] ؛ ولو أنَّ

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤٧

(٢) سورة الحديد ، آية ١٢

(٣) مكانها بياض فى ب ، أى ويخرج صوته كأصوات الثكالى .

(٤) سورة الحاقة ، آية ١٨ .

(٥) سورة الرحمن آية ٦٠ .

(٦) المولى هنا السيد .

(٧) النوال : العطاء .

(٨) مقته : أبغضه أشد البغض .

رجلا قال فى مَوْلاه سُوءًا فلفظ به العَبْدُ على الجَهْر والتصريح لَمَقَته ؛ فإذا تَلاَ التالى تلك المقالاتِ التى حكى اللهُ تعالى عن أعدائه مِنَ الفَرَاعنة جَهَر بها وطَرَّب بها خيفَ عليه المَقْتُ .

قــراءة السلف :

ورُوى عن إبراهيم النَّخعى رحمه اللهأنَه كان إذا مرّ بقوله[1] : (وقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) — خفَض صَوْتَه .

ورُوى عن بَعْضِ التابعين أنه قرأ سورةَ الفُرْقَان أربعين ليلةً ، فكانَ كلَّ ليلة إذا بلغ إلى قوله[2] : (قالُوا وما الرَّحْمَن) — سقَط مَغْشِيًّا عليه ، فتعاهَدُوا ذلك أربعين ليلةً — كلما بلغ هذه الآيَةَ سقَط ، ولم يقدر أَنْ يجاوزَها .

لـهكذا صفةُ المُنْتَبِه لما يَتْلُو ؛ فمن اتبع لتلاوته وقراءته لبَطْنه[3] ، فإذَا أتَى على مِثْل هذه الآيَةِ انقطع صَوْتُه ، وتراجع فى حَلْقه ، وإذا أتَى على العِقَاب أعيا ، وإذا قطع المَفَاوِزَ عطش ونَصب[4] ، وإذا قطع البَساتين والرِّياضَ طَرِب ، وإذا طعِم الأَغراس سكر ؛ لأَنَّ الأَشربة الصّافية الصّرفة كائنة فى الأَغراس ؛

(١) سورة البقرة ، آية ١١٦

(٢) سورة الفرقان ، آية ٦٠ ، والآية : وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا .

(٣) هذا بالأصول .لبطنه : يريد مفكرا فى معانيه ،انظرهامش رقم ١ صفحة ٦٨.

(٤) النصب : أشد التعب .

فذلك وَقْتُ الوَلَهِ [١] إلى الله تعالى ، وَلَهَتْ قلوبُهم عن كل شيءٍ سِوَاه ؛ وإذَا أَتى على أَرْضٍ شَاكَة [٢] أَنَّ وضَاقَ عليه الطريقُ ، وإذا أَتى على أَرْضٍ مَسْبَعة [٣] أَرْعَد خَوْفاً ، وإذا أَتى على بلاء العدوّ تحيَّر واستغاث وصرخَ إلى رَبّه ؛ فهذه أَحوالٌ كائنةٌ في قلوب المُنْتَبِهين الذين قَرءُوا القرآنَ لباطنه ، فَتحوّلَتْ قلوبُهم على تحوُّلِ مَعَاني ما يَتْلُون ؛ وربّما هالهم في تلك الفَلاَة لا يحطُّون في تلك المواضع أَثقالهم ؛ فإذا نزلوا استراحُوا ؛ وذلك لطْفٌ من الله تعالى يلطفُ به عَبْده لما يَرَى مِمَّا حلَّ بقَلْبه من النَّصَب والتعَب في قَطْعِ هذا الطَّريق على ما وصَفْنا ، ففتَح له في بَعْضِ تلكَ الآيات ، ويُشرق على قَلْبه من نُوره فيردّد تلك الآيات ، فربما بَقِيَ في تلك الآياتِ ساعات لما يتراءى له فيها ؛ فذاك مُسْتَراحُ [٤] قلبه ، وفي ذلك الوقْتِ يَحُطُّ رَحْلَه ، ويحلُّ بفنائه حتى يَقْوَى .

في التـــــوراة :

ورُوِي عن مالك بن دينار رحمه الله ؛ قال : قرأْتُ في التَّوْراة : لا تعجزنَّ أَنْ تقومَ في صلاتِك بين يديَّ باكياً ، فإني أَنا اللهُ الذي اقتربتُ لِقلبك ، وبالغَيْب رأَيتَ نوري ؛ فهذه خاناتٌ ومنازل

(١) الوله : أشد الحب .

(٢) شاكة : كثيرة الشوك .

(٣) أرض مسبعة : كثيرة السباع .

(٤) مستراح : راحة .

أولئك القوم تُهَيَّا لهم نُزُلا [١] من النور حتى تتراءى لهم معانى تلك الآيات وبَوَاطنها ، فيتلذَّذُون بها ، ويستريحون من التَّعَب الذى لحقهم فيما تَلَوْا قَبْل ذلك ، وإنما [٢] مرُّوا بتلك الآيات بعد ذلك مرّةً أُخرى فلم يُصِبْهم تعَبٌ ولا نصَب كما كان قبل ذلك ، فطمعوا فى حطِّ الرِّحَال لما كانوا وَجَدوه قَبل ذلك ، فداروا عليها ، وردَّدُوها يُريدون حطَّ الرحال من غير إعياءٍ [٣] ، واستراحةً من غير نَصَب ، يطمَعُون فى إشراق ذلك النورِ تلذُّذًا بفِناء الملك الكريم ، فيجدون تلك الخانات لم تُهَيَّأْ لهم نُزُلا ، إنما هى أَوَارِىّ [٤] خالية ، وبيوتٌ صُفْرٌ [٥] ، فيرتحلون ويَمْضُون . وإذا هُيِّئَ النُّزُلُ فقد وَجَدُوا ما طلبوا ، فإذا ردَّدُوها تراءى للقلب شُعاع ذلك ، فالتهب النُّورُ ، وتُصوِّرت تلك المعَانى المُنْدَرِجة فيه على قَلْبه ، فصار طربا فى سمعه ، فأَعلمه وأَبكاه .

فإذا لم يعلم هذا كلَّه ، ورَضِيَ من نفسه بالقراءة فقط فكان كعامل يقرأُ كلَّ يوم كتابَ الملك وَيَتْرُكُ ما فيه من المعانى .

ورُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ما أَنزلَ اللهُ

(١) النزل : المنزل ، وماهيئ للضيف أن ينزل فيه .

(٢) فى هامش ب : لعله ربما .

(٣) الإعياء : الكلال ، والعجز .

(٤) الأوارى : الآرى معلف الدابة ، أو محبس الدابة ، جمعه أوارى (تاج العروس)

(٥) صفر : خالية .

تعالى كتابا إلا أَحَبَّ أَنْ يَعلمَ تفسيره ؛ فمن قرأَ القرآنَ ولم يعلم تفسيره فهو أُمىّ .

وقال سَعِيد بن جُبَيْر رحمه الله : مَثَلُ مَنْ قرأَ القرآنَ ولم يعلم تفسيره كمثل رجلٍ جاءه كتاب من أَعز الناس إليه ، يفرح به ويطلب مَنْ يقرؤه عليه ، فلم يجد وهو أُمىّ ، ففرح بالكتاب ولا يَدْرِى ما فيه فهكذا مثَلُ مَنْ يقرأُ القرآن ولا يعلم تفسيره وما فيه .

مثــل صاحب الأخلاق

ومثل صاحِب الأَخلاق مثل [٥٣] مَلِكٍ له خزانةٌ وقُوّاد ومَمْلَكة ، فإن كانت الخزانةُ قليلةً كنوزُها ، وكُورَته [١] صغيرة ضاق به هؤلاءِ القُوَّاد ، وقال بعضُهم لبعض : هذا ملك له اسمُ الخزانة والكنُوز . وليس لكنوزه مادَّةٌ يُجْرِى علينا ويُغْنِينا حتى نتَّخذَ عُدَّةً للعدوّ الذى هو بمَرْصَد منَّا ومنْ ملكنا هذا ، وليست له مَمْلَكة فَسيحةٌ نَنْتَشِر فيها ، فيَأْخذ كلُّ قائد منَّا ناحيةً من المملكة ، فيتملَّك على أَهْل ناحيته ، وقُوَّةُ الملوك فى الخزائن الجمَّة [٢] ، وبالكنوز والجوهر والقوّاد ، وحسن التدبير فى هَذَيْن ، فيدبّر أمره وأُمورنا بحُسْن ما عنده من الكيَاسة [٣] ، فيدّر علينا كنوزه وَقْتا وَقْتًا ، وشَهرًا

---

(١) الكورة : المدينة والصقع .

(٢) الجمة : الكثيرة .

(٣) الكياسة : خلاف الحمق ، والعقل .

شهرًا ، ويعدّ جواهرَه للنوائبِ العِظَام ، فلا نرى هاهنا عُدَّة ولا فُسحة ؛ فتعالوا نَنْتَقِل عن هذا إلى مَلكٍ لِمَمْلَكته فُسحة ومُنْتَشَر ، نَتَّسع فى نواحيها ، ونَعْمَلُ للقيادة ؛ فيعود الجندُ إلى مَلِكٍ له كنوزٌ جمَّة ، ولكنوزه مادَّة من غلاَّت المملكة . فله كنوزٌ وأَمْصَار [1] وقُرى وَبرٌّ وبَحْر . كملك الهِنْدِ والرّوم والعرب ؛ ما نصنَعُ بهذا الضعيف العاجز ؟ يطلبون مَلِكا بتلك الصفة ، ولا يَثْبُتون مع هذا ؛ فالملكُ هو القلْبُ ، وخزانته فى جوف القَلْب ، فيه كنوزُ المعرفة ، وجَوَاهرُ العلم بالله . والعقلُ وَزيرُه ، والصَّدْرُ فسحته ، وساحَتُه ومَمْلكته ؛ والأَخلاق قُوَّادُه . والأَركان رَعيّته ؛ وهى الجواهر السبع ؛ فهؤلاء القوادُ قد أَحْدَقُوا [2] بالقلب فى هذا الصّدر ، وأَطافوا بباب القَلْبِ بين عينى الفُؤَاد ؛ فإِنَّ الفؤادَ هو ما ظهر من القلب ، والقَلْبُ ما بَطَن ، والقلبُ بَعْضٌ فى بعض ، والعَيْن على الفؤاد ؛ وذلك قوله تعالى [3] : ﴿ما كذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى [4]﴾ . وقول رسول الله

(١) الأمصار : جمع مصر . والمصر : كل كورة يقسم فيها الفئ والصدقات .

(٢) أحدقوا : أحاطوا .

(٣) سورة النجم ، آية ١١ .

(٤) أى لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، وذلك أن الله تعالى جعل بصره فى فؤاده حتى رأى ربه تعالى ، وجعل الله تلك رؤية (القرطبى : ١٧—٩٢). وقال الزمخشرى فى الكشاف (٢ — ٤١٦) : ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ماراه ببصره من صورة جبريل عليه السلام ؛ أى ماقال فؤاده لما رآه : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا ؛ لأنه عرفه ، يعنى أنه رآه بعينه ، وعرفه بقلبه ، ولم يشك فى أن مارآه حق .

صلّى الله عليه وسلّم : أتاكم أَهْلُ اليمن أَلْيَنُ قلوبًا ، و أَرَقُّ أفئدةً[١] .
فوصف القَلْبَ باللين ، والفؤادَ بالرّقة .

فالأَخلاقُ فى الصَّدْر قوّاد الملك . قِيَامٌ بين عينى الفؤاد ، والعَقْل شُعَاعُه ، يُشْرِق بين عَيْنَى الفُؤَاد ، ويُدَبِّرُ أَمرَ القَلْب . والنفسُ فى الجوف رَابضةٌ[٢] فى مكان مَظَانِّها . والهوى بباب النَّفْس يتلهَّبُ ويتلظَّى[٣] بين يدى بَصِيرة النفس ؛ فإذا خَطَرت الخاطرةُ فى الصَّدْرِ بين عينى الفؤاد نَظَرَ العقلُ ؛ فإنْ رآها حسنةً و أَمْرًا رشيدا قدَّرَ ودَبّر ماذا يراد ؟ وكم يُراد ؟ ومتى يُرَاد ؟ وإلى مَتَى يُراد ؟ وإن رآها سيئةً وغَيًّا[٤] نَفَاها[٥] عن الصّدر ؛ ففى هذا الوقت للنفس مُنَازعةٌ مع القلب وللْهَوَى مع العَقْل .

فى هذه الخاطرة النفسُ تشتهى ، والهوى يُزْعِجُ[٦] النَّفْسَ ويُشَجِّعها ، والعدوُّ يُزَيِّن بِمُنًى ويُغْرِى ؛ فإذا جاء مدَدُ الأَخلاقِ بطلَتْ زِينةُ العدوّ وأمانيه ، وانكشف غُرورُه . وارتدَّ الهَوَى قَهْقَرى إلى مَعْدن مِهْنَتِه ، وجاء مدَدُ الكنوز : كنوز المعرفة ، ومدَّ الملك يدَه إلى جوهر الخزانَة فانْمَحَقَتْ[٧] الخاطرة و أَسبابُها ،

(١) صحيح مسلم : ٧٢ ، وفى النهاية : أرق قلوبا ، أى ألين وأقبل للموعظة ، والمراد بالرقة ضد القسوة .
(٢) ربضت الشاة : كبركت فى الإبل ، يريد ساكنة مستقرة .
(٣) يتلظى : يلتهب . (٤) الغى : ضد الرشد . (٥) نفاها : أبعدها .
(٦) زعجه : أقلقه وقلعه من مكانه كأزعجه .
(٧) محقه : أبطله ومحاه .

ومُعْتَمَلها ، وجنودُها. وطليعةُ الخاطرة النفس العدوُّ إذا كانت خاطرة غَيّ ، وإن كان رشَدًا كانت طليعتهُ الخاطرة الحق ؛ فعزُّ هذا الملك ومَنَعَتُه [1] وقِوَامُ [2] مَمْلكته بهذه الكنوزِ والقوّادِ ، وكذلك عِزّ القلب ، ومنَعَتُه بكنوز المعرفة بالله تعالى ، وجَواهر العلم بالله تعالى ، وبهذه الأخلاقِ التى أحْدَقت [3] بالقَلْب بين عَيْنَى الفؤاد .

أصــول الأخلاق :

فالأخلاقُ أُصولُها فى الطبع ، ومادّتُها من المعرفة والعلم بالله تعالى ، ومُعْتَملها فى الصّدر .

فالموحِّدُون هذه صِفَتهم ، والكفّار أخلاقُهم أُصولُها فى الطّبع ، ومُعْتَملها فى الصّدر ، ومادَّتُها فى الفَرَح بِمَدْح الناس ، وطَلَب العُلُوّ والشَّرَف والذِّكر ؛ قال الله تعالى [4] : (تلكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُها للذين لا يُريدونَ عُلُوًّا فى الأَرْضِ ولا فَسَادًا والعاقِبةُ للمتَّقين [5]) فالمؤمنون تخلَّقوا بخُلقِ الله تعالى ، وتواضَعُوا به لله تعالى ،

---

(١) فى منعة : أى معه من يمنعه من عشيرته .
(٢) قوام الأمر : نظامه وعماده وملاكه .
(٣) أحدقت : أحاطت .
(٤) سورة القصص ، آية ٨٣
(٥) الدار الآخرة : الجنة . علوا فى الأرض : رفعة وتكبرا على الإيمان والمؤمنين . ولا فسادا : عملا بالمعاصى .

وأرادوا [١] به وَجْهَ الله ، وتَقَرَّبُوا به إلى الله تعالى ، وتَحَبَّبوا به إلى الله.

والكفَّار تخلَّقُوا بذلك الخلق ، فتكبّروا على الله تعالى ، فجاوَزُوا بها الحدودَ ، ولم يضَعُوها مواضِعَها بحقِّه ، وتقرَّبوا إلى الخَلْق ، وتحبَّبُوا به إلى أهل العلائق ، وتَصَنَّعُوا [٢] به ، واتخذوا جاهًا .

والأَخْلاَقُ لها سلطانٌ ؛ فإذا وجدَ الخَلْقُ تَفَسُّحا ساحَ في فُسْحَته ، فجاوزَ الحدودَ في أموره ، فصار مُسْرِفًا مُضَيِّعًا للحقّ ، وقد استمرّ به الهوى والنفس .

والمؤمنُ يتخلَّقُ بذلك الخُلق ، فإذا تَفَسَّح الخَلق عقَلَه [٣] العَقْلُ عن المجاوزة ، ومنَعه عن التعدّى ؛ ولهذا سُمِّى عَقْلا ؛ لأنه عَقَله عن الجهل ، وردّه إلى العلم الذى عَلَّمه اللهُ تعالى ؛ وكان الله تعالى أَعْلَم بذلك الأمر ، كم يُرَاد ؟ وإلى متى يُراد ؟ وبِأَى مقدار ؟ وإلى متى ؟ فوكَلَ به العَقْل حتى يَهْدِيه لذلك .

أَلاَ تَرى إلى قول الله عزّ وجل ، حيث سأَلُوا رَسولَ الله صلّى الله عليه وسلم : كم تُنْفِق من هذا المالِ الذى حَثَّ اللهُ تعالى على إنْفَاقه ،

(١) فى ج : فأرادوا .
(٢) فى ب : وتضيعوا . والمثبت فى ا ، ج .
(٣) عقله : منعه .

وعظَّمَ فيه الثوابَ ؟ فنزلت [١] قولُ اللهتعالى [٢] : (يسألُونَكَ ماذَا يُنْفِقُون قُل العَفْوَ) .

والعَفْو :هو الفَضْلُ ، أى ما فضل مِنْ نَفْسك وعِيَالك الذين تَعُولهم .

وقال رسول اللهصلَّى اللهعليه وسلَّم : ابدَأْ بِمَنْ تَعُول [٣] ، وخَيْرُ الصَّدقةِ ما كان عن ظَهْرِ غِنىً [٤] .

وقال رجل : يارسول اللهصلَّى اللهعليه وسلم ، عندى دِينار ، ما أَصنَع به ؟ قال : أَنْفِقْه على نَفْسك . قال : عِنْدى آخر . قال : أَنْفِقْه على عِيالك ووَالدتك . قال : عندى آخرُ . قال : أَنْفِقْه فى سبيل اللهتعالى ، وذلك أَدْناهن .

فمن تخَلَّق بالسَّخَاوة [٥] ، فاستمرّ به طَبْعُه ، وأَعْلَنَتْه [٦] نَفْسُه ،وملَكَ به هَواه ،وزَيَّن له عَدوّه ،وذهب فأَنْفق على أَبَا عِده ،

(١) هــكذا فى الاصول .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢١٩ .

(٣) تعول : تلزمك نفقته من عيالك ، من عال الرجل عياله يعولهم إذا قام بمــا يحتاجون إليه من قوت وكسوة وغيرهما. يريد ابدأ بهؤلاء فإن فضل شئ فليكن للأجانب.

(٤) عن ظهر غنى : ماكان عفوا قد فضل عن غنى .

وقيل : أراد مافضل عن العيال.والظهر قد يزاد فى مثل هذا إشباعا للــكلام وتمكينا ، كأن صدقته مستندة إلى ظهر قوى من المال (النهاية) .

(٥) السخاوة : السخاء والكرم .

(٦) فى ج : وأعانته .

وترك أقاربَه ، وعالَ [1] مَنْ لم تلزمه عِيَالتُه ، وضيَّع عِيَاله ؛ فهذا فِعْلُ مَنْ أَرَاد بذلك الخُلق علُوًّا فى الأَرض ، وتصنّعًا عند الخَلْق .

فالعقلُ يكشِفُ عن هذا الغَيب ، وما هو أَدَقُّ مِنْ هذا .

الأسخياء والأجــواد :

رَوَى سُليمان بن الحارث البَصْرى ، عن أَبى هِلاَل الرَّاسِبِى ، عن حُميد بن هلال ، قال : تفاخَر رَجُلان : رجل من بنى هاشم ورَجُلٌ من بنى أُميّة ، فقال هذا : قَوْمى أَسْخَى من قومك . وقال ذاك :بل قومى أَسخى من قومك .فقال :سَلْ فى قومك ،و أَسأَلُ فى قَوْمى ؛ فافترقا على ذلك ؛ فسأَلَ الأُموىّ عشرةً من قومه ، فأَعطوه عشرةَ آلاف ، وجاء الهاشمىّ إلى عبدالله بن عباس رضِىَ الله عنهما . فسأَله فأَعطاه مائةَ أَلف ، ثم أَتى الحسَن بن على رضى الله عنهما فسأَله ، فقال : هل أَتَيْتَ أَحدًا قبلى ؟ قال : نعم ،عَبْدَ الله بن عباس رضى الله عنهما [٥٤] ،و أعطانى مائةَ أَلف ،فأَعطاه الحَسنُ رَضِى الله عنه مائة أَلف وثلاثين أَلفا ؛ ثم أَتى الحُسين رضِىَ اللهُ عنه فسأَله ، فقال : هل أَتَيْتَ أَحدًا قَبْلى ؟ قال : أَخاكَ الحَسن بن على رضِىَ الله عنهما فأَعطانى مائةَ أَلف وثلاثين أَلفاً ، فقال : لو أَتَيْتَنى قَبْلَ أَن تَأْتيَه لأَعطيتُك أَكثَرَ من ذلك ،ولكِنْ لم أَكُنْ لأَزيد على سَيِّدى ؛ فأَعطاه مائة أَلف وثلاثين أَلفاً .

---

(١) عاله : كفله وقام به .

فهذه سَخَاوةٌ مُستَمِرّة فى الطَّبْع والنَّفْس ، قد منعها العَقْل ، فزيّن هذا العقل من الحسين بن على رضى الله عنهم .

فالكفّارُ كانوا يتفاخَرُونَ ، ويُبَاهى [١] أَحَدُهم صاحبَه بالأَخلاق و أفعاله ، ويُمَارِى [٢] حتى يتَعَادَوْا من أَجْله .

مكارم الأخلاق :

ورُوى عن علىّ بن أَبى طالب رضى الله عنه قال [٣] : لما أَتَانَا سَبَايا [٤] طيِّئ تكلَّمَتْ فيه جارية جميلة نسيتُ [٥] جمالها لِمَا رأَيْتُ مِنْ فَصَاحتها ، فقالت : يامحمد ، إنْ رأَيْتَ أن تُخَلِّى عنى ولا تُشمت بى أَحياءَ العرب ، فإنى ابنةُ [٦] سرّة قومى ، كان أَبى يفكُّ العانى [٧] ، ويحمى الذِّمَار [٨] ، ويَقْرِى [٩] الضَّيْفَ ، ويُشبع الجائع ، ويُفَرِّج عن المَكْرُوب [١٠] ، ويُطعم الطَّعام ، ويُفْشِى السلام ، ولم يردَّ طالبَ حاجة قَطُّ ، و أَنا ابنةُ حاتم الطَّائى .

---

(١) يباهى : يفاخر .

(٢) ماراه : جادله .

(٣) مختار الأغانى : ٣ — ٣٥٢ .

(٤) سبايا : سبى العدو سبيا : أسره فهو سبى .

(٥) فى ب : سبت جمالها .

(٦) فى مختار الأغانى : فإنى بنت سيد قومى .

(٧) العانى : الأسير .

(٨) الذمار : مايلزمه حفظه وحمايته .

(٩) يقرى الضيف : يقدم له مايحتاج إليه .

(١٠) المكروب : المهموم .

فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم : يَاجارية ، هذه صفةُ المُؤْمن حقًّا ، لو كان أبوك إسْلاَميًا لترحَّمْنَا عليه ، خلُّوا عنها ؛ فإنَّ أبَاها كان يحبُّ مَكَارمَ الأَخلاق ، والله يحبُّ مكارمَ الأَخْلاق .

فقام أَبُو بُرْدَةَ رضى الله عنه ، فقال : يارَسُولَ الله ، اللهُ يُحبُّ مكارمَ الأَخلاق ؟ فقال : ياأَبا بُرْدَة ، لايدخل الجنةَ أَحدٌ إلاَّ بِحُسن الخُلق .

حدثنا الجارُود ، أخبرنا يزيد بن هارون ، عن المسعودى ، عن القاسم ، قال : قال عبد الله : تجد الرّجل [1] فَظًّا ، فإذا بحَثْتَه وجدْتَ سريرتَه الإيمان ، وتجده حُلْوَ الخلائق ، فإذا بحَثْتَه لم تَجِد فيه من الإيمانِ شيئا ، ومَنْ شاءَ اللهُ جمع له حلاوةَ الدِّين وحلاوةَ الخلق .

الفظاظة ضد الكرم :

والفَظَاظةُ[1] : ضِدُّ الكرم ، فمن كانت له فَظَاظَةٌ غَلُظَ قَلْبُه . والكرَمُ لِينُ القَلْب وانقيادُه بمنزلة شجَر الكَرْم أَيْنَما قُدْتَه انقاد ؛ ولذلك سمِّى جنَّة العِنَب كَرْما .

وكذلك مارُوِىَ عن أَبى هُرَيرة رضِى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : لاتَقولوا للعِنَب كَرْما ، إنما الكَرْمُ

(١) رجل فظ : سيئ الخلق .

قَلْبُ المؤمن [١] ، وذلك لأنه لاَنَ ورَطُب بالرحمة التى حلَّت به من الله تعالى . وانقَادَ لعبوديته [٢] ، والكافرُ كزٌّ [٣] قاسِى القلب ، يابس كالصَّخر ، لأنَّ رحمةَ الله لم تَنَلْهُ فيَبَّسَتْه حرارةُ النَّفْسِ وشَهَواتها . وقوَّاه التَّجَبُّر والكِبْر ، فَيبِس وكزَّ ؛ فإن كان فيه بعضُ هذه الأخلاق المحمودة فاستعملها ، فبجوهريته استعمل ، لا بمعرفة اللهِ تعالى ، فيجاوز الحدودَ حتى أفرط وضيَّع ، وشانَ [٤] ماحَسُنَ منه .

مثـــل من يسبح بتسبيح غيره

ومَثَلُ مَنْ يُسَبِّحُ بتسبيح غَيْرِه مَثَلُ رَجُلٍ عَجز أَنْ يَهْدِيَ إلى الملك على قَدْرِ مُلكه وغِنَاه . فأَهدى إليه مِنْ طاقته ومَقْدرته ، ثم قال له : أَهديتُ هذا من ذات يَدِى . وأَهديتُ إليك بقلبي هديةَ

(١) فى الفائق (٢ — ٤٠٧) : لاتسموا العنب الكرم ، فانما الكرم الرجل المسلم. قال الزمخشرى : أراد أن يقرر ويشدد مافى قوله عز وجل : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) بطريقة أنيقة ومسلك لطيف ورمز خلوب : فبصر أن هذا النوع من غير الأناسى المسمى بالاسم المشتق من الكرم أنتم أحقاء بألا تؤهلوه لهذه التسمية ولا تطلقوها عليه ، ولا تسلموها له ، غيرة للمسلم التقى وربأ به أن يشارك فيما سماه الله به ، واختصه بأن جعله صفته ، فضلا أن تسموا بالكريم من ليس بمسلم ؛ وتعترفوا له بذلك ، وليس الغرض حقيقة النهى عن تسمية العنب كرما ، ولكن الرمز إلى هذا المعنى .

(٢) بالأصول : لعبودته ، وهما بمعنى .

(٣) كز : الكزازة : اليبس والانقباض ، ووجه كز : قبيح ، ورجل كز اليدين : بخيل .

(٤) شان : عاب .

مِثْلك ، فعَلِم الملكُ أنه صادق فى مَقَالَته ، فاحتسبها منه على قَدْره ، وجعل ثَوابَه على [١] ذلك .

فكذلك العَبْدُ فيما بَيْنَه وبين الله تعالى ؛ إذا أَثْنَى عليه فإنما يُثنِى بمبلغ عِلْمه ، ثم عِلْمِ العَبْدِ أنه عاجز عما وَراءَ ذلك من الثناءِ ؛ إذ هو فوقَ ما أثنى ، فيقول : لكَ الحمد كما حمدْتَ نَفْسك ، وأَنْتَ كما أثنيتَ ، ولكَ التسبيحُ كما سبَّحت به نَفْسَك . ولك الحمدُ زِنَةَ عَرْشك ومِدَاد [٢] كَلماتك ، ورِضَا نفسك ؛ فهذه المَعْجَزة [٣] عن بلوغ هذه الأَشياء ، فجعل مقالَته بالقَلْب كتلك الأَشياءِ التى ذُكِرَت . ولا يقدر بلسانه أَنْ يُعَبِّر إلاَّ بمبلغ عِلْمه ؛ فربما يقبل منه كهيئة ما أحال عليه مِنْ حَمْده وثنائه عليه ، وكما أَحبَّ ورَضِيَ لنفسه ؛ وإنما أَمر العبدَ بالثناء لعظمته ، ثم يسأَل [٤] الحاجة ؛ فإذا سأَل [٤] الحاجة من قَبْل أن يُثْنِى فكأَنه لم يُعَظِّم الرَّبَّ ، ولم يُؤَدِّ حقَّ العظَمة .

---

(١) فى ب : مثل.

(٢) مداد كلماتك : مثل عددها ، وقيل : قدر مايوازيها فى الكثرة عيار كيل أو وزن أو عدد أو ماأشبهه من وجوه الحصر والتقدير .

قال فى النهاية : وهذا تمثيل يراد به التقريب ؛ لأن الكلام لايدخل فى الكيل والوزن ، وإنما يدخل فى العدد (النهاية) .

(٣) المعجزة : العجز .

(٤) فى ب : سئل .

ولو أنَّ ملكا من ملوكِ الدُّنيا رَفع الحجابَ فيما بينك وبينه ، وسهَّل ذلك السبيلَ إلى نفسه ، ورَفَعْتَ الحوائجَ إليه لكان قد عَظَّم رُتْبَتَك ومَنْزِلتك ؛ فكيف برب العالمين تَعالى ؟ أفليس يَجِبُ عليك من ذلك الشُّكر ، وأوَّلُ الشكر أنْ تُعَظِّمَه باللسان والقلب ، ثم مِنْ بعد ذلك رَفْع الحجاب .

مثـل النفس مثـل الكرش

مَثَل النفس مِثلُ الكَرِش [1] الذى فيه مُسْتَنْقَع البَوْلِ فى المَثَانة ؛ إذا دَلَكْتَه بالأرض حتى يرقّ ، ثم نفَخْتَ فيه حتى يمتلئ من الرِّيح ، ثم أَلقيتَ فيه الزئبق ، فإذا أصابته حَرارةٌ طار ذلك الزئبق على وَجْهِ الأرض دَبيبا ، فإذا أَلقيتَ فيه مع الزئبق رصاصة أمسكته ؛ فكذلك الشهوات فى النفس كالزئبق فى تلك الجِلْدَة الممتلئة رِيحاً هفَّافة ، فإذا ثقَّلهَا الإيمانُ على القَلْب سكنت النفْسُ عن الطيَاشة [2] ؛ لأنَّ الإيمانَ بالرحمة ناله الْعَبْد ، وبرْد الرحمة يُطْفِئ نارَ الشهوة ، وإثْقَال العَظَمة يسكِّنُ طياشةَ النَّفْس ، كثقل الرّصاصة سكَّن تلك الجِلْدَة وألزقهَا بالأَرْض .

مثل التسبيح والثناء والقرآن مع التقوى

مَثَل التسبيح والثناء والقرآن مع التَّقْوى كمثَل عَرُوس زُيِّنت للعَرْض على الزوج على رءُوس الجَمْع ؛ فمن شَأْنها أَن تُقَلِّمَ أظفارَها ،

(١) الكرش لذى الخف والظلف كالمعدة للانسان .

(٢) الطيش : النزق والخفة ، وذهاب العقل .

وتُنَقِّى شَعْرها وصَدْرها وعُنقها ويَدَيها وقَدَميها من الأَوساخ والأَدْران[١] ثم تتحلَّى بالحُلِىّ ، وتَلْبَس أَلوانَ الثياب زينةً لها ؛ فإن لم تَفْعَلْ ذلك ، وتَركَتْ هذه الأَظفار والدَّرَن والأَوساخ على جَسدها ، وحُلِّيت بالحُلِىّ ، وزُيِّنت بالثِّياب ، كان ذلك كاللَّعب ، وينسب ذلك إلى فِعْلِ الجنُون والعَتَاهَةِ[٢] . فكذلك الذى يَتَدَنَّس بالمعاصى ، ويتوسَّخ بالبطالات ، ويتزيَّن لربِّه بالثَّناءِ والتسبيح وقراءةِ القرآن .

أَلاتَرَى إلى قول الله عز وجلَّ[٣] : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتَّقِين)[٤] . فالصادق[٥] والحاذِق[٦] فى أَمره بدأَ فتطهَّر وأَنْقَى الدَّرن وأَوساخَ المَعَاصى والفُضُول ، ثم تَحلَّى بالحُلِىّ ، وتَزَيَّنَ بالحُلَل[٧] ؛ فذلك فعل لَبِق[٨] ، فهو حاذِق فى فعله ؛ وإنما وُكل الآدمىّ فى أَمْرِ دينه بِرَمْى الفُضُول ، فأُمر بنَفْىِ الشِّرْك بقوله : لاإله إلاَّ الله . وأُمِرَ

(١) الأدران : الأوساخ .

(٢) العته : نقص العقل من غير جنون أو دهش .

(٣) سورة المائدة ، آية ٢٧

(٤) قال ابن عطية : المراد بالتقوى هنا اتقاء الشرك بإجماع أهل السنة ، فمن اتقاه وهو موحد فأعماله التى تصدق فيها نيته مقبولة ، وأما المتقى للشرك والمعاصى فله الدرجة العليا من القبول والختم بالرحمة (القرطبى : ٦ — ١٣٥) .

(٥) فى ب : فالصاد .

(٦) الحاذق : الماهر العارف بغوامض الأشياء ودقائقها .

(٧) الحلل : جمع حلة .

(٨) رجل لبق : حاذق بعمله . واللبق : الظريف .

باحتناب المحارِم : الظلم ،والعُدْوَان ،والسرقة ، والزِّنَا ،والخَمر ، والكذب ، والغِيْبَة ، وسائر الآثام ؛ فهذا كلُّه فضُول . ثم أمر بالفرائض ثم السُّنَن لِيَتَحلَّى بها ، ثم بالتطوُّع ليتزيّن به . فإذا لم يَرْمِ بالفضول ، وقصد قَصْدَ الزِّينةِ فهو مستهزئٌ بربِّه يسخَرُ بنفسه .

مثل قلب يتردد فيه الذكر

مَثَلُ قَلْبٍ يتردَّدُ فيه الذِّكرُ مثلُ عَيْنٍ لها نَبْعَان ، وفيها سَمَكٌ صِغَار ،فكلما تَوَحَّل كَثُرَ تردُّدُالسمكِ ، فكانت ينابيعُ [٥٥] ماءِ تلك العين أَنْقَى ، وماؤُها أَسْلَس . وإذا قلَّ السمَكُ انْسَدَّت المنابعُ لما يجتَمعُ هناك من الطِّين ؛لأَنَّ ماءَ العين وإنْ كان صافيا فلن يخلوَ عن غُبار عند هبوب الرياح ،ولن يخلوَ من مُمَازَجة [١] الأَرض ؛ فإذا انسدَّت تلك المَنَابعُ لم ينزّ [٢] الماءُ ،ولم يَسِلْ ؛ فكذلك القَلْبُ تَنْسَدُّ مَنَابعُ الحكمةِ منه لما يجتَمعُ هناك مِنْ كُدُورَة النفسِ . وسلطان الهَوَى وغُبَارِه ؛ فإنه لكلِّ سلطانٍ جَيْشٌ وعَسْكَر ؛ فإذا سار الجَيْش هاج الغُبَار ،فالهواءُ إذا أَقْبَلَ قِبَلَ النفس أثار الشهوات . فوقع في النفس هبوبُ رِيَاح الشهواتِ ؛ فصار هناك غُبارٌ ودُخَان وغَيْمٌ على قَدْر كلِّ شَهْوَة . فرُبَّ شَهْوَةٍ لها غَيْم . ورُبَّ شَهْوَة لها غُبَار ،

---

(١) ممازجة : مخالطة .

(٢) النز : مايتحلب من الأرض من الماء (القاموس) .

ورُبَّ شهوة لها دُخان ؛ فإذا جاءت هذه الرياحُ بغُبارها وغُيومها ودُخَانها انسدَّت يَنَابيعُ حكمةِ القلب ؛ لأَنَّ الحكمةَ مَنْبَعُها من الصِّدق الذى هو صِدْقُ الصدق ؛ فالذى يَظْهَرُ من العباد مِنْ باطن إلى ظاهرٍ هو الصِّدْق . وصدق الصِّدق هو مِنْ باطن إلى باطن ، إنما يظْهَرُ من باطن القلب إلى ظاهِر الصَّدر حتى تُبْصِرَه بصائرُ النفس ؛ فمن ذلك الصِّدق تَبْدُو الحكمةُ العُلْيا .

الحكمة العليا :

قال له قائل : وما الحكمة العُلْيَا ؟ قال : تلك حكمةُ الحكمة ، ولكلِّ علم حِكْمة ، فكما أَنَّ العِلْمَ عِلْمَان فكذلك الحكمة حكمتان ؛ فإنما صار العِلمُ علمين ؛ لأَن عِلْمَ الصفات غَيْرُ علم التدبير ، ولكل علم حكمةٌ ، فحكمةُ علم الصفات علم القُدْرة ، وحكمةُ علم التدبير علم ملك الملك وعِلْم الرُّبوبية ، فقَلْبُ المؤمن خزانة الله فيها كنوزٌ ، والكَنْزُ على خَطر الغارة

قال له قائل : وما[1] هذا ؟ وما الكنوزُ ؟

الكنوز :

قال : إنَّ الله تعالى أَعطى الموحِّدين معرفته حتى وجَدُوه وعَرَفوه ، فالمعرفةُ كصُرَّة فيها أَلوانُ جواهرَ ثمينة من الدر والياقوت والزَّبَرْجَد ، كلُّ جوهرة ثَمَنُها مِلْءُ الدنيا ذهباً وفِضَّة ، فهذه الأَشياءُ كلُّها فى

(١) فى ج : ما — من غير واو .

صرَّة ؛ فمَنْ تناولَها ، فقيل له : هذه لكَ ، فكم تَرَى ثَمنَها ؟ قال : مائةُ درهم ؛ فإذا فتحها فأَبْصَرها ازْدادَ بها بَصرًا ؛ وذلك بَصَر العَيْن . قيل له : كَمْ تَرى ثمنَها ؟ قال : ألف . فلما أَبصر بَصر العلم بجَوْهَرِ تلك الجواهر عجَز عن الإحاطَة بعِلْم ثمنِها ؛ وقال : كلٌّ واحد خير من ملء الدنيا ذهبا وفضَّة ؛ فعند ذلك أَشْفَق على الصُّرَّة كلَّ الإشفاق فى إحْرازها[1] وحِراستها وحِفْظها ، وإقامة الموكَّلين بحفظها ؛ وعندها ظهر غِنَاه بقَلْبه بتلك الأَشياء ؛ ومنها ظَهَر غِنَى جَسَدِهِ بِشارَته[2] وهيئته ، ومَطْعمه ومَشْرَبه ، ومَلْبَسه ومَرْكبه .

فالمعرفةُ متضمنةٌ لأَسماء اللهِ تعالى وعِلْم صفاتِ القُدْرة ، فكل شُعْبة من ذلك العلم تَمْلأُ مابين العَرْش إلى الثَّرى[3] ، ويزيد ويفضل ؛ وكلُّ اسْم للعَبْد به متعلَّق ، وله إليه مُسْتَنَد ، وعليه مُعْتَمد ووسيلةٌ يَتَوسَّلُ بها إلى ربِّه ، وكلُّ اسم له شَفيعٌ إلى ربّه ؛ فهذه صُرّةٌ مكنونة تملأُ الدنيا والآخرة ، وتملأُ الملكوت فَوْق

---

(١) الحرز : الموضع الحصين ، والمكان الذى يحفظ فيه . وأحرزت المتاع : جعلته فى حرز . وأحرزت الشئ إحرازا : ضممته . (المصباح) .

(٢) الشارة : الحسن والجمال والهيئة والزينة .

(٣) الثرى : التراب .

العرش ؛ نال الموحِّدُون هذا مِنْ جودِ الله ، وعظيم رَأفته ، وواسع رَحمته

حب اللــه تعــالى :

ورَأْسُ هذا الجوهرِ حبُّ اللهِ تعالى ، والفَرَحُ به ؛ فإنَّ الله تعالى لم يُعْطِه ذلك حتى أَحبَّه وفرِحَ به ؛ فابتدأ خلقته من باب الفرح به ؛ فمَنْ لقِيَ الله قَبْل أَنْ يَفتَح هذه الصُّرَّة ، ولم يَنْكَشِفْ له الغطَاءُ لَقيه على غَفْلة عظيمة ، وكُفْرانِ نعمة ، وضَياعِ شُكْر ، وتهافُت[1] في الذنوب ؛ فعَظُم حَيَاؤه ، واشتدَّ خَوْفُه ، واستقبلته أهوالُ القِيامة وعُسْرَة[2] الحساب .

ومَن انفتحت صُرَّتُه ، وكُشِفَ له الغطاءُ لقِيَ اللهَ على بصيرة ، شاكرا مؤمنا ، مُوقِنا ، باذلاً نَفْسَه ، قدْ وَفَى بالعهد ، وأتى بالإسلام وحقائقه ؛ فقرِّبَ وأُدْنِي وأُومِن .

فمع كلِّ واحد صُرَّةُ توحيد ، قد عقد عليها حياةَ قَلْبه . فإنَّ أَصْلَ الحياة في القلب ، والذِّهنُ مقرون بالحياةِ فقد عَقَد بحرارةِ حياته وحِدَّةِ ذِهْنه على الصُّرة ، وهي المعرفةُ ، وحُبُّ اللهِ تعالى فيها مكنون ، وكتابُ ربِّ العالمين فيها مكتوب ، وذلك قوله تعالى[3]

---

(١) التهافت : التساقط والوقوع .

(٢) في ب : عسيرة .

(٣) سورة المجادلة ، آية ٢٢ .

(أولئكَ كتَبَ فى قُلوبهم الإيْمَانَ) [١]

قال له قائلٌ : وما ذَلِكَ الكِتَاب ؟

قال : إنه لما وقعت جبايته فى البدو يوم المقادير على تلك القلوب قَبَض عليها ، وقال : أَنْتُم لى ، فصارت هذه المَقَالةُ فى القبضَةِ كتابَه ، فاطمأَنُّوا إليه ، وآمنُوابه ، وتعلَّقُوا به ؛ فذلك إيمانُهم صار هناك مكتوبا يومئذ ؛ فلما أَخرجهم من بطون الأُمَّهات إلى الدنيا أَشرقَ فى القلوب منهم نورُ المعرفة ، من الحبِّ والرأْفةِ والرحمةِ والحياء[٢] ، وعِلم الصفات[٣] ، وعِلْمِ الأَسماءِ ؛ فهى مكتوبةٌ لا يَكَادُ صاحبُها يُميِّز ، ولا يُعبِّر عنها ؛ فإذا عَقَل واستعمل عَقْلَه ، وتبحَّر ، ظهرَت الأَنوارُ فى الصدْر ، وانكشف الغِطَاءُ ، وحَيِىَ القَلْبُ ، وعمل بذَكَاوة الحَيَاءِ فجدَّدَتْهُ[٤] ، وعمل بحلاوة الحبِّ ، فأَخذ بمجامع قَلْبِه ، وسبَتْهُ[٥] حتى صار أَسِير الحُبِّ ، وعملت أَثقالُ الرأْفةِ فضغطَت القَلْبَ وعَصَرَتْه ، وعملت أَمطارُ الرحمة فليَّنَتِ القَلْبَ ، وسكَّنَتْ شُعُوثَته[٦] واغْتِرارَه ، وعملت أَنفةُ الحياءِ فقبضَتْه

---

(١) فى القرطبى (١٧ — ٣٠٨) : كتب فى قلوبهم الإيمان : خلق فى قلوبهم التصديق.

(٢) فى ب : فالحياء .

(٣) فى ج : وعلم الصفاء .

(٤) فى ب : فحددته .

(٥) سبته : أسرته .

(٦) الأشعث : المغبر الرأس ، والتشعث : تلبد الشعر .

وفَتَرته [١] ؛ وعَمل الجودُ فيه فوسَّعه وأعتقه من رِقّ النَّفْس.

فهذه معرفةٌ قد انكشفت الصُّرَّةُ عمَّا فيها من هذه الأسماء التى وصفْتها ، فاستقام القَلْبُ بما أَبصر فُؤَادُه فى هذا الصَّدر من هذه الأَسماء . فاستعمل بالمعروف الموصوف ، فلَهَا عن كل شئ سِوَاه ، فأَحبّه صِدْقا ، وخافه صِدْقًا ، ورجاه صِدْقا ، واستَحْيَا منه صِدْقًا ، ورَعَى حقوقَه من تلك الرَّأْفة صِدْقا ، فما ظَنُّكَ به ؟ ماذا يظهر على جَوَارِحه من الأَعمال السَّنيَّة ؟

تغطية الشهوات :

وآخر وُضِعَتْ فيه هذه المعرفةُ ، فجاءت الشهواتُ فغَطَّتْها ، ولم يستعمل صاحبُها العقلَ ، ولم يتبحَّر فى ذلك ؛ فاستعمل الشهواتِ ، فتراكمت على صَدْره غُيُومُها وغُبارُها ودُخانُها ؛ فكلُّ شهوة استعملها منْ حلِّها — وللنفس نَصِيب الإِكْبَاب [٢] — صارت غُيوما ، وكلُّ شهوة استعملها من حلّها — وللنّفس فيها نصيبُ الغَفْلة فاستعمل القَلْبُ ذلكَ فى غَفْلة عن الله — صار غُبَارًا فى الصّدر ؛ وكلُّ شهوة استعملها بِحرْص وهَلَع [٣] وتَخْليط صار دُخَاناً ؛ وكلُّ شهوة استعملها من غَيْر حلِّها صارت ظُلْمةً كالليل ، فبقِيَتْ هذه المعرفةُ

---

(١) فتر فتورا : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، وفتره تفتيرا .

(٢) أكب على الشئ : لازمه .

(٣) هلع هلعا : جزع ؛ فهو هلع وهلوع .

فى القَلْبِ والصَّدْر متراكمةً هذه الأَشياءُ فيه ، ولم تَجد المعرفةُ مَساغًا إلى أَنْ تُشْرق بما فيها من بابِ القلب إلى الصَّدْر حتى تُبْصِر عَيْنُ الفؤاد ذلك فتقوى ، وتستقيم وتستمر فى العبودية[1] ؛ فصار القَلْبُ بكنُوزه كالمسجونِ الذَّليل ، وصاحبه [٥٦] فقير محزون ؛ لأَنَّ غِنَاه بحُطَام الدّنيا ، وحُزْنه بما يَفُوتُ من الدنيا فلا يناله ، ويحرص ويكدّ ويَتْعب فلا يُدْرِكُ مُنَاه ؛ والعدوُّ منه بمَرْصَد[2] ينتظِرُ متى يَجِدُ فرصةَ الإغارة على هذا الكَنْز .

اصحاب هـذه الصفة صنفان :

فأَصحابُ هذه الصِّفَةِ صاروا صنْفَيْن : فمنهم مَنْ أَحاط بقَلْبِه عَسْكرُ أَعمالِ البرّ ؛ فهو يعمَلُ دائمًا أَعمالَ البرّ ، وهو فى خلاَل ذلك يُرائِى بعمله ، ويتصنَّع بشمائله ، ويستلذُّ بخلائِقه ، ويُبَاهى[3] فى أُمورِ الله ؛ يَزِلُّ[4] مرةً ، ويثبتُ أُخرى ؛ تراه مرّةً مُستقيماً ، ومرة متردِّيًا[5] فى آبارِ المعاصى ، واسْمُه فى المستورين القرّائين المُعَدَّلين[6] عند الخَلْقِ فى الظاهر ؛ فهذا العسكرُ المُحيطُ

(١) فى الأصول : العبودة ، وهى بمعنا ها .
(٢) والعدو منه بمرصد : أى بطريق الارتقاب والانتظار .
(٣) يباهى : يفاخر .
(٤) زل : زل عن مكانه : تنحى عنه . وزل فى منطقه : أخطأ .
(٥) تردى فى مهواة : سقط فيها .
(٦) المعدل : المعدود فى أهل العدل .

بقلْبه له عند الله قَدْرٌ يَسْتَجْلبُ منه الرحمةَ لصاحبه حتى لا ينقطع حَبْلُه ؛ فعاملُ عسكره التعبّد ، وعامِل عسكره التزهُّد ، وعامل عسكره التورُّع ؛ فقد صاروا أَصنافًا مِنْ هذا الصنفِ الواحد ،وكلهُّم يرجعون إلى تَحرِّى [1] الصدقِ ، وهم فى غِطَاءٍ وغَفْلة عظيمة عن اللهتعالى ؛ فقد حُرِموا حلاوةَ التوحيد ،ولذاذة المعرفة ،ونزاهةَ عِلْم المعرفة ؛ إنما يذُوقُون حلاوةَ أَعمالِهم من التعبُّد والتزهُّد والتورّع ؛ فإذا وَجَدُوا تلك الحلاوةَ حَسِبوا [2] أَنّ هذه الحلاوةَ والعبادةَ والزهدَ والوَرَع إنما هى حلاوةُ أعمالِهم ؛ تلتذُّ نفوسُهم بها ، وتَبْطَر وتأْشَر [3] وتَفْرَح بها ، وتطمَئنُّ إليها ، وتتَّكِلُ عليها ؛ فإنْ لم يتداركهم اللهُ برحمته ، ويَحْفَظ ذلك عليهم ، ضربهم العُجْب ، وكِبْرُ النفس بالغَطْسَة [4] فرضَّت رءُوسَهم رَضًّا ، وصاروا كمن يضرب اللبنَ فى الماءِ إذا نُصبُوا للسُّؤَال يوم الموقف ،وقبولِ صدقهم بشكرهم .

ومَنْ تراخَتْ به نَفْسُه عن الصدق ، وخَدَعَتْه [5] نفسُه

(١) تحريت الشئ : قصدته ، وتحريت فى الأمر : طلبت أحرى الأمرين ؛ وهو أولاهما .

(٢) حسبوا : ظنوا .

(٣) بطر : أشر . وأشر : كفر النعمة فلم يشكرها .

(٤) الغسطة : الموت .

(٥) فى ج : جرعته .

بأمانيها ، فنالَتْ به التودّعَ [١] إلى راحاتِ الدنيا ولذّاتها ونُزهتها ، فاستعملت الشهوات . وتوسّعَتْ فيها ، أبصر العدوّ منْ مَرْصَده ذلك منه . فعظُم طَمَعُه فيه ، واستعدّ له بأَسلحته . فهيَّج منه الكِبْرَ والكبرياءَ . وأَثَارَ الشهواتِ منه ، حتى اشْتَعَل حَرِيقُها وحرُّها ، وأَشْخَصَ [٢] آمالَه . واستعدّ للحيلة عليه بنَفْسه . فإذا وجد صَدْرَه مَشْحونًا بهذه الأَشياء التى هى أَسْلِحَتُه . وتلك جنودُ الهوَى حَمَل حَمْلةً واحدةً ، فلما رأَت الجنودُ التى فى صَدْره أَنَّ سيِّدَهم قد أَقبل ثارُوا من [٣] معادِنِهم . واصطفُّوا بين يَدَيْهِ فى صَدْر العبيد ، وتَدَاعَتْ [٤] منازِلُ الشهواتِ بعْضها بعضاً ، فإذا رأَى القلبُ حَمْلةَ العدوِّ وسلْطانَ تلك الجنودِ . وعلى مقدّمته جَيْشُ الهوى انهزم وتخلّى عن الباب ، فوقعت الغارةُ فى الكنوز : كنوزِ المعرفة ، حتى تَركت القلْبَ خاليا من الكنوز ، وبقيت المعرفةُ خاليةً كمُعَلَّقة بأَدَقَّ من الشَّعْرَة ، فبَقِىَ [٥] القلبُ متحيّرًا يتَذَبْذَب . وقد افتقد العلمَ

---

(١) التودع : الاستسلام .

(٢) شخص يشخص شخوصا : خرج من موضع إلى غيره . ويتعدى بالهمزة ، فيقال اشخصته .

(٣) فى ج : من مفازتهم .

(٤) تداعى البنيان : تصدع من جوانبه وآذن بالانهزام والسقوط . وتداعى الكثيب من الرمل : إذا هيل فانهال . وتداعوا بالألقاب : دعا بعضهم بعضا بذلك .

(٥) فى ب : بنى .

والحياء ، والخشية والخوف ، والحبّ ، وجاء الهوى وشهوات النفس فسكَنُوا القَلْبَ ، وأحاطوا بالمعرفة ، فدَقَّتْ قوةُ المعرفة حتى تُورده النار معه ، فذهبت قوةُ المعرفةِ ، وصارت كالمُعَلَّقة بشَعْرَة : وصار الصَّدْرُ مملكة الهَوَى ، ورجع العدوُّ ، فظهر على الجَوَارح من الحِرْصِ جَمْعُ الدنيا ، ومن الكِبْرِ إبطالُ الحقوق وظُلْمُ العباد ، ومن الشهواتِ رَفْضُ العُبودية [1] ، ونَبْذُ العَهْد ، ونَقْضُ الميثاق ؛ وجاءت أعمالُ الفِسْقِ والفُجور ، وخُبْث السريرة ، وحسن العُلاَنية ، والنِّفاق ، وسُكر العَقْل ، وولاية الهَوَى وإمْرَته ، وانكمَنَ [2] العقل ، وانْسدَّ الفَهْم ، وحَمُق الذِّهن ، وانطبق الحِفْظ ، واندفن العلمُ ، وذابت المعرفةُ ، وفاض جَهْلاً ، وامتلأ كذبًا وخيانة ، وذهب الوَفَاءُ ، وطارت الأَمانةُ ، وظَهَر الاستبدادُ ، وعلاه الكِبْر ، وأحاط به التجبُّر ، وامتلأت الأَرض والسماءُ فضائح وقَبَائح ، وهو فى حِلْم اللهِ ؛ والعدوُّ بمَرْصَدٍ ينتظرُ حتى يحلُّ به سُخْطُ [3] الله تعالى ، فيحمل حمله [4] بكفرٍ ، فيُورِده حتى يَمْتد [5] ويضبط ، فإذا

(١) فى الأصول : العبودة ، وهى بمعناها .

(٢) انكمن : اختفى .

(٣) السخط : الغضب .

(٤) فى ب ، ج : حملة تكفر . والمثبت فى ا .

(٥) فى ب : يسدد . والمثبت فى ا .

حلَّ به السخطُ رُفِعَت المعرفةُ . وانقطع الحَبْلُ ، وسَبَاه [١] العدوّ ، وصيَّرَ إلهَهُ هَوَاه . وأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْم ، وخَتَم على سَمْعِه وقَلْبِه ، وجَعَلَ على بَصَرِه غِشَاوةً ؛ فمَنْ يَهْدِيه مِنْ بَعْدِ اللهِ ؟ أَفَلا تَذَكَّرونَ [٢] ؟

مثـل المعرفة مثـل قطب الرحا

مَثَلُ المعرفةِ مثلُ قَطْبِ الرَّحا ؛ فالرَّحَا تَدُور بالماءِ وبالقُطْب [٣] على حَسبِ قُوَّة الماءِ وكثْرَتِه وانْحِداره مِنْ مَصَبِّهِ . يَدُور القُطْبُ بالرَّحَا . وقُوَّةُ القُطْبِ فى عَمُود من أَسفله إلى أَعلاه ، وقوةُ العمود فى أَجنحةٍ ؛ فإِذا انحدر الماءُ دفَع الأَجنحةَ فأَدَارها ، فدار القُطْبُ فأَدَارَ الرَّحَا ؛ فكذلك القلب ، فالقلبُ رَحا ، وقُطْبُه العِلْمُ ، والمعرفةُ هو [٤] الماءُ المنصَبُّ فى حَدُوره [٥] ؛ فإذا لم يكن للمعرفةِ أَجْنِحةٌ

(١) سباه : أسره ، وملكه .

(٢) سورة الجاثية ، آية ٢٣ ، والآية : **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون .**

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه : أفرأيت من جعل إلهه الذى يعبده ما يهواه أو يستحسنه ، فإذا استحسن شيئا وهويه اتخذه إلها . وأضله الله على علم ، أى قد علم أنه سيضل . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لايستحقه . ختم على سمعه وقلبه ، أى طبع على سمعه حتى لايسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لايفقه الهدى . وجعل على بصره غشاوة ، أى غطاء حتى لايبصر الرشد . أفلا تذكرون : تتعظون وتعرفون أنه قادر على مايشاء .

(٣) القطب — مثلثة ، وكعنق : حديدة تدور عليها الرحا **(القاموس)** .

(٤) هذا بالأصول .

(٥) الحدور : مكان ينحدر منه الماء .

لم يَنْفَعه الماءُ ، ولا القُطْبُ ، فالعلمُ هو حمْله ، والمعرفةُ ذوات شُعَب ، فمَنْ عَرفَ اللهَ فلمعرفته شُعَب ، فعلامةُ الشُّعَب أن يقومَ بتلك الشُّعَب . فهذا قُطْبُه قد استقامت شُعَبُه . فاستدار ، وإذا كان القُطْبُ قد انتثرت أجنحتُه جَرَى الماءُ على عَمُود . فلم يُغْنِ شيئًا ، ولم يَدُرِ القُطْبُ ولا الرَّحَا ، فذهبت منفعَتُه . فعلى قَدْرِ ما تناثَر مِن أجنحةِ القُطْب ذهبت قوةُ الرَّحَا . فما أَغْنَتْ عنه كثرةُ الماءِ .

كذلك العلمُ هو على القلب حَمْله . والمعرفةُ ذات شُعَب ، فتلك الشُّعَب تهيج الشعبة استعمالها حتى يَقْوَى القلبُ ، ويَدُور بَرَحاه حتى يخرجَ منه الأَعمال الطَّاهرةَ النَّقية فيرمى بها إلى الجوارح ؛ فذلك الدقيق .

قال له قائل : وما تلك الشعب ؟

قال : الخوف ، والخشية ، والحب ، والحياءُ ، والفرح ، والهيبة ، والأُنس ، والوداد ، والرغبة والرهبة والتقوى ، فهذه كلها شعب المعرفة كأجنحة القطب للرحا ، فإذا حَيِيَ القلبُ بالله صار عالمًا بالله . فإذا رأت تلك الحياة شُعَب المعرفة ، وأهاجت منكَ الخوْفَ والخَشْيَةَ ، والحُبَّ والحَياءَ ، والفَرَحَ والوداد ، والهَيْبَة والأُنْسَ . والرَّغْبَة ، والرهبة ، والتَّقْوَى ، ويظهر فى الجوارح صِدْقُ ما هاجَ منكَ فى الباطن ، من أَدَاءِ الفرائض ، واجتناب المحَارم ، والقيام بحقوق اللهِ تعالى دَقَّ أَو جَلَّ [1] ، والصَّفاء

(١) دق أو جل : صغر أو عظم .

فى الصِّدق . والإخلاص فى هذه الأُمور التى ظهرت على الجوارح ، فَبِقَدْرِ ما افْتَقَدْتَ [1] من هذهِ الشُّعبِ تَفْتَقِدُ القوةَ من نفسك فى هَيَجَان هذه الأَشياء فى باطنك . ويظهر النَّقْصُ فى ظاهرِ أعمالك من القيام بأَدَاء الفرائض . واجتناب المحارم . وإقامةِ الحقوق . والصَّفاءِ والإخلاص والصّدق فى الأُمور . كما كان . فكلما تناثَر مِنْ أَجنحةِ القُطْبِ لم تُغْنِ له كثرةُ الماءِ وقوّةُ انحداره فى مَصَبِّه شيئًا .

فصاحبُ الرَّحَا قائمٌ على الرَّحَا ، يَحْفَظُ أَجنحةَ القُطْب ، هل تَنَاثَر منها شئٌ ؟ وكلما تَناثَر منهاشئٌ ، وبطلَت زيادَةُ الماءِ ، ذهب قوةُ هَيجَان الأَجْنحة .

مثل من استعمل عقله وذهنه فى أمور الدنيا

ومَثَل مَن استعمل عَقْلَه وعِلْمه وذِهْنَه وكِيَاسَته [2] ورُوحَه فى أُمورِ الدنيا لغير الله كمثَلِ حِمَارٍ تَنْقُل عليه سِرْقِينًا [3] من المَزَابِل ، فما زِلْتَ تَكُدُّه [4] فى ذلك العملِ حتى إذا كان فى آخرِ النهار حوَّلْتَ عليه سَرْجًا . وابْتَغَيْتَ [5] منه هَمْلَجةً [6] وسَيْرًا ، فكيف تَجِدُها منه ؟ وقد ذهب الكدود والعَمَل بكثافة قُوَّتِه . وحِدَّة مَقَاصده ، ونال الفتُور [7] منه كلَّ شَيْءٍ .

(١) افتقده : طلبه عند غيبته (القاموس) .
(٢) الكيس : الظرف والفطنة . وقيل الكيس : العقل .
(٣) السرجين والسرقين : الزبل .
(٤) كده : طلب منه الكد . والكد : الشدة فى العمل وطلب الرزق ، والإلحاح فى محاولة الشئ . والكد : الإتعاب . (٥) ابتغيت : طلبت .
(٦) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة (التاج) .
(٧) فتر عن العمل فتوراً : انكسرت حدته ولان بعد شدته .

فكذلك هذا العلمْ والعقْل والذّهن والكِيَاسة والفَهْم والفطْنَة والرّوح ؛ لِكُلٍّ حدٌّ وسلطان وقُوّةٌ تعمل فى هذا الجسد . فإذا استعملهم [١] فى أمورِ الدنيا التى لا تَصْعَدُ إلى الله تعالى من باب السّماءِ انْفَتَر منه كلُّ شئ على حِدَتِه . وذهبت قوتُه . وظهر العَجزْ .

مثـــل الذى يختلف إلى مجـــالس العلم

مَثَلُ الذى يختلف إلى مَجَالِس أَهْلِ العلمِ كمثَل رَجُل دخل السُّوقَ ولا يَدْرِى ما يَشْتَرى . فما استقبله مِنْ شىءٍ رجا فيه الرِّبْحَ اشْتَرى ، فكم من شىءٍ اشتراه فخسر عليه ، ولم ينَلْ أَمَلَه .

وآخر دخلَ السوقَ يَشْتَرِى منا فعَه ؛ فقيل له : ما تُريد ؟ قال : مَتَاعًا . فقيل له : أىُّ متاعٍ تُريد ؟ فإنَّ ها هنا ألوان الأَمتعةِ من القُطْن والكَتَّان والإبْرِيْسَم [٢] . وها هنا أَمْتِعةُ الذَّهب والفضة ، والصُّفْر [٣] والنُّحَاس والحَدِيد ، فلم يَدْرِ ما يَشْتَرِى . فدخل من أَعلاها وخَرج من أَسْفَلِها صِفرْ [٤] اليَدَيْنِ .

وآخر دخل السوقَ لحوائجه قد رأى [٥] ما يشترى ؛ فقَصَد الحوائجَ ، فاشترى فى الصيف ما يحتاجُ إليه فى الشِّتَاء ، وترك

(١) هذا بالأصول .
(٢) الإبريسم : الحرير .
(٣) الصفر : من النحاس ، وصانعه الصفار . والصفر : الذهب أيضا .
(٤) صفر اليدين : خالى اليدين .
(٥) رأى : علم .

ما يحتاجُ إليه فى يَوْمه وليلته ، فرجع إلى المنزل معه حوائج الشتاء ، فبات جائعًا بائسًا .

ودخل آخرَ السوقَ قد لزّتْ به [١] الحاجةُ وألحّت ، يعملونَ [٢] الطاعات على طريقِ الثواب والعقاب .

ومثلُهم فى ذلك كالذى يَخُوضُ النَّهْرَ ، فما جَرَى بهِ الماءُ فوجده على ظَهْرِ الماء أخذَه مثل البَرْدِيّ [٣] والحَطَب وأصول الأَشَاء [٤] والقِثّاء ، وليس لهم غَوْص ، وأهلُ الانتباهِ يعملون الطاعاتِ على طريق العبودية [٥] عارفين مُوقنين .

مثــل الذى يغوص فى البحر والأنهــار

ومثلهم فى ذلك كالذى يَغُوصُ فى البَحْرِ والأَنْهار ، فيضرب بيده ضربةً يَقَعُ فيها على جَوْهرةٍ لا يُحاطَ بثمنها ، فأولئكَ الأَوَّلون يَجْمَعُون حركاتِ الجَوَارح بتلك الطاعةِ ، فليس لهم مِنْ ذلك إلاَّ عمَلُهم الظاهر ، وعليه يُثَابُونَ الجنَّةَ . وهؤلاء المُنْتَبِهون يدخلون فى الطاعةِ بحركاتِ الجوارح وفى قلوبهم عَجَائب ، تعجَبُ لهم الملائكةُ إذا رُفعت تلكَ الطاعاتُ وفى حَشْوِها تلك الأَنوار ؛ فأَهْلُ

---

(١) لزت به الحاجة : اشتدت . ولز به الشيء : لصق به كأنه يلتزق بالمطلوب لسرعته (اللسان — لز) .

(٢) هذا بالأصول .

(٣) البردى : نبات .

(٤) الأشاء — كسحاب : صغار النخل .

(٥) فى الأصول : العبودة .

الغَفْلَةِ حَشْوَ طاعاتهم التوحيدُ ونورُ الصِّدق ، وهؤلاءِ الآخَرُون حَشْوَ طاعاتِهم نورُ الحبِّ والحياءِ ، والشوق والحَنِين ، والتضرُّع والملَق[1] ، والحُزْن والسُّرور ، والبَهْجَة والشُّكر ، والذِّكْرُ الصافى ، والإقبال والإنَابة [2] ، والخُضُوع والخُشُوع ، والتسليم والتَّبَرِّى من الحَوْل والقُوَّة ؛ فهؤلاءِ غَوَّاصُون يَغُوصون فى كلِّ طاعةٍ فى بحور المعرفة ، فى صدُورهم فى الطاعات من هذه الأَشياءِ ، ويستخرجون منها الدُّرَرَ والجَوَاهر ؛ لأَنَّ القلوبَ خَزَائنُ اللهِ فيها كنوزُه ، فإذا طَهَّر العَبْدُ ساحةَ الخزانة ، وهو الصَّدْرُ ، ظهرت فى تلك الساحةِ من باب الخزائن فى وقتِ كلِّ طاعة يَدْخُل فيها - عجائبُ لا توصَفُ من الجواهر والدُّرَر .

والطاعاتُ ذواتُ صُوَر ، وكلُّ طاعة لها صورة ، وفى كلِّ صورةٍ فيُرائى نعمها ، فيُرَا ئِّى بها رَبَّه ، ويتزيَّنُ عنده بتلك الصُّورةِ وما فيها من الجَوَاهر التى ذَكَرْنا .

مثل المتعرف اليك باختلافه اليك

مثلٌ مضروب : رجُلٌ تعرَّفَ إليكَ باختلافه [3] إليك . وذهابُه وجَيْئَتُه وعَوْدُه على بَدْئِه عَرَّفَكَه ، فَحلَّ فى قَلْبِكَ محلَّ المعروفين بالوَجْهِ ، ثم مَعَ هذا الاختلافِ مِنْ بعدذَلك تَعَرَّفَ إليكَ

(١) الملق - محركة : الود واللطف .

(٢) الإنابة : ناب إلى اللهوأناب : تاب .

(٣) الاختلاف : التردد .

بالسلام عليكَ ، والسؤالِ عن أحوالك ومُهمَّاتك صِدْقًا ؛ فتَعَرَّف[١] إليكَ بالاهتمام ؛ فحلَّ مِنْ قلبك مَحَلَّ المُهْتَمِّين لك ، المبَالين بك وبأُمورك ،ثم أَبْدَى[٢] صِدْقَ ذلك السؤال فِعْلاً حتى شاركك فى محبوبك ومَكْرُوهك ،ففرِح بمَفْروحك ،وسُرَّ بمسرورك ، وحزنَ لمصائبك ، وتوجَّع بفجائعك ، فتَّعَرَّف[١] إليكَ بالإخلاص حتى حلَّ من قلبك محلَّ المخلصين ،ثم تخَطَّى من هذه الدرجة إلى أَنْ فَدَاك بنَفْسه وماله ؛ فبذَل عند الشدائد نَفْسَه ، وَفِى[٣] ذلك لا يُبَالِى ما ناله فى نفسه وماله من النُّقْصَان والمكروه فى جَنْبك ، فأَعطاكَ كلَّه ؛ فحلَّ من قلبك محلاً أَحبَبْتَه كلَّ الحب ، وصارَ واحِدَكَ مِنْ بين الناس ،وصِرْتَ له واحداً ، فأَفْشَيْتَ أسرارَك بين يدَيْه ، وأَطلقْتَ يده فى مِلْكتك ، وأنفذْتَ[٤] أمانيه وحُكمَه فى أُمورك ؛ فعامَل الله بما يعاملك عَبْدٌ من عَبيده بهذه الصفة .

مثل الحب بين الأشياء

مثَلُ الحُبِّ من بين الأَشياءِ كمثل شَجَرةٍ لها قَلْبٌ وأغصان ؛ فالقَلْبُ من الساق ، والأَغصانُ : فروعُ الشجرةِ مِنْهَا الثمرةُ . ولكن

---

(١) فى ج – فيعرف .

(٢) أبدى : أظهر .

(٣) فى ج : وفاء .

(٤) أنفذت : نفذت .

أَصْـل الثمرةِ من القَلْبِ ؛ فالمعرفةُ هى الشجرةُ ، والحُبُّ هو قَلْبُ المعرفة ،والخوف والرجاءُ والحَيَاءُ والخَشْية والرِّضا والقَنَاعة ؛ وسائِر الأَشياءِ أَغصانُها ؛ ومنها تتولَّدُ الثَّمَرَةُ ، وهى الطاعات ؛ وإنما جادَ عليك ربُّك بالمعرفة ، فمنَّ بها عليكَ بعد أَنْ قسم لك حظًّا من معرفته محبته ، وأَخْرَجَ إليكَ محبَّته من باب الرأفة والرحمة ، فنِلْتَ حظًّا من المحبة والرأفة والرحمة حتى ظفِرْتَ بالمعرفة ، فلما عرَفْتَه خِفْتَه ورَجَوْتَه وخَشِيته ورَهِبْتَه واطمأْنَنْتَ إليه ، واعتَقَدْتَ بقلبك عُبوديته [١] وتسليمك نفسك إليه فى أَمْر ونَهْيه ؛ هذا كلُّه فى عُقْدَةِ المعرفة[٢] ؛ وهى كالأَغصان من الشجرة ؛ فإنما أعطيتَ الشجرة بأَغصانها ،والثمرةُ من بَعْد ذلك كَسْبُك الطاعة .

الحب سر اللـه فى العبـاد :

فالحبُّ سِرُّ اللهِ تعالى فى العِبَاد ،يفتَحُ لهم من ذلك على أَقدارهم بمشيئته بما سبَق لهم من الأَقدار منه ؛ وهو قوله تبارك وتعالى [٣] : (إنَّ الَّذينَ سبَقَتْ لهم مِنَّا الحُسْنَى أُولئكَ عنها مُبْعَدُون . لايَسْمَعُون حَسِيسَهاوهُمْفيمااشْتَهَتْ أَنفُسهم خَالِدُون)[٤] ؛مبعدون، أَى عن النار ؛ ثم لايسمعون حَسِيسها ، كأَنه أَجازَهم الصِّراطَ وهم لايَشْعُرُون بها .

(١) فى الأصول : عبودته .

(٢) العقدة : مافيه بلاغ الرجل وكفايته .

(٣) سورة الأنبياء ، آية ١٠١ ، ١٠٢

(٤) الحسنى : الجنة . أولئك عنها : عن النار. لايسمعون حسيسها : حس النار وحركة لهيبها . والحسيس والحس : الحركة . خالدون : دائمون . (القرطبى : ١١ — ٣٤٥)

فالحبُّ سِرٌّ فى الإيمان ، والإيمانُ بارِزٌ ظاهِرٌ ، وهو قولُه تعالى[١] :
(واعْلمُوا أَنَّ فيكم رَسُولَ اللهِ لو يُطِيعُكم فى كَثِيرٍ من الأَمر لَعَنِتّم ولكنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وزَيَّنَه فى قُلوبكم وكَرَّهَ إليكم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ أولئك هم الرَّاشِدُون)[٢] .

فاللهُ تعالى عَرَّفَ نَفْسَه أَهْلَ مِنَّته بالمِنَّةِ[٣] ، وخَوَّفهم من عظمته ، ورَجاهم من كرَمه ، وأخشاهم من رُبُوبيّته ؛ فنَالُوا هذه الأَشياءَ من المعرفة المشحونة بهذه الأَشياء .

وأَمّا الحُبُّ فإنهم نالُوا حُبَّهم له مِنْ حُبِّه لهم .

الفــرح بتــوبة العبــد :

كان بدءُ أَمْرِهم من حُبِّه لهم والفَرَح بهم ؛ أَلا تَرى إلى قول

---

(١) سورة الحجرات، آية ٧

(٢) **واعلموا أن فيكم رسول الله ؛ فلا تكذبوا فإن الله يعلمه أنباءكم فتفتضحون . لو يطيعكم** فى كثير من الأمر لعنتم : لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنا لكم مشقة وإثم ؛ فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ . لعنتم : العنت : الإثم . والعنت أيضا : الوقوع فى أمر شاق .

ولكن الله حبب إليكم الإيمان : هذا خطاب للمؤمنين الذين لا يكذبون النبى ولا يخبرون بالباطل ؛ أى جعل الإيمان أحب الأديان إليكم . وزينه — بتوفيقه — فى قلوبكم ؛ أى حسنه إليكم حتى اخترتموه . وكره إليكم الكفر والفسوق : كل ما خرج عن الطاعة فهو فسق . والعصيان : المعاصى . أولئك هم الراشدون : يعنى هؤلاء الذين وفقهم الله فحبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر وقبحه عندهم هم الراشدون . والرشد : الاستقامة على طريق الحق ، مع تصلب فيه .

(٣) منّ عليه : أنعم عليه ، والاسم المنة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] : لَلَّهُ أَفْرَحُ بتوبة العَبْد مِنْ فَرَح رجلٍ أَضَلَّ رَاحلتَه فى مَفَازةٍ[٢] مُهْلِكة عليها زَادُه وحُمُولتُه[٣] ، فهو يَضْرِبُ يمينا وشمالا فى طَلَبِها حتى أَيِس[٤] منها وأشرف على الهلكة ، فقال فى نَفْسه : أَرْجِعُ إلى حيث افتقدته[٥] فأموت هناك ، فرجع فوجد بَعيرَه عليه زَادُه وحُمُولَتُه ، فجعل يَهْلِكُ من الفَرَح ، فيقول لله تعالى : أَنْتَ رَبِّى ، وأنا عَبْدُك -ثلاثا . قالوا : يارسول الله ، هَلَّ[٦] بهذا فَرَحًا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نَفْسِى بِيَده : لَلَّهُ أَفْرَحُ بتَوْبَةِ العَبْدِ مِنْ هَذَا ببعيره .

فبَدْءُ شَأْنِ المؤمن فرحُ اللهِ به ، وحبُّه له ، من هاهنا خرج وظهر أَمْرُه فى البدءِ ؛ فهذا سرُّ اللهِ فيما بينه وبين عَبْده ؛ وضعَه فى باطن مَعْرِفته ؛ فهو يُحِبُّه ويَخَافُه ، ويَرْجُوه ويَخْشَاه ؛ فهذا كلُّه نظامٌ واحد عند العامّة ، ولكن خاصَّة الناس لمَّا اختصَّهم بالرحمة التى اختصَّ بها المُوَحِّدين حتى نالوا توحيده ، ثم أَوْلج[٧] الخاصةَ بباب الرحمة حتى دخَلُوها ، فوصلوا إلى الرحمة العُظْمَى التى خرجت

(١) صحيح مسلم : ٢١٠٤ .

(٢) فى ج : مغارة . والمفازة : الموضع المهلك ، والبرية القفر .

(٣) الحمولة : الأحمال .

(٤) أيس : يئس .

(٥) افتقده ، وتفقده : طلبه عند غيبته .

(٦) هل الرجل : فرح وصاح (القاموس) .

(٧) أولج : أدخل .

منها هذه المائةُ الرحمة التى كتبها على نَفْسه لعباده ؛ وفى تلك الرحمةِ حُبُّه . فلما دخلوها ووصَلُوا إلى تلك الرحمةِ العظيمة غَرِقوا فيها ، وفيها حبُّهُ ومَشيئته ؛ ففتح لهم بابَ المشيئةِ ، وأنالهم من حُبّه ، فلما فتح لهم بابَ حُبِّه عَلقَت[١] قلوبُهم ، ووَلِهت[٢] قلوبُهم عن كل شىءٍ سِوَاه ، وتشبَّثَت[٣] النفسُ بتلك الحلاوةِ التى نالَتْ ؛ فعندها انقطعت الأَسبابُ والعلائق ، وتطهَّرُوا من أَدْنَاسها[٤] بوصُولهم إلى مقامِهم فى القُرْب ، فلما تطهَّرُوا تَقَدَّسُوا[٥] بِقُدْس قُرْبَةِ القُدُّوس ، فلما تَقَدَّسُوا خلصوا إلى فردانيَّته ، فانفردُوا به ، فعندها جاز لهم أَنْ يقولوا : ياوَاحِدِى ؛ فإذا قال صدق ، وأُجيب ، وكان من أَهل القَبْضَة .

المفــردون :

أُولئكَ الذين وَصفَهم رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فى قوله[٦] : سِيروا ، سبَق المُفَرِّدُون . قالوا : يارسول الله ؛ ما المُفَرِّدُون ؟ قال : الذين أُهْتِرُوا[٧] فى ذِكْرِ الله ، يضَعُ الذِّكْرُ عنهم أَثقالَهم ، فيَأْتُون يوم القيامة خِفَافًا .

---

(١) علق به علوقا : أحبه .
(٢) ولهت : وله : ذهب عقله من فرح أو حزن . يريد : انصرفت .
(٣) التشبث : التعلق . (٤) الدنس : الوسخ : يريد الذنوب والآثام .
(٥) تقدسوا : التقديس : التطهير . (٦) صحيح مسلم : ٢٠٦٢
(٧) فى ج : اهتزوا : تحريف . والمثبت فى صحيح مسلم ، والفائق (٢ — ٢٥٨) : قال الزمخشرى : والإهتار : الاستهتار ، يقال : فلان مهتر بكذا ومستهتر به : مولع به لايحدث غيره .

فالخوفُ أن تخافَه من عَظَمته . والرَّجَاءُ أَنْ ترجُوَه من رحمته ، والخشيةُ أَنْ تخشاهُ من مَهَابته . والحبُّ هو أَحبَّك فأَعطاكَ من حُبّه لكَ حتى أَحبَبْتَه ؛ فهذا مُبَاينٌ [١] للخوف والرجاء والخَشْيَة فى الأَصل . فالخَوفُ والرجاءُ والخشيةُ هاج من نفسك لعَظمته . والحبُّ منه بَدَا [٢] فوضعَ فيكَ حتى هاج له حُبُّ الرجاءِ من ذلك الوَضْع فيك . والذى وضعَ فيكَ من الحبِّ سِرٌّ منظوم فى نُورِ المعرفة ، ونُورِ التوحيد . ونورُ التوحيد كشىءٍ فى شىءٍ ؛ فالمعرفةُ ظاهرةٌ ، والحبُّ فيها باطنٌ [٣] كلُبِّ الشَّىْءِ ؛ ولذلك قُلْنَا : إنه من الشجرة بمنزلة قَلْب الشجرة [٤] . فعِظَمُ قُوَّةِ الشجرة من قَلْب الشَّجَرة ، فمن اختَصَّ من العباد فتح عليه بابَ حُبِّه حتى هاج مافى قَلْبه يَسْمُو [٥] إلى الذى عنْد رَبِّه . فلا يزالُ قَلْبُه فى السير ، وحُبُّ اللهِ فى مَزِيد ، وَهَيْجُ [٦] الْعَبْدِ فى مَزيد ، حتى يَصيرَ العَبْدُ هائماً به ؛ فكما كان هذا فى الأَصل يُسَرّ [٧] فحَقيقٌ على العبد أن يُسِرَّ ذلك فيما بينه وبين ربِّه ، ولا يُبْديه [٨]

(١) مباين : مخالف .

(٢) بدا : ظهر ووضح .

(٣) اللب : خالص كل شىء .

(٤) اللب من النخل والجوز ونحوها : قلبها (القاموس) .

(٥) يسمو : يرتفع .

(٦) هاج الشىء : ثار .

(٧) فى ب : سر .

(٨) يبديه : يظهره .

حتى يكون ذلك مَصُونا فيما بينه وبَيْنَه ، ويجتهدُ ألاَّ يشتهر فيُنْسَب إلى ذلك فيُقْتَضَى غدًا صدقَ ذلك وحقائقه ووَفارته [١] ؛ فيَسْتَحِي من ذلك .

ألا تَرَى إلى أصحابِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لما ذَكروا مِنَّةَ [٢] اللهِ عليهم بالإسلام طابت نفوسُهم ، فقالوا : إنَّا لَنحبُّ رَبَّنا . فلو علمنا ماذا يُحبُّ لأَتَيْنَا مَحْبُوبَه ، فابْتُلوا بهذه الكلمة ؛ فأنزل اللهُ عزَّ وجل [٣] : (قُلْ إنْ كنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُم اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم واللهُ غَفُورٌ رَحِيم [٤]) .

وامتحن دعوتَهم لمحبَّتهم إياهُ بقوله [٥] : (إنَّ اللهَ يُحبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُون فى سَبِيلِه صَفًّا كأَنهم بُنْيَانٌ مَرْصُوص) .

فاقتضاهم قِتالا بهذه الصفةِ من الثبات ، لِيُبْرِزَ حقائق حُبِّهم ، فلما خَرَجُوا إلى القتالِ فمنهم مَنْ وَفى بذلك ، ومنهم مَنْ لم يَفِ بذلك ؛ فأنزل الله تعالى قولَه تعالى [٦] : (يأَيُّها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُون مالا تَفْعَلون) .

---

(١) وفر الشيء : تم وكمل .

(٢) منة : نعمة .

(٣) سورة آل عمران ، آية ٣١

(٤) محبة العبد لله ورسوله : طاعته لهما واتباع أمرهما . ومحبة الله للعباد : إنعامه عليهم بالغفران .

(٥) سورة الصف ، آية ٤ .

(٦) سورة الصف ، آية ٢

ورُوِىَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهعليه وسلم أنه قال : إذا قال العبد اغْفِرْلى . إنه لايَغْفِرُ الذُّنوبَ إلا أنت . ضحك الربُّ من قَوْلِ العبد.

مثـل رجل له عبـد رباه بين يديه

فمَثَلُ ذلك كمثَلِ رجُلٍ له عَبْدٌ تَليد [١] رَبَّاه بين يَديه ، وله عليه رَأْفةُ الأُمومة وعَطْف الأُبوّة ، فهو يحبُّ أنْ يكونَ بين يديه لايَبْرَح حتى يكونَ فى رِعَايته وكلاءته [٢] ، وهذاالعَبْدُ يَجُول ويتردد ، فإذا خرج من المَأْمَن نالَتْه نكبةٌ مِنْ عَثْرَة إذا اشتدَّ فى سَعْيه فردَّدَه ، وربما شاكَتْه [٣] شَوْكَةٌ ، وربما خدشَتْه السِّبَاعُ بالبَرَاثِن [٤] والأنياب ، والسيِّدُ قد حذَّرَه ذلك ، فإذا لم يأْخُذْ حِذْرَهُ نالته هذه الأَشياءُ ، ففَزِع إلى الأَدْوية والمَراهم يُدَاوِى نَكباته ، وفَزِع إلى مِنْقَاش ينزع شَوْكَتَه ، فهو يتردَّدُ فى طلبِ هذه الأَشياء للتَّدَاوِى بها ؛ وهذا كلُّه موجودٌ عند سيِّده ، وهو أَعلَمُ بدائِه ، وأَرْفَقُ بمُدَاوَاته وألطف ، فيتركه السيِّد فى التردُّد حتى يَعْيَا ويعجز ويَأْيس [٥] ، فإذا أَيِسَ

---

(١) التليد : ماإشتريته صغيرا فنبت عندك. والتليد : الذى ولد ببلاد العجم، ثم حمل صغيرا إلى بلاد العرب (المصباح) .

(٢) كلاءه : حرسه ورعاه .

(٣) شاكته الشوكة : دخلت فى جسمه .

(٤) البرثن : الكف مع الأصابع ، ومخلب الأسد ، أو هو للسبع كالإصبع للإنسان ، وجمعه براثن .

(٥) يأيس : ييأس .

من هذه الأشياء فزع إلى سيده طالبا مِنْ عنده دَوَاءه وعلاجَه ، فإذا صار إلى سيِّدِه بتلك الحالِ ضحكَ منْهُ كأنه يقول : جئتَني بعدما اقتدرت وتردَّدْت فى الاقتدار كالمُسْتَغْنى بما عندك ، فلما عجزْتَ وأَيِست جئتَنى شئْتَ أَوأَبيتَ ؛ وسيِّدُه جَوَادٌ كريم ، حسن الخُلق ، واسعُ الصَّدْر ، وليس [1] بكَزٍّ ولا لئيم . فيضحك إلى عَبْدِه بجَهْله وقِلَّته وضَعْفه ، وعَجزه وفَقْره .

فكذلك العَبْدُ أَمَرَهُ ربُّه أَنْ يكونَ واقفا بين يديه مُرَاقِبًا لمشيئاته فيه ، ساعيا فى أَمْرِه ، يَسْعَى العَبْدُ خائفا لِمَسَاخِطِه [2] ، معظِّمًا لأُموره ، شاكرًا لأَنْعُمِه ، عارفا لِمنَّته [3] ، عالما بإِحسانه ، لا حظًّا إلى فَضْله ، واثقًا بما تكفَّلَ له من رِزْقه ؛ فذهبَ العَبْدُ فبرح من المقام ، وأَعرض عن المُرَاقبة ، وأَقبل على نَهمات [4] نَفْسه ، حتى ضيَّع أَمْرَه ، وذهب فى مسَاخطه . كالدابَّة الحَرُون [5] الجَمُوح [6] ، حَرَنَ على ربِّه فى جميع أَمره ونَهْيه . فاستخفَّ بحقِّه ، واستهانَ بأَمره ، وعظَّم نَفْسَه ، وتكبَّرَ بأَحواله ، وكفَر بنعَمه ، وأَنكر

---

(١) رجل كز اليدين : بخيل .

(٢) السخط — بالضم ، وكعنق ، وجبل ، مقعد : الغضب . والكراهية ، وعدم الرضا .

(٣) المنة : النعمة والفضل .

(٤) نهمات : جمع نهمة : الحاجة والشهوة إلى الشئ .

(٥) حرنت الدابة حرانا فهى حرون ؛ وهى التى إذا استدر جريها وقفت .

(٦) جمح الفرس : غلب فارسه ، واستعصى على راكبه حتى غلبه .

مِنَّتَه ، وجَهِل إحسانَه . وعَمِيَ عن فضله . وتَذَبْذَب عَقْلُه فى شَأْن ماتكَفَّل له به . ثم ذهب [٥٩] يترَدَّدُ فى الصلاة والصَّوم ، والصَّدَقة والحج والجهاد ، وأنواعِ أعمال البر . يُريد أَنْ يَأْخذَ نَفْسه من رَبِّه . ويُنَجِّيها من عَذَابه بهذه الأَشياء ؛ فأَيُّ خائب أَخْيَبُ من هذا حيث يَعْمَلُ مِثْلَ هذه الأَشياء ، فلا يكون مَفْزعه إلى رحمته ، وافتقاره إلى مغفرته . فهَذا أَحمقُ جاهلٌ بربّه ، أَخافُ أَنْ يَكلَه اللهُ إلى عمله حتى يَفْضَحَه على رءُوس الأَشهادِ .

وقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما رُوِى عنه [١] : أَنْ ليس أَحَدٌ منكم يُنْجيه عملُه . قالوا : ولا أَنْتَ يارسولَ الله ؟ قال : ولا أَنَا . إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِى[٢] الله منه برحمته .

والعاقلُ المُنْتَبِه عَقَل هذا الباب ، فعمل جميعَ أَعمالِ البِرِّ ، ورَمَى بها خَلْفَ ظَهْره ولسانِه ، لا يَفْتُرُ [٣] عن الدعاءِ والنِّدَاءِ عند التضرُّع . وعَيْنَا قلبه شاخصتَان إلى اللهِ تعالى ، يَغْسله بماءِ الرَّحمة ، فيَصْلُح حينئذ للمغفرة ؛ فعندها إذا قال : اغفر لى فإنه لايَغْفرُ الذنوبَ إلا أَنْتَ ضحكَ الرَّبُّ تبارك وتعالى اسْمُه ، كأَنَّه يقول : عَبْدى كانَ بين يدىّ . فترك المقام فأَذْنَب ، ثم نَدِم فجَالَ وتردّد ، فلم يجدْ عند أَحَدٍ فَرَجا ، فأَيِس[٤] من الجميع ، ثم عاد إلَىَّ ، علم

(١) صحيح مسلم : ٢١٢٩ ، ٢١٧٠ (٢) يتغمدنى الله برحمته : يلبسنيها ويسترنى بها .

(٣) فتر عن العمل فتورا : انكسرت حدته ولان بعد شدة .

(٤) أيس : يئس ، وفقد الأمل .

أنه لايَقْدر أنْ يُدَاويَه من هذا إلا أنا ، لأنِّى لم أَجعل المغفرةَ بيَدِ غيرى . وإذا ضحك إلى عبده لم يُحَاسِبْه .

ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال [١] : أَفضل الشُّهَداءِ عند الله تعالى الذين يلقون فى الصفّ فلا يَلْتَفتُون بوجُوههم حتى يُقْتَلُوا . أُولئك يَتَلَبَّطُون [٢] فى الغُرَف الأَعلى [٣] من الجنة ، يضحكُ إليهم الرَّبُّ ؛ إنَّ الربَّ إذا ضحك إلى قوم فلا حِسَابَ عليهم ا. والمغفرةُ حجابُ الرحمة ؛ فإذا ستر ذَنْب عَبْدٍ وتَخطَّى بذلك السِّتْر فقد نَجَا من العذاب ؛ لأَنَّ الرأْفة قد استكملت ، والعَرْض والحِساب باقٍ على العَبْد ؛ فإذا ضحكَ اللهُ إليه نَجا من العَرْض والحساب ؛ لأَنَّ الضحك من الجُودِ ؛ فإذا استَعْمَل على العبد جودَه نَجَا وكأَنه لم يُذْنب .

مثـل الهوى فى الآدمى

ومثَلُ الهَوَى فى الآدَمِىّ كالسحاب المُطْبِق [٤] على الأَرض كلِّها قد أَحاط بالأُفق ، ومِن وراءِ السحاب شَمْسٌ ؛ فإذا انكسفت الشَّمْسُ صارُ النهارُ كاللَّيل ، فإذا انْجَلَتْ [٥] عن الكسوف فى سحابه

(١) الفائق : ٢ — ٤٢٥

(٢) التلبط : التمرغ فى النعيم ، يقال : يتلبط فى النعيم : يتمرغ فيه ويتقلب (القاموس) .

(٣) فى الفائق : العلا .

(٤) أطبقه : غطاه (القاموس) .

(٥) انجلت : انكشفت وظهرت .

فذاك نهارٌ مُقِيم ذُو غُبار وَغَيْم ،فإذا انقشع منها مِثْلُ رَوْزَنَة[١] حتى بدا منها بمقدار ذلك ، فأَشرق نورُها فى الأَرض أضاءت الأَرضَ كلَّها بقَدْر ما أَشرق فى تلك الرَّوْزَنَة . فلا تزال تَتَقَشَّع ، وتَتَّسِعُ تلكَ الرَّوْزَنة حتى تَتَقَشَّع كلُّها ، وتفضى[٢] فى جميع نواحِى الأُفق ، فتصير/ السماءُ مُصْحِية ، والشمسُ بارِزَة مُشْرِقة بكمالِها على جميع الأَرض فى التَّلِّ والجَبَل ، فالأَوَادية[٣] والأَمصار ، والقُرى والبيوتات والكُوَى[٤] . فبِقَدْرِ ما ينقشِعُ السحابُ تُشْرِقُ الأَرضُ بنورها ، ثم بِقَدْرِ ما يَبْقَى فإشراقُها مُنْكَمِن ، وهى محتجبةٌ بذلك الباقى من الغَيْم . فكذلك الهوَى فى الآدمى مُطْبِقٌ على الفؤاد فى الصَّدْر ؛ والنور فى القَلب كالشمسِ المنكمنة فى السحاب . فلا ينتفِعُ بِحَرِّها وإشراقها . وإذا غَرَّه العَدُوُّ حتى أَشرك بالله فقد انكشفت شَمْسُه ، وصارت معرفتُه فى كُفْرِه ؛ والكفْرُ الغطاءُ . فصار صَدْرُه كالَّليْل المظلم . وهو عالم بأَنَّ اللهَ خالِقُه ورازِقُه ، ومُميتُه ومالكه ؛ والعلمُ المُنْكَمِنُ فى تلك الظلمةِ لامستنير لعينى فُؤَاده ، وهو يَقُول : رَبِّى اللهُ ثم لايستقيم ؛ قال الله تعالى[٥] : (ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السموات

---

(١) الروزنة : الكوة .
(٢) فى هامش ب : ويضحى.
(٣) الوادى : مفرج مابين جبال أو تلال أو آكام جمعه أو داء ، وأودية ، وأوداة، وأودائة . قال ابن سيده : وبعضهم روى : الأوادية: قال: وهو تصحيف (تاج العروس) .
(٤) الكوى : جمع كوة .
(٥) سورة الزخرف ، آية ٩

والأرضَ ليَقُولُنَّ خلقهُنَّ العزيزُ العَليم[١]) .

ومَنْ[٢] يُدَبِّرُ الأُمورَ؟ومَنْ يرْزقك؟ ومَنْ يملكُ السَّمْعَ والأبصار؟ ومَنْ بِيَده ملكوتُ كلِّ شيءٍ ؟ فسيقولن اللهُ ، ثم أشركوا به . قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلم : قل (أفَلا[٣] تَتَّقُون . فذَلِكُمُ اللهُ ربُّكم الحقُّ ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضَّلَالُ) .

وإنَّمَا حملهم على الشِّرْكِ الهَوَى ؛ لأَنَّ الهوَى يطلبُ الضرّ والنَّفْع ، والتجأ[٤] من أجْل المضَرَّة والمنفعة إلى الأوثان ؛ وذلك قوله تعالى[٥] : (مانَعْبُدهم إلاَّ ليُقَرِّبونا إلى الله زُلْفَى[٦]) .

وقال[٧] : (أَمِ اتَّخَذُوا من دُونه شُفَعاءَ[٨]) .

وقال[٩] : (واتَّخَذُوا من دُونِ اللهِ آلِهَةً ليَكُونُوا لهم عِزًّا[١٠]) .

---

(١) ولئن سألتهم : يعنى المشركين . ليقولن الله خلقهن : أقروا له بالخلق والإيجاد ثم عبدوا غيره جهلا منهم .

(٢) فى سورة يونس ، آية ٣١ : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » .

(٣) سورة يونس ، آية ٣١ ، ٣٢ .

(٤) فى حـ : ومن التجأ . والمثبت فى أ ، ب .

(٥) سورة الزمر ، آية ٣

(٦) الزلفى : القربة ، أى ليقربونا إليه تقريبا .

(٧) سورة الزمر ، آية ٤٣ .

(٨) شفعاء — يعنى الأصنام .

(٩) سورة مريم ، آية ٨١

(١٠) واتخذوا — يعنى مشركى قريش .عزا : أعوانا ومنعة .

فإذا مَنَّ اللهُ على عبد فتح رَوْزَنةً مِنَ [هذا[١]] الهواءِ المُطْبق بالنورِ الذى لاقى هذا الطَّبَق فخَرقه . وخلص إلى قَلْبه إشراقُه ، فقد خرجت شَمْسُه من الكسوف ، وأشرقَ الصَّدْرُ بنورِ الله ، فاستقَرَّ القلبُ وأَمِن .

فهذا عَبْدٌ مَمْنُونٌ عليه بالإيمان . حبّب إليه الإيمانَ وزَيَّنَه فى قَلْبه ؛ والذى لم يمنَّ عليه بذلك فقَلْبُه فى غلاف ؛ وذلك الغلافُ هو الهَوَى المُطْبِق ، وذلك قوله تعالى[٢] : (أفرأَيْتَ من اتَّخذَ إلَـهَهُ هَوَاهُ وأَضلَّه اللهُ عَلَى عِلْم . وخَتَم على سَمْعِه وقَلْبه ، وجَعَلَ على بَصَره غِشَاوَةً) ؛ أى على بَصَرِ فؤاده غشاوة ؛ وتلك الغشاوة هو[٣] الهوى (فمن يَهْديه من بَعْدِ الله . أفلا تَذَكَّرُون) .

وذلك قوله عز وجل[٤] : (إنا جَعَلْنَا على قلوبهم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوه[٥]) ؛ وهو الغطاءُ . وذلك الهوى ؛ فإذا مَنَّ اللهُ عليه بهذا النُّور خرق ذلك الهوى ، فاستقرّ إشراقُه فى مكانِ الهَوى . ورَحَل الهَوَى عن مَوْضِعه ، فوَلَجَ[٦] ذلك الإشراقُ فى الصَّدر ، فأَضاءَ واستنار . فزَكا.

(١) من ب .
(٢) سورة الجاثية ، آية ٢٣
(٣) هذا بالأصول .
(٤) سورة الكهف ، آية ٥٧
(٥) أى منعنا الإيمان من أن يدخل فى قلوبهم وأسماعهم .
(٦) فى جـ - أولج ، وولج : دخل .

وقال الله تعالى[١] : (قد أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وقد خاب مَنْ دَسَّاهَا[٢]) ؛ أَى دَسّ تلكَ الرَّوْزَنة بظُلْمةِ الهوى وظُلْمة الشِّرْكِ ، فالخائبُ خابَ عن الحظّ ؛ لأنه غاب يَوْمَ القسمة عن المَقْسَم يوم المقادير قَبْلَ خَلْق السموات والأَرض والعَرْش والكرسى واللَّوْح . فلم يَحْتَظ[٣] من ذلك النور ؛ غاب وخَاب ؛ وذلك قوله تعالى[٤] : (ومَنْ لم يَجْعَلِ اللهُ له نُورًا فما لَهُ مِنْ نُور[٥]) .

وقال لمن شهد المَقْسَم يوم المَقَادير[٦] : (وجَعَلْنَا له نُورًا يَمْشِى به فى الناس) .

وقال[٧] : (أَفمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَه للإِسْلاَمِ فهو عَلَى نُور مِنْ رَبّـه[٨]) .

فهذا عَبْدٌ قد مَنَّ اللهُ عليه حتى فتح من هذا الهوى المُطْبِق رَوْزَنَتَه ، حتى أَشرق فيها نُورُ المعرفةِ فى الصدر ، فوجدَ ربَّه ،

(١) سورة الشمس ، آية ٩ ، ١٠

(٢) أفلح : فاز . زكاها : زكى نفسه بالطاعة . خاب: خسر . دساها : أخفى نفسه عن الطالبين . قال ابن الأعرابى : وقد خاب من دساها ؛ أى دس نفسه فى جملة الصالحين وليس فيهم .

(٣) فى ب : فلم يحظ .   (٤) سورة النور ، آية ٤٠

(٥) قال ابن عباس : أى من لم يجعل الله له ديناً فما له من دين ، ومن لم يجعل الله له نوراً يمشى به يوم القيامة لم يهتد إلى الجنة . وقال الزجاج : ذلك فى الدنيا ، ومن لم يهده الله لم يهتد .

(٦) سورة الأنعام ، آية ١٢٢   (٧) سورة الزمر ، آية ٢٢

(٨) شرح : فتح ووسع ، قال ابن عباس : وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه=

واستقام له . وذلك قوله تعالى[١] : (إِنَّ الذين قَالُوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا).

الآخرون مثل العنكبوت

والآخرون قالوا : (رَبُّنا اللهُ) لِمَا وضع فيهم من العلم به . ثم زَاغُوا وقالوا بأفواههم ؛ طلباً للمنافع وهَرَبًا من المضارّ . فلم يستقيموا واتَّخَذُوا من دونه أولياء يحتلبونهم ويستَدِرُّون مَنَافِعَهم منهم ، ويستظهرون[٢] بهم ، وَيتَّخِذُونهم من دون اللهِ وَلِيجةً يأْمَنُون فى تلك الوَلِيجة[٣] ؛ فمثَلُهم كمَثَل العنكبوت اتخذَتْ بَيْتا ، لا يَسْتُر ولا يَدْفَع حَرًّا ولا بَرْدًا ولا يأْتى بخير .

ما فى خطبة له عليه السلام

ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى خطبته[٤] : إِنَّ الله يقول : جَعلْتُ[٥] عبادِى كلَّهم حُنَفَاءَ[٦] ، فأَمرتُهم

على نور من ربه : على هدى من ربه . وفى القرطبى (١٥ — ٢٤٧) : وخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث ابن عمر : أن رجلا قال : يارسول الله ، أى المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً ؛ وإذا دخل النور فى القلب انفسح وتوسع : قالوا : فما آية ذلك يا نبى الله ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

(١) سورة فصلت ، آية ٣٠ ، سورة الأحقاف ، آية ١٣

(٢) يستظهرون : يتقوون .

(٣) الوليجة : من تتخذه معتمدا عليه من غير أهلك . وهو وليجتهم : أى لصيق بهم .

(٤) صحيح مسلم : ٢١٩٧ (٥) فى صحيح مسلم : خلقت .

(٦) حنفاء : مسلمين ، وقيل طاهرين من المعاصى . وقيل : مستقيمين منيبين لقبول الهداية .

أَلاَّ يشركوا بى شيئا . فأَتتهم الشياطينُ . فأَحالتهم [١] عن دِينهم وأَمرَتْهُم أَنْ يُشْرِكوا بى .

فهؤلاءِ صنف لم يَمُنَّ اللهُ عليهم بنورِ الهداية ، ومَنْ هَدَاه حبَّب إليه الإيمانَ بحبِّه ، وزَيَّنه فى قلبه بالعَقْل الذى هَدَى إليه ؛ فثبت على التوحيد ، ووَفَى بِلاَ إِلَه إِلاَّ الله ، ثم اقتضاه الطاعةَ فى الأَمْر والنهى .

فكلَّما وَفَى العبد بهذه الطاعة فى جميع متقلَّبه ، ووقع عليه الجهد والتَّعب ، واجتهد واحتمل التَّعَب كان إنما يعمل فى اتِّساع هذه الرَّوْزَنة ، وانقشاع هذا الهوى ؛ فلا يزالُ يُوَسّعها حتى تَغِيبَ فى نواحى صَدْرِه إلى جَوْفِه ، فيبقى هناك مسجونا ، فيموت فى الغَمِّ غَمّ الجوف ؛ لأَنه لَمّا جاءَهُ النورُ الأَول حتى خرق تلكَ الرَّوْزَنة كان ذلك من المِنَّةِ [٢] ، فقَبِل أَمْرَ اللهفى أَنْ يُطيعَه فى كل أُموره كهيئة العبيد ؛ فيعبده بالطاعة ؛ فابْتَلاهُ بالأَمر والنَّهْىِ ، لينظرَ كيف وفاؤه بما أَمر وقَبِل ؛ فكلما أَطاعَ فى أَمرٍ أَمدَّ من ذلك النّور ، فلا يزالُ فى مَزِيد من المدَد . فكلما صعد إلى اللهِ منه طاعةٌ أَمدَّهُ

---

(١) فى صحيح مسلم : فاجتالتهم . اجتالتهم : استخفتهم فذهبوا بهم ، وأزالوهم عما كانوا عليه ، وجالوا معهم فى الباطل . وأحالتهم : حولتهم وصرفتهم .

(٢) المنة : النعمة والفضل .

الله بمَدَدٍ من ذلك النُّور ، فإذا جاء النورُ الزائد وقع على الهوى ، فرحله عن مكانه . واستقرّ في موضعه ، فلا يزالُ هذا دَأْب [١] العَبْدِ في الطاعة وشأْن الله تعالى في المَزِيد حتى يطبق الصدر بالنور ، ويَغيب الْهَوَى كلُّه مِنْ نواحِي الصدر إلى الجَوْف ، لأَنَّ الهوى مُظْلِم ؛ فإذا جاءَ مَدَدُ النور ومزيده أَشْرَقَ ذلك المكانُ . وغابت ظُلْمَةُ الهَوَى حتى يَمْتَلِئَ الصَّدْرُ نوراً . كما كان مُمْتَلِئا من الهَوَى ، وتُشرِق الشَّمْسُ بكاملها من قَلْبه في صَدْره ، فإذا لاحظ بنُورِ تلك الشمس مَلِكَ العظَمة سَبَى [٢] قَلْبَه حُبُّ الله ، وإذا لاحظ ملكَ الجلال أَحاطت به الخَشْيةُ . ولزمه الخوفُ . ووقَفَه مكانَ الهَيْبَة ؛ فعلى المحبة قرارُ القلب في الباطن ، والهيبةُ غِشاءُ الحبِّ حتى لا يضطرب القَلْبُ ، وتسكن هَشَاشةُ [٣] النفسِ في تلك الهَيْبَة . وتصديق ما قُلْنَا في شأْن المدَدَ في قول الله تعالى [٤] : (والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهم هُدًى ، وآتَاهُمْ تَقْوَاهُم [٥]) .

---

(١) دأب : شأن .　　(٢) سبى : أسر .

(٣) هش الرجل هشاشة : إذا تبسم وارتاح (المصباح) .　　(٤) سورة محمد . آية ١٧

(٥) والذين اهتدوا للإيمان زادهم الله هدى . وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقوال : أحدها — زادهم علما ؛ قاله الربيع بن أنس . الثاني — أنهم علموا ماسمعوا وعملوا بما علموا ؛ قاله الضحاك . الثالث — زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيهم ؛ قاله الكلبي . الرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان .

وآتاهم تقواهم : ألهمهم إياها . والتقوى : الخشية ، أو ثواب تقواهم في الآخرة ، أو وفقهم للعمل الذي فرض عليهم .

فكلما عَمِلَ العَبْدُ طاعةً فإنما يعملها من الاهتداء ، فيزيده اللهُ هُدًى ؛ أى نورا يُورثه التَّقْوَى . ولا تكون التقوى إلا من الخوف والخَشْيَة .

السلام للأمة من إبراهيم :

وقولُ إبراهيم لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرِىَ به ، فَلقيَه فى السماء السابعة ، فقال له : أَقْرِئْ(١) أُمَّتَك مِنِّى السلامَ ، وأَخْبِرهم بأَنَّ الجنّةَ قِيعان(٢) طيبة التُّرْبَة ، عَذْبة الماء ، وأَنَّ غِرَاسها(٣) سُبْحانَ الله ، والحَمْدُ لله ، ولا إِلَهَ إلاَّ الله ، والله أكبر .

مثـل رجل غرس غرسـا

فمثَل ذلكَ كمثَل رجل غَرس غَرْسًا فى بُسْتَانِه ، وكانَ بذْره ألوانا : من الرياحين ألوانا ، ومن الثِّمار ألوانا ، فنَبَتَ على هيئة ما بَذَر ؛ فكذلك بَذْرُ التسبيح غَيْرُ بَذْرِ الحمد ؛ ولكلِّ كلمة بذر سِوَى بَذْر الأُخرى . فمَنْبَتُه مِنْ بذره . وكل بَذر له جَوْهر وطَعْم وريح وثَمرة ؛ فكذلك هذه الكلمات : لكلِّ كلمةٍ جَوْهر وطَعْم وثَمَرَة ؛ فجوهر « سبحان الله » الطُّهْر والنَّزَاهة ، وطَعْمه السَّعة والغِنَى ، وريحُه الرُّوح(٤) ، وثمرتُه التَّقْوى .

---

(١) أقرئْ أمتك منى السلام : أبلغهم منى السلام .

(٢) القاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، والجمع قيع وقيعة وقيعان (القاموس) .

(٣) الغرس : المغروس ، وجمعه أغراس وغراس .

(٤) الروح : الرحمة .

وجَوْهرُ الحَمْدِ الحب ، وطَعْمه الحنين والشوْقُ والحلاَوة ، وريحه الفَرَح ، وثمرته نَفاذُ مشيئته فى الحكم والقسم.

وجَوْهَرُ التهليل [١] الوَلَه [٢] بآلهيته ، وطَعْمُه الامتلاء والغنى ، وريحُه البَصر ، وثمرتُه الحريّة والخروج من الرقّ والاعتزاز [٣] بالله.

وجَوْهَر التكبير الكبر والاحْتِشَاء [٤] ، وطَعْمه السَّمَاحَة والنزاهة ، وثمرتهُ القوةُ فى أَمْرِ الله تعالى ؛ فإذا بذرَ نبت هناك على تُراب وقد خرج ذلك الترابُ من الرضوان ، فأَرْضُه لَبقة [٥] ، والماءُ من الحياة والرحمة ، والبذر من الصفات ؛ فما ظنُّك بنبات أَصلُه من الرضوان والحياة والصفات؟ كيف تكونُ تلك الرَّيَاحين وتلك الثمار؟ فكلٌّ يكون نَبْتُه وثمرتُه على قَدْرِ ما خرجَتْ منه الكلمةُ يقينًا ومَعْرِفةً وعلماً ، وهو قوله تعالى [٦] : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ له فيها حُسْنًا) [٧].

(١) قول : لا إله إلا الله . (٢) الوله : الحنين .

(٣) اعتزّ بفلان : عد نفسه عزيزاً به (القاموس) .

(٤) الاحتشاء : الامتلاء .

(٥) لبقة : لائقة .

(٦) سورة الشورى ، آية ٢٣ ، والآية : ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور .

(٧) من يقترف : من يكتسب . نزد له فيها حسنا : نضاعف له الحسنة بعشر أمثالها فصاعدا . إن الله غفور للذنوب ، شكور للحسنات .

فحُسْنُ الكلمةِ من حُسْن الخروج منه ، وحسن الخروج منه على هذه المعادن [١] بحُسْن المَعْرِفَة والعِلْمِ واليَقين والعَقْل ، فعلى حسَبِ ذلك يُزَادُ له في الجنة حُسْنُ المساكنِ والأزْواج ، والكسوة والثِّمار والبساتين ، والأفراح والوُجوهِ والأجساد والخدم ؛ فقَسَّمَ اللهُ تعالى حُسْنَ الجنةِ في الدَّرَجَاتِ على قَدْرِ حُسْنِ أعمالهم وعُبوديتهم ؛ فبِالْعِلْم والمعرفةِ والعَقْل تحسُنُ الأشياءُ من الأفعال والأقوال [٢] ، وبالنَّفْسِ تطيبُ وتثبتُ وتَدُومُ .

مثـل القلب والنفس

مثَلُ القَلْبِ والنَّفْس مثَلُ أميرٍ وَلِيَ بَلْدةً ، ووَلي بَنْدَرتها آخَرُ ، فالأميرُ يصلِّي بالناس ، وتتحوَّلُ الناسُ بالمواعظ في الخطب ، ويُقيم الحدودَ ، ويُؤَدِّبُ الرعيَّةَ ، ويُقيم أَوَدَهم [٣] بالتعليم مرة وبالتَّعْزِير [٤] والحَبْس مرةً ، ومرةً بالجوائزِ والخِلَع [٥] والحُمْلاَن [٦] والطعامِ

(١) المعدن : منبت الجواهر من ذهب ونحوه ، لإقامة أهله فيه دائماً ، أو لإنبات الله عز وجل إياه فيه . ومكان كل شيء فيه أصله .
(٢) تحسن الأشياء بسبب الأقوال والأفعال .
(٣) الأود : الاعوجاج .
(٤) التعزير : التأديب دون الحد .
(٥) الخلعة : ما يخلع على الإنسان ، وخيار المال —ويضم .
(٦) الحملان : بالضم : ما يحمل عليه من الدواب .

على موائده ، والبُنْدَار [١] يجْمَعُ المالَ والخَرَاجَ والعُشور [٢] والصَّدَقَات ، وهو مُوكَلٌ بأرزاق الجُنْد ؛ فالسلطانُ للأمير ، وبيتُ المال لِلْبُنْدَار .

فالقَلْبُ أمير ، وله سلطانُ المعرفةِ بمطالعة الملَكوت ، ومقامه من الجَلاَل والعظَمة وملك الهيبة ؛ فهو الذى يقِفُ فى مقامه بين يدى اللهِ تعالى فى المَلَكُوت ، ويُقيم أَوَدَ [٣] الجوارح ويؤدِّبُهم ، ويسير بهم بسيرة الطاعة ، والنَّفْسُ بُنْدَار يَجْمَعُ الأموالَ كلَّها بباب الشكر وباب الصَّبْرِ ، وتقوم بجميع الفرائض فتُؤَدِّيها إلى الحقّ ، وتَمْنَعُ عن أَدْنَاس [٤] الآثام تَوَرُّعا وتَقدُّسا [٥] ، وتَتَمَسْكَنُ وتتخشَّع لربّها ؛ فما دام الأميرُ محافظا على إمْرَتِهِ ضابطاً لها ، مُشْرِفًا على أَدَبِ الرَّعيةِ ، واقفًا بين يدى الملك الأجلِّ فى مقامه ، يُرَاقبُ أمورَه وما يخرج له من التوقيع له بالباب ، وصائنًا لسلطانه ، وفى رَعيَّته مَهيبًا [٦] — فأَمْرُه مُسْتَوٍ [٧] ، وولايته عَزيزة ، ومادام البُنْدَار مُشْرِفًا على أمورِ ديوانه مُحصِّنًا لأَبْوَاب الأموالِ ، مستَقْصياً فى جَمْعِه ، ضابطا له — فأَمْرُه قَوِىّ ، وخزائنُه محْشُوَّة بالأموال ، فمتى

(١) فى القاموس : البنادرة : تجار يلزمون المعادن ، أو الذين يخزنون البضائع للغلاء ، جمع بندار . ومن يكون مكثراً من شئ يشتريه منه من هو دونه ثم يبيعه ، والكثير المال .

(٢) عشرت المال : أخذت عشره .

(٣) أود : اعوجاج .

(٤) أدناس : أوساخ .

(٥) تقدس : تطهر .

(٦) الهيبة : الإجلال .

(٧) فى الأصول : مستوى .

دعاهما [١] الملكُ فوجدهما على هذه الصفةِ أكرمهما وقرّبَهُما ورَضِي عنهما ، وحَلاَّ محلَّ الخاصةِ في جوَازِ الأَمْرِ ونفاذِ القَوْل .

فإذا ذهب البُنْدار يَخْتَانُ [٢] ويَحْجزُ من الأَموال لنفسه الذَّخائر ، و أَشْغَلَ نَفْسَه بالمَلاَهي وملاذِّ النِّعم ، وترك الإشرافَ على أموره ، والاستقصاءَ في اقتضاءِ حقِّ بيتِ المال حتى ضاع كثيرٌ من المال ، وما صار بيده منَ ذلك سَرقَ بَعضاً فاحْتَجَنه [٣] لنفسه ، ثم لم يُقْنعْه هذا الذى فَعل حتى قصد لخَدْعِ [٤] الأَمير [٦١] واستمالته إلى نَفْسه ، ليشاركه في أموره ، وليأْ مَن نَاحيَته ، وطَمعَ أَنْ يجعلهَ عَوْنًا لنفسه وتحت يَدِه حتى لا يكون لأحد في هذه البلدة سلطانٌ ولا أَمْرٌ ولا نَهْيٌ إلاَّ له ، فصَيَّر الأَمير تابعا له في لَهْوِه ولعبه وفساده ، كبعض عَبيدِه ، حتى قويَ عليه قوةً أَخذ منه إمْرته وولايته ، فمتى مادعا بهما الملك وجدهما بهذه الصفة ما يقولُ لهذا الأَمير ؟ كيف يُعَاقِبهُ ؟ وماذا يقولُ للبُنْدار ؟ وبأَيَّةِ عقوبة يُعاقبه ؟ فإنَّ عقوبةَ الأمير حيث انخدع للبُنْدَار أَعظَمُ ؛ فعقوبَةُ الأَمير أَنْ يَعْزِلَه ، ثم يقتضيه الأَموال ، ويُخَافُ أَ لاَّيُوَلِّيَه أَبَدا ، وعقوبةُ البُنْدَار أَنْ يحبسه ، ثم يَقْتَضِيه الأَموالَ ، ورَفْعَ الحساب مُحْكَماً ؛ فالبُنْدَار مسجون بالأَموال ، إذَا جاءَ بها خَلَّى عنه . والأَميرُ

(١) دعاهما : دعا الأمير والبندار .

(٢) يختان : يخـون .

(٣) احتجنه : احتجزه .

(٤) خدعه : ختله ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم .

معزول مطرودٌ مُهَانٌ مسلوبٌ . مُشْرِفٌ على ضَرب العُنُق [١] . فكذلك النَّفْسُ ضيَّعَتِ الفرائضَ ، وتَوَثَّبَتْ [٢] فى المحارِم ، وخانت الأَمانةَ والوَفاءَ بالعَهْدِ الذى رُفعَ إليه يوم الميثاق ، فضيَّع البندكية [٣] ، وحَلّ وِثاقَ ! [٤] الجَوارح الذى أوثق يوم الميثاق ، و أَخْلَى بَيْتَ المال من الأَموال ، و أَجاعَ الجُنْدَ و أَظْمَأَهم و أَعْرَاهم ، وسلكهم فى البَوَادِى [٥] بلا ماءٍ حتى عطِشوا . شَغَلَ جَوارحه عن الطاعات فى ارتكاب الحرامات ، وشَغَل سَمْعَه عن المواعظ باللَّغْو والأَباطيل ، وبَصَرَه عن الاعتبار بالملاهى واللَّذّات والزِّينة ، ونَسِىَ المقابرَ والبِلى ، ولهَا عن ذِكْرْ المَعَاد ، وسَهَا عن المَبْدَإِ والمُنْتَهَى مِنْ أَين ؟ وإلى أَين ؟ ثم لم يُقْنِعْهَا ذلك ، حتى استمالت القَلْبَ ، فلم تَزَلْ تُخَادِعُه ، حتى أَسَرَتْهُ وصَيرَّتَهْ تابعاً لها ، وتحتَ يَدِهامَقْهُورا ذَلِيلا ، تَقُودُ بخِطَامِه [٦] حيثُ شاءَتْ ؛ وذَهب سلطانُ المعرفةِ ، ووقعت الغارةُ فى كنُوزِ القَلْب ؛ فإذا قدمَا على الله طُولِبَت النفسُ بالفرائض والغَرامات والجِنَايات ، وما ضيَّعَتْ من الأَمانات ، واشتملت عليه من الظُّلم للعَبِيد ، وسَجَنَتْ ؛ وطُولب القَلْبُ بالعهد

---

(١) على القتل .

(٢) توثبت فى المحارم : يريد استمرت فى عملها ، واستقرت على ذلك .

(٣) فى تاج العروس : البنادك : المقيمون بالبلد وكأنهم الأصول فيها .

(٤) الوثاق : القيد والحبل ونحوه .

(٥) البوادى : جمع بادية . والبادية : خلاف الحضر .

(٦) الخطام : ما يوضع على أنف البعير ليقتاد به .

واللِّوَاءِ[1]؛ فإذا لم يُوجد معه ضُرِبت عُنُقُه. فصار مع الأعداء، وخرج اسْمُه من الأَولياء، والعَهْدُ فى باطنِ إيمانه، واللواءُ على طرَف لسانه؛ وهى الكلمةُ العُلْيا.

مثل من سار إلى الله حتى وصل إلى محل القربة

مَثَلُ مَنْ سارَ بقلبه إلى الله عزَّ وجل حتى وصل إلى محل القُرْبة، وأُعطى سراجا يَمْشِى به فى أُموره، ليكونَ على بَصيرة - مَثَلُ رجُل سار فى ليلة مُظْلمة فى طريق؛ فهو يتَعَسَّفُه[2]، فوجد سراجا يستضىءُ به، فإنْ لم يكن معه ما يُكِنُّ[3] سِرَاجَه من الرِّيح، فهاجتْ رِيحٌ لم يَأْمن من انطفائه؛ فليس هذا بأَمْرٍ مُحْكَم ولاوَثِيق؛ فكذلك مَنْ سار إلى الله فوصَل إلى مَحَلّ القُرْبَة، فأُعْطِى سِرَاجا يَمْشِى به فى أُموره ليكونَ على بَصيرة، فهو على خَطَرٍ عظيم، لأَنه إذا وَجد السِّرَاج ونَفْسُه حَيَّة بعد، والهوَى منه بمَرْصَد مع العدو، فطالعَ بذلك السراج سعةَ أُموره، وعرَّفه بصفاته، وأَشرق فى صَدْرِه نورُ ذلك الجمال، ونورُ البهاءِ، ونورُ البهجةِ، فامتلأَ صَدْرُه فَرَجاً، وطالع كرَمَه وجودَه ومَجْدَه، فهاجت رياحُ الشهوات منه لعوارض الدنيا التى يُلَوِّح له [بها][4] العدوُّ، ويرجُو بذلك سَقْطته، فتحيَّرت نَفْسُه وتشجَّعت

(١) اللواء: العلم.

(٢) عسف عن الطريق: مال وعدل. كاعتسف وتعسف. أو خبط على غير هداية.

(٣) يكن سراجه: يستره.

(٤) زيادة يقتضيها التعبير.

على الأمور ، فرمَتْ به فى أَوْدِية المَهَالك ؛ فإذا كَاسَ[١] العبد ، واستعمل الكيَاسَة تجنَّب أسباب الآفاتِ ، و أَبْقَ على عطاياه التى أُعْطى فى محل القربة إِبْقَاءَ رجل لبس ثَوْباً خَطِيراً[٢] ذَا ثَمن ، فصانَه أَنْ يَلْبسه فى وقت هَيَجانِ الرّياح ، واغبرار[٣] الهواء اتقاءً على ذهاب طراوته ، وحاسبَ نَفْسَه على الدَّقيق والجَليل[٤] ، وكبح بلجام النَّفْسِ على التَّجَرِّى والتَّجَشُّع ،ولزِم الدعاء والتضرّع ، و أَلحَّ فى طلب الثبات ، ولم يدخل فى أَمْرٍ من الأُمور إلا بإذن ، و أودع اللهَ نَفْسَه ودينَه و أمانته ؛ فإذا كان هكذا رُفعَ مِنْ هذه المرتبة إلى القبضة ، فإذا وَقَع فى القَبْضَة وقع فى الثبات والحِرْز ، والحِفْظ والمَأْمن ، وصاربه يسمعُ ويُبْصر ويَنْطق ؛ وبه يَعْقِل ويَبْطش ، وبه يَمْشِى ، فقد وقع سِرَاجُه فى الكِنِّ ، ولا تقدر الريح أن تطفئه .

مثـل الذى يترك مجاهدة النفس

ومثَلُ الذى يستولى عليه العَجْزُ حتى يتركَ مُجَاهدةَ النفس ، وحتى يَدَعَ[٥] الإخلاصَ فى الأُمور وطلَبَ الصدق حتى يصير مُتَصنِّعًا مُرَائيا مُدَاهنا[٦] مِخلطا[٧] ، يخضَعُ للملوك ، ويتملَّق للأَغنياء ، ويتصنَّع

(١) كاس العبد : غلب بالكياسة . والكياسة : هى الظرف والفطنة .
(٢) خطيراً : مرتفع القدر .
(٣) فى ج : واغترار . والمثبت فى ب ، ح .
(٤) الجليل : الكبير العظيم .
(٥) يدع : يترك .
(٦) المداهنة : النفاق .
(٧) المخلط : من يخلط فى الأمور .

عند العامة . كمثَلِ رَجُلٍ معدود اسْمه فى الرِّجال ، فلما عُرِّىَ وجِد خُنْثى . فاسْمُه اسْمُ الرجال ، وهيئتُه هيئةُ الرجال ، وفِعْله فِعْلُ الإناث ؛ فإذا كان هذا وَضيعا من الخَلْق . دَنيًا خَطرا شَخْصُه ، فكيف يكون غَدًا هذا المتصنِّع المُرائى . المَلِق [١] للأغنياء ، المُتَبَصْبِص [٢] للمُلوك خضوعا وطَمَعا .

مثل من ترك المجاهدة فى وقت طاعة النفس

ومَثَل مَنْ ترك المُجَاهدةَ فى وقت طاعةِ النفس كمثَل رجل خرج محارِبًا بسلاحٍ تامّ ودَابَّة فارهة [٣] ، وجميع مايحتاج إليه ؛ فلما صار إلى مَصَافِّ العَدُوِّ ، ونشبت الحَرْبُ ذهب هذا فدفَنَ سلاحَه فى التُّراب ، وخلَّى [٤] دابَّتَه كَىْ لا يُقال : تَقَدَّمْ إلى القتال ، فخابَ عن الزحمة ؛ إذْ تَشَبَّه بالمُجَاهدين وليس منهم ، كما فَعل جَدُّ [٥] بن قَيس السلمى يوم بَيْعةِ الرِّضْوَان ، وذلك يوم الحُدَيْبية ،

---

(١) الملق : الود واللطف ، وأن تعطى باللسان ما ليس فى القلب (القاموس) .

(٢) بصبص الكلب : حرك ذنبه . (٣) فارهة : فتية قوية .

(٤) خلى دابته : تركها .

(٥) فى المغازى للواقدى (٥٩١) : قال أبو قتادة لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة فر الجد بن قيس فدخل تحت بطن البعير فخرجت أعدو وأخذت بيد رجل كان يكلمنى فأخرجناه تحت بطن البعير ، فقلت : ويحك ! ما أدخلك هنا ؟ أفراراً مما نزل به روح القدس ؟ قال : لا ، ولكنى رعبت وسمعت الهيعة (الهيعة : الصوت تفزع منه وتخافه من عدو) . قال الرجل : لا نضحت عنك أبدا ، وما فيك خير (نضح عنه : دافع) . ومات الجد فى خلافة عثمان .

ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُحْرِمٌ ممنوع عن الْبَيْت والطَّوَاف به ، والهَدْىُ [١] محبوسٌ عن بلوغ مَحلِّه ؛ ووُجِّهَ عثمانُ بن عفَّان رضى الله عنه رسولاً إلى أَهْل مَكَّة . فلما أبطأ وقع الخَبَرُ فى العسكر أَنَّ عثمانَ رضى الله عنه قُتل . فارْتَجّ العَسْكَرُ بما هاج ؛ وقعد رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم تحت الشَّجَرة ، وبايَعَه الناسُ على أَنْ يدخُلُوا مكةَ ويحاربوا . فبايَعُوه على الموت - يعنى أنْ يقاتلوا ولا يَفِرُّوا حتى يموتوا ؛ وكانوا أَلفًا وثمانمائة ، فبايَعُوه كلهم إلا جَدَّ بن قَيْس ، فإنه أَقَام بَعيره ، واخْتَبأَ تحت إبط بعيره ، فأَنزل اللهُ تعالى [٢] : (لقد رَضِىَ اللّهُ عن المؤمنين إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرة) [٣].

والخائب عن رحمة الله فى سابق العلم خائب فى كل وَقْت .

مثـل من يقصر فى الفرائض

مَثَل مَنْ يُقَصِّرُ فى الفرَائض مَثَل عَبْد يُؤَدِّى ضَرِيبةَ [٤] مولاه [٥] شَهْرًا شَهْرًا ، فالعَبْدُ السُّوءُ يؤخِّر أَدَاءَه ، ويُمَاطل [٦]

---

(١) الهدى : ما يهدى إلى الحرم من النعم .

(٢) سورة الفتح . آية ١٨

(٣) هذه هى بيعة الرضوان . وكانت بالحديبية . وخبرها فى كتب التاريخ ، وانظر فى ذلك أيام العرب فى الإسلام صفحة ٧٧

(٤) ضربت على العبد خراجا : إذا جعلت عليه وظيفة ، والاسم الضريبة . والوظيفة : ما يقدر من عمل ورزق وطعام .

(٥) مولاه : سيده .

(٦) يماطل : يسوف ويؤخر .

مَوْلَاه حتى يَطْعَن[1] فى الشَّهْر الثانى فيتوسّطه ، فإذا أدَّاها خَلَط بها زُيُوفا[2] وبَهْرَجَة[3] ، فهذا المَوْلَى فى كرَمِه وسهولةِ أمْرِه ومُعَاملته يقْبَلُ ذلك من عبده ، ولكنه عنده [٦٢] فى المنزلة فى أدْنَى المراتب مستخفًّا به وبأحواله .

مثل من يضيع حقوق الله

ومثَل مَنْ يضيِّع حقوقَ اللهِ تعالى مثل عَبْد وَكله مَوْلَاه بأموالِه وعَبيده ، فطالع عَمَلَه ، فوجده إنما هِمَّتُه بَطْنُه وفَرْجُه ، فإذا شَبِع وقَضَى نَهْمته[4] مِن فَرْجه واكْتَسَى ، رَفَع البالَ عن عَمَلِ مولاه وعبيده ، فهذا عَبْدٌ ساقِطُ المنزلة .

مثل من قرأ القرآن بغير فهم

ومَثَل مَنْ قرأ القرآن بغير فَهْمٍ مثَلُ رجُلٍ أُعْطِى جواهر بالعراق ، فقيل له : انْقُلْها إلى خراسان بكراء[5] مائةِ درهم ، وعامِلْ بها هناك ، فإن عامَلْتَ بها هناك فلكَ ربْحُها ، ورِبْحُها مِلْءُ البيوتات ذهبًا وفضَّة .

---

(١) طعن فى الشهر : دخل فيه .

(٢) زيوفاً : جمع زيف : ردئ .

(٣) البهرج : الباطل والردئ . وفى أ ، ب : تبهرجة .

(٤) النهمة : الحاجة ، والشهوة فى الشئ .

(٥) الكراء : الأجرة .

فلما وافى خُراسان اجتزأ [١] بالكِرَاء ، وترك المعاملة ، فأُعْطِى الكِرَاءَ مائةَ درهم على حَمْله ، وصُرِفَت [٢] المعاملةُ إلى غيره .

فكذلك مَنْ قرأ القُرْآنَ ولم يُعامِل اللهَ بتلك الجواهر التى تعطى فيه - لَهُ أَجْرُ تَعَبه وعَنَائه فى قراءَته ، وفاتَتْه المُعاملة وأَرباحُ المعاملة .

مثل الواعظ الناصح

مَثَلُ الواعظ الناصح مَثَل عَبْد للملك ، وللملكِ عَبيدٌ آخَرُون سِوَاه مِنْ بين رَاع وحَرَّاث ، وصانع وتاجر ، وكلُّ واحدٍ منهم قد وُكل بعَمل من الأَعمال ، يُطالَبُون بالقيام بذلك وأَدَاءِ الغَلَّة [٣] ، وكلٌّ واحدٍ منهم يَدَّعِى أنه يحبُّ مَوْلاه ، ويَنْصحهُ ويُطيعه فى أمره ، مُقْبِلٌ على أمره الذى وكل به ، موفِيًا لوظيفته التى وظِّفَتْ [٤] عليه مِنَ العمل ؛ وكان هذا العَبْدُ الواحدَ من بينهم يُوفر على الملك وَظيفته من العَمَل ، ومع ذلك يطوفُ على هؤُلاءِ العبيد ، ويَحُثُّ كلَّ واحد منهم على القيام بعمل الملك وبتوفير ماوُظِّف عليه ، والإِشفاقِ على أعماله ، ويُجِلُّ بصدورهم أعماله ، ويصفُ لهم قَدْرَ الملك وغِنَاه ، وسعته وقوَّته ، ويُؤَمِّلهم كرمَه وجُودَه ، وحُسْنَ

(١) اجتزأ : اكتفى .

(٢) صرفت المعاملة : حولت .

(٣) الغلة : كل شيء يحصل من ريع الأرض أو أجرتها ونحو ذلك .

(٤) وظفت عليه توظيفا : قدرت .

خلقه ، وجميلَ معاملته ، ومحاسنَ ما أتى إليهم وعَطف عليهم ، ويَحُثُّهم على النصيحة[1] لهذا فى رَعْىِ أغنامه ، ولهذا فى صناعته ، ولهذا فى تجارته ، ويُعينهم على ذلك ؛ لايَحْملُه على ذلك إلا حُبُّ الملك ، وتعظيمُ أمره ، وتَوْقير شَأْنه ، وأنْ تقَعَ الأمورُ منه مُسارّة ، والملكُ مُطَّلِعٌ على ذلك منه وعلى سائر[2] هؤلاء العبيد ، كُلٌّ واحد إنما بَالُه . . .[3] وبَالُ هذا الواحد بقُربه ؛ ومولاه قد صرف همَّتَه أَجمع عن نَفْسه ، وجَمَع همومَه أجمع ، فجعلها همًّا واحدا لربه.

فهذا عَبْدٌ ناصَحَ اللهَ فنصحه اللهُ ، وأحبَّ اللهَ فأَحبَّه اللهُ ، وتولَّى اللهَ فتولاَّه اللهُ ، فهو وَلِيُّ الله ، واللهُ وَليُّه .

فما ظنُّك بالله يَوْمَ يَدْعُو هؤلاء العبيد ، وتَدْعُوه ، فيَجْزِيهم على أعمالهم على قَدْرِ عقُولهم ؟ ماذا يكون جزاءُ العَبْد الناصح ؟ وإنما أدرك النَصيحة بفَضْلِ عَقْلٍ فيه ؛ عَقَل إلَـهَهُ ، وعَقَل عنه تَدْبيره وأُمورَه ؛ ولذلك قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : يَعْمَلون ويعلِّمون الناسَ الْخَيْرَ ، ويُعطون أُجورَهم على قَدْرِ عُقُولهم.

أنبأَنا صالح بن محمد رحمه الله بإسناده قال : أَوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أَنْ ياموسى إنما أَجْزِى الناسَ على قَدْرِ عقولهم .

---

(١) النصيحة : الإخلاص .

(٢) سائر : باقى .

(٣) فى مكان هذا البياض كلمة غير مقروءة .

ورُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : العَقْلُ ثلاثة أجزاءٍ : حُسْنُ المعرفة لله . وحُسْنُ الطاعة لله . وحُسْنُ الصَّبْر لله.

ورُوِى عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فيما يروى عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى أنه قال : ماتَقَرَّبَ إلىّ عَبْدِى بمِثْلِ أداءِ فَرَائضى ، وإنه ليتَقَرَّبُ إلىّ بعد ذلك بالنَّوَافِل حتى أُحِبَّه ؛ وما يَتَقَرَّبُ إلىّ عَبْدٌ بمِثْلِ النُّصْح ، فإذا أحببته كُنْتُ سمعَه وبَصَره ، ويَدَه ورِجْلَه . وفُؤَاده . فَبِى يسمع ، وبى يُبْصِرُ ، وبى يَمْشِى ، وبى يَبْطِش ، وبى يَعْقِل .

وكانت مشيَةُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم تَكَفِّيًا كما تَكَفَّى[1] السفينةُ ؛ فإنما كان ذلك لا مْتلائه من عظَمة اللهِ تعالى ، وكان يَميلُ به جلالُ اللهِ هكذا وهكذا ؛ لأَنَّ الجلالَ لايسكن .

ورُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى : أَحَبُّ ماتعبَّدَ لى به عَبْدِى النُّصْحُ لى .

وكذلك مارُوِى عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال . إنِ للهِ مَلائكةً موكَّلين بأَرزاق بنى آدم . قال : أيما[2] عَبْد وجدتموه

(١) تكفى : تمايل إلى قدام . وبعضهم يرويه مهموزاً : تكفأ تكفأ (الفائق : ٣-٣٦) . وفى صحيح مسلم ١٨١٥ : إذا مشى تكفأ . قال شمر : أى مال يميناً وشمالا . قال الأزهرى : هذا خطأ لأن هذا صفة المختال ؛ وإنما معناه أن يميل إلى سمته وقصده ، كما قال فى الرواية الأخرى : كأنما ينحط من صبب . وارجع إلى الشمائل للترمذى .

(٢) هذا فى أ ، ب ، حـ .

طلب ، فإنْ تحرَّى العَدْلَ فطيِّبوا ويَسِّرُوا ، وإنْ تَعَدَّى إلى غير ذلك فخلُّوا بينه وبين ذلك ، ثم لاينالُ فَوْقَ الدرجةِ التى كتبتُها له.

فقد ذكر فى هذا الحديث أنَّ مَنْ جمع همومَه فجعلها همًّا واحدا ضمن الخالقُ رزْقَه وكفى.

مثل من أعطى نور الهداية

مثل مَنْ أُعطِى نُورَ الهداية ، واستنار قَلْبُه ، ثم أضاء صَدْرُه من نُورِ القَلْب — مَثَلُ رجل فى بيتٍ مُظْلم لايَهْتَدِى لما فيه ، وفى البيت جَوَاهر وألوان من النِّعمة ناحية منه ، وفى الناحية الأُخرى مَزْبَلة[1] وجَرفٌ[2] يتردَّى[3] فيها ، وعقارب وشَوْك ؛ وهو فى تلك الظُّلْمة سَكْرانُ لا يُفيق بجوهر ونعمة ، ولا لقَذَارة مَزْبَلة وتَرَدِّى جَرْف ، ولَدْغَة عقرب ، ووَخزَةِ شَوْكة مِن سُكْره ، فأُعْطِىَ سِرَاجًا فأَفَاق من سُكْره ، فأَضاءت له جُدْران البيت من ضَوْءِ ذلك السراج ، فمنْ قام خَلْفَه فإنما يَعْلَمُ بحاله وهيئته ونَعْته[4] مما يتراءى له من الظلِّ على ذلك الجِدَار المُضِىء الذى هو أمامه ؛ فإذا كان ذاجُثَّة عَرَف ذلك بما وقع من الظل على ذلك الجِدَارِ ، وعَرَف صورتَه بما وقَع له النَّعْتُ بذلك الظلِّ على الجدار ، وإنْ أشار بأَصابعه مِنْ خَلْفه وقَع ظِلُّ إشارتهِ على

(١) الزبل — بالكسر : السرجين . والمزبلة : المكان الذى يلقى فيه الزبل .
(٢) الجرف : ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض .
(٣) يتردى : يسقط .
(٤) نعته : صفته .

الجدار . فعلم عددَ الأَصابع وما يَنْقُصُ منها ومايَزيد ، فصارت له رؤيةُ ذلك الظلِّ ، كأَنك التفتَّ إليه فرأَيتَه بعينك ، فإذا أَثَرْتَ فى ذلك البيت من دُقَاقِ (١) التراب حتى يَثُور غُبَارُه فيمتلىء البيتُ ، أو أَحْرَقْتَ تِبْنًا حتى ارتفع وهاجَ دُخَانُه ، فامتلأَ البيتُ ، حجبَ ذلك الغبارُ والدخانُ عَيْنيك عن رؤيةِ ماكنْتَ تراهُ على الجدار أَمامَك ، وغاب ذلك الظِّلُّ الذى كنْتَ تَراه فى ذلك الغُبَار والدُّخان بغلبتهما عليه .

فكذا الذى أَضاءَ صَدْرُه من نُورِ قلبه ، كلما ذكر فى شىء من أُمورِ الآخرة وشأْنِ القيامةِ والدارين تصوّرت صورةُ تلكَ الأَشياءِ لعينَى فُؤَاده ؛ لأَنَّ ذِكْرَ تلك الأَشياء إذا تصورت صارت الصُّوَرُ ظِلاًّ فى الصدر قُبَالة (٢) عَيْنَى الفُؤَاد ؛ لأَنَّ الضوءَ من نُورِ الله فى صدره ؛ فإذا جاءَت صُوَرُ الأَشياءِ وقع للصُّوَر ظِلٌّ فى ذلك الطور ؛ لأَنَّه عليه النور ، ولكن حجبَت صُوَرُ الأَشياءِ عينَى الفؤاد عن رُؤْيةِ النور بمقدار ماتصوّر .

أَلَا تَرى أَنه إذا انتقل من فكر المخلوقين إلى فكرة جَلَالِ اللهِ وعظمتهِ ازْدَادَ الضوءُ ، ولم تَقَعْ لتلك الفكرةِ صُورةٌ ؛ لأَنَّ ضوءَ هذه الفكرة زيادةٌ فى ذلك الضَّوْءِ ، لأَنه منه فكر ، ومنه [٦٣] حدَث الضَّوْءُ ، ثم عاد إلى ماحدث منه ، ولم يكن له ظِلٌّ .

(١) الدقاق - كغراب : فتات كل شىء ، والدقيق .

(٢) قبالة العين : تجاهها .

وإذا فكَّرَ فى أَمْرِ الجنة والنار والقيامةِ وكلِّ شيءٍ مخلوق صارت تلكَ الصورُ التى تُصوِّرت بالفكر حَجْبًا لعَيْنَى الفؤادِ عن ذلك النُّور بمقدار الصُّوَرِ ؛ فلذلك سمَّيْنَاه ظِلاًّ ؛ فإذا عَايَن ذلك الظلَّ على تلك الصُّور صار كأنه يشاهِدُ بعينى فؤاده مايُعَايِن غـدا بعينى رأْسِه فى الآخرة ، وإذا لحظ إلى عظمةِ اللهِ وجلاله أشرق الصَّدْرُ ، وصار ذا شُعَاع كله ؛ فهو فى ذلك الوقتِ كأنه يشاهِدُ بعينى فؤاده مايشاهِدُ من الوقوف بين يديه والنظر إلى جَلاله ، وإذا خلا من النَّفْس وشهواتها ثار [١] دُخَانها إلى الصدر ؛ فامتلأَ هذا الصَّدرُ دُخَانا وغبارًا ؛ الدخانُ لحريق الشهوات ، والغُبارُ للتجبُّر الذى فى النفس من الكِبْر ، فغاب ذلك الظلُّ بتلك الصوَر التى صوِّرت له أُمور الآخرة ؛ لأَنّه اختلط الضوءُ بالغُبَار والدخان ، وافتقدت [٢] عينا الفؤاد تلك الصُّوَر .

فإذا ذهب يتفَكَّر لم يَقْدِرْ أَنْ يفكر ؛ لأَنَّ بَصَرَه لاينفذُ فى ذلك الغُبَارِ والدخانِ إلى صُوَرِ تلك الأَشياء ؛ وقد ذهبت الصُّورُ ؛ وتصير تلك الفكر الآن حَوْلَها ؛ فهو يحدِّثُ نَفْسَه ، ويحسب أنه فكرة ، وإنما الفكرةُ توهُّم ، والتوهُّمُ فى الشئ المُضِئ لصُورِ الأَشياء لكَ ، وإذا دام ذلك فهو فكره ، ويقال للتوهم بالأَعجمية

---

(١) فى أ : فار . والمثبت فى ب .

(٢) افتقد الشئ : بحث عنه عندما لم يجده .

« انديشة »وللفكرة «اسكالسن» .فالتَّوَهُّم أَصْلٌ .والفكرة فَرْع ممدود ؛ فبالتَّوَهُّم يتصوَّر .ويتفرع ماتصور ويمتدُّ باستقبال القَلْبِ ذلك ، حتى يمتدَّ ويثمر ؛ فتلك فكرة . وإنما صارت عامةُ أعمالِ العامة فاسدةً لهذا الذى وصَفْنَا . لأنَّ الأَعمالَ تَصْدُر عن عَينى الفؤاد ، وأنَّ تدبير القَلْبِ مع العقل هناك يَتَراءى لعينى الفُؤَاد صور الأُمور ، ويُزَيِّن العقلُ فيها ماحَسُنَ لعينى الفؤاد حتى يُدَبِّرَ الفؤاد ويُمضيه.

تسمية القلب قلبـا :

والقَلْبُ والفؤادُ هو بَضْعَة [١] فى بَضْعَة ، فما بَطَنَ فالنُّور فيه فهو القَلْبُ .سُمِّى قَلْبًا لأَنه بين إصبعين من أَصابع الرَّحْمَن الخالق ، وإذا أَراد اللهُ أَنْ يَهْدِيَه بسطه فاستقام ، وإذا أَراد أَنْ يُضِلَّه نَكَسَه [٢] ؛ فنُورُ القلب يتأَدَّى [٣] إلى بَصَرِ الفُؤاد ، فيستنير ويُضِىءُ منه الصَّدْرُ ؛ فإنْ شاءَ الرحمنُ قَلَّبَه كيف شاءَ على ما مضى من الصَّدْر ؛ فالفؤادُ هى البَضْعَة الظاهرة التى فى جَوْفها هذه . وعلى الفؤاد عَيْنَان ، فسُمِّى كلُّه قَلْبًا لاتصالهما . ولأَنَّ أَحدَهما فى جَوْفِ الآخر ، كاللُّؤْلؤة فى الزُّجَاجة . وهو قول الله تعالى [٤] : (ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأَى).

---

(١) البضعة : القطعة من اللحم .
(٢) نكسه : قلبه على رأسه .
(٣) يتأدى : يصل .
(٤) سورة النجم ، آية ١١

وقال الله تعالى فى التقليب [١] : (ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهم وأَبصارَهم كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّة) [٢] .

فقَلْبُ الكافرِ منكوس ، وبَصَرُ فؤاده من أسفل . وقَلْب المؤمِن مَبْسوط مُنْتَصب ، ووجهه إلى الله تعالى . وذلكَ قولُ الله تعالى [٣] : (ومَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله وهو مُحْسِن فقَد اسْتَمْسَكَ بالعُرْوةِ الوُثْقَى وإِلَى اللهِ عاقبةُ الأُمُور) [٤] .

ولما رُوِى عن عُبَادَة بن الصامت رضِىَ اللهُ عنه قال : قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم : قَلْبُ المؤمن بين إِصْبعين من أَصَابع الرَّحْمن ، وإذا أَرَاد اللهُ أَنْ يَهْديه بَسطه فاستقام ، وإذا أَرادَ اللهُ أَن يُضِلَّه نَكسَه [٥] .

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١١٠

(٢) فى القرطبى (٧-٦٥) : قيل المعنى : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النار وحر الجمر كما لم يؤمنوا فى الدنيا . وقيل : ونقلب فى الدنيا ؛ أى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة لما دعوتهم وأظهرت المعجزة . والمعنى : كان ينبغى أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم ؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبهم وأبصارهم . وقيل : ونقلب أفئدة هؤلاء كى لا يؤمنوا كما لم تؤمن كفار الأمم السابقة لما رأوا ما اقترحوا من الآيات .

(٣) سورة لقمان ، آية ٢٢

(٤) يسلم وجهه إلى الله : يخلص عبادته وقصده إلى الله . وهو محسن ؛ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع . العروة الوثقى : لا إله إلا الله .

(٥) نكسه : قلبه .

فنُورُ القلبِ يتـأَدّى (١) إلى بَصَر الفُؤَادِ ، فيستنير ويُضىءُ منه الصَّدْر ، وإذا غَشَّى الصَّدْرَ والفؤادَ دُخَانُ الشهواتِ صار كبيت فيه سرَاجٌ قد غاب ضَوْءُه فى ذلك الدُّخَان ، وأيضا صار دُخانًا ؛ لأَنَّ الشهواتِ لها حَرِيق جاءَ من الشهوات المحفوفة ببابِ النار ؛ وإنما خُلِقت من النار ، وببابِ النار وُضِعت ، وفى جَوْفِ كلِّ آدَمىٍّ منها رِيحُ تلك النار ، ولها اهتدت فى العُروق إذا هاجَتْ حتى تـأْخُذَ جميعَ الجوارِح (٢) ؛ لأَنَّ العروقَ قد التفَّتْ على الجَسد كلِّه ؛ فلذلك إذا هاجت شهوةُ شىءٍ منك أَخَذَتْ فى تلك السرعةِ من القَرْن (٣) إلى القَدَم ؛ لأَنها هاجَتْ فى العروقِ فى سرعةِ تلك الريح الجامِحة (٤) ، فاشتملت على الجسد كلِّه .

وقول النبىِّ صلَّى الله عليه وسلم (٥) : أَتاكُمْ أَهلُ اليمَنِ أَلْيَن قلوبا وأَرَقّ أَفْئدة ؛ فإنما وَصف القَلْبَ باللين ؛ لأَنَّ القَلْبَ إنما يَلينُ بالرحمة ؛ لأَنه بالرحمةِ تَرْطبُ الأَشياءُ ، فكلَّما كان القَلْبُ أَوْفَرَ (٦) حَظًّا من الرحمة كان أَلْيَن ، ثم يُخَافُ عليه - من اللِّين -

(١) يتأدى : يصل :
(٢) الجوارح : أعضاء الإنسان .
(٣) القرن : يريد الرأس .
(٤) جمع الفرس : غلب فارسه - يريد الشديدة .
(٥) صحيح مسلم : ٧٢
(٦) أوفر حظا : أكثر نصيبا .

العجز عن أَمْر الله ؛ لأنَّ اللِّينَ يُؤَدِّى إلى كَسل النَّفْسُ ، فإذا وفر الله تعالى عليه الرَّحمةَ فلَيَّنَه ، ثم فتحَ عليه من نُورِ العظمة انْكَشَفَ ذلك النورُ من رُطوبةِ الرَّحْمة ، فاستَدَرَّ الرَّحْمَة ، وعلاه نُورُ الجلَال والهَيْبَة ، فصَلُبَ القَلْبُ ؛ فذاك محبوبُ اللهِ تعالى فى قلوب العباد أَنْ يكون رَحيما صُلْبًا ؛ ففى وقت يستعملُ الرحمة ، وفى وَقْت يستعملُ الصَّلَابة .

ولذلك مارُوِىَ عن رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم أنه قال : مارُزِقَ عَبْدٌ شيئا أفضل من إيمانٍ صُلْب . رَوَاه أَبَىّ عن صالح بن محمد ، عن النَّضر بن شُمَيْل ، عن عَوْف عن أبى السَّليل [١] .

أَلاَ ترى أنَّ قوما رَقَّت قلوبُهم عند إقامةِ الحدود ، فنَزَلَ قولُ اللهِ تَعالى [٢] : (ولا تَأْخُذْكُمْ بهمَا رَأْفَةٌ فى دِيْن اللهِ إنْ كُنْتُم تُؤْمِنُون باللهِ واليَوْم الآخر ولْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائفةمن المؤمنين [٣]) .

---

(١) هو ضريب بن نقير ، قال ابن سعد : كان ثقة . (تهذيب التهذيب : ٤-٤٥٨).

(٢) سورة النور ، آية ٢

(٣) بهما : الضمير راجع إلى الزانية والزانى فى قوله تعالى فى أول الآية : الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . ولا تأخذكم بهما رأفة : لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقة على المحدود، ولا تخففوا الضرب من غير إيجاع . فى دين الله : فى حكم الله ، أو فى طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود .

ثم قررهم على معنى التثبيت والحض بقوله : إن كنتم تؤمنون بالله . وهذا كما تقول لرجل تحضه : إن كنت رجلا فافعل كذا ؛ أى هذه أفعال الرجال .

صلابة الايمـان :

فحقيقةُ الإيمان البالغ أنْ يعملَ نُور العظَمة فى قلبك حتى يَصلُبَ القَلْبُ ، لأَنَّ هذا الاسم اسم العَظَمة العظمى ، فَتَوَلَّهَ القلبُ إليه بعلْمك فى هذه الآية أنَّ إيمانَك بالله يصلِّبُ[١] قَلْبَك فى ذَاته حتى تَغيبَ الرَّأْفةُ فى ذلك الوقت فى تلك الصلابة مِنْ قَلبك .

وذلك مثلُ ماقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم حيث كُلِّم فى تلك المخزومية القُرَشيَّةِ حيث سرقت ، فغَضبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وقال : واللهِ لو كانت فاطمَةُ بنتُ محمد صلَّى اللهُ عليه وسلم لقَطَعْتُها[٢] ، ثم نزل فقطَعَها .

رقـة الفـؤاد :

وأَمَّا رقَّةُ الفُؤَاد التى وَصف بها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَهْلَ اليمن[٣] فإنَّ هذه البَضْعة[٤] الظاهرة هى وعاءٌ لتلك البَضْعَة الباطنة ؛ فإذا كانت رقيقةً تأَدَّى[٥] ذلك النورُ الذى فى القلب إلى الصَّدْر ، فنفذ البضعة الظاهرة ؛ والقَلْبُ بمنزلة المشْكَاة[٦] التى فى جَوْف القنْديل ، والنورُ فى المشْكَاة ، والفؤادُ هى الزجاجة التى فيها المشْكَاة . والمشكاةُ وَسط الزجاجة ؛ فكلما كانت الزجاجة

---

(١) الصلب : الشديد . صلب - ككرم ، وسمع - صلابة . وصلب تصليبا ، وصلبته أنا .

(٢) القطع : هو جزاء السرقة . وانظر الحديث فى صحيح مسلم : ١٣١٥ ، والنسائى : ٨ - ١٦٤ (٣) فى الحديث السابق . (٤) البضعة : القطعة من اللحم .

(٥) تأدى : وصل . (٦) المشكاة : كل كوة غير نافذة .

أرقَّ وأَصْفَى كان ضَوْءُ السِّراج أَنْفَذ إلى الصدر ، وكلما كانت أَكْثَف وأَقلَّ صفَاءً كان ضوءُه أَقَلَّ [٦٤] ؛ فإنما مَدَحهم النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم بلين القَلْب لوفَارَةِ[1] حَظِّهم من الرحمة ؛ وبرقَّةِ الفؤاد لإضاءَة الصدر منهم من أَجل الرقة .

فأَمَّا الَّذى وصَفْنَا بالصَّلاَبة فهو الكاملُ ؛ لمَا رُوى عن رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : إن للهِ تَعالى أوانى[2] فى الأَرض أَلاَ وهى القلوب ، وأَحَبُّها إلى اللهِ تَعالى أَرَقُّها وأَصْفَاها وأَصْلَبُها ؛ أَرَقُّها للإخوان ، وأَصفاها من الذُّنوب ، وأَصْلَبُها فى ذات اللهِ تعالى .

مثـل انقيـاد النفس

مثَلُ انقياد النفس فى أَعمال البرِّ مثلُ رجُلٍ قيل له فى ليلة شاتية[3] مُظْلمة : احملْ هذه الحمولةَ إلى مَوْضع كذا ، فهالَه[4] ذلك جدًّا ، وثَقُل عليه ، وهالَه شأْنُها ، وأَظْهر العَجْزَ والضَّعْفَ والوَهَن[5] من نَفْسه .

فإن قيل له : احملْها ولكَ أَلفُ درهم أَودَنانير ، فثار فيه فَرَحُ تلكَ الدنانير حتى أَخَذَ من قَرْنه[6] إلى قَدَمه بما رَجَا نَوَالَه ،

(١) وفارة : كثرة .
(٢) الأوانى : جمع آنية .
(٣) شتا اليوم فهو شات : اشتد برده .
(٤) هاله : أفزعه .
(٥) الوهن : الضعف .
(٦) من قرنه : من رأسه .

فوجد من القوة من قلبه . فاحتملها مُسْرِعًا فى السير ، وأظْهَر من نَفْسه قوةً — فإنما قوَّاه على ذلك فَرَحُ الدَّنانير ؛ فهذا مثل عَبْد حمل رَجاءَ الثَّواب والنَّوال .

ولو لم يَقُلْ له : لكَ دنانير ترجو نَوَالَهَا ، ولكن قال له : احملْها وإلاَّ ضَرَبْتُك بالسيف . فوجَد من القوة ما احتملها واستخفَّ بها منْ خَوْف السَّيْف ؛ فهذا عَبْدٌ عمل على خَوْف الوَعيد والعقَاب .

ولو لم يكن هناك طمَعٌ ولا خَوْف ، ولكن قيل له احملها ، فتلَكَّأَ وحَرَنَ (١) ، وأظهر العَجْزَ عنها ، فقيل له : أتَدْرى أنَّ هذه الحمولةَ لمَنْ ؟ قال : لا . فقيل : هى لفلان . فذُكر رجلٌ أعزّ الخَلْق عليه ، وأحبّهم إليه ، فهاج من حُبِّه فى قلبه ما نَسَّى الدَّنانير والسيفَ (٢) ، وأخذَتْه من الحُرْمَة(٣) لذلك الرجل والحَيَاء ما لا يَجدُ منْ نَفْسه تَرْكَ حمولته على قارعةِ الطريق (٤) حتى تَضيعَ ؛ فاحتملها بقوَّةِ أشدّ منَ الأوَّلَيْن ، ونشاط وسرور ما لم يَعْلَمْ أنه عليه شىءٌ من الحمولة ؛ فهذا عَبْدٌ عَمل على حُبِّ الله تعالى ، فَبحبِّه الله أَحَبَّ صاحب الحمولةِ ، فلا يترك نُصْحًا فى ذلك العمل إلا بَذَلَه ، وأشْفَقَ

(١) يقال : حرنت الدابة إذا استدر جريها فامتنعت .
(٢) أى لم يرج الثواب كالأول ، ولم يخف العقاب كالثانى .
(٣) الحرمة : المهابة (المصباح) .
(٤) أى مالا يجد من نفسه القدرة على ترك حمولته . . .

إشفاقًا يَصُونُه عن الانكسار وعن صدوم[1] الآفةِ ، لحُبِّ صاحبها.

فالأَوَّلُ يحملُها طمَعًا لتلكَ الدَّنانير ، فلا يكون له شفقةٌ على تلكَ الحمولةِ أنْ يبلُغَ بها الموضعَ الذى أُشير له إليه ؛ وكذا الذى خُوِّفَ بالسيف إنما بالُه أنْ يبلغَ بالحمولةِ المكانَ الذى أُمر ، ثمَّ إنْ أصابها فى الطريق عَثَائر من صَدْمَةٍ أو تغَيُّر حال لايُبَالى ؛ إنما بَالَى بحَمْلها مخافةً من السيف.

فالأَولُ إنما بالُه الوصولُ إلى ماطمعَ فيه من النَّوَال[2] ، وهذا الذى عَرَفَ لمَنْ هذه الحمولة أخذَتْه الشفقةُ على تلك الحمولة. فالأَخيرُ حملها محبَّةً لصاحبها حتى احتملها إلى أنْ يتوَقَّاها[3] من الآفات ، وإبلاغها إلى الأَصل.

والثانى إنما بالُه إبلاغُها إلى الأَصْل للثواب والنَّجاة.

وكذا عُمَّالُ اللهِ تعالى : منهم من يعمَلُ على الكَسَل والعَجْز على التجويز و«الشايذبوذ»[4] ، فإذا انْتَبَه للوَعْد والنَّوَال جدَّ واجتهد ؛ فعنْدَ الانتباه إنما بالُه الوصولُ إلى ماأُطمع ، وليس له شفَقَةٌ على المحمل.

والثالث عَمل على الحُرْمَة والشفقة على حقوقه ؛ فوقَاه

---

(١) هذا فى الأصول . والمعروف فى مصدر صدم : « صدم » ، يقال : صدمهم أمر : أصابهم (تاج العروس) .

(٢) النوال : العطاء .

(٣) يتوقاها : يحفظها .

(٤) هذا بالأصول .

العثَار ، وصدمات النفس ، وعملَهُ على الهَشَاشَة[١] والسماحة والانطلاق.

حال المشفق :

قال له قائل : صفْ لنا حالَ المُشْفقِ فى أُموره ، قد عرَفْنَا الصنفين ، فمَنْ هذا الثالث ؟ قال : هذا عَبْدٌ محبٌّ لِرَبِّه . فهو يتَحرَّى[٢] مَسرَّاته فى الأَمر . كما رُوى عن الله تعالى أنه قال : ياعيسى ، أَنْزِلنى مِنْ نَفْسك كَهَمِّكَ ، وتَحرَّ مَسَرَّتى فى الأُمور .

فالمحبُّ لربِّه إنما باله من الأُمور طلَبُ مَسرَّاته ، ماذا يحبُّ رَبِّى من هذا الأَمرِ ؟ وماذا يَسُرُّه ؟

فرح الله بتوبة العبد :

أَلاَ تَرَى إلى ماجاءَ عن رسول اللهصلى الله عليه وسلم أنه قال[٣] : لَلَّهُ أَفرَحُ بتَوْبَةِ العَبْدِ مِنْ أَحدكم ضَلَّت رَاحلتُه عليها زَادُه وطعامُه وشرابُه فى فَلاَةٍ[٤] من الأَرْض . فضَرب[٥] يَمينا وشمالاً فى طلَبها فلم يَجدْها . فوطَّن[٦] نَفْسَه على الموت ، وقال : أَذْهَبُ

(١) الهشاشة : الارتياح والخفة والنشاط .

(٢) تحرى : تعمد وقصد .

(٣) صحيح مسلم : ٢١٠٤ - ٢١٠٥ . وقد سبق : ١٠٥

(٤) الفلاة : القفر ، أو المفازة لا ماء فيها .

(٥) ضرب : سار . وضرب فى الأرض ضربا : خرج تاجرا أو غازيا .أوأسرع ، وذهب .

(٦) وطن نفسه : توطين النفس : تمهيدها .

إلى ذلك المكانِ الذى ضلت فيه راحلتى ، فرجعَ إليها فوجدها قائمةً هناك .

ومن السرور بعبادِه يُبَاهِى [١] بعَمَلِ الآدَمِىّ للملائكة ، ويَفْتَخِرُ به فيهم ؛ فيقول : ياملائكتى ، انظرُوا إلى عَبْدِى ؛ فهو لفَرَحِه بتَوْبَةِ العَبْدِ وبأَعماله يُبَاهى به الملائكة .

وما جاءَ أنه يُبَاهى بأَهْلِ عَرَفات ، ويقول : عِبَادِى جاءُونى شُعْثًا [٢] غُبْرًا [٣] من كلِّ فَجٍّ [٤] عَميق .

فحقٌّ على مَنْ عقَل هذا أنْ يَطْلُب فى الأُمور بجهده مَسرَّاته ، فيطلب زِينةَ الأُمور ؛ فإن لكلِّ شىء زينةً وكسوة. وقد يرى الأَشياءَ العارفُ كيف يتضاعفُ حُسْنُها إذا كُسِيَتْ وزُيِّنَت وطُيِّبت ، والمُحبُّ لربِّه لايَرْضَى أنْ يعملَ له على خُبْثِ النفس والكراهة والعُسْر والتثاقل والنُّكْر [٥] والعُبوسِ ؛ بل يَتَوخَّى [٦] فى كل أَمرٍ التسارع والخفَّة والسَّبْق ، والهَشَاشَة [٧] والسَّمَاحة ، والانطلاق واليُسْر ،

---

(١) يباهى : يفاخر .
(٢) الشعث : جمع أشعث ، مغبر الرأس .
(٣) غبر : جمع أغبر . والغبرة : لون الغبار .
(٤) فج : طريق واسع . عميق : بعيد .
(٥) النكر : المنكر .
(٦) يتوخى : يقصد .
(٧) الهشاشة : الارتياح والخفة والنشاط .

فإنْ لم يجدْ هذا فى وقت عَظُمت عليه المُصيبةُ فى ذلك الوقت وعَدَّه نَقْصًا عظيما دخل عليه . فينظر مِنْ أين جاءَ هذا ، فيحتال أَنْ يُنَحِّيه (١) ويَنْفيه .

ألا ترى إلى قول ابْن عباس رضى الله عنهما حيث جاءَ المُؤَذِّن ، فقال : الصلاة ! فقال ابنُ عباس رضىَ الله عنهما : إنَّ لنا شِوَاءً فى التَّنُّور (٢) ، فإنْ تَنْتَظر لنا وإلا فَاذْهَبْ فصَلِّ .

فهذا عَيْنُ ماقُلْنا ؛ كره ابْنُ عباس رضىَ الله عنهما ، وعَظُم عليه أَنْ يُجيبَ المؤذِّنَ إلى الصلاة ومعه شَهْوَةُ الشِّوَاءِ ، فيدخل فى الصلاة ومَعَه شَهْوَةُ الشِّواءِ ، فتَخْبُث عليه نَفْسُه فى حالِ القيام بين يدى اللهِ تعالى ، ومُنَاجاته ، والعَرْض عليه ، وتسليم النفس إليه ، والاعتذارِ إليه من التَّقْصير والهَفوات ؛ فعَظُم عنده أَنْ تكونَ نَفْسُه فى ذلك الوقتِ تُزَاحمه فى شَهَواتها التى قد أَحسَّت بَنَوالها ، وأشرفت عليها ؛ فكان الأَمْرُ عنده أَنْ يسكِّنَها بما استَشْرَفَتْ (٣) له من الأكْلِ حتى يقومَ بين يدى اللهِ تعالى ، وليس هناك مُنَازِع ولا مُدَّعٍى (٤) شغَلَهُ عن أَمره ؛ فهذه صَدْمة النفس .

---

(١) ينحيه : يبعده .

(٢) شوى اللحم شيا ، وهو الشواء . والتنور : الكانون يخبز فيه .

(٣) استشرفت : تطلعت .

(٤) ادعى كذا : زعم أنه له حقا أو باطلا .

وكذلك روى لنا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان يتعشَّى فى رَبَض[١] قبل المَغْرب . فإنما حمله على ذلك فيما نرى ماوصفنا لئلاَّ يدخلَ الصلاة ونَفْسُه تُنَازِعُه إلى العَشَاء .

وكذلك الذى فعَل ابنُ عباس رضِىَ الله عنهما حيث اشترى رِدَاءً بألف دِرْهَم . فكان يُصَلِّى فيه تَوَخِّيا[٢] بذلك [٦٥] أنْ يخفَّ عليه الولاءُ كى لاتَعْجزَ النَّفْسُ عن الحمل الثقيل على النَّفْسِ .

وكذلك قيل للزُّبَيْر رضِىَ اللهُ عنه : مابالُكُمْ يا أَصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم أخفّ الناسِ صلاةً ؟ قال : إنَّا نُبَادِرُ الوَسْوَاس[٣] ؛ كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ أَوْجزِ الناسِ صلاةً فى تَمَامٍ . حدثنا بذلك صالح بن محمد ، أخبرنا أبو عَوَانَة ، عن قَتَادة ، عن أنس بن مالك رَضِىَ اللهُ عنه ، عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا شأْنُ أَعمالِ المحبِّين للهِ تعالى فى كلِّ أَمْرٍ مع الزينة والبَهَاء[٤] يطلب فيه محابَّ اللهِ تعالى فى كل وَقْت من ذلك الفعل ؛ لأَنَّه[٥] فى كلِّ أَمرٍ له حقوق كثيرة . فهو إنما يُشْفِق على تلك الحقوق لئلا يستخفَّ بها . فيَعْمَله[٦] على التعظيم له ، وعلى السماحةِ بنفسه ،

(١) الربض : مأوى الغنم . وفى ب : رمضان — تحريف .
(٢) توخيا : قاصدا . (٣) الوسواس : الشيطان . نبادر : نعاجل ونستبق .
(٤) البهاء : الحسن . (٥) فى ب ، ج : لأن .
(٦) فيعمله ؛ أى ذلك الفعل .

وعلى السَّعَةِ ، وعلى توقِّى دُخول الخَلَل ، وعلى الوفارة (١) ، وتلكئ الإتمام . ومع هذا كلِّه قَلْبُه إلى مُوافقته هل وافق مسرَّتَه؟ وهل رَضِى بذلك؟ ومع ذلك يعلم إنْ وَافق ورَضِىَ به أنه مع التقصير جداً يَسْتَحِى منه جدّا . وأنه عاجز أنْ يَبْلُغَ مَدَى (٢) ماهو أَهْلُه مِنْ ذلك . ولا يلتفت إلى ثواب فى ذلك أبداً ، وربما فتح عليه بابَ محبته . لا أعْنِى محبَّةَ العبد ، ولكن محبَّةَ اللهِ تعالى ؛ فإذا فتح لكَ ذلك الباب كان فى ذلكَ العملِ كالسابح فى البَحْرِ الذى قد تَراءَى له الساحلُ . وقَرَّتْ عَيْنُه ؛ فهو يسبَحُ فى نشاطٍ وسرُور بالساحل . وهو يَضْطَرِب فى ذلك الماءِ الصافى .

فهذا العَبْدُ إذا هاجت منه تلك المحبةُ التى فُتِحَ له بابُها صَارَ يتَّقِد كالنارِ جَوْفُه . فصبَّ عليه الرحمةَ صبًّا ، فهو يتقلَّبُ فى بَرْد الرحمة ، قد أَصابه رُوحُها ورطوبتها ولينُها . وهو يَسْبَحُ فيها وقد شَمَّ رَياحِينَ الياسمين والبساتين التى على الساحل ؛ لأنه يَسْبَحُ إليها فيتلقَّاها فيشمُّها .

مثل عمــال الله

مثَل عُمّال اللهِ تعالى مثلُ ملك قطع قَطِيعةً من الأَرض ، وأمر الفَعَلة أنْ يبْنُوا له قصرًا ذا بُيوتَات (٣) ومَساكن ، ومجالس وبَساتين

(١) الوفارة : الإكمال والتمام .

(٢) مدى : غاية .

(٣) بيوتات : جمع بيوت ؛ فهو جمع الجمع .

ومُتَنَزَّهات وجَدَاول ، يطَّرِدُ فيها الماءُ فى تلك المجالس والمُتنزهات ، فمنْ شأْنِ هؤُلاءِ أَن يكونَ لهم فيما بينهم مُدَبِّر لأَمْرِ هذا القصر ، ومُقَدِّر لكلِّ شئ منه ، فيرفَع فيها بيوتاتٍ للصيف ، ومساكنَ للشتاء ، ومجالسَ للربيع ، وبساتين للنُزْهَة ، والجداول المطَّردة فى خلال هذه المجالس والنزَه . وهذا أُستاذهم ومنْ بَعْدِه مَنْ يَهْتدى للبناء فيَبْنِى . ومنْ بَعْده تلامذة يَقْتَفُونَ [١] أَثَره ، ويعملون على إشاراته . ومنْ بَعْده النَّقَلَةُ إليه منَ الطِّين واللَّبِن ، وما يحتاج إليه.

فإذا استَوَى خرج إلى المُدَبِّر آخرَ يَوْمِهِ عشرون دِرْهما ، وإلى الثانى الأُستاذ عشرةٌ ، وإلى التلامذة خمسة خمسة ، وإلى مَنْ يَنْقُل الطِّينَ على عاتِقِه دِرْهمان ، وإلى الآخرين درهما درهما.

فأَهلُ التَّعَب والنَّصَبِ [٢] وشدةِ الأَعمال أَجْرُهم دِرهمان ونحوه [٣] ، والمُشيرُ برَأْسِه ويَدِه أَجْرُه عشرةُ دراهم ، والمُقَدِّر المدَبِّر أَجْرُه عشرون درهما . ولولا المُدَبِّرُ لبطلَ العَمَلُ كلُّه ، ولولا الثانى الأُستاذ لنقص أَمْرُ المدَبِّر ؛ لأَنَّ هؤلاءِ الآخرين لا يتوجَّهُون للبناء وإن دُبِّرَ لهم ، وقُدِّر لهم ؛ فهؤلاءِ أُجورُهم أَكثر وأَوْفر [٤] ، وتعَبُهم أَقَلُّ .

---

(١) اقتفى أثره : اتبع طريقه .
(٢) النصب : التعب والإعياء .
(٣) هذا بالأصول .
(٤) أوفر : أكثر .

بساط الربوبية وبساط العبودية :

وكذلك عُمَّال الله — بسط لهم من باب القُدْرة بِساطَ الربوبية وبِساط العبودية[١] ؛ فأَعْلَمَهم بشأن هذين البِسَاطين . فأكثرُهم مطالعةً ومُلاحظة أعظَمُهم قَدْرا عند الله تعالى . وأقربُهم إلى الله تعالى وسيلةً . وأعظمهم أجْرًا .

الأنبياء أعظم أجرا :

ولذلك صارت الأنبياءُ عليهم الصلاةُ والسلام أعظمَ قَدْرًا ، وأوْفَرَ حظًّا وأَجْرا . ثم الأَوْلياءُ مِنْ بعدهم . وكلُّ نَبِيٍّ أعلمُ بما ذكرنا ؛ فهو أَقربُ إليه وأكرَمُ عليه . وأَحبُّ إليه . وأعظم أَجْرًا . وكذلك كلُّ وليٍّ من بعده . لأنه بالعلم والعقل يَعْظُمُ أَمْرُه ، ويَعْرِفُ أَقدارَ الأُمورِ . ويعرف الأَوقات ؛ فإنَّ اللهَ تعالى خلَق هذا الآدَميَّ . فأَحياه بالرُّوح . وفَضَّله على هؤلاءِ المسخَّرين له من الدوابِّ والبهائم والطيور والوُحوش بهذا الروح .

تفضيل الموحدين :

ثم فضَّلَ الموحّدين مِنْ بَيْنِهم بَمَنِّهِ العظيم بنُورِ التوحيد ، فأَحْيا قُلوبَهم بالحياة حتى عَرفوه ووَجَدُوه ، فأَوْفَرُهم[٢] حظًّا من الحياة ، ومِنْ علم التوحيد أَعَلَمُهم بالعبوديّة ، وأَكْيَسهم[٣]

---

(١) فى الأصول : العبودة ، وهى بمعناها .

(٢) أوفرهم حظا : أكثرهم نصيبا .

(٣) أكيسهم : أعقلهم .

فيها ، وأشدهم قياما على الساق ، وأصغاهم أذنًا إلى أمره ، وأكثرهم ملاحظةً إلى تقديره وتدبيره . وأجهلهم به أعجزهم عن ذلك.

القلب يدعو الى الله والنفس تدعو الى الشهوات :

فالقلبُ بما فيه من كنوزِ المعرفة يدْعو إلى اللهِ وطلبِ رضْوانه ؛ والنفْس بما فيها من الهَوَى تدعو إلى الشهوات ولذاتِ الدنيا ، وهى الفانية ، التى تُوجبُ عليك غدًا الحسابَ الثقيل ، والحَبْسَ الطَّويل ، والسؤالَ المَهيل[١] . فمَنْ قلَّت كنُوزُه استولت النَّفْسُ على قَلْبه ، ووهَّنت[٢] إمْرَته ، وأخذت بعِنَانه فسبَتْهُ[٣] ، فبينما هو أمير إذ هو أسير فى يدى الخارجيّ ، فعندها يعطَّلُ التدبير ، وخَربَتْ الكُورَة[٤] ، وضاعت الرَّعيَّة ، فبَانَ العِلْم .

وإن النفس محتاجة إذ كانت بهذه الحال ، والقلْب قَليل الكنوز ؛ وإذا قلَّت الكنوزُ قلَّت الجنود ، وتفرَّقَ الحُرَّاس ، وضاعت السياسةُ ؛ فالنَّفْسُ محتاجةٌ إلى أن تشتغِلَ بالأعمال المُتْعبةِ الشاغلة لها حتى لا تَصِلَ إلى الفساد .

فلو أنَّ هذا الأميرَ عرف أنَّ هذا الخارجيَّ ممن لا يُؤْمَنُ خروجَه عليه وهو فى جوَاره وبَلْدتهِ ، فأَخذ الأمْرَ بالحَزْم ، فعمد إلى كلِّ

---

(١) المهيل : هال الشئ : صبه .

(٢) وهنت أمره : أضعفت شأنه .

(٣) سبته : أسرته .

(٤) الكورة : المدينة والصقع .

مَنْ يجالسه ويَثِقَ[(١)] به ، ويستظهر[(٢)] به . فحالَ بينه وبينه ، وعَمد[(٣)] إلى أسلحته فأخذها منه ، وقلَّده أُمورًا أتْعَبه فيها ، وشَغَله عن الفِكْر فى ذلك الأَمْرِ الذى يتخوّفُ منه — فكذلك عامِل الله إذا لم يفتح له الباب فيُطالع . فيكثر كنوزه . ويَجمُّ[(٤)] علمُه بالله . وخاف نَفْسَه أن تَخْرُجَ عليه . كما وصفنا من أَمْر الخارجىّ الذى يَشْتَهى الإمْرَة .

فمن الحَزْم أَنْ يَقْطعَ عنه الشهواتِ ، وأَنْ يَنْظُرَ إلى كل شَىْءٍ من أُمور الآخرة يحملُ عنه[(٥)] الهوى أَنْ ينتقلَ عنه إلى ضِدِّه مما ليس له فيه هَوًى ؛ لأَنَّ الطاعاتِ كثيرة ؛ فرُبَّ طاعة تَمْلكُه حلاوَتُها . فتصير هوًى . فينتقل إلى ما يَتْعبُ فيه ، وليس لَهُ فيه هَوًى ؛ وأَنْ يتعبه بالغُموم والهموم حتى يُنَغِّص عليه عَيْشَه الذى استطابَتْهُ نَفْسُه بلَهْوِها ولَعِبها وبطالتها . فإِنْ فتح له صار مَلِكًا من الملوك الذين بالكنوز والهدايا والفوائد التى تأْتيه مِنْ رَبِّ العالمين ، وإن لم يفتح له فأَجْرُ تَعبه عند المَلِىّ[(٦)] الوفىّ الوَاحِد ؛ الواحد بعشرة ،

(١) فى ح ، ب : ويثقوا .
(٢) يستظهر به : يتقوى به .
(٣) عمد إلى أسلحته : قصد إليها .
(٤) يجم : يكثر .
(٥) فى ا : يحمل عليه الهوى .
(٦) الملى : الغنى المقتدر .

والواحد بسبعمائة ، والواحد بالأضعاف الكثيرة ، ونَفْسُه ذَليلةٌ مقهورة فى ذلك التَّعَب والنَّصَب [٦٦] .

فبَنُو إسرائيل حظُوظُهم من الله تعالى كثيرة ، وهذه الأُمةُ أَوْفَرُ حظًّا ؛ وذلك قوله تعالى (١) : (قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتيتم أَوْ يُحَاجُّوكم عِنْدَ رَبِّكم (٢)) .

ورُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما أُعطِيَتْ أُمَّةٌ من الأُمم من اليقين ما أُعطِيَتْ أُمَّتى .

وكذلك عن عيسى عليه السلام أنه قال فى هذه الأُمَّة ؛ فلذلك صارت بنو إسرائيل فى شدَّة من الأَعمال ، وتَعَبٍ من الأَذكار ؛ فكانوا يلبسون المُسُوحَ (٣) ويُجِيعون البُطُونَ ، ويلزق أحدهم التَّرقوة فيَشدّها بسلسلة إلى سارِيةٍ (٤) يَتَعبَّدُ للَّه ، وإذا أذنب أَحَدُهم أَصبح مكتوباً على بابه : عقوبةُ خَطيئتكَ أَنْ تَقْطَع أُذُنَك ،

(١) سورة آل عمران ، آية ٧٣

(٢) أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم : من فضل العلم والكتاب (الكشاف للزمخشرى) . وفى ابن كثير (١-٣٧٣) : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم : لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم ، أى يقول أهل الكتاب : لاتظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين ، فيتعلموه منكم ، ويساووكم فيه ، ويمتازوا به عليكم ، لشدة الإيمان به ، أو يحاجوكم به عند الله ؛ أى يتخذوه حجة عليكم بما بأيديكم ؛ فتقوم به عليكم الدلالة وتتركب الحجة فى الدنيا والآخرة .

(٣) المسوح : جمع مسح - بكسر الميم .

(٤) السارية : الأسطوانة .

أَو عُضْوًا من أَعضائك ، وإذا أَصاب أَحدَهم بَوْلٌ أَو نَجَاسة لم يَطْهُرْ حتى يَقْرِضَه بالمِقْراض(١) ؛ وصدقتُهم تُقْبَلُ بنار القُرْبَان ، وعليهم من الآصار(٢) والأَغْلاَل والتحريم ما تَقْشَعِرُّ منه الذَّوائب والشُّعور ، وقَتْلُ النفوس عند عبادة العِجْل .

وهذه الأُمَّةُ توفَّرت كنُوزُها ، وجَمَّت(٣) علومُها بالله تعالى بفَضْلِ يَقينها ؛ فخُفِّفَ عنهم الآصار ، وأُطلقُوا من أَغْلالٍ كثيرة ؛ اكتفى من العامة بالاستغفار ، وستر عليها الذُّنوب ؛ وجُعلت التوبةُ منهم إلى الله لا إلى عقوبةِ الأَجساد ، فقال لأُولئك(٤) : تَوْبَتُكم إلى بارئكم مِنْ عبادةالعِجْلِ أَنْ تَقْتُلُوا أَنْفُسكم ؛ وقال لهذه الأُمّة(٥) : (قُلْ لِلَّذين كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لهم ما قَدْ سلَفَ) . وقال للنصارى ، وهم من أُولئك الصنف حينَ قالوا : المَسِيحُ ابْنُ الله والثالث(٦) ثلاثة : ((٧) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلى اللهِ ويَسْتَغْفِرونَه ، واللهُ غفور رحيم) .

---

(١) قرضه : قطعه بالمقراض .

(٢) الإصر : الذنب والثقل ، وجمعه آصار .

(٣) جمت : كثرت .

(٤) فى سورة البقرة ، آية ٥٤ : وإذ قال موسى لقومه : ياقوم ، إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم .

(٥) سورة الأنفال ، آية ٣٨

(٦) هكذا فى ب ، ج .

(٧) سورة المائدة ، آية ٧٤

فجعل تَوْبَتهم بافترائهم عليه الاستغفارَ ؛ لأنه فى وَقْتِ نَبِىِّ اللهِ محمد صلى الله عليه وسلم وفى زَمانِه ، فلم يَقْبَلْ ذلك منهم فى ذلك الوقت عندما عَبَدُوا العِجْلَ إلاَّ قَتْلَ النفس . وقَبِلَ فى هذا الزَّمَانِ الاستغفار منهم مِنْ عباداتهم عُزَيرا وعبادة النصارى المسيح ؛ لأَن هذا وقْتُ إقبال اللهِ على هذه الأُمَّة وتَفْضيلهم باليقين والعلم بالله.

وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لمُعَاذ رضِىَ الله عنه : أَخْلِص يَكْفِكَ القليلُ مِنَ العَمَل .

فإنما دعاهُ إلى الإخلاص للَّهِ قَلْبًا وقَوْلاً وفِعْلا ؛ فقليلُ العمل مِنْ مثل هذا يَأْتى على جميع العُمّال [١] مِنْ سِوَاهُ ؛ ولذلك قال صلى اللهُ عليه وسلم : يا حَبَّذَا يوم الأَكْياس وفِطْرهم ، كيف يَغْبنُون [٢] سَهَر الحَمْقَى وصِيَامهم ، ولَمِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ صاحب تَقْوى ويَقين أَفْضَلُ عند الله من أمثال الجِبال عبادةً من الآخَرِين .

عمل هذه الأمة :

فهذه الأُمةُ بالقلوب تَعْبُدُ ربَّها ، وتَأْخُذُ أَجْرَها .

سفيان ، عن وَكِيع ؛ قال : أَخبرنا عبد الوهاب ، أَخبرنا جُنَادَةُ عن رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، قال : مَثَلُكم ومَثَلُ اليهود والنصارى كمثَل رجُل استعمل عُمَّالا ، فقال : مَنْ يَعْمَل لى مِنْ

---

(١) هذا بالأصول ، ولعلها الأعمال .

(٢) فى ج : يعيبون .

صَلاة الصُّبْح إلى نصْفِ النهار على قيراط قيراط؟ ألاَ فعملت اليهود.

ثم قال: مَنْ يعمل لى مِنْ نِصْف النهار إلى صلاةِ العَصْر على قيراط قيراط؟ ألاَ فعملت النَّصارى.

ثم قال: مَنْ يَعْمَلُ لى من صلاة العَصْرِ إلى المغرب على قيراطين؟ ألاَ فأنْتُم! ألاَ فأَنْتُم!

فغضبت اليهودُ والنصارى؛ فقالت: نحن أكْثَرُ عَملاً وأَقلُّ عطاءً.

فقال: ظلمتُكم مِنْ حقِّكم شيئا؟ فقالوا: لا. قال: إنما هُوَ فَضْلى أُوتيهِ من أَشَاءُ.

ورُوِى عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنه قال: وفَّيْتُم [1] سبعين أُمَّةً أَنْتُم خَيْرُها وأَكْرَمُها على اللهِ تعالى.

ورَوَى مُعَاذ بن جَبَل رضِىَ اللهُ عنه، عن رَسُولِ الله على الله عليه وسلم أنه قال، وهو مُسْنِدٌ ظَهْرَه إلى الكعبة: فأُمَّتى تُوَفِّى سبعين فى أَجْرِها وخَيْرِها.

مثل الحمد للموحدين

مثَلَ الحَمْدِ للموحّدين مَثَلُ رجُلٍ يأْخذُ من حَرِيفِه [2] من من حانُوته الشىءَ بعد الشىءِ، فإذا اجْتَمَعَ شىءٌ أدَّى وأخذ بعد ذلك حتى تَخِفَّ عنه أثقالُ الدَّيْن، فإذا لم يُؤَدِّ، واجتمع المأْخوذُ،

(١) ابن ماجه: ١٤٣٣. وفيتم سبعين أمة: أى تمت العدة بكم سبعين (النهاية). وفى رواية: نكمل – يوم القيامة – سبعين أمة نحن آخرها وخيرها (ابن ماجه ١٤٣٣).

(٢) الحريف: المعامل، وجمعه حرفاء، مثل شريف وشرفاء (المصباح).

وتَرَاكم عليه الدَّيْن واقْتُضِيَ فلم يُوجَد يُوشِكُ أنْ يَقْطَع عنه ما كان يُعْطى ، ويقول صاحبُ الحانوت : أَدِّ ما اجتمع وخُذْ ما بَقِيَ ،فيردّه خائبا ، ويقطع عنه .

فأَسبغَ اللهُ تعالى النِّعم ،فلو ذهبنا نَعُدُّ نِعَمه لم نُحْصها ؛ ولذلك قال الله تعالى [١] : ﴿ وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها ﴾ [٢]. ثم قال : إنَّ اللهَ لَغفُورٌ رَحِيم .

فأَهْلُ رَحْمَته هم الذين عصَمهم اللهُ من الاختلاف ، وقَصَدُوا بقلوبهم عِبَادةَ خالِقهم وَرَبِّهم ، ولم يلتفتوا إلى معبودٍ غيرِهِ ؛ قال الله تعالى [٣] : ﴿ ولا يَزَالُون مُخْتَلفين . إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولذلكَ خَلَقَهُم [٤] ﴾ .

قوله : خلَقهم ؛ أى خلقهم للرَّحْمَةِ .

فلما خلقهم للرحمةِ أعطاهم ثَمَنَ النعمة ، وهو الاعترافُ بأَنَّ النِّعَم كلَّها من الله تعالى ؛ وذلك كلمةُ الحمد ؛ فصيَّر توحيده فى كلمة (لا إلَه إلا الله) ، وتنزيهه فى :(سبحان الله) ، وتعظيمه فى : (الله أكبر) ، وشكر نِعَمه فى (الحمد لله) .

---

(١) سورة النحل ، آية ١٨

(٢) نعمة الله لاتحصوها : لاتطيقوا عدها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها.

(٣) سورة هود ، آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) ولا يزالون مختلفين على أديان شتى . إلا من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف . وقيل مختلفين فى الرزق فهذا غنى وهذا فقير ، إلا من رحم ربك بالقناعة . ولذلك خلقهم ؛ أى ولما ذكر خلقهم .

حدثنا سُليمان بن العباس الهاشمي ، أخبرنا عبد الرزاق ، عن مَعْمر ، عن قَتَادة ، عن عَبْد اللهبن عَمرو ، قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : رأسُ الشُّكرِ الحَمْدُ لله ، وما شَكَرَ اللهُ عبْده إلا بحَمْده ؛ فالشكرُ أَصْلُه فى القَلْبِ ومعرفةُ العَبْدِ بربه أنه لا شريكَ له ، وفَرْعُه على اللِّسَانِ ، وهو كلمةُ : لا إلَه إلا الله ، وتحقيقُه فى الطاعات ؛ فمن أكثر قَوْل (لا إلَه إلاَّ الله) فإنه يحطُّ خَطَاياه ، ومَنْ أكثر من قول : الحمد لله ـ فإنه يحطُّ عن نَفْسه أثقَالَ الشُّكر ؛ فعلَّمنا ربُّنا هذه الكلمة ، فنردِّدُها على الألْسنَةِ حتى نكونَ فى مثالِ ما مرَّ بنا من المَثَل ، فنكون بمنزلة مَنْ يأْخذُ من حَرِيفِهِ الشيءَ بعد الشئ ، فإذا اجتمع أدَّى قَليلا قَليلا ، ثم يترك الأَداءَ بغَفْلَة حتى يَرْكبَه الدَّيْن ، ويَثْقُلَ عليه ؛ فيَعْجزَ عن الأَداءِ ، كما كان ها هنا إذا اجتمع عليه الحِسَابُ ، وتَرَاكم ، فلم يَقْضِ انقطع ولم يُعْطَ النّعم ؛ فإذا تراكمت ولم يُوَاتر[1] العَبْدُ بكلمة الحَمْد لم يَأْمَن انقطاعَ النّعم ؛ فرحِمَ اللهُ العبادَ ، فأَعطاهم هذه الكلمةَ ليخفِّفُوا عن أَنفسهم أَثقالَ النِّعم ؛ ثم وُضعَت لهم هذه الكلمةُ فى صَلاَتِهم عند رَفْع الرءُوس من الركوع ، فيقول : سمعَ اللهُ لمَنْ حَمِدَه ؛ فصار هذا دعاءً مِنْ قائل هذا القولِ لنَفْسِه ولجميع الموحِّدين ؛ لأَنَّ كلَّ مُصَلٍّ من الموحِّدين يقول هذا فى صلاتِه من

(١) يواتر : يوالى ، ويتابع .

المفروض وغير المفروض ؛ فليست هذه كلمةٌ يخُصّ بها نفسَه ؛ وإنما هى [٦٧] لكلِ مَنْ حَمده .

فأَوّل مَنْ نطق بهذا الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلم عن تعليم جبريل عليه السلام إياه .

ورُوِى عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه إذا قال الإمام : سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمده ـ فقولوا : اللَّهُمَّ ربَّنا لكَ الحمد ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال ذلك على لسانِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلم .

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا قال : سَمِعَ اللهُ لمن حَمدَه قال : اللهم ربَّنا لكَ الحمد . كَىْ لا يُخْلى نَفْسَهُ من مَقالة الحَمْد حتى يدخلَ فى ذلك الدعاءِ .

واعلم أَنَّ هذه الكلمة قولُ الله تعالى ؛ فما ظنٌّ مَنْ عقل هذا أَنَّ اللهَ تباركَ اسْمُه يَدْعُو لعَبْده ؟ أَيْنَ محلُّ هذا الدعاءِ ؟ وماذا يخرج للعَبْدِ من هذا الدعاءِ ؛ ودُعاءُ الربِّ أَن يسأَلَ بنفسه من نَفْسه للعَبْد ، وهو كقوله : إنَّ الله تعالى يُصَلِّى على العباد . وقال الله تعالى فى تنزيله [1] : (هو الَّذى يُصَلِّى عليكم ومَلاَئكتهُ [2] لِيُخْرِجَكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما) ؛ فإذا قال : سَمِع اللهُ

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤٣

(٢) قال القرطبي (١٤ — ١٩٨) : الصلاة من الله على العبد هى رحمته له وبركته لديه . وصلاة الملائكة دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم له .

لمَنْ حَمده ، ثم حمده العَبْدُ فقد سبقت دَعْوتُه للعبد . وسمع ذلك له . فقد أوجب [١] للعَبْد .

فهذه كلمة دقيقةٌ خرجَتْ من اللهِ تعالى للعباد . ثم خرجت من الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلم مقالتُه للعباد . ثم خرجت من الجميع بَعْضٌ لبعض . فإذا قال العبدُ الواحد : الحمد لله . ثم ذَكَر فى هذا وَجَد اللهَ قد قال له :سَمِعَ اللهُ لهُ . ووَجد الرسولَ صلى اللهُ عليه وسلم قد قال : سَمِعَ الله ، و وَجد جميعَ الموحّدين قد قالوا ، فعَظُم شأْنُ هذه الكلمة .

مثل عبد دعاه مولاه فوكله بأعماله

مَثَل عَبْدٍ دعَاهُ مولاه فوكله بكرْمٍ له أَنْ يحفَظَه عليه ، ويَغرسه ويَسَرْقنَه [٢] ، ويَقْضب [٣] قُضْبَانه ، وفى وَقْت الثَّمَر يُورقه ويَدْعَمه [٤] ، وأَعطاه كلَّ مايحتاجُ إليه من القَوَائم والدَّعَائم والْهَرَاوَى [٥] من البرديّ والأَبَاء [٦] والقَصَب والكَعْب [٧] ،

(١) فى النهاية : أوجب طلحة : أى عمل عملا أوجب له الجنة .
(٢) السرقين : الزبل .
(٣) قضبه : قطعه ، كاقتضبه وقضبه .
(٤) دعمه : مال فأقامه . والدعامة : الخشب المنصوب للتعريش .
(٥) الهراوة : العصا ، وجمعها هراوى .
(٦) الأباء : البردية ، أوالأجمة ، أو هى من الحلفاء ، والقصب (القاموس).
(٧) الــكعب : مابين الأنبوبتين من القصب .

وأداة العمل ، وأَمْهَلَهُ فى ذلكَ مايُمْهَل فى مِثْلِه ؛ ثم طالع أَمْرَه عند انقضاءِ المُهْلَة ،فوجد القُضْبَان ساقطةً بالأَرض ،والدَّعَائم مسروقة ، والقوائم مُنْجَدلة (١) ، والثِّمار بعضُها محترقة (٢) من كثرة الوَرَق ، وبعضها عَفِنَة من سقوطها بالأَرض ، وقد تركَ الآلَةَ والأَداة ،وأَمهل نَوْبَتَها (٣) فى السَّقْى حتى عطشت ،وترك تَقْضيبها حتى ذهبت قُوَّتها ، فمولاه إذا رأى الكَرْمَ هكذا فماذا يَلْقَاه من الجناية ؟ وماذا يتوقَّع من العقوبة التى أَوجب على نفسه .

فالتعريشُ القِيامُ بأَداء الفرائِض والحِفْظِ عليها ؛ ليكونَ ذلك بوضوءٍ سابغ (٤) وحِفْظ الحدود والأَوقات ، وكذلك فى الصوم فى كفِّ السمع والبَصَر والجَوَارِح (٥) السَّبْع .

والسَّرْقَنَة : سُنَنُ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم على أَثر الفرائض تقوية لها . والسَّعْىُ العلمُ الذى يَهْديه الأَشْياءَ . وتَقْضيبُه رَمْىُ الفُضُول من الكلام والطعام والحُطَام . وتوريقه تَرْكُ الالتفات إلى الأَعمال . وتَدْعيمُه كثرةُ الذِّكْر . وقوائِمهُ حسنُ النيّة والصِّدْقُ فى المقاصد ..

---

(١) منجدلة : واقعة على الأرض .

(٢) هذا بالأصول .

(٣) أمهل : أخر . والنوبة . الفرصة ، يريد أهملها حين كان يأتى الوقت المقدر لسريها .

(٤) سابغ : تام .

(٥) الحوارح : الأعضاء .

مثل قوى القلب فى الأعمال والأقوال وملكها

ومَثَلُ قوىّ القلب فى الأَعمال والأَقوال وملكها كمثَل هؤلاءِ الملوك ؛ فَملكٌ له سلطانٌ على قَرْية ؛ وعلى قَدْرِ ذلك كنوزُه ، وجنودُه ، وعُدَّته ، ونَفَاذُ أَمره ، وجوازُ قوله ، وهَيْبته .

ومَلِك له سلطانٌ على خُراسان أَجمع على قَدْر كنُوزه وجنُوده ، وهَيبته ،وخَوف شَاكِرِيَّته [1] ورَعيَّته منه .

وملك ملكَ المَشْرِقِ والمغرب ؛ فملوكُ الأَرْضِ كلُّهم تحت يَده ، وعلى قَدْرِ مَمْلَكته سلطانُه ،وكنوزُه ،وجنودُه ،وهيبتُه ،وخوفُ شاكِرِيَّته والناسِ منه ، فنلحظه تُضْرَب بأَمره الأَعناقُ ، وتُسفَكُ دماءٌ .

فالقلْبُ مَلكٌ على الجوارح له كنوزٌ ، وجنودٌ ، وسلطان ، ومَهَابةٌ ونفاذ أَمْرٍ ، فأَعظَمُهم مملكةً أَهيَبُهم ، وأَحرزهم قولاً ونفاذا ، وإنما تملكُ القلوبُ نفوسَها وهى دُنياها العرِيضة ؛ فإذا ملك القَلْبُ بعضَ النَّفْسِ ولم يملكها كلَّها كان صاحبَها مع تخليط ؛ تَزِلُّ قدَمٌ وتثبتُ أُخرى ، وإذا ملَكها كلَّها كان بمنزلة مَنْ ملكَ الدنيا شَرْقَها وغَرْبَها ، وخضعت له الملوكُ ، وصاروا منْ تحت يَده ؛ فالقَلْبُ إذَا كثُرَتْ كنوزُه كثرت جنودُهُ ؛ فكنوزُه العلمُ بالله ، والمعرفةُ لله ؛ وجنودُه الخوفُ من الله ، والخشيةُ لله ،

(١) الشاكرى : الأجير ، والمستخدم .

والحياءُ من الله ، والتعظيمُ لله ، والتسليمُ لأمر الله ، والانْقِيادُ لحكم الله ، والثقةُ بالله ، وحُسْن الظنِّ بالله ، والتوكُّلُ على الله ، والطمأْنينةُ إلى الله ، وحبُّ اللهِ قد استولى على جميع هذه الأَشياءِ ؛ فهذه كلُّها جنودُ القَلْبِ اجتمعت على عَسْكرِه فى صَدْرِه من العلم به ؛ فالمعرفةُ كنْزُ القلبِ ، والنفْسُ سفينةُ الكَنْزِ فى بَحْرِ اللهِ الأَعظم ؛ فإذا أَثْنَى العَبْدُ على ربِّه ، أَو مَدَحَه ، أَو دَعَاه باسْمٍ من أَسمائه ، فإنما يُخْرِج كلمتَه مِنْ فِيْهِ على قَدْرِ سلطانه من القَلْبِ ومملكة القلب .

وكذلك أَعمال أَركانه فإنما يصعَد مايَخْرُج منه إلى الله على قَدْرِ قُوَّته فى مملكته وسلطانه .

مثل الهوى اذا ما زج العقل فى أمر واحد

مَثَل الهَوَى إذا مازَجَ العَقْلَ فى أَمر واحدٍ كمثل ماءٍ صافٍ كالطَّلِّ [١] فى الصَّفَاءِ ، مازَجَه [٢] ماءٌ من مِيَاهِ الأَنهار ؛ ففى ذلك الماءِ تَرى الأَشياءَ كلَّها كالمِرْآةِ إذا نظَرْتَ فيها ؛ وفى ماءِ الأَنهار لايرى إلا الخيالُ ؛ أَمير بسط عَدْلَه فى رعيته ، ودَبَّر سلطانَه ؛ فأَعدّ سِجْنًا وعُقوبات لمن خلَع يَدَه عن الطاعة ، وفرَّق أَعمالَه بين عُمَّاله ، وأَعدَّ حاجباً وخليفة ومُرْتَزقة ، وأَظهر كنوزَه وقُوَّته ، وأَمَر ونَهَى ، وأَعلم الرعيَّةَ أَنَّ من ائتمر بأَمْرِه فهو الوَجِيه [٣]

(١) الطل : المطر الخفيف ، ويقال : أضعف المطر .

(٢) مازجه : خالطه .

(٣) وجه وجاهة : إذا كان له حظ ورتبة .

عنده ، والخَطير (١) لديْه ، المُثَاب على ذلك ، المقضىّ عنده حوائجه ، المتَّخذ لنفسه عنده قَدْرًا ، حتى تظهر عنده مرتبتُه . ومن لم يأْتمر بـأَمْرِه ، وركِبَ هَوَاه خَلُق وَجْهُه (٢) عنده ، وبخس حظُّه ، وحُرِم ثوابه ، وحُطَّ قَدْره ، وبطلت رُتبتُه ، فظهر فى رعيته إنجاز وَعْده ، ووصول وَعِيده إلى مَن استحقَّ ذلك ، وفى هذه الرعية طبقةٌ مُؤْتمرون بـأَمره ، زائدون على ماوظِّف (٣) عليهم من أمره ، ناصحون له ، قد شُغِفُوا به حبًّا ، وأَعينُهم مادَّةٌ إلى مايـأْمر ، وإلى مايَقْضى ، وإلى مايُدَبِّر لهم ، حتى يتلقَّوْا تدبيره بالهَشَاشةِ (٤) ، ووُجوهٍ مُتَطَلِّقة (٥) ، وأَفعالٍ سَمْحة ، ويتلقَّوْا أَمره بالتعظيم ، ومع ذلك ينصحونَه فى رَعيَّته ، فينشرون محاسنَه وأفعالَه وأَخلاقَه ، وحُسْنَ معاملته بالرحمة ، ويُخْبرون عن مُلْكِه وجنودِه وكنُوزه وغِنَاه ، ويَحثُّون الرعيَّةَ على طاعته ، والحميَّة له ، والجدّ فى أُمورِه ، والشفقة [٦٨] على أودّائه ؛ فهذه الطبقةُ أَوجَهُهم عند الأَمير ، وأَعظَمهُم قَدْرا لما أَظهروا من النصيحة والحبّ له .

(١) الخطير : من ارتفع قدره ومنزلته .

(٢) أخلق الدهر الشئ : أبلاه . وكذلك أخلق السائل وجهه ، وهو على المثل (اللسان — خلق) .

(٣) وظفت عليه العمل توظيفا : قدرته .

(٤) الهشاشة : الارتياح .

(٥) متطلقة : منشرحة .

شأن الآدميين مع الله :

فكذلك شأْن الآدميين مع اللهِ ؛ كان أَوْجَههم عند الله تعالى أَشكرهم له ، وأَكثرهم نَشْرًا لمحاسنِ أفعاله وأَخلاقه ، وأَعلمهم بصفاته ، وأَغْزَرُهم معرفةً به ، وأَوثَقُهم به ، وإِنَّ اللهَ تعالى أَظهر مُلْكه ، وخلق فى مُلكه خَلْقَه ؛ ثم آتى كلَّ ذِى رُوح يتحرَّكُ فى السموات ، ويَدِبُّ فى الأَرْض - على قَدْرِه مِنْ مُلْكِه بتلك الحياةِ التى جَعَلَ فيه ؛ فمَنْ سار فيما أُوتى من الملك بسيرته التى مثَّل له فقد تواضَعَ لمُلْكه ، ووضَع نَفْسَه لمُلْكه ، فإِذا دُعِىَ يَوْمَ المَقْدَم عليه قَدم على نُزُل مُهَيَّأ [١] ، ومهَاد كريم ، وتحيّة ربِّ العالمين ؛ وذلك قولُ الله تعالى [٢] : (تَحِيَّتُهم يَوْمَ يَلْقَوْنَه سَلاَم ، وأَعدَّ لهم أَجْرًا كَرِيما) [٣] .

من سار سيرة هـواه :

ومَنْ سار فيما أُوتى من المُلك بسيرة هَوَاه الذى يَهْوِى به فى الشهواتِ واللَّذات يمينا وشمالا فقد تَكبَّر عَلى مُلْكه ؛ والتكبُّرُ هو المكابرة ، فما ظَنُّكَ بعَبْد مخلوق مِنْ ماءٍ مَهِين فى ظلمات الأَرْحَام

(١) النزل : المنزل ، وماهيئ للضيف أن ينزل عليه .

(٢) سورة الأحزاب ، آية ٤٤

(٣) تحيتهم : تحية بعضهم لبعض ٠ سلام : سلامة لنا ولكم من عذاب الله . يوم يلقونه : يوم القيامة بعد دخول الجنة ٠ وقيل : يوم يلقونه : أى يوم يلقون ملك الموت . وتحيتهم يوم يلقونه سلام : فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه ، لا يقبض روحه حتى يسلم عليه (القرطبى : ١٤ - ١٩٩) ٠

بين اللحوم والدِّماءِ ، مَخْرَجه منها من طريق الأَحداث والمَبَالات ، والحَيْض والنِّفَاس ، يكابِرُ رَبَّه فى كبريائه . ويُعظِّم نَفْسَه ، ويُهين حقَّه ، فإذا دُعِي يوم المَقْدَم قدم على نُزُل مُعَدٍّ قد أَعدَّه مالك ، ومهَّد الأَمهاد فيه ، ومَقَته رَبُّ العالمين .

العاقل والأحمق :

فالعاقلُ الذى أَحْيَا اللهُ قَلْبَه نظر ماأُوتى من المُلْك على الذى وضع بين يَدَيْه مِن الجَوار ح السَّبْع ، ومِنْ دُنياه التى ملك عليها ، ومِنَ الأَحوال ، فلم يستَعْمِله إلاَّ فيما أُمر .

والأَحمق الذى قد أَماتَتْ زينةُ الشهوات وفتْنتُها قَلْبَه نظر إلى ماقد أُوتى من الملك ، فاستعمله فى نَهْمَاته [1] فيما هوِيَتْ [2] نَفْسُه ، فخاب عن وَعْده ، وخَسر مُهلته وعُمْرَه الذى أعطى .

فالكيِّس مِنْ جُنْد الأَمير يقول للأَمير : أَنا أَسْعَى خَلْفَك سَعْيَ العَبيد ، فإنْ أَعطاهُ حمولةً فقال : اركب معى هابَ ذلك ، وقال : مالى وللرُّكوب ! يَنْبَغى أَنْ أَسْعَى خَلْفَه .

فإن قال له : اركَبْ بأَمْرِى ، وانظر أَلاَّ تركض ركبا تتقدَّمنى ، فإنْ فعل ذلك أَهانه الملكُ وأَنزله وردَّه إلى السَّعْيِ على قَدَميه ، وإنْ حفِظَ وَصِيَّتَه وركِب وكان فى آخرِ الناس فلم يزل يتخطَّى

---

(١) نهماته : النهمة : الحاجة ، والشهوة فى الشيء ، وبلوغ الهمة .

(٢) هويت نفسه : أحبت .

المراتبَ بأَدَبه وكِيَاسته[١] وظرافته حتى وصل إلى قُرْب الأَميرِ فى المركب ، فقال له الأَمير : الْزَمْ هذا المكانَ فى المركب مِنِّى ، كُنْ على قَفَاى على أَثر مَرْكبى ؛ فهذا رجُل وَجِيه ذُو مكانة عند الأَمير حتى إذا أُعطى المكان فى المركب .

فالكَيِّسُ[٢] من عُمَّالِ اللهِ تعالى مَنْ سعَى فى الطاعات سَعْىَ العبيد ، فلقِىَ تَعبًا وأَذًى كثيرا ، ومُقَاساةً فى جَنْب[٣] المَوْلى ، واستقلَّ ذلكَ له ، فأَعطاه نُورًا حتى صار قَلْبُه فارسا من فُرْسان اللهِ تعالى ، ومَرْكَبه ذلك النورُ العَطَائى ، فلم يزَلْ فى مَزِيد من رَبِّه نُورا على نور حتى لحق ، وهو وُصولُ العَبْدِ إلى مَلك المُلك بين يديه باب القُدْرة .

مثل اثبات الرزق فى اللوح

مَثَل إثباتِ الرِّزْق فى الَّلوْح مثل أَمير أَعطاكَ خطَّة بِصَكٍّ[٤] صَكَّهُ على نَفْسه فى شأْنِ أَرزاقك ، فرَكَنْتَ[٥] إلى ذلك منه ، فإنْ كانت أَقلامُ رَبِّ العالمين جَرَتْ على قَضيَّتك فى الَّلوْح بالكائن ، وبأَرْزَاقك على صِفَاتها التى تظهَرُ لك فى دُنياك — أَلا كان الأَحقّ

---

(١) الكياسة : الظرف والفطنة .

(٢) الكيس : العاقل الفطن .

(٣) المولى الله .

(٤) الصك : الكتاب الذى يكتب فى المعاملات .

(٥) ركنت إلى ذلك : اعتمدت عليه .

والأَوْلَى أَن يكونَ ركوبُكَ إلى ماجرت به أَقلامُ ربِّ العالمين !

مثل الراغب فى الدنيا

مثَلَ الراغبِ فى الدنيا ، المُنْكمش فيها ، المتناوِل من كل تخليط وغثٍّ وسَمِين مثل البَقَرةِ الجَلاَّلة [١] تركَتِ المرَاعى الطيِّبة ، وأَقبلت على الجِلَّة [٢] فى المزَابِل ، فإذا كان لبن تلك البَقَرة مكروها على أَلسنة العلماءِ [٣] ومعافى على أَلسن الشاربين فما ظَنُّك ؟

مثل القلب والنفس

مثَل القَلْبِ والنَّفْسِ مَثل ثوْرَين فى نِير [٤] يجرهما إليك ، أَحدهما له سمَاحةٌ فى التَّخَطِّى ونَزْع [٥] فى المشى ، يُعْطِى من نفسه القوةَ الوافرة . والآخر له بلادة فى التخطِّى وانتكاصٌ [٦] فى المشى ، وتراجع القَهْقَرى ، لايُعْطِى مِنْ نَفْسه القوةَ التى فيه ، فصاحبُه مُبْتَلىً به ؛ إذ هما شَريكان فى العَمَل ؛ فإنما ثَقُل الآخَرُ وتبلَّد أَنه مُحِبٌّ للراحةِ والتَّخلية فى المَرْعى ، فيثقل لمفارقة الشهوة واللَّذة والوقوع فى التَّعبِ والنَّصَب .

فمثَلُ هذه النفس كمثَل هذا الثَّوْرِ البليد الثقيل ، والقَلْب

(١) الجلالة : البهيمة تأكل العذرة .

(٢) الجلة : البعرة ، وتطلق على العذرة .

(٣) عاف الشراب : كرهه ، فلم يشرب به .

(٤) النير : الخشبة التى على عنق الثور بأداتها .

(٥) نزع إليه : اشتاق .

(٦) نكص عن الشىء : أحجم .

خال من الشهوات ، والنَّفْسُ مَعْدِنُ [١] الشهوات واللذات ، والقَلْبُ يَطْلبُ رَبَّه ، والنفسُ تطلبُ شَهَواتها ولذَّاتها ؛ فمثَل النفس كسفينة مشحونة فى نَهْرٍ شديد الجَرْية [٢] ، والسفينة فى صعود تُجَرُّ جَرًّا ، فكلما أُوقِرت [٣] السفينة كان جَرُّها أَصعبَ و أثقل .

فمن أَحبَّ أنْ يَخِفَّ عليه جَرُّها فليُخْلِ سفينتَه من الأَشْجَانِ [٤] بكلِّ مايَقْدِرُ عليه حتى يتركَها خاليةً من الأَشجان والأَثقال ، فعندها تخِفُّ على مَنْ جَرَّها مُصْعِدةً .

فالنفسُ تجرى فى أَمْرِ اللهِ مع القَلْب فيما تَهْوَى [٥] النفسُ ، وتشتهى وتَلْتَذُّ ؛ فالسفينةُ المشحونةُ مُنْحدرة ، فإذا جاءها أَمْرٌ لم تَهْوَ ولم تَشْتَهِ [٦] صارت كسفينةٍ مُوقَرة [٧] مشحونة مُصْعِدة ، فهى تُجَرُّ جَرًّا بالرجال مع الأَنين والأَعناق والأَيدى المَكْدُودة [٨] حتى تبلغَ المصعد.

---

(١) معدن : أصل .

(٢) الجرية : الجرى .

(٣) أوقرت : ثقل حملها .

(٤) الأشجان : الشجن : الهم والحزن ، والحاجة حيث كانت . وجمعه شجون وأشجان .

(٥) تهوى النفس : تحب .

(٦) فى الأصول : تشتهى .

(٧) موقرة : محملة بحمل ثقيل .

(٨) المكدودة : المتعبة .

مثل الدنيا وانخداع الأحمق بها

مَثَلُ الدنيا وانخداع الأَحْمق بها كمثَل الصبيّ في المَهْدِ ؛ ترْضعه أُمُّه ، وتُسْدِل عليه [١] ذلك الغطَاءَ ، وتُرَجِّحه [٢] وتُنَغِّمه [٣] بأَنواع الكلام حتى يَذْهبَ به النَّوْمُ ، فكذلكَ الدنيا تُرْضِعُه حلاوَتَها ولذَّاتها ، وتُطْبِق [٤] عليها [٥] الهَوَى ، وتُتَابِعُ عليها الأَمَانى ، وتطول له فى الأَمَل حتى يَنَامَ عن الآخرة ، فكلما ازداد أَمَلُه طُولا كان أَثقلَ نَوْمًا ، ثم سقَتْه شَرْبةً فى نَوْمِه من ذلك السمْ الناقع [٦] ؛ وهو حبُّ الدنيا وشغوفُه [٧] بها ؛ حتى يَسْكَرَ من حلاوةِ ذلك الحُبِّ ، فعندها يَغْلِى حِرْصُه ، فهو هلاكُ دينه ؛ كما تَسْقِى هذه المرضعةُ وَلَدَها من هذا « الأَفيون » حتى يَثْقُلَ نَوْمُه ، ويكون كالسَّكْرَان ، فإذا لم تَطْبُخه بالسمن ، وتَمْزِجه بسائر الأَدوية ، يَقْتُلُ الصبى .

ولذلك قال رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِى ويُصِمّ .

---

(١) تسدل : ترخى .
(٢) ترجح : تذبذب ، وترجحت به الأرجوحة : مالت .
(٣) تنغمه : يريد تغنى له .
(٤) تطبق : تغطى .
(٥) هذا بالأصول .
(٦) السم الناقع : البالغ الثابت .
(٧) الشغف : الحب ، والتعلق .

فما ظَنُّك بمَنْ أَعْمَاه حبُّ الدنيا وأَصمَّه عن اللهِ تعالى وعن مواعظه ؟

ورُوِى عن رَسُولِ [٦٩] اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : ماذئْبَانِ جائعان أُرْسِلاَ فى زَرِيبةِ غَنَمٍ بأَفْسَدَلها من حِرْصِ المرءِ فى المال والشَّرَفِ لدينه .

مثل من يخلط أعمال السوء بأعمال البر

مَثَلُ مَنْ يَخْلِطُ أعمالَ السوءِ بأَعمال البرّ مَثَلُ مَن أَهدى إلى الملك مائدةً عليها أَلوانٌ من الأَطعمة من الطُّرف[1] من المأْكول والملبوس ، وفى خِلاَلِ ذلك عَظْم المَيْتَة ، وخِرَق المَزَابل[2] ، ورَجِيع[3] الدوابّ ونحوها ؛ فلما وصل إلى الملك رفَع الحاجِبُ المِنْديل ، فرآها بهذه الصِّفَة ، فحجبه عن الملك ، ووضعه فى الخزانة حتى يَأْتِىَ الوقتُ الذى يَدْعُو بها الملكُ ليَخْزِنها ، فإذا الحاجبُ أَخرج وتُوضَعُ بين يَدى الملك ؛ فكم مِنْ حياءٍ يَستحى ؟ وكم من خَوْف يَخاف ؟

ومثَله أَيضا مثَلُ مَنْ يُهْدِى للملك قِلادةً[4] فيها يَوَاقيت

(١) الطرف : جمع طرفة ، يقال أطرفت فلانا ؛ أى أعطيته مالم تعطه أحدا قبله ، والاسم الطرفة — بالضم .

(٢) المزابل : جمع مزبلة .

(٣) رجيع الدواب : روثها .

(٤) القلادة : ماجعل فى العنق .

وجواهر ، وذَهب ولآلِئْ وزَبَرْجد ، وفى خلالها بلّورة ، وعِظَام الميتة ، والزجاج ؛ أليس أنه قد أذهبَ بهاءَ[١] جَوَاهره ولآلئه ؛ كذلك هذا .

مثل من يقوم بأمر الله مخلصا ، او غير مخلص

ومَثل مَنْ يقوم بـأَمْرِ الله وحقوقه فى الظاهر على هَوَاه ، وباطنُه مُنْعَزِلٌ ، ومَنْ يقوم بـأَمْرِ الله لأَمْرِ الله – كمثل عَبْدَين دَعاهُمَا المَوْلَى ، فوجَّهَهما إلى كَرْمٍ له ليَسْقِيَاه ويُصْلِحاه ويَقُومَا بمصلحة هذا الْكَرْم . فذهَبَا لذلكَ الأَمْرِ مسرعَيْن[٢] كالسَّهم ، وفعَلا ذلك ، فمَنْ رآهما نظَر إليهما بعَيْنِ الطاعة وصحَّة العُبُودَةِ[٣] ، فأَرَاد المَوْلَى امتحانَهما ليَبْلُو[٤] باطِنَهما ، فحضر الكَرْمَ فوجدهما فى ظلالٍ بين الثِّمَارِ والأَعْنَاب ، والوَقْتُ وقتُ الظَّهِيرة ، فبعثهما إلى الحَصَادِ والدِّياس[٥] ، فمرَّ أَحَدُهُما من ساعته مُسرعا مُمْتَثِلا أَمْرَه . والآخر أخذَ فى التلكُّؤ والتَّغَافُل ، فعلم مِنْ رَأْيهما بَعْدَ الامتحان أَنَّ ذلك الأَولَ مِمَّن أَطاع مَوْلاَه على الصفَاءِ والإِخلاص ، والآخر على هَوَى نَفْسه ؛ فلما استقبله خلافُ هَوَاه تركَ طاعتَه ، وتـأَنّى بالكسل والتثاقل ؛ فهذا تابعٌ هَوَاه .

---

(١) بهاء : جمال .

(٢) بالأصول : مسرعا .

(٣) العبودة : الطاعة .

(٤) يبلو : يختبر .

(٥) الدياس : الدراس .

فكذلك العَبيدُ عِنْدَ الله تعالى : مَنْ عَبدَ اللهَ تعالى لِلْهَوَى وللنفسِ فيه نَصيب يمرُّ فيه ، وإذا أَتاه أَمْرٌ يَثْقُلُ عليه هَرَب منه ، وضيَّع الحقَّ ؛ فإذا أَتاه محبوب سارَعَ إليه ؛ فلا يكون هذا من المُحِقِّين أَبَدًا .

مثل موسرين ينفق أحدهما فيما يهوى وينفق الآخر فى وجوه الخير

مَثَل المُوسرَيْنِ (١) أَحَدُهما يُنْفِقُ مالَه فى هوَى نَفْسِه ، والآخَرُ يُنْفِقُ مالَه فى وجوهِ الخير ، من إطعامِ الطَّعَام ، وصِلَةِ الأَرحام ، ومَصَارِف الحقّ ، وأشباه ذلك — مَثَل جُلَيْن دَعاهما الملك ، فأَوْدَع كلَّ وَاحد منهما خزانةً ، فقال : أَمْسِكَا واحْفَظَا ، فمَنْ جاءَ كما برُقْعَتِى (٢) فأَعطِيَاهُ مافى الرُّقْعَة مقدارها ؛ وهاهنا عَسْكَرَان : عسكرى ، وعَسْكر العدوّ ، فإِيَّاكما أَنْ تَصْرِفَا شيئا من هذا المال إلى عسكر العدو .

فذهب أَحدهما واستَعْفَاه (٣) من قَبُوله ، فلم يُعْفِه منه ، فقَبِله على ضرورة ، وهو ثَقيل عليه ؛ فكلُّ من أَتاه برُقْعَته أَدَرَّ عليه ماتضَمَّنَتْه الرُّقْعةُ مُغْتنِمًا لحقِّه حتى صدَرُوا إلى (٤) الملكِ حامدين له ، شاكرين بباب الملك ، مُثْنين عليه ، ناشرين عنه جَميلا ،

(١) الموسر : الغنى .
(٢) الرقعة : التى تكتب .
(٣) استعفاه : طلب إعفاءه .
(٤) صدروا : رجعوا .

ثم عمد إلى صُرَّته فأنفق على مافيه قوةُ عسكر الملك ، فإذا قدم للحسابِ قرَّتْ [١] عَيْنُه بأَدَاءِ الأَمانة والامتثال لأَمْره .

و أَمَّا الاخَرُ فإنه لَمَّا قَبِل الوَدِيعة ، ذَهب يفتخرُ بها ، ويتطاوَل على نُظَرائه [٢] ، ويُبَاهى [٣] بها أَشكالَه [٤] ؛ ثم أخذ يصرفُها إلى مَلَاهيه وهَوَاه وقَبيح عمله . وأَنْفَذها إلى عَسْكر العَدُو ؛ فكلُّ مَنْ عقل أَمْرَه تعجَّبَ منه ، وبُهِتَ [٥] فى أمره بغَفْلَته وبَلَاهته وقُبْح عمله ، فإذا جاءته رُقعَةُ الملك دَافَع وسَوَّف [٦] حتى رجع أَصحابُ الرِّقَاع [٧] إلى الملك بها ذَامِّين له مُتَذَمِّرِين لفعْله ؛ ثم لما صرفها فى الوجوه عمد إلى أَسلحة ودَوَابَّ ، فأنفذها إلى عسكر العدوِّ ؛ فإذا قدم إلى الحساب سأله : ماصنعْتَ فى وَديعتنا و أَموالنا ومواثيقنا ؟ لم يكن له جوابٌ إلا أَنْ يقول : صرفتُ أَصحابَ الرِّقَاع بحرْمانِ تسويفا ومُدَافعة ؛ وصرفْتُ المالَ فى الأَسلحة والدوابِ لعسكر عَدوِّك ، فما له من الحساب !

---

(١) قرت عينه : اطمأن ، وسر .
(٢) نظرائه : أمثاله .
(٣) يباهى : يفاخر .
(٤) أشكاله : أمثاله ونظراءه
(٥) بهت : تحير .
(٦) سوف : أخر .
(٧) الرقاع : جمع رقعة : ما يكتب فيه .

مثل من يعظ القلوب الخربة

مثَل مَنْ يَعظ القلوبَ الخَربة مثلُ رجلٍ عمد إلى خَرَاب قد تلزَّق عليه الدُّخانُ والغُبارُ ، واسوَدَّ من كثرة ذلك . فكلما طيَّنَه [١] لم يَلْزَقْ به الطينُ ، وتساقَط ؛ فهو بَيْنَ أمرين : إما أَنْ يَحُكَّه أو يغسله حتى زال عنه ذلكَ الغُبار والدُّخَان حتى يَلْزَقَ به الطينَ ، فإنْ عجزَ عن ذَلك وإلاَّ تابَعَ الطِّينَ عليه . فكلما تساقط ضَرَبه بآخر مرةً بعد أخرى ، إلى أَنْ يَلْزَق ؛ فلايزال يردِّدُ عليه ذلك حتى يزيلَ جميعَ ماكانَ عليه من الدُّخان بتَتَابُع الطِّين مرةً بعد مرة .

فكذلك القلوبُ التى قد رَانَتْ [٢] من كثرة الذنوب . إذا لاقت الموعظةَ تهافتت [٣] عنها بمنزلة الجِدَارِ الذى مَثَّلناه ؛ فإذا تاب العَبْدُ ،وفزِعَ من المعاصِى ، واستغفر فلاَقَتْهُ المَوْعِظةُ قَبِلَ القَلْبُ ذلك ، وأَقبل عَلى الطاعةِ ، ثم أَقبل بَعْدَ ذلك على حُسْن الطاعة ، فعَبَد اللهَ كأَنه يَرَاه . فذلك منه الإحسان الذى وصفه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لجبريل صلوات الله عليه حيث سأَله عن الإيمان والإسلام والإحسان ، فقال : الإحسان أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنكَ تراه .

---

(١) طينه : لطخه بالطين .

(٢) رانت : غطيت .

(٣) تهافتت : تطايرت وتساقطت ، يريد ابتعدت .

فهذا القلبُ كجدَارٍ غُسِل وُطيِّن ثم جُصِّص (١) ، فصار أبيض ، ثم يُنْقَش ويُطيَّب ، فصار مُطيَّبا منقوشا .

فالقَلْبُ الْتَزَق عليه دُخَانُ الذنوبِ وغُبارها ؛ لقوله سبحانه وتعالى (٢) : (كَلَّا ، بل رَانَ على قُلوبهم ما كانُوا يكسبون)(٣) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) : إذا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْبًا نُكِتَتْ فى قَلْبه نُكْتَةٌ (٥) سَوْدَاءُ ، فإذا عاد نُكِتَتْ أخرى ؛ فلا يَزَالُ كذلك حتى يسودَّ القَلْبُ ؛ ثم قرأ قولَه تعالى (٢) : (كَلَّا ، بَلْ رَانَ على قُلوبهم ما كانُوا يكْسبُون). فإذا تاب صُقِل القَلْبُ وأَضاء ، فإذا لاقَتْه الموعظة لاقت قَلْبًا مصقولا ، فصارت المَوَاعِظُ له عيانا كأَنه يشاهدُهَا بعينى الفُؤَاد ؛ مَايُوصَفُ له ، فصار كالمرآة إذا زِيْنَت ؛ فما رآه فيها أبصره كالخَيال ، فإذا صُقِلتْ أَبْصَرَ فيها كلَّ ما قابلها من شيء خلْفَ ظَهْرِه وبينَ يدَيْه ، وأبصر مِثالَ وَجْهه فيها ؛ فإذا قابلها بعَيْنِ الشَّمْسِ وقعَ ضوءُ الشمسِ فى البيت الذى ليس للشمس فيه مَوْضعُ إشراق ؛ وذلك

---

(١) جصص : طلى بالجص .

(٢) سورة المطففين ، آية ١٤

(٣) ران على قلوبهم : قال الفراء : كثرت المعاصى والذنوب منهم فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرين عليها ، ويقال : ران على قلبه ذنبه ، أى غلب .

(٤) سنن الترمذى ، والقرطبى : ١٩ — ٢٥٩

(٥) نكتة سوداء : أثر قليل كالنقطة شبه الوسخ فى المرآة والسيف ونحوهما (النهاية) .

لأن النورَيْن إذا اجتمعا والْتَقَيا : نورُ الشمس ، ونورُ المرآة - تولّد من [٧٠] بينهما نُور ، فوقع فى البيت المُظْلم ، فأَضاءَ .

فكذلكَ القَلْبُ الذى عليه رَيْنُ الذُّنوب بمنزلة المرآةِ التى قد صَدِئت . فإذا فكَّرْتَ شيئا من أُمور الآخرةِ لم يَتَراءَ [١] لك ؛ فإذا صُقِل قلبُك بالتوبة والاستغفار صار كالمرْآةِ المُجَلَّاةِ [٢] ؛ فإذا فكرت فى سالف الذُّنوب . وتراءى لكَ قُبْحها ، فاشتدَّ عليك ، وإذا فكرت فيما أَعَدَّهُ اللهُ لأَهلِ المعاصى ذَكَّرَتْكَ ، وأَرعَبتْ [٣] قَلْبَك بتعظيم ماتَمَثَّلَ لكَ مِنْ عقابه .

وإذا فكرت فى دار المُطِيعين بَرِمْتَ [٤] بالحياة شَوْقًا إلى تعظيم ماتمثَّل لكَ من كراماته لعبده .

وإذا فكَّرْتَ فى العَرْض الأَكبر هالكَ [٥] شأْنُه ، وأَخذَكَ القَلَقُ ، وعمل فيك الحياءُ مِنْ ربِّك .

وإذا فكرت فى أَمْرِ الملكوت عَظُمَ شأْن العبودة [٦] عندك ، فإذا لاحظتَ جلالَه وعظمَته صار صَدْرُك بمنزلة البيتِ الذى وقَع

---

(١) تراءى لك : : تصدى لك لتراه . والمعنى : لم يظهر لك فتراه .

(٢) فى ا : المتجلاة .

(٣) أرعبت قلبك : خوفته .

(٤) برم بالشئ : ضجر منه . واغتم وقلق .

(٥) هالك : أفزعك .

(٦) العبودة : الطاعة ، كالعبودية .

فيه نورَ الشمس حيث قابَلْتَها بتلك المرْآة ؛ فصار الصَّدْرُ منكَ ممتلئا نُورا ، قد غابَ عنك فى ذلك النورِ جميعُ ماتراءى لكَ قَبْلَ ذلك فى وقتِ فكرتك فى أَمْرِ الجنة والنارِ ، وأَمْرِ الذنوب ، وكل شىءٍ سِوَاه ، ولَهَا[١] قلبُكَ عن ذلك كلِّه ، ووقع قَلْبُكَ فى بِحَارِ العظمة ، فتقع فى الوَلَهِ إلى اللهِ ، فإذا صار هذا القلبُ كجِدَارٍ غُسِلَ وَطُيِّن ثم جُصِّص ، فصار أَبيض ؛ ثم نُقِش وطُيِّب فصار مطيَّبا منقوشا ، فحينئذ أَقْبَلَ إلى الإحسان وعلى حُسْن الطاعة بأَن يَعْبُدَ اللهَ كأَنه يَرَاه ؛ فذلك منه الإِحسانُ الذى وصفه رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم حين سأَله جبريلُ عليه السلام .

مثل الدنيا مثل بحر عميق

مَثَل الدُّنيا مثل بَحْرٍ عميق كلُّ مَنْ دخله غَرِق فيه ، لأَنه لايَرَى ساحِلَه ، فإلى كم يَسبح ؟ فهو فى السباحةِ حتى يَعْيَا[٢] ، فيُلْقِى نفسه فى التَّهْلكَة[٣] ؛ وربَّما هاجَ المَوْجُ فيغرق فى تلك الأَمواج .

فالكَيِّسُ[٤] مَنْ يُجانِبُ البحر فهو فى سلامة ومَأْمَن من الآفات إذا لزم السواحلَ والفُرْضَة[٥] . ومَنْ لَهُ حُمْقٌ دخلها من قلَّةِ المُبَالاة ، وترك السواحل ؛ فإذا هو هالك .

---

(١) لها عن الشىءْ : سلا عنه وتركه .

(٢) يعيا : يعجز . (٣) التّهلكة : الهلاك .

(٤) الكيس : العاقل .

(٥) الفرضة من النّهر : ثلمة يستقى منها ، ومن البحر : محط السفن .

ومن كان قَوِيًّا في ذات يَده . هنيئا مريئا بـآلاته و أدواته ورجاله وشُرُعِه [١] ودَيْدَبَانِه [٢] . وهيَّأَ السفينةَ فركب البَحْرَ في مركب لم يَضُره ؛ لأَنَّ سفينته بعرض البحر وطوله قد طَبَّقت البَحْرَ . فإنْ سكَنَت الريحُ أَرْسَاها . وإن هاجت أَجْرَاها ؛ فالآدَمِيُّ بَحْرُه حِرْصُه الذي في جَوْفه . فليس لحرْصِه نِهاية ، كالبَحْرِ الذي لايُرَى أطرافه ، وهو قولُ [٣] رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : لو كان لابْنِ آدَمَ واديَان من ذَهبٍ [٤] لابْتَغَى [٥] إليه ثالثا . ولا يَمْلأُ جوفَ ابْنِ آدم إلا الترابُ .

أخبر أن صاحب هذا كلما ازدادَ تَنَاوُلاً من الدنيا لم يَدَعْه [٦] مافي جوفه حتى يطلُبَ مَزِيدا . وذلك حِرْصه الذي غرق فيه قَلْبُه ، فأهلكه .

ثم قال في آخره [٧] : ويَتُوب اللهُ على مَنْ تاب . فالتَّوْبةُ من العبد إقبالُه إلى اللهِ بقَلبه ، والتوبةُ من اللهِ على العبد إقبالُه على العَبْد بوَجْهِه الكريم [٨] ؛ فتلكَ سفينتُه ؛ وكما أَنَّ السفينةَ بلا أداة وآلة ورِجالٍ لاتُغْنِي عنه شيئا فكذا التوبةُ لها شُعب حتى تأْتَى بالشُّعَب

(١) الشرع : جمع شراع ، وهو كالملاءة الواسعة فوق خشبة تصفقه الريح فيمضى بالسفينة .
(٢) الديدبان : الرقيب والحارس . (٣) صحيح مسلم : ٧٢٥ ، ٧٢٦
(٤) في مسلم : من مال . (٥) ابتغى : طلب . (٦) يدعه : يتركه .
(٧) في آخر الحديث السابق . (٨) في شرح صحيح مسلم : معناه أن الله يقبل التوبة من الحرص المذموم وغيره من المذمومات .

كلها ؛ وهو أَن يُعْرِض بقلبه عن جميع الشهوات والهَوَى ، فذاك الإقبال كلّ الإقبال . فقد أَمِنَ الغرق ؛ لأَنه قد وقَع قَلْبُه فى بِحَار العظَمة ، فامتلأَ قَلْبُه وصَدْرُه حتى شَبِع ورَوِى . وغاب الحِرْصُ عن صَدْرِه . ودانَتْ [١] نفْسُه . فصارت كسفينة قد طبقت عُرْض البحر ؛ فإذا هاج البَحْرُ فإنما هو بَحْرُ العَظَمةِ جرت سفينتُه بريح طيِّب ، وشِراعُها حُبُّ الله تعالى وذِكْرُه ، ورِيحُها شَوْقُ العبد ؛ فلو أَخَذ الدنيا كلَّها بكفِّه لقَوِىَ عليها ولم يَضُرّه ؛ لأَنَّ الحِرْصَ مفقود ؛ وإنما أَخذها لله ، ثم ردَّها إلى الله ؛ فهو كالخازن يَأْخذُها بحق ، ويُمْسكُها بحق ، ويصرِفُها فى حق ، ليست له فى ذلك شَهْوةٌ ولا نَهْمَةٌ [٢] .

مثل الشهوات وترددها فى الصدور

مثَل الشهوات وتردُّدها فى الصَّدْرِ بين عَيْنَى الفؤاد مثل ذِبّان [٣] تطير بين عَيْنَى الرَّأْس ؛ وإنما يجتمع الذِّبّان حيث يكون الشىءُ الحُلْوُ من الأَشربة والأَطعمة . وكذا إذا اجتمعت الشهواتُ فى صَدْر المؤمنِ وحلاوة الدنيا ولذَّاتها ، فلقِيَتْهُ مُسْتَقَرًّا [٤] لها بِتَردُّدهن ،

---

(١) دانت نفسه : أطاعت .

(٢) النهمة : الحاجة ، والشهوة فى الشىء .

(٣) الذبان : جمع الذباب .

(٤) فى ب : مستقبلة ، وفى هامشه أمامها : مستقرا لها . وفى ا : مستقرا لها ، وفى هامشه أمامها : مستقبلة .

فما دام الحَرُّ كائنا [١] فذلك شأْنُهنَّ ، فإذا جاء البَرْدُ لم يكن لها بقاءٌ .

فكذا صاحبُ الشهوات إذا جاءته من الله رَحْمةٌ بَرَد قلبُه عن الشهوات ؛ فإنَّ نُورَ الرحمةِ يُبَرِّدُ الأَشياءَ ويُخْمدها ؛ فإن بَرْدَ الرَّحمةِ يُطفِيءُ حَرَّ النارِ عن المؤمن عند الجَوَاز على الصراط .

وكذا ها هنا مَنْ نالَ رحمةً من اللهِ تعالى بَرَدَ قلْبُه عن جميع الشهوات ؛ ثم بَعْدَ ذلك جاءت أَنوَارٌ على القَلْب ، واشتعلت نيرانُها فى القَلْبِ ، حتى صار سَعْيُه كلُّه له بَعْدَ أَنْ كانت حرارةُ الشهوات موجودةً فى صَدْره ، وكان سَعْيه لها .

وقد قال اللهُ تعالى فى وَصْفِ الشهوات وشَأْنها [٢] : (زُيِّنَ للناسِ حبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النساءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرةِ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنعامِ والحَرْثِ ، ذلكَ مَتَاعُ الحياةِ الدُّنْيَا واللهُ عِنْده حُسْنُ المَآبِ [٣])

---

(١) فى أ ، ب : كائن . (٢) سورة آل عمران ، آية ١٤

(٣) الشهوات : جمع شهوة . واتباع الشهوات مرد وطاعتها مهلكة . والقناطير : جمع قنطار . المقنطرة : المضعفة . المسومة: الراعية فى المروج والمسارح . الأنعام : الإبل . والحرث : كل مايحرث . والمآب : المرجع .

وفى القرطبى (٤ — ٣٦) : قال العلماء : ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال ، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس ، أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار ، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك ، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادى ، وأما الحرث فيتمول بها أهل القرى والسواد . فأما النساء والبنون ففتنة للجميع . قال : ومعنى الآية : تقليل شأن الدنيا وتحقيرها ، والترغيب فى حسن المرجع إلى الله تعالى فى الآخرة .

فقد اجتمع فى الآدمىّ ثلاثة أشياء : زينة ، وحب ، وشهوة ، لهذه الأشياء التى عدّ فى هذه الآية .

والشهوةُ خُلِقت من النار ، وهى محفوفةٌ بها ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم [١] : حُفَّت النارُ بالشهوات . فتلك زينةٌ ونَعيم وأفراح خُلِقت من النار . والنارُ خُلقت لها ؛ ففى جَوْفِ كلِّ نَفس موضوعٌ فيها بقدره . وحريتها مَوْجُودٌ عند هَيَجانه .

وللحبّ حَرَارةٌ . وللزينة فَرَح . وللفرح حَرَارة ؛ فكلّما ازداد العَبْدُ من هذا الفرح تباعدَتْ عنه الرحمةُ ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى لا يُحِبُّ الفَرِحِين [٢] .

فإذا توقَّى عن هذه الأَفراح فمثَلَه كمثَلِ رجُلٍ دَخَل بيتاً فيه ذِبَّان [٣] كثيرة فسدَّ الكُوَّةَ [٤] . وذبَّ [٥] الذِّبَّان إلى الباب ليخرج [٦] ، فسدَّ الباب حتى أَظلم البيتُ ، فذهبَتْ قُوَّةُ طيرانْ

(١) القرطبى : ٤ — ٢٨ . ومعناه أن النار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها .

(٢) سورة القصص آية ٧٦ : إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ماإن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين .

(٣) ذبان : جمع ذباب (القاموس) . وكثيرة فى الأصول كلها .

(٤) الكوة : الفتحة غير النافذة فى الحائط .

(٥) ذب : دفع .

(٦) فى الأصول : ليخرجوا .

ما بقي في البيت ، فبقيَ [١] في ناحية من البيت ، وراح [٢] مَنْ في البَيْتِ .

فمَنْ لم ينَلْ تلك الرحمةَ التي تُبَرِّدُ قَلْبَه عن الشهوات . وتُخْمِد نَفْسَه فيها فالحيلةُ فيه أَنْ يختارَ لنفسه العُزْلةَ ويسدَّ أبوابِ الشهواتِ على نفسه .

قال قائل : مثلُ ماذا ؟

قال : مثل رجل أراد أَنْ يسدَّ بابَ فُضولِ الكلام حتى تنقطعَ عنه شهوةُ فُضولِ الكلامِ ويبرد على [٧١] قلبه ذلكَ .

١ – اجتناب أبواب الكلام :

فعليه أَنْ يجتَنِبَ أَبوابَ الكلام على كانُونِه [٣] مع عِيَاله ، وعلى بابه عند مَجْمَعِ الجيران في الحارة . وعند مَجَامِعِ الطُّرق والأَسواق ، فهذه كلُّها أَبوابُ الكلام ، فإذا عرفَها تجنَّبها . فإذا هو قد سدَّ على نَفْسِه وحَسم [٤] البابَ ، فإذا تعشَّى قام إلى مُصلاَّه ، وإذا رأى مجْمَعَ الجيران سلَّم ومرَّ ، فكلُّ مَجَامِعَ فيها فُضولٌ [٥]

---

(١) في الأصول : فبقوا .

(٢) يقال : راح لذلك الأمر : فرح ، وأشرف له (القاموس) .

(٣) الكانون : الموقد .

(٤) حسم فلانا الشيء : منعه إياه . وحسمه يحسمه : قطعه .

(٥) فضول : جمع فضل ، وهو الزيادة ، يريد ما لاخير فيه من الكلام ، ولهذا نسب إليه فقيل فضولي ، لمن يشتغل بما لا يعنيه .

من الكلام جانب عنها ، كما فعل أَبو مُسْلِم [١] الخَوْلَانى رَحِمه الله حيث رأى جماعةً فى المسجد ، فمالَ إليهم ليَجْلِسَ معهم ، وظنَّ أَنهم فى ذِكْرِ الله تعالى ، فوجدهم فى ذِكْرِ الدُّنيا ، فقال : أَنتم فى سُوقِ الدنيا ، وحَسِبْتُ [٢] أَنكم فى سُوقِ الآخرة ، وأَعْرَضَ عنهم .

فمَنْ كان لسانُه منه على بال ، وردَّ شهوةَ الكلامِ عن نفسه ، فقد نجا من أمر عظيم .

وكذا فى سائر الجوارح [٣] يَسدُّ على كلِّ جارحة أَبوابَ فُضُولِها ، حتى تَهْدَأَ جَوَارِحُه ، فصار كمَنْ سدَّ الكُوَّةَ ، وردَّ الباب ، فسكنت الذِّبَّانُ [٤] عنه ، فكلما فَتَح الكوَّة والبابَ عُدْنَ إلى الطيران ، فهذا دَأْبُه [٥] إلى يوم الموت .

فهذا شَأْنُ أَهْلِ العُزْلة حَسَمُوا [٦] أَبوابَ الشهوات بالعُزْلة عن الخَلْقِ ، حتى هدأَت الجوارِحُ ، وبقوا فى الزَّوَايا ، فمَنْ مَنَّ

---

(١) أبو مسلم الخولانى : تابعى من عباد أهل الشام ، روى عن الصحابة . روى عنه أهل الشام ، وتوفى زمن معاوية (اللباب) .

(٢) حسبت : ظننت .

(٣) الجوارح : الأعضاء .

(٤) جمع الذباب .

(٥) دأبه : شأنه .

(٦) حسموا : قطعوا ، يريد : اقفلوا هذه الأبواب .

اللهُ عليه بالنعمةِ العظمى . وبالرحمة التى إذا وَرد على القَلْب نُورُها خَمدتْ جميعُ حرارةِ الشهواتِ . وذَبَلُتْ وتهافتَتْ [١] بمنزلة البرد الذى هجَم على مكان الذُّبَاب فتَهَافَتَتْ . فإذا بَرَدَ القلبُ بخُمودِ النَّفْس . وخَلاَ الصَّدْرُ مِنْ حرارة الشهواتِ . وصَوَّر هن [٢] على عَيْنَى الفؤاد فى صَدْرِه — صار الصَّدْرُ كمفازةٍ [٣] جَرْدَاءَ . وطَهُرَ من أدناسِ الشهواتِ . فعندها جلبَتْ عليه الرحمةَ تلك الأنوارُ المَلَكُوتية . فاشتعل فى قَلْبِه حرِيقُها . فاستنار الصَّدْرُ بها حتى حَمِى الصَّدْر . وصار بمنزلة التَّنُّور الخَالِى من النار [٤] ، بارد . فكلما أَلزَق به رَغيفا تهافَتَ ، ولم يلزق . فإذا سُجِر [٥] الْتَزَقَ الخُبْزُ به .

فكذا القَلْبُ إذا حَمِى بتلك الأنوار ، فكُلَّما لاقَتْهُ موعظةٌ التزق الوَعْظُ به ، ونَجع [٦] فيه . واتَّعظَ به . وإلا تَهَافَتَ كالخُبْزِ من التَّنورِ [٧] البارد .

---

(١) تهافتت : تساقطت .
(٢) فى ب : وصورتهن .
(٣) المفازة : الموضع المهلك .
(٤) هذا فى الأصول .
(٥) سجرت التنور : أوقدته .
(٦) نجع : ظهر أثره فيه .
(٧) التنور : الكانون يخبز فيه .

مثل رياضة النفس

مثلُ رِياضةِ النفسِ مثل دَابَّة سالمة لم تُرْبَط إلى آرِيّ [١] ، فكانت تَرْتَع [٢] فى البَرَارِى . تذْهَبُ حيث شاءت إلى نَهماتها [٣] ، لا تعرفُ مالِكَها . ولا تَعْلَمُ سَيْرَها ؛ فإذا أراد أن يَجْعَلَها مركبا أَخذَها الرابِضُ بالوَهَقِ [٤] والحَبْل . ثم قَيَّدَها حتى أَمكَنَتْهُ من اللِّجَام والسَّرْج . ثم ركبها فاضطربَتْ بنفسها إلى الأَرْضِ ، فلا تزالُ هكذا حتى انقادت للرُّكوبِ عليها . واعتادت اللِّجَامَ والسَّرْج ، فاسْتَغْنى عن القَيْد ، ثم كانت تسير ولا تعلم السَّيْر ، فلم تَزَلْ تؤُدَّب لتعلم السير ، وتَتْرَك مُرَادَها ؛ فردَّها من مُرَادها ومِنْ نَهْمَتِها وسَيْرِها إلى مُرَادِ نفسه ؛ ثم لما صارت إلى الأَنْهار والحفائر وثَبَ بها لتَعْتَادَ العُبورَ عليها ، ولم يُجْرِها على القَنْطَرة فتعتاد الجَرْىَ على القنطرة ، فليس على كلِّ نَهْرٍ تُوجد قَنْطرة ؛ ثم سار بها فى جَلَبِ [٥] الأَسواق فى النَّجَّارِين والحدَّادين ونحوهما ؛ ليُعَوِّدَها الجَلَبة كى لا تَنْفِرَ ولا تَتْرُك سيرها عند كل جَلَبة

(١) الآرى : الأخية ، وهى عود فى حائط أو فى حبل يدفن طرفاه فى الأرض ويبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة .

(٢) رتعت الماشية : رعت كيف شاءت .

(٣) النهمة : الشهوة فى الشئ ، والحاجة .

(٤) الوهق : حبل يلقى فى عنق الشخص يؤخذ به ويوثق ، وأصله للدواب ؛ ويقال، فى طرفه أنشوطة ، والجمع أوهاق .

(٥) الجلب —محركة : الصوت : كالجلبة .

تستقبلها ، فلا يزال يَردُّ بها هكذا حتى يَأْخُذَ بمجامع قَلْبِها ، وتترك أُذْنَيها مُصْغِيةً إلى هذه الرياضة . فهى تَسيرُ بهذا اللّجام ؛ فإنَّ مَدَّ عِنَانُها [١] بإصبع وقفت . وإنْ عُطِفت [٢] بإصبع انعطفت ، وإن تحامل بركَابَيْها [٣] . وأَرْخى عِنَانَها طارت . وإن كَبَح لِجَامها فى ذلك الطَّيَران بإصبع هدأَتْ وسكنَتْ وإنْ نزلَ عنها ووقفها امتنعت من أَنْ تَروُثَ [٤] وتَبول حتى تصيرَ إلى مَوْضعها . وإن استقبلتها جَلَبَةٌ لم تلتفِتْ إلى ذلك . ودأَبت [٥] فى سَيْرها . وإن استقبلها نَهْرٌ لم تلتفت إلى قَنْطَرة . ووثبَتْ وَثْبَة مِنْ رَفع البال عن نفسها .

فهذه دَابَّةٌ قد صلحت لِلْمَلِك . فعُرِضَت عليه . فاستَحْلاَها . واتخذَها لنفسه مَرْكبا . فرُبِطت إلى آرِيّة [٦] . وأُعْلِفَتْ من أَطَايب الأَعلاف وغَلاَ فى ثمنها ، وجُلِلت [٧] وبُرْقِعَتْ [٨] وأُرِيحت ؛ فمن بين الأَيام يَنْشطُ الملكُ مرةً للركوب عليها .

(١) العنان : سير اللجام التى تمسك به الدابة .

(٢) عطفت الشئ عطفا : ثنيته وأملته فانعطف .

(٣) الركاب من السرج : مايضع الراكب رجله فيه ، وهو من الجلد .

(٤) تروث : تخرج الروث .

(٥) دأبت فى سيرها : جدت وتعبت .

(٦) الآرية : عروة تربط إلى وتد مدقوق ، وتشد فيها الدابة .

(٧) **جللت** : جل الدابة كثوب الانسان يلبسه يقيه البرد ، والجمع جلال وأجلال .

(٨) **البرقع** : ماتستر به المرأة وجهها ويكون للنساء والدواب . وتبرقعت : لبست البرقع (القاموس) .

فكذا النَّفْسُ أوَّلاً تُرَاضُ بحفْظِ الحدود ، فهذا سَرْجُها ولِجَامها ، والركوب هو الفرَائض . ولِجَامُها الحدودُ التى حرَّم الله تعالى ، ثم تُرَاضُ (١) فتُؤْخَذ بالصِّدْقِ والإخلاص فى الأَعمال ، وحُسْنِ الأَخلاق . كما أُمِرت الدابةُ بحُسْنِ السير ، وبالعَطْفِ فى المعاطف . والطيران عند التَّحَامُل عليها ، وذلك السبق بالأَعْمَال من العَبْد ، والمسارعةُ فى الخيرات ، ثم يُؤْخَذ عليه بقولِ الحقِّ ، وألاَّ يخاف فى اللهِ لَوْمَةَ لائم ، ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتيه من يشاءُ .

والأَمْرُ بالمعروف والنَّهى عن المنكر . كما أُخذت الدابَّة بالوَثْب حيث لاقَنْطرة ولا مَجازَ للماءِ ، ثم يُؤْخَذ عليه بالمعَاداة لأَهْل المُنْكَر والمَعَاصى . والحُبِّ لله . والبُغْضِ فى الله . كما أُخِذَ على الدابة تَقَلُّبها فى العبوز والأَسواق .

فهذا بَذْلَ النَّفْس لله ، فإذا قد استكمل الأَدب ، وأَخذَ اللهُ بقَلْبه ، فصار صَغْوُ (٢) أُذُنَىْ فؤاده إلى اللهِ تعالى ، وشخصت عَيْنَا فؤاده تَنْظُرَانِ إلى الله تعالى ، وإلى تَدْبير اللهِ جلَّ وعَلاَ فى خَلْقه ، فهذا ولىّ الله قد أَدَّبه واصْطَفَاه (٣) لنفسه ، واتَّخَذَه حَبِيبا .

مثل الايمان والأعمال الصالحة

مثلُ الإيمانِ والأَعمال الصالحة مثلُ بَيْتٍ وُضِع فيه غُصْنٌ من الوَرْد

(١) رضت الدابة : ذللتها .
(٢) صغو : ميل ، واستماع .
(٣) اصطفاه : اختاره .

والياسمين والسَّوْسنِ مما يَفُوحُ رِيحُه ، فيطيب البيت مادام البيت مَرْشوشاً ذَا روح ، والغُصْن طرِيّ بمائه . فَرِيحُه فائح ؛ فإذا هبَّ الرّوح من البَيْت ، وتمكَّنَ فيه الحَرُّ ذَبُل الغُصْنُ ، وذهبت طَرَاوَتُه ، وافتُقِد طيبُه .

فكذا الإيمان فى قَلْبه طرىٌّ نَزِهٌ [1] بنزاهة القلب ، فإذا نالته حرارةُ شَهواتِ النفس ، وفَوَران الهوَى ، وحِدَّة حرارة الحِرْص ، وطلب العُلُوِّ ، وحبّ العزّ والرِّيَاسة ، فأَحاطت هذه الأَشياءُ بالقلب ذَبلت شجرةُ الإيمان ، وذهبت طَرَاوَتُها ونَزَاهَتُها .

مثل طيب الايمان على القلب

مثلُ طيب الإيمانِ على القَلْب مثل عُودٍ أَلقَيْتَه على جَمْرَةٍ ليتوقَّد ويتبخَّر به المسجد ، فإذا كانت الجَمْرَةُ ذاتَ توقُّد فاح رِيحُ البخور ، وانتفع القومُ به ، وإذا كانت الجَمْرَة مُنْطَفِئة قد علاَها الرَّماد بَقِى العودُ مكانَه ، ولم يكن له بخُور .

مثـل الايمان فى القلب

مثلُ الإيمانِ فى القلب مثلُ غراسة غرسْتَها فى الأَرض عودا كالسِّوَاكِ ، فالتفَّتْ عليها الأَرض ؛ فإنْ أَنْتَ سقَيْتَها وأَمْدَدْتَها بالتُّرَاب ، وأَضْحيتها [2] للشمس ، فعَنْ قَريبٍ تصير شجرةً

(١) نزه الرجل نزاهة : تباعد عن كل مكروه ، فهو نزيه . ورجل نزه الخلق - بسكون الزاى وتكسر - ونازه النفس : عفيف متكرم يحل وحده ولا يخالط البيوت بنفسه ولا ماله (القاموس) .

(٢) أضحيت الشئ : أظهرته .

باسقةً [١] فى السماء ؛ غلظَ ساقها . وكَثُر فروعها ، وتمكنت من الأرض [٧٢] عُروقُها . وزَكَتْ [٢] ثمرتُها .

فإن قصَّرتَ فى السَّقْيِ والتراب ، وسطَّحْتَ [٣] فَوْقَها فلم تُدْرِكها الشمس تكون عُوَيْدة [٤] كما غرستَها . ثم عن قريب تَيْبس وتُقْلَع ويُرْمَى بها فى النار .

فكذا نُورُ الإيمان إذا دخل القَلْبَ فسَقْيه العلمُ بالله . فكلما ازدَدْت بالله عِلْمًا ازداد القَلْبُ بالله حياةً ، وازداد كَشْفًا ووُضوحا بربُوبيته .

ومَدَدُه أعمالُ البِر ؛ وهى أداءُ الفرائض واجتنابُ المحارم ؛ فكلما عملْتَ بِرًّا كان نُورُ ذلكَ العَملِ راجعا إلى نُورِ المعرفة ، فيزداد قوةً بنُورِ المعرفة ؛ لأنه إذا رُفِع عَمَلُه إلى الله تعالى نظر اللهُ إليه ، فاشتغل بذلكَ ؛ فذلك العملُ النور ، وأَصلُه فى القلب ، وفَرْعُه عند الله تعالى ؛ فإذا اشتعل الفَرْعُ نورًا بِنظَرِ اللهِ تعالى إليه تأَدَّى [٥] ذلك النورُ إلى الأَصل ، فاختلط بِنُورِ المعرفة فتزَكَّى ، وإضْحَاؤُها للشمس

---

(١) باسقة : عالية طويلة .

(٢) زكت : نمت وزادت .

(٣) سطحه - كمنعه ؛ وسطحه : بسطه وأضجعه .

(٤) عويدة : تصغير عود .

(٥) تأدى : وصل .

رَفْعُ العلائق ؛ وهو ركوبُ الهوى في الشَّهوات ،فإذا زالَ الْهَوَى عن القلب كان بمنزلة بَيْتٍ رُفِع سَقْفُه حتى خلص إلى الشَّجَر حَرُّ الشمس ، فعندها يَغْلُظ ساقه ، وتكثر فروعه ، وتَزْكو[١] ثمرتُه ؛ كعُودِ غرسْتَه في وِعَاءٍ مثل الحُبِّ[٢] وفي أَصل الحُبِّ ترابٌ ، فلم يزل هذا العودُ يَنْمو بسَقْيِ الماء وإشراقِ الشمس ، حتى صار ذاسَاقٍ[٣] غَليظ ، امتلأ من غلظه هذا الحُبُّ حتى لم يَبْقَ فيه مَوْضع ظُفُر ؛ فإذا امتلأ لم يكن لشئ غيره مَساغٌ فيه أَنْ يَدْخُلَه .

فكذلك المعرفةُ إذا تمكَّنَتْ في القلب عُروقُها لايزال يَرْبُو[٤] على ازدياد العِلْم بالله وبأَسمائه وبرُبُوبيَّتهِ وتدبيره ،وعلى أعمال البِرِّ ، وقَطْع العلائق ، حتى يمْتَلئَ القلْبُ منه . فكان بَدْؤه نورَ المعرفة ، فلحقت به هذه الأَنوارُ : نور المعرفة ، وأَنوار العمل ، فامتلأ القَلْبُ نورًا حتى لم يَبْقَ في القلب موضعُ رَأْسِ إبرة خاليا عن النُّور ، فكيف تَدْخله ظلمةُ الهَوَى والنفس . فإذا لم[٥] يُرَبِّه بهذه الأَنْوار بَقِي القَلْبُ خاليا إلا بمقدار ذلك النور الذى حَلَّ به من نُورِ المعرفة وماحَوْلَه من القلب خالٍ ، فتدخل عليه ظلماتُ الهَوَى ، فتختلط به ، ويُجاوِرُه

(١) تزكو : تنمو وتكثر .
(٢) الحب : الجرة ، أو الضخمة منها (القاموس) .
(٣) ساق الشجرة : جذعها .
(٤) يربو : يزيد .
(٥) فى الأصول : يربيه . ولعلها : يزينه .

بجوارِ السوءِ حتى يذوبَ ذلك النُّور ، ويَنْتَقص ؛ فيُوشك صاحب هذا أن يُسْلَبَ حتى لايبقى معه شئٌ . نعوذُ بالله من تلك الحال .

وحُكى أنَّ إبراهيم بن جُنَيد رَحِمهما الله قال : كان يُقال : همَّةُ الزُّهّاد والعُبَّاد مخالفةُ الأَهواءِ عن الشهوات ، وهِمَّةُ العقلاءِ والأَولياء تَرْكُ الذنوبِ وإصلاحُ القُلوب .

مثل الايمان

مثلُ الإيمانِ مثلُ الضيفِ الكريم بَعَثَهُ[1] الملكُ إليكَ ضيفا ، وأمركَ بالإحسان إليه ؛ فإنْ ترككَ على ذلك وقعْتَ فى الجَهْد[2] والمعالجة والاستدانة والحَوْر[3] ؛ تُنفِقُ عليه وتُحْسِن[4] ؛ فإن أعطاكَ الملكُ بَدْرةً[5] من الدنانير وقال : أَنْفِقْ على هذا الضيف ، ولاتُقَتِّر ، وأَحْسِنْ إليه ، ولا تُقَصِّر ، فقد استرَحْتَ . فإنْ كنْتَ تركتَ الضَّيفَ ضائعا ، وتنفق الدنانيرَ على أهلك ووَلدك فقد خُنْتَ وخَسِرْتَ .

فالمؤمنُ أُعطِىَ المعرفة وقيل له : تبحَّرْ فى علم هذه المعرفة ، وانظر إلى ما ظهر لكَ من عظمتهِ وقُدرتِهِ وجلاَله ومُلْكه ؛ وانْظُرْ

---

(١) فى أ : بعث . (٢) الجهد : المشقة .

(٣) الحور : النقصان . وفى ب : الجور . (٤) فى ب : وتحسبه .

(٥) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار (القاموس).

إلى تدبيره وحِكْمته وصنَائِعه [١] ، وانظر إلى مَجْده وإحسانه ، فذهب بهذا النظَر ، بما أَعطى من النور ، إلى أَشغال النَّفس وأُمور الدنيا ، فخاب وخَسِر .

وإنْ ذهب بهذا النَظَر إلى ما ذكَرْنَا بما أَظهر ربُّنا تبارَكَ وتعالى مِنْ أُمورِه ازْدَاد يقيناً وخَشْيةً وخَوْفا وحيَاءً ، وازْدَاد حُسْنَ الظنِّ بالله تعالى ، واستغنى به عن جميع خَلْقِه ؛ ولذلك قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : إنَّ يوما لا أَزْدادُ فيه عِلْمًا بقُرْبِى إلى اللهِ تعالَى لا بُورِكَ لى فى طلوعِ شَمْسِ ذلكَ اليوم .

ورُوِى لنا أَنَّ رجلا جاءَ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله ، علِّمْنى غرائبَ الْعِلْمِ . قال : ما صنعتَ فى رَأْسِ العِلْم ؟ فقال [٢] له : هل عَرَفْتَ ربَّكَ ؟ قال : نعم ؟ فقال : ما صنعتَ فى حَقِّه ؟ قال : ماشاءَ اللهُ . قال : هل عرفْتَ الموتَ ؟ قال : نعم . قال : فما أَعدَدْتَ له ؟ قال : ما شاءَ الله . قال : فاذهَبْ فتعلَّم رَأْسَ العلم . ثم تعالَ حتى أُعَلِّمك غرائبَ العلم .

فإنما دَلَّهُ رسولُ اللهَ صلى اللهُ عليه وسلَّم على العِلْمِ بالله ، ليقومَ بحقّه .

أَلاَ تَرى أَنَه سأَله عن حقه ؛ ليعلمَ أَنَّ مَنْ ضَيَّع حقَّه ، وجَهل

---

(١) الصنيعة : الإحسان ، وما اصطنعته من خير ، وجمعه صنائع .

(٢) هذا فى أ ، ب .

حقَّه ، ثم ادَّعى عِلْمًا به فهو كاذبٌ فى مَقالَته ؛ فإنما ذاكَ عِلْمٌ سمِعَه بأُذُنه ، وأَوْدَعه حِفْظَه ، وليس فى قَلْبه منه إلا الإيمان به .

فهذه البَدْرَة [١] التى أَعطاكَ الملكُ لتُنْفِقَ منها ، وأَعطاكَ ربُّك جلَّ جلالُه هذا الذِّهْنَ والعَقْل ؛ فمن استعمل عَقْلَه فى التفكُّر فى أَمْرِ اللهِ فقد وضع النفقةَ موضِعَها ، وقد أَنفق على الضيف ؛ لأَن المعرفةَ موضِعُها القَلْب ، وحَوْلَها بحورُ العلمِ بالله ؛ فذلك كلُّه ثباتُ المعرفة واستقامتُها ، لئلا تَصيرَ المعرفةُ نكرةً بينما أنك تعرفُ ربَّك بالجودِ والكرم والوَفاءِ ، ثم تصير معرفتُك نكرةً فتتملَّق [٢] إلى عَبيدِه فى النَّوَائب [٣] ، وتتعلَّق بهم ، وتتخذهم من دُونِه وَكيلا ووَليّا ؛ فتعرف ربَّك بالكِفَاية ، وتستظهر [٤] بمن دُونه ، حتى تقعَ فى آبارِ المهالك ، وتصير مُدَاهِنًا [٥] ومتَصَنِّعًا [٦] ومُرَائيا ، تتزيَّنُ لخَلْقِه ، وتَتَرَضَّاهم بالقَبَائح والمَشَاين [٧] فيما بينكَ وبين ربّكَ . ونعوذُ باللهِ منْ ذلك .

---

(١) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار (القاموس) .

(٢) تملقه ، وتملق له تملقا : تودد إليه وتلطف له . والملق — محركه : الود واللطف وأن تعطى باللسان ماليس فى القلب .

(٣) النائبة : النازلة ، والجمع النوائب . (٤) تستظهر : تستعين .

(٥) المداهنة : النفاق ، وإظهار خلاف ماتضمر . والغش .

(٦) المتصنع : التصنع : تكلف حسن السمت والتزين .

(٧) المشاين : المعايب (القاموس) .

مثل الايمان وصحته وسقمه

مثلَ الإيمانِ وصحَّته وسَقَمه مثلُ رجُلٍ يريد أنْ يَشْتَرِى عَبْدًا ، فيتخيَّر مِنْ بين العَبيد مَنْ له زيادةُ بَسْطَةٍ [١] فى الجسم ، غليظ الرقبة ، يقدَّرُ بالأحمال الثقيلةِ على رقَبته ، وسبق على العبيدِ بالشَّخْصِ [٢] والبَطْشِ . فاشتراهُ بالثَّمَنِ الغالى ، وأقامه بالخِدْمَةِ بين يديه ، وصَيَّر له مقَامًا معلومًا . فإذا يكون قد سَقِمَ [٣] فما زال السَّقَمُ حتى أَثَّر فى بَدَنِهِ ، فزالَ عنه قُوَّةُ البطش والحَمْل ، ورَقَّ عَظْمُه ، وصارت قَدَماه من الرِّعْشَةِ والرَّجْفَةِ [٤] حتى عجز عن القيام بين يدى سيِّده ، وعجز عن الخِدْمة ، فتراجعت قيمتُه ، وصار أَمْرُه على خَطَر الموت .

فالمؤمنُ لَمَّا جاءَه نورُ الهدايةِ استقام قَلْبُه للهِ عُبُودةً [٥] ، مُؤْمِنا بقَلْبه ، مُسلما بأَركانه ، فقد استقرت قَدَمَا قَلْبِه بين يَدَيِ اللهِ تعالى للخدمة ، فإذا جاءَتْهُ الشهواتُ مع هبوب رِيحها ، فرجَفَت بقَلبه ، وما زَجَتْ حلاوةُ الشهواتِ ولذاتُ الهوى حلاوةَ الحبِّ الذى الذى فى إيمانه ، وضَعُفَ قَلْبُه ، وصارت تلك الحلاوةُ واللذةُ التى

(١) بسطة : البسطة فى الجسم : الطول والكمال (القاموس) .
(٢) الشخص : سواد الإنسان تراه من بعد ، ثم استعمل فى ذاته .
(٣) سقم : طال مرضه .
(٤) رجفت يداه : ارتعشت من مرض أو كبر .
(٥) العبودة ، والعبودية : الطاعة .

جاءت من قِبَلِ الشهوة مَرَضًا للقَلْب ؛ فضَعُفَ القلبُ ؛ لأنَّ قوتَه كانت مِنْ حرارة ذلك الحبِّ وحلاوتِه . وقوةِ [٧٣] الفَرَحِ الذى فى ذلك الحُبِّ ، فرجفت (١) قَدَماه وارتعشت . فإذا جاءته المكروهاتُ ضعفَ قَدَمُه عن احتمالها ، ودَقَّت رَقَبَتُه . وذهبت قوةُ بَطْشِه بقلبه ، وعَجَزَ عن القيام بين يدى اللهِ تعالى ؛ لأنَّ هَوَاه وشهواته تَرُدَّانِه إلى المُنَى .

فالإيمانُ هو استِقْرَارُ القَلْبِ بين يدى الله تعالى ، وطُمَأْنينةُ النفسِ بين يدى اللهِ تعالى بالعُبُودَةِ (٢) ؛ فإنما دخل عليه السَّقَم من مُخالطةِ حلاوةِ الشهوات ولذَّةِ الهوى ، فذهبت قوتُه ، فلذلك قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (٣) : الإيمانُ حُلْوٌ نَزِه فنزِّهُوه .

فحلاوَتُه من الحُبِّ الذى تضمَّنه ، ونَزاهَتُه من نُورِ التوحيد . فإذا مازجته حلاوةُ الشهواتِ مَرَّرَته (٤) . وإذا خالطَتْه أسبابُ الهَوَى ذهبت نَزَاهَتُه ؛ فتكدَّرَ الإيمانُ وتدنَّس (٥) . ومن كُدُورته ودَنَسه سَقَمِ القَلْبُ .

قال له قائل : وكيف يتدنَّسُ الإيمانُ ويتكدَّرُ ؟

---

(١) فى ب : فرجت . ورجفت : اضطربت وارتعشت .
(٢) العبودة : الطاعة :
(٣) نزه : بعيد عن القبائح . نزهوه : نحوه ، وأبعدوه ، وقدسوه .
(٤) جعلته مرا .
(٥) تدنس : توسخ .

قال : إنَّ الإيمانَ عَطاءُ اللهِ تعالى ، وهو استقرارُ قَلْبِ العَبْدِ به ؛ فإذا استقرَّ قَلْبُه بربِّه صَارَ عَارِفًا له مطمئنًّا إليه ؛ فذاك منه إيمانٌ بالله تعالى ، وهو عطاؤه للعَبْد . يقال : آمَن يُؤْمن إيمانا .

وأمّا النورُ الذى منه استقرارُ القلب فهو نُورُ الإيمانِ ، فيجوز أنْ يُسَمَّى إيمانا فى اللغة ، كما نَسبْتَ البيتَ إلى الدار ، والدارَ إلى البيت . فالدَّارُ تُسمَّى دارًا لِتَدْوِير الخِطَّةِ[1] ، والبيتُ يُسَمَّى بيتًا لأنه نَبِيتُ فيه .

مثل الايمان

مثلُ الإيمانِ مثلُ الضَّيف : بعث الملكُ إليك ضيفا ، وقال : أَحْسِنْ إليه ، فإنَّه ضَيْفٌ كريم ، وهو من خاصَّتى ، وصُنْهُ صيانَة مِثْله ؛ فلو تركَكَ على ذلكَ وقعْتَ فى جَهْد[2] عظيم واستدانة ومؤونة[3] عظيمة ؛ لِتُنْفِقَ عليه ، وتُحسنَ إليه فى العاقبة ، ومع ذلك تعجز عن الصِّيانة والإحسان إليه لفَقْرِك وخِفَّة ذاتِ يَدِك ؛ فإنْ أعطاك بَدْرَةً[4] من الدراهم لتُنْفِقَ عليه فقد أَقْدَرك على الإحسان إليه ، وكنْتَ واصلا إلى إحسانه على السَّعَة والبَسْطة ؛ لسعةِ المال الذى نِلْتَه .

---

(١) الخطة : الأرض التى تنزلها ولم ينزلها نازل قبلك ، وقد خطها لنفسه واختطها .

(٢) جهد : مشقة .

(٣) المئونة : الثقل .

(٤) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار .

والأولُ نَالَهُ التَّعَب لضيقِ النَّفَقةِ . ولَكِنْ أَنْتَ بَعْدُ فى تَعَب من ذلك ؛ لأَنكَ تحتاجُ إلى التقدير فى كل شىء ، والتقديرُ تَعَبٌ ؛ لأنك تحتاج إلى محافظةِ المقادير . فإذا جاءت المحافظةُ على التقدير ضاعَ بعضُ الإحسان لقلَّة العُدَّة ،فإذا بعث إليك بَدْرةً أخرى مكانَ الدراهم من الدنانير ،وقال : أَنْفِق عليه - اتَّسَعَ [1] فى النفقة ، وخرج عن تَعَب التقدير ومُحَافظته ، فوصل إلى الإحسان كلِّه ، ومع ذلك بَقِى شىءٌ من الإحسان لم يَصِلْ إليه .

قال له قائل : وما تلك البَقِيَّة ؟

قال : بَهَاء [2] الإحسان وزينته

قال : وبماذا يصلُ إلى ذلك ؟

قال : بأَن بعث إليه بَدْرةً أُخرى مكان الدنانير من الجَوَاهر ، قيمةُ كلِّ جوهر منها بُيوتٌ [3] من الدنانير ، قد اتسع الآنَ فى النفقة اتساعاً ، فحينئذ يَصِلُ إلى بهاء الإحسان وزينته .

قال له قائل : ضربتَ المثلَ ، فقابِل الشىء بالشىء حتى نفهمه .

قال : نعم ، الملكُ رَبُّكَ الأَعلى ، والضَّيف الكريم وخاصَّتُه المعرفة ، الذى آمنْتَ به ، فأَوصاكَ بالإحسان إليه وصِيانته بقوله

---

(١) فى ب : واتسع .

(٢) البهاء : الجمال والحسن .

(٣) فى أ ، ب : بيوتا - تحريف .

تعالى [١] : (واتَّقُوا اللهَ . واعْلَمُوا أنَّ اللهَ معَ المُتَّقِين) . وقال أيضاً جَلَّ ذِكْره [٢] : (وأَنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللهَ ولا تُلْقُوا بأَيديكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ . وأَحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنين) [٣] .

قال له قائل : هذه الآيةُ نزلت فى الجِهاد وفى النَّفَقة فيه .

فقال : هذا الذى تَحْكيه تَفْسيرُ العَجَم من الكُتُب الموضوعة لهم على (الشايذبوذ) . أفترى ما أنزل اللهُ فى شأْن قوم لم يَعُمّ الخَلْقَ ذلك ؟ فقد نزلَتْ آيَةُ الخمْرِ [٤] وآية الرِّبَا [٥] فى شأْن قوم فعمَّت الخَلْق كلَّهم ، ولم يَقُلْ أَحَدٌ من المؤمنين إنما نزلت هذه فى شأْن

(١) سورة البقرة ، آية ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٩٥

(٣) سبيل الله : الجهاد . ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة : قال القرطبي (٢ — ٣٦١) : الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد فى سبيل الله ، والإقامة على الأحوال وإصلاحها وترك الغزو .

وقيل معناه : لا تمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا ؛ أى لا تمسكوا عن النفقة على الضعفاء ، فإنهم إذا تخلفوا عنكم غلبكم العدو فى كرا . ولا تلقوا بأيديكم : بأنفسكم . وأحسنوا فى الإنفاق فى الطاعة . وأحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم . وقيل : أحسنوا فى أعمالكم بامتثال الطاعات .

(٤) آية الخمر فى سورة المائدة ، آية ٩٠ : إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .

(٥) سورة آل عمران ، آية ١٣٠ : يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة . . .

كذا وفى قَوم كذا ، فهذا لهم دُوننا ؛ فإذا قال الله تعالى : (اتَّقُوا اللّهَ) فقد عَمَّ الخَلْقَ كلَّهم أَن يَتَّقُوه . وعَمَّ المواضعَ كلَّها ، فإذا قال : (واعلموا أَنَّ اللّهَ مَعَ المتقين) فقد اقْتَضاهم كلَّهم أَنْ يعلموا ذلك .

وقوله : وأَنْفِقُوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأَيديكم إلى التَهْلُكَة ...الآية . فَسَبِيلُ القلوبِ إلى العرش إلى مَظْهَرِه الذى ظَهَر للعباد ، وهناك سبيلُ الأَركان والجَوَارح إلى أَمْرِه ونَهْيِه ، فالإنفاقُ فى سبيل القلوبِ من هذه البَدْرَةِ التى كَنْزُها فى الصدور ، والإنفاقُ فى قلوب المؤمنين . فالكنْزُ فى القَلْب ، ومَوْضِعُ الإنفاقِ على الضيف فى الصدر ، والإنفاقُ فى سبيل الأَركان والجَوَارِح من الأَمْرِ والنَّهْيِ الذى رَسمه فى التنزيل . فيَأْتَمِرُ بأَمْره . ويَنْتَهِى عن نَهْيِه ؛ فكلاهما فى سبيل الله تعالى . إلاَّ أَنَّ أَحدَ السبيلين [1] للقلب إلى العَرْشِ ، وسبيل آخر للنفس إلى طاعةِ الله تعالى . ثم إلى الجنة .

وإنما يستكملُ فى سبيل الطاعةِ بالسبيل إلى العَرْشِ ، ثم قال : (ولا تُلْقُوا بأَيْديكُمْ إلَى التَّهْلُكَة) ، فيَدْعُو مجاهدةَ النفس ، وردّ الهَوَى من حيث جاءَ وبما جاءَ من باب النار . ثم قال : (وَأَحْسِنُوا إنَّ اللّهَ يُحِبُّ المحسنين) ؛ أى أَحْسِنُوا مجاورةَ مَعْرِفَتى فى قلوبكم ، فإنَّ معرفتى وعِلْمِى وتَكَلُّمى أَنوارٌ لا تحتمِلُ الأَدناس ، ومجاورةَ

(١) السبيل : الطريق .

الأَنْتَان والمَزَابل ؛ وقد علِمْتم أَنَّ الغِلَّ والغِشَّ ، والمَكْرَ والحسَد ، وحُبَّ الدنيا ، واتِّبَاعَ الهوى — كلَّها أَنْتَانٌ ومَزَابل ، وظُلْمة و أَدْنَاس ، و أَنجَاس و أَرْجاس ؟

فإذا وجدتُم فى صدوركم سلطانَ هذه الأَشياء عاملاً[1] فيها فكيف يكونُ حالُ هذا الضيف عندكم ؟ و أَيْنَ إكرامُكم إيَّاى ، ووَصِيَّتى إياكم بالإحسان إليه .

ثم قال : فيما رُوِى عنه فى بعض الكتب : إنى أُكْرِمُ مَنْ أَكرمنى ، وأُهينُ مَنْ هان عليه أَمْرِى .

فإكرامُ الله تعالى أَنْ تُكْرِمَ معرفتَه التى وضَعها فيكَ ، وتصونَها من الأَدْنَاس والأَنْتَان والمَزَابِل التى ذكرناها .

وقد قال عليه السلام : الإيمان حُلْوٌ نَزِهٌ فَنَزِّهوه. فحلاوةُ الإيمان الحبُّ الذى وضع فيه ، ونَزَاهَتُه أَنْ تُنَزِّهَه عن هذه الأَشياء .

ثم قال الله تعالى : ﴿ و أَحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المحسنين ﴾ ؛ أَى أَحسنوا إلى هذا الضيف ، و أَحسنوا مُجَاوَرَتَه ؛ فإذا قال : أَحسنوا — فإنما يقَعُ الإحسانُ على كل شىء ، كما قال عليه السلام [2] : إن اللهَ كتب الإحسانَ على كل شىء ، فإذا قَتَلْتُم فأَحْسِنُوا القِتْلة [3] ، ولْيُحِدَّ [4] أَحَدُكم شَفْرَتَه ، ولْيُرِح ذبيحته [5] .

---

(١) فى الأصول : عامل — تحريف .
(٢) صحيح مسلم : ١٥٤٨ .
(٣) القتلة : الهيئة والحالة .
(٤) أحد السكين وحددها واستحدها : شحذها .
(٥) فى صحيح مسلم : فليرح ذبيحته ؛ أى بإحداد السكين وتعجيل إمرارها ، وغير ذلك .

وقال جلَّ ذكره [١] : (وبالْوَالدَيْن إحسانا) . وقال جَلَّ ذِكْرُه [٢] : (وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) . وقال اللهُ عزَّ وجل [٣] : (إنَ اللهَ مع الذين اتَّقَوْا والذين هُم مُحْسنون) .

فأَحْسن إلى من أحسن إليه ، وأَعْظم شأْنه ، وأَكْرم مُجَاورته ، وطَهَّر مكانه [٧٤] ، وهو نورُ اللهِ تعالى فى قَلْبِ المؤمن .

وجه تشبيه القلب بالكعبة :

وقد عظَّم اللهُ تعالى شأْنَ الكعبة وطَهَّرها وسَمَّاها بَيْتَه ، ولم يملِّكها أَحدًا من خَلْقه ، وجعل حولها حرَمًا آمَنًا يلوذُ به [٤] الخائفون ويمتنعون به من الآفات ، ويتَطَهَّرُون بالطَّوَاف بهذا البيت مِنْ أدناس [٥] الذنوب ، ويرجعون فى وَقْتِ الصُّدُور [٦] عنه مغفورين ؛ فَنُورُ اللهِ أَعظَمُ شأْنًا وحرمةً من الكعبة .

وقَلْبُ المؤمن خِزانةُ اللهِ تعالى ، فيه كنوزُ المعرفة ، وكنوزُ العلمِ بآلائه [٧] ، ولم يملِّكْهُ أَحدًا ، ولم يُطْلع عليه أَحدًا ، ولم يَكِلْه إلى أَحد ؛ فهو فى قبضته وبين إصبعين من أَصابع الرحمن يُقَلِّبُه كيف يشاءُ .

كذا رُوى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمى بهذا الاسم : يامُقَلِّبَ القلوبِ والأَبصار ، ثَبِّتْ قلبى على طاعتك.

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٢٣
(٢) سورة القصص ، آية ٧٧
(٣) سورة النحل ، آية ١٢٨
(٤) يلوذ به : يلتجئ إليه .
(٥) الأدناس : جمع دنس ، وهو الوسخ .
(٦) الصدور : الرجوع .
(٧) آلائه : نعمه .

وكان هذا الاسم هِجِّيرى[1] رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وكان عامَّةُ دعائه بهذا الاسم ، وعامةُ حاجته فى الثبات ؛ قالت[2] عائشةُ رَضِىَ الله عنها : قلت : يارسولَ اللهِ ، إنك لتُكْثِرُ هذا الدُّعاءَ : يامقلِّبَ القلوبِ والأَبصارِ ، ثَبِّتْ قَلْبِى على طاعتك[3] . فقال لى : ياعائشة ، إنَّ القلوبَ بين إصبعين من أَصابع الرحمن يُقَلِّبُها كيف شاءَ. ثم قرأَ قولَ اللهِ سبحانه[4] : (رَبَّنَا لاتُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وهَبْ لنا مِنْ لَدُنْكَ رَحمةً إنك أَنْتَ الوَهَّاب)[5] .

الرواياتُ لهذا الحديثِ من غَيْرِ وَجْهٍ واحدٍ ولا اثنين ولا أَربعة ولا خمسة ، كلُّهم يَرْوُون هذا الحديثَ عن رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فجعل اللهُ قَلْبَ المؤْمنِ خزانته ، وفيها كنوزُه ، وهو مُمْسِكُه ، وجعل صَدْرَه حَرَمًا .

فإذا كان الحَرَمُ له من الحُرْمةِ أَنه لايُصاد صَيْدُه ، ولايُقْطَع شَجَرُه ، ولا تُلْتَقط لُقَطَتُه[6] ، ولا يَخَافُ مَنْ دخَلَهُ ، وصَيَّره مَأْمَنًا ، ومَهْبِطَ رَحْمَتِه ، وموضع نَظَره مِنْ بين جميع الأَرض ، فقَلْبَ

---

(١) هجيرى رسول الله : دأبه وشأنه .
(٢) تفسير القرطبي : ٤ — ٢٠
(٣) فى القرطبي : على دينك .
(٤) سورة آل عمران ، آية ٨
(٥) إزاعة القلب : فساد وميل عن الدين .
من لدنك : من عندك . ومعنى الآية : هب لنا نعيما صادرا عن الرحمة .
(٦) اللقطة : اسم الشيء الذى تجده ملقى فتأخده .

المُؤْمِن أَعْظَمُ شَأْنا من الحَرَمِ ، وما فيه أَعظَمُ من الكعبة ؛ فإن كانت الكعبةُ بَيْتَه ؛ فهذا نورُه فى خزانته ، وإنْ كانت الكعبةُ لايَمْلِكها غَيْرُه ، فهذا القَلْبُ أيضا فى قَبْضته لايَمْلِكُه غيره ، وإن كان ماحَوْلَه حَرَمًا ؛ فالصَّدْرُ حَوْلَ القلبِ حَرَمٌ لهذه الخزانة ولِمَا فيها ، فكما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أَحدثَ فى الحَرَمِ حدَثًا أو آوَى [1] مُحْدِثا [2] فعليه لَعْنَةُ اللهِ والملائكة والناس أجمعين ، لايُقْبل منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ [3] .

فهذا المُحْدِث هو خارجىّ يخرج بالجَوْرِ والباطل على إمام عَدْلٍ مُحِقّ ؛ فهو المحدثُ ومَنْ أعانه أو آوَاهُ فقد استوجب اللَّعْنَةَ . فكذلك مَنْ أَحدَثَ فى هذا الصَّدْرِ حدَثًا من هَوًى أو بِدْعة استوجب اللَّعْنَةَ ولم يُقْبَل منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ ولا تَوْبة ؛ لأنه خَرَّبَ الدِّين ، ورَام [4] أَنْ يَأْخذَ ولايةَ القلب بالتوحيد ؛ فإنَّ القَلْبَ أمير على النفس ، والإمْرَة بالكنوزِ والجنود حتى يَمْضِى سلطانُه على الجَوَارح فى الأمْر والنهى ، وقوة كنوزِ المعرفة ، وعلم التوحيد ؛ فهؤلاء

---

(١) آوى محدثا : ضمه إليه وحماه ، ونصره ، وحال بينه وبين أن يقتص منه .

(٢) محدثا : جانيا .

(٣) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية ، وقيل الفريضة .

(٤) رام : طلب .

الجَبْرِيَّة[١] والقَدَرِيَّة[٢] والمُرْجِئة[٣] والمُجَسّمة والمُعَطّلة عليهم لعائنُ[٤] اللهِ تَتْرَى[٥] قد أَحْدَثُوا فى الحَرَمِ على خزانةِ اللهِ أَكْثَرَ وأَعْظَمَ ممَّنْ أَحدث فى الحَرَم على بيتِ الله .

وكما لايُصاد صَيْدُ الحَرَم فكذلك ماتَطاير فى الصَّدْرِ من الخَوَاطِرِ مِنْ صفاتِ الله تعالى ؛ فليس تُصَادُ تلك الخواطر ، فيُدْخِلُ قَلْبَه مداخل الفكر لكَيْفيته ؛ فإنه ليس لتلك الصفات كيفيةٌ ولا مُنْتَهى ولا مُلَاحظة ، فاستغفر الله كما تكْفُر[٦] أَولَ صَيْد تأْخذُه .

ثم قال اللهُ تعالى[٧] : (ومَنْ عَادَ فيَنْتَقِمُ اللهُ منه) ؛ أَى يعاقبه . وحذَّركَ الكُفْرَ ، فإنه ينتقمُ منكَ إذا اتَّبعْتَ الخواطرَ ففَكَّرْتَ .

---

(١) الجبرية : الذين يقولون أجبر الله العباد على الذنوب ؛ أى أكرههم ، ومعاذ الله أن يكره أحدا على معصيته . وقيل للجبرية جبرية لأنهم نسبوا إلى القول بالجبر (اللسان جبر) .

(٢) القدرية : فى التهذيب : قوم ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله من الأشياء . وفى اللسان : القدرية قوم يجحدون القدر .

(٣) المرجئة : صنف من المسلمين يقولون : الإيمان قول بلا عمل ؛ كأنهم قدموا القول وأرجئوا العمل ؛ أى أخروه ؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم .

وقال ابن الأثير : المرجئة : فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لايضر مع الإيمان معصية كما أنه لاينفع مع الكفر طاعة ؛ سموا مرجئة لأن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى أى أخره عنهم .

(٤) لعائن : لعنات الله .

(٥) تترى : تتتابع .

(٦) تكفر : تستر .

(٧) سورة المائدة ، آية ٩٥

وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : تَفَكَّروا فى خَلْقه ، ولا تفكَّرُوا فيه .

وكما لاتُقْطَع أَشجارُ الحَرَم فتذهب نُزْهَته وخُضْرتُه لاتسقط حرمةُ أَشجاره أَيضا لأَنها فى المَأْمَن .

وروى عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنه قال : ماصِيد مِنْ مَصِيد ، ولا قُطِعَتْ شَجَرة إلاَّ لِغَفْلَة عن التسبيح .

ورُوى عن أَبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه أَنه أَتى بُغراب [1] وافِر الجناحين ، فمسحه بيَده ، وقال : الحمدُ لله ربِّ العالمين ؛ سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم يقول : ماصِيد من مَصِيد ولا قُطعت شجرةٌ إلا لغَفْلَة عن الصلاة والتسبيح .

فإذا كانت الأَشجارُ إنما يُسَلَّطُ الآدَمىُّ عليها فى وقت غَفْلتها عن التسبيح ؛ لأَنَّها على قَطْعِها صارت مُعَاقَبةً بتَرْكِ التسبيح ، وجُعلت شجرة للآدميين ، فيكون تسبيحُها مكانَ تسبيحِ المُمْتَنعين عن التسبيح بِشِرْكِهم وكُفْرهم ، لتَماسكَ الأَرْضُ بتسبيح المسبِّحين الموَحِّدين ، ومَنْ لَحِقَ تسبيحَهم من الجبَال والأَشجار ، والخَلْق والخليقة ؛ فإنما يُسلَّط على قَطعها بتَرْكها التسبيح وغَفْلتها ، فإذا كانت الشجرةُ فى الحَرَم فهى فى المَأْمن مَأْمن بيت اللهِ تعالى .

---

(١) وافر الجناحين : طويل الجناحين .

وقال اللهُ تعالى [١] : (وإذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابةً للناسِ و أَمْنًا) [٢].

وإنْ غفَلَتْ عن التسبيح لم تَصِلْ إليها عقوبةُ القَطْع ، فمُنِعَ الخلقُ عن قَطْعِها ، فإنْ قَطَعَها قاطعٌ فتلك جنَايةٌ . فإنْ غرم في الدنيا كان قد افتدى نَفْسَه بتلك الغَرَامة و الصَّدَقَةِ على المساكين بقيمتها ، و أَدَّى إلى الحَرَم حَقَّه ، وخرج من جنَايته على شجرِ الحَرَمِ ، وإن لم يغرَمْ في الدنيا مُوَحِّد كان أو مشرك فلا فَوت على اللهِ مِنْ أَخْذ حقِّه لحقِّه وحَقِّ حَرَمه ، فإذا كان هذا شأْنَ أشجارِ الحرم فما ظنُّكَ بمَنْ قطع أَشجارَ حَرَمِ القلبِ التي في الصَّدْر ؟

قال : تدبير اللهِ تعالى في إبراز أَسمائه ، وعلْمِ أَسمائه ، وماخرج من أَسمائه إلى الخَلْق ، فخرج باسْمِ العَرْش ، وباسْمِ الكُرْسيّ ، وباسم الجنَّة ، وباسم النارِ ، وباسم الملائكة ، وباسم آدَمَ عليه السلام والآدَميين ، وباسم المسَخَّرين [٣] ، وباسْمِ الليل والنهار ، وباسم الذي خَتَم الأَسماءَ محمد صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فهذه الأَسماءُ كلُّها تدبيرُه . وهذا الخَلْق الذي منه خرج تَدْبيرُه ؛ فهذه أَشجارٌ ؛ فمن اعترضَ تَدْبيرَه ، فعارضَ اسْمًا باستخفاف [٤] أَوجَهالة

(١) سورة البقرة ، آية ١٢٥

(٢) جعلنا : صيرنا . البيت : يعني الكعبة . مثابة : مرجعا يرجع إليه . أو معناه يثابون هناك .

(٣) سخرته في العمل : استعملته مجانا . وسخر الله الإبل : ذللها وسهلها .

(٤) استخفاف : استهانة .

فقد قطع شجرةً ، ومن اعترض تَدْبيرَه فعارضَ حقًّا من حقوقه فى خَلْقه فقد قطع أغصانَ الشجرة . وأَصْلُ الشجرةِ باق . فإنْ تاب وأَرْضَى الخَلْقَ عادت الأغصانُ اليابسةُ رَطبة .

فإذا كانت أَشجارُ الحَرَمِ حرم الكعبة هذا محلُّ صاحبها وهذا شَأْنُها فكيف بأَشجارِ حَرَمِ الصَّدْرِ ؟ ماظَنُّكَ بمَنْ عارضَ تَدْبيرَ الله تعالى ؟ أليس هو مُنَاصِبٌ [(١)] لِلَّهِ عزَّ وجلَّ مِنْ حيثُ لايَعْلم استبدادا وتورُّعا [(٢)] عن أَشياء [٧٥] على المُراءاة [(٣)] ، وتَمَاوُتًا [(٤)] عند الخَلْق . وتخشُّعًا بخشوعِ النِّفَاق . وجَوْفُه ممْتَلئٌ من الحَسَدِ والحقْد . والرغبةِ والشُّحِّ والبُخْلِ . والأَمَلِ وسُوءِ الظن ، والغلِّ والغِشِّ والمَكْر . وأَنواع الخيَانات ، والاستخفاف [(٥)] بأَهْلِ ملَّته . وقلَّة الرحمة والعَطْف . وقطيعة الرَّحِم ، والتَعَزُّز [(٦)] والتكبُّر . والتجبُّر [(٧)] والمُراءاةِ والتزيُّنِ والتصنُّع . والمُدَاهنة [(٨)] وتعظيم الدنيا . والعَوْن فى غير ذات الله تعالى على الضرِّ والنَّفْع ، والبَطَر [(٩)] بأَنْعُم الله تعالى . والكبرياء على عبَاد الله تعالى ، والفَخْرِ فى عطيَّةِ اللهِ تعالى ، وخَوْف الفَقْرِ ، والفَرَح بالدنيا وبأَحوال

(١) ناصبه العداء : أظهره له (القاموس) .

(٢) استبد بالأمر : انفرد به من غير مشاركة له فيه . والتورع : الكف والامتناع .

(٣) المرائى : الذى يظهر غير مايضمر .

(٤) التماوت : فى القاموس (مات) : المتماوت : الناسك المرائى .

(٥) استخف به : استهان . (٦) عز وتعزز : صار عزيزا . (٧) تجبر : تكبر .

(٨) المداهنة : إظهار خلاف مايضمر . (٩) البطر : الكفر بالنعمة وعدم شكرها .

النفس ، والحُزْنِ على فَوْتِها ، والتملُّك فى أَمْرِ اللهِ ، والاقتدارِ والسُّخط للمقدور ، وقلةِ الأَمْنِ للرزْق ، والاستبدادِ فى أَمْرِ الله تعالى ، والتَّهَاوُن بالمؤمن - فقد حشا جَوْفَه وزَوَايا بَيْتِه من هذه الأَشياءِ ، ومَلأَ صَدْرَه من دُخانِها وظُلْمتها و أَنْتَانِها و أَدْنَاسِها ؛ لأَنَّ هذا كلَّه من أَغصانِ الكُفْر والشِّرْك ، والخروج على الله ، والمُضَاهاة [١] بطلبِ عِزّه وكِبره فى أَرْضه بدُنيا دَنِيَّة ، وشَهْوة رَدية . ويتَجبَّرُ فى حقوقه ، ويتزيَّنُ لعَبِيده ، كمن لايُؤْمِنُ باللهِ ، ويُداهِنُ فى أمره ، كمن لايَعْرِف ربَّه ، ويُعَظِّم دُنْيَاه التى حقَّرها ، كمن يُنَاصِبُ ربَّه . ويُعِينُ فى غير ذاته ، كمَنْ يُريدُ خرابَ ماعمره اللهُ تعالى ، ويَبْطَر بأَنعمه . كمن لايُبَالى بها ، ولا يستَحْيى من المُنْعِم ، ويَسْخَط فى مقدوره ، ويتجبَّرُ فى أُموره ، كأَنه هو المُدَبِّر للأُمور ، فأَيَّةُ حُرْمَة بقيَتْ لهذا الحَرَم ؛ و أَيَّةُ معرفة بقيت لصاحب هذا ، وقد أَغار العدوُّ على كنُوزه . فبدَّدَها [٢] وطَمَسها [٣] بما جاء به من هذه الأَشياءِ ، وهزم العَقْلَ حتى انكمن [٤] فى رَأْسِه وحتى ذهب علْمُه وإشراقهُ فى الصَّدْرِ .

قال له قائل : قد ذكرتَ أَنه لاتلتقط لُقَطَتَه فايش [٥] لُقَطته ؟

---

١) المضاهاة : المشاكلة ، والمباراة والمعارضة .

(٢) بدد الشئ : فرقه . (٣) طمست الشئ : محوته .

(٤) انكمن : توارى واستخفى . (٥) ماتكون لقطته ؟

قال : سرُّ القَدَر ، والعلوم التي حجب الخَلْقُ عن إدراكها ، فذاك لُقَطته . لايُعْرَفُ بَيْتُها ولا وَلِيُّها . ولا يملكُها أحدٌ سواه ؛ وهي موضوعةٌ في طريق التوحيد ، ومَدْرَجة [1] العقول إلى التوحيد بَلْوَى [2] للْعبَاد ؛ فأَهْلُ الزَّيْغ [3] طالبون لها ، وباحثون عنها ، ويفتِّشُون لها ، ولن يَزْدَادُوا بذلك التفتيش إلا غمًّا وحَيْرة ؛ لأَنه عِلْمٌ لا يُدْرَكُ مُنْتَهاه ؛ بمنزلةِ بَحْرٍ عَميق مُظْلم لايُدْرَكُ حَدُّه ولانهايتُه ؛ فالسابحُ فيه كمنْ سبَح في البَحْر ؛ فلا بُدَّله من الغَرَق والهَلْك [4] .

فهذه اللُّقَطَةُ في الصَّدْرِ حَرَمُ القلب ، فلاتُلْتَقَط لحُرْمَةِ التوحيد ؛ لأَنَّ مِنْ شرط التوحيد أَلاّ تطمعَ للعباد فيما توحَّد اللهُ تعالى به وتفرَّد .

ويحقُّ على العاقل أَنْ يَعْقِلَ ، فيقول : إذا قلت : اللهُ وَاحد أَحَدٌ فَرْد ، فأَيُّ عِلْمٍ في الأَحَدية والفَرْدية ؟ إنما العلمُ في الصفات صفاتِ القُدْرَة ، فإذا انتهيت إلى أَحَديَّته وفَرْديته ، فأَيُّ عِلْم هناك تطمَعُ في معرفته ، وقد انقطعت الصفاتُ ؟ وكيف تصفُ عِلْمًا ولا صفَة له ؟

---

١ مدرجة : الطريق ، أو الطريق المنعطف .

(٢) بلوى : اختبار .

(٣) الزيغ : الشك والجور عن الحق .

(٤) الهلك : الهلاك .

وقوله : لايخافُ آمِنُها ، فالحقُّ إذا وَجَد فى القَلْبِ والنفس مَأْمَنًا فقد اعتزل الخيانةَ . وظهر مكانَه الأَمْنُ ؛ فصار صاحبُه مُحقًّا ، فعندها يكونُ الحقُّ مُسْتعمَلَه [١]. وإذا لم يَجِدْ فى الصدر مَأْمَنًا فقد نَفَر ؛ فلم يأْمَن خيانَةَ النَّفْسِ ، ومَيْلَ القَلْبِ ؛ فصاحِبُهُ فى طلبه وهو ماضٍ عنه .

وقولنا : مَهْبِطَ رَحْمته ومَوْضع نظَره فهى معروفة ؛ فإذا كانت الكعبةُ مَهْبِطَ الرَّحْمةِ فكذلك قَلْبُ المُؤْمنِ مَهْبِط حُبِّ اللهِ تعالى ورَأْفته ، ومَهبِط جُودِه وكرَمِه ، وعَيْنُ اللهِ تَرْعَاه ، ومَوْضع نَظَرِه أيضا .

الخبر : إن [٢] اللهَ تعالى لايَنْظُرُ إلى صُوَرِكم ولا إلى أعمالكم [٣] ولكن ينظرُ إلى قُلوبكم ونيَّاتكمْ ، فمن كان له قَلْبٌ صالح تحنَّنَ اللهُ تعالى عليه ، فإذا تَحنَّنَ [٤] عليه رَعَاه وصيَّرَه فى قَبْضَته .

الخبر الذى قال : كنْتُ سَمْعَه . وقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم [٥] : أَلاَ إِنَّ التَّقْوَى هاهنا – ثلاثا – و أشار إلى الصَّدْر فى كل مَرَّة .

---

(١) مستعمله : عمله .   (٢) صحيح مسلم : ١٩٢٧

(٣) فى هامش ا، ب : صوابه : لاينظر إلى صدوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، كذا هو فى الصحيح. وفى صحيح مسلم : ولا إلى أموالكم . وتمامه فيه : ولكن ينظر إلى قلوبكم – وأشار بأصابعه إلى صدره ..   (٤) تحنن : ترحم .

(٥) صحيح مسلم : ١٩٧٦ ، ومعناه أن الأعمال الظاهرة لاتحصل بها التقوى ، وإنما تحصل بما يقع فى القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته .

وأعظَمُ التقوى ما اتّقى فى الحَرَم ، فإذا اتّقى فإنما يتّقى على الصَّيْدِ والشَّجَر واللقَطَة ، فإذا كان ذلك كذلك فالتَّقْوَى الذى أشار إليها صاحبُ الشَّرْع ؛ فهى على كنُوزِ المعرفةِ وعلى أشجارها فى الصَّدر وعلى لقَطَتها . وعلى مَن الْتجأ إليه مَأْمَنًا ؛ فأَوْفَرُ الناس حظًّا فى الكعبة مَنْ عظَّم شَأْنَها ، واتَّقى على حَرَمها ، وأكثر الطَّوافَ بها . وإنما يفعلُ ذلك من شَمَّ رائحةَ الكَعْبَة ، ونَظَر إليها بعَيْنِ الصِّحَّةِ لا بِعَيْن السَّقَم ؛ مِنْ قَلبٍ لاسَقَم فيه مِنْ شهوات النَّفْسِ وإرادات الهَوَى ؛ فنظَرَ بعَينِ ذلك القَلْب إلى بَهَاء [1] الكعبةِ ، وإلى ذلك الشئ الذى به صارت الكعبةُ كَعْبةً ، لا إلى تلك الأحجار ؛ لأنها قد كانت كعبةً ولا أحجار ؛ وكانت الملائكةُ والأنبياءُ صلواتُ الله عليهم أجمعين تَحُجُّها فيما بين نُوح وإبراهيم عليهما السلام ولا أحجار ثَمَّة [2] .

فأَوْفَرُ الناسِ حظًّا من خزانة الله التى فى قَلْبِ المُؤْمن منْ عظَّم شأْنها ، واتَّقى على صَدْرِه ، وأَكْثَرَ الطَّوَافَ حَوْل الخزَانة ، حتى يُدرَّ عليه وَلىُّ الخزانةِ من الكنُوز ، كما يُدرُّ الضَّرْعُ على حالبه من اللَّبَن ؛ فإنَّ البقرةَ والشاةَ تَدرّ مِنْ ضَرْعها على وَلدهما لتُرْضعَهما بالرأفة والرحمة التى وُضِعت فيها ، ولولا تلك الرحمةُ لوَلَدها مادَرَّ لَبَنُها .

---

(١) بهاء : جمال .

(٢) ثمة : هناك .

أَلَا ترى أَنَّ الحالبَ يُقَدِّمُ عند الحَلْب وَلَدَها إليها أَوّلا حتى تُرْسِلَ اللَّبَنَ ، ثم يَفْطِم ولدَها عنها ويَحْلبها ، ولو مات ولدُها مثَّل لها مثالَ وَلَدها بأَن يُحْشَى جلدُ وَلدها تِبْنًا ، ويُوضَع بين يديها لتَنْخَدِع بذلك ، فتدرّ لبنَها .

فأَراك هَذَا ربُّ البقرةِ من خَلْقِه ، وعرَّفكَ أَنَّ الذى تُصِيب مِنْ عندى فتدرّ عليك رحمتى .

قال له قائل : وما يُدرّ عليه من الخزانة من تلك الكنُوز ؟

قال : يدرُّ بالرَّحْمَةِ - كما وَصْفْتُ من شَأْن الضَّرْع والدَّرِّ - من الكنوز وعِلم المعرفة .

علم المعرفة :

قال له القائلُ : وما عِلْمُ المعرفة ؟

قال : عرفتَ الرَّب ؟ قال : نعم . قال : بأَىِّ شئ عرفتَه ؟ فانْقَطع [1] . قال : عرفَنى نفْسَه من الصفات . قال : فما احْتَظَيْتَ [2] من هذه الصفات ؟ قال : الإيمان به . فكان ذلكَ حظَّك مِنْها ؟ أَم علم مشرق مستنير ؟ أَمْ مطالعة ببَصَائر الهُدَى ؛ فإِنَّ عِلْمَ المعرفة للعامة الإيمانُ به ، وهو الظالمُ لنفسه ، مازَال يظلِمُ نَفْسَه باتِّبَاع الهَوَى والشهوات ، حتى احْتَجبَت المعرفةُ عنه ؛ فصاحبُه عالمٌ جاهل مؤمنٌ به ، يَعْثُر مرّةً فى طريقه ، ويقوم أُخرى ، ويَزِلّ [3] مرة ،

(١) انقطع : عجز وسكت . (٢) احتظى : كان له حظوة ، وحظ .

(٣) يزل : يسقط .

وينْعَش (١) أُخرى ؛ فهو بين طاعة ومَعْصية ، حتى يَقْدَم على رَبِّه بهذه الحالة .

وعلم المعرفة للصادقين مُشْرِقٌ نَيِّر وَاضح ، وهو المقتَصِدُ؛ يُشيرُ إلى الله تعالى على مَدْرَجة (٢) الصِّدْق في الفعل (٣) جَهْدًا وحذَرًا وحراسةً [٧٦] ، باكيًا على نفسه ، يَقْتَضِى منها الصدقَ في الفعل (٤) جهدا في كلِّ حركةٍ وفعلٍ وقَوْلٍ .

وعلمُ المعْرفةِ للصدِّيقين مطالعةُ البراذين (٥) ، ومشاهده المعادن ، وذلك باليَقين ، وهو علمُ السابقين المقَرَّبين ، قال الله جلّ ذكره (٦) : (كَلَّا لو تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِين . لتَرَوُنَّ الجَحِيم) (٧) .

فبعلْمِ اليقين ، وبقوةِ نُورِه ، يَرَى عَيْنَ اليَقين (٨) بالبَرَاذين (٥)

---

(١) نعشه الله ، وأنعشه : أقامه .

(٢) المقتصد : الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها (القرطبى : ١٤ — ٣٤٨) .

(٣) مدرجة : طريق . (٤) فى ب : العقل .

(٥) البرذون : الدابة ، وهى بهاء ، والجمع براذين (القاموس) . وفى الأصول : البرازن . وفى تاج العروس : البرزين : كوز يحمل به الشراب من الخابية ، والمعنى غير واضح على كل . (٦) سورة التكاثر ، آية ٥ ، ٦

(٧) اليقين : العلم المتيقن . وقيل : اليقين الموت . وقيل البعث . والمعنى : لو تعلمون اليوم من البعث ماتعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور وانشقت اللحود عن جثثكم وكيف يكون حشركم — لو تعلمون ذلك لشغلكم ذلك عن التكاثر بالدنيا ؛ لترون الجحيم فى الآخرة . والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار .

(٨) عين اليقين : مشاهدة .

والمَعَادن التى تَظْهَرُ منها الصفاتُ ورُبوبية الرَّبِّ .

فذلك العِلْمُ النافذ ببَصَرِ قَلْبه إلى نُورِ رُوحِهِ ، المتوقِّد فى عَيْنه الظاهرةِ التى فى رَأْسه ، فإذا نظر إلى الأَشياءِ أَبصر آيةَ القُدْرَةِ فى الأَشياءِ كلِّها . وآثارَ الربُوبية ؛ فلا تَقْدر زينةُ الأَشياءِ وبَهْجَتُها وحلاوَتُها أَنْ تَغُرَّه عن الله حتى يتعلَّق قَلْبُه بشىءٍ دونَ اللهِ تعالى ، فيحجبه عن اللهِ تعالى ، فيصير فِتنةً عليه ، فيَعْمى بَصَرُ قَلْبه ، ويَبْقَى فى ظلمات النفس ، وحُبِّ الشهوات ؛ ويتكدَّر رُوحُه ، ويُسْلَبُ قَلْبُه الإِمْرَة ، ويَغْلب الخارجى .

فإذا لم يَكُنْ له هذا العلمُ فى صَدْرِه على صفةِ السابقِ المقرَّب ، وإنما كان عِلْمُه على صفةِ المُقْتَصد [1] فهو مشغولٌ يَمينه بوهَجِ الحروب ومحاربة الأَبطال حيث الْتَقَيا ؛ فَمَرَّةً منصور ، ومرة مَخْذُول ؛ فمتى يقدر أَنْ يُلاحِظَ آثارَ القُدْرةِ والرُّبُوبيَّة ، وليس لبَصَرِه نُورٌ أَنْ يَنْفُذَ إلى رؤية ذلكَ ، وهو بَعيدٌ منْهُ ؟

ومَنْ كان عِلْمُه عِلْمَ الظالِم لنَفْسه فذلكَ عِلْمُ اللِّسان ، قد تلقَّنَهُ من أفواهِ الرجال سَمْعا ، ومِنَ الكتُبِ نظَرًا ، فأَوْدَعَه حفْظَه حتى يُبْرِزَه الحفْظُ من صَدرِه فى وقْتِ الحاجة ، وليس له قوةٌ مايُجَاهِدُ به نَفْسَه فيحاربها ويَهْزِمَها .

---

(١) السابق : التقى . وقد سبق تفسير المقتصد فى الصفحة السابقة .

وتلك حجةُ اللهِ تعالى عليه ، يقول ويهدى النا س إليه ؛ فإذا صار إلى إقامته بنفسه صارَ أَضَلَّ من الأَنعام ؛ يَغْلبُه الهَوَى فى الشَّهَوات . قال اللهُ جَلَّ ذكره [١] : ﴿ قُلْ يـأَهْلَ الكتاب لَسْتُمْ على شَىء حتى تُقِيمُوا التَّوْراةَ والإنْجيلَ ومَا أُنْزِلَ إليكُمْ مِنْ رَبّكم [٢] ﴾ ؛ أى فى وقْتِ محمدٍ صلىّ اللهُ عليه وسلَّم .

العـلم علمـان :

قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : العِلْمُ علمان : عِلْمٌ فى القلب ، فذاك العِلْمُ النافع ،وعِلْمٌ فى اللسان ، فذَاكَ حجةُ اللهِ تعالى على ابْنِ آدم .

فالعِلْمُ النافع هو علمُ السابِق [٣] وعلم الحُجَّة الذى يخنقُ صاحبَه فى الْبَرْزَخ [٤] وفى المَحْشَر ، هو عِلْمُ الظالم لنفسه [٥] ؛ أَعاذَنا اللهُ وإيا كم برحمته .

قال له قائلٌ : فهذا المَلَك الذى بَعَثَ الضَّيْف ومعه نَفَقَةٌ ، وقد تفاوَتَتِ النَّفقاتُ ؛ فنفقةٌ هى دَرَاهم ،ونفقةٌ هى دَنَانير ،ونفقةٌ هى جَوَاهر ، ماهَذَا ؟

---

(١) سورة المائدة ، آية ٦٨

(٢) أى لستم على شىء من الدين حتى تعملوا بما فى الكتابين من الإيمان بمحمد عليه السلام ، والعمل بما يوجبه ذلك فيهما .

(٣) انظر هامش رقم ١ صفحة ٢١٦ فى تفسير السابق .

(٤) البرزخ : الحاجز بين الشيئين . ومن وقت الموت إلى القيامة ، ومن مات دخله (القاموس) .

(٥) الظالم لنفسه : الكافر ، أو المذنب .

- قال : فالذى ذكَرْنا من النفقات الثلاث من الأَصناف هى العلوم ، وهو علْمٌ واحدٌ صارت علوما . والعلم لايُدْرِكُه القلْبُ إلاَّ بالحياةِ ؛ لأَنَّ هذا كلَّه علمُ الغيب ؛ أَلاَ تَرَى أَنَّ النَّفْس إذا نامت أَو ماتَتْ ذهبت حَيَاتُها . وذهب علْمُ القَلْب ؛ فهو ميِّتٌ لايَدْرِى ، وَحيٌّ نائم لايَدْرى شيئا .

فقد بانَ لكَ من أَنَّ علْمَ الظاهر قد غابَ عنه بالنَّوْم والموت لزوَال الحياة فيهما ، فكذا إذا ذهبت حَيَاةُ القَلْبِ بالله فقد غاب عنه علْمُ الغُيوب . فإذا أُعطى القلبُ حياةَ العلمِ بالله عرفَ ربَّه وعلمه . وقد قال جل ذكره [١] : (أَومَنْ كَانَ مَيْتًا فأَحْيَيْنَاهُ [٢] وجعَلْنَا له نُورًا يَمْشِى بهِ فى الناس كمَنْ مَثَلُه فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذَلك زُيِّن للكافرين ماكانوا يعملون) .

فهذا كان قلبا ميتا عن الله تعالى أَعطاهُ نورَ العَقْل والعلْمِ ، فعرف ربَّه ، وإنما عقَلَ العلْمَ بنُور الحياة ، فلما عَرفه اطمَأَنَّ إليه ، وأَسْلَمَ نَفْسه إليه عُبُودة [٣] ، فلزِمَه الاسْمَان : مؤمن ، ومسلم ، الإيمان منْ جهة استقرارِ القَلْبِ ، والإسلام من جهة تسليم النَّفْسِ إليه عُبودةً بالأَمْر والنَّهْىِ ؛ فهما فى عقد واحد ؛ عرف ربًّا فاطمأَنَّ إليه ، وعرف نَفْسَه عنده ، فسلَّم إليه نَفْسَه ؛ فهذه معرفةٌ واحدة ؛

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١٢٢ (٢) ميتا بالجهل فأحيناه بالعلم .

(٣) عبودة : طاعة .

إذا لحظَ إلى ربِّه عرفه ربًّا ، وإذا لحظ إلى نفسه عرفه عَبْدًا ؛ وإنما يُعْرَفُ هذا بحياةِ القَلْبِ ؛ أَدْرَكَ بها هذه المعرفة ، ثم دعاهُ إلى العُبُودَةِ الأَمْرُ والنَّهْيُ . فجاءَته الشهواتُ الموضوعةُ في نفسه ، فثقَّلَتْه وجَمَحَتْ به في نَهْيِه ؛ فإذا جاهد في ذات اللهِ حقَّ جِهَادِه شكرَ اللهُ له ذلك ، وزَادَهُ في الحياة ، ليخفِّفَ أَوَامِرَه ، ويَكْبَح بلجامه في وَقْتِ جمُوحه في المناهي ؛ وذلك قوله تعالى[1] : (يـأَيُّها الَّذين آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكم)[2] .

فأَعَلمه بعد حَيَاةِ الإيمانِ أَنْ يُحْيِيَه بالطاعات ؛ فإذا أَطاع اللهَ في الأَمْر والنهى شَكَرَ لَهُ ذلك ؛ فزاده حياةً . ليقطعَ قَلْبه عن العلائق وهَوَى النفس شُكْرًا له ؛ وهو قولُ اللهِ عَزّ وجل[3] : (واللهُ شُكُورٌ حَلِيمٌ).

وقد قال مالكُ[4] بن دِينار رَحمه الله : وجَدْتُ في بعض الكتب : إنْ سَرَّكَ أَنْ تَحْيَا وتَبْلُغَ اليقين فاحْتَلْ في كلِ خير أَنْ تَغْلبَ شهواتِ الدنيا ، فإنه من يَغْلِب شَهَواتِ الدنيا يَفْرَق[5] الشيطانُ من ظِلِّه

(١) سورة الأنفال ، آية ٢٤

(٢) الاستجابة : الإجابة ؛ أى أجيبوا . والمعنى : استجيبوا إلى مايحيي دينكم ويعلمكم . أوإلى مايحيي قلوبكم فتوحدوه ، وقيل : استجيبوا للطاعة وماتضمنه القرآن من أوامر ونواهي ، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية .

(٣) سورة التغابن ، آية ١٧

(٤) هومالك بن دينار الزاهد ، روى عن أنس وغيره ، قيل إنه مات سنة سبع وعشرين ومائة (تهذيب التهذيب) .

(٥) يفرق : يخاف .

فإذا حَيِيَ القَلْبُ حياةً تبلغُ عِلْمَ اليقين صار مِنَ السابقين المُقَرَّبين ؛ فهناك يَحْيَا بالله ؛ فَعَايَنَ يَبَصَرِ قَلْبه آثَارَ القُدْرة ، وآثارَ الرُّبوبيّة ، وبهاءَ الدين ، وزينةَ العبودية ، وبَهْجَةَ المنَّة [١] ، وتَرْبط بلحظه إلى مَجَالِس النَّجْوَى وبهجةِ المَرْعَىّ بين يَدَيْه ؛ فحياةُ الأَوَّلِ حياةُ الفضة ،وحياة الثانى حياةُ الذَّهب ، وحياةُ الثالث حياةُ الجوهر .

والفضةُ إنما بَرِيقُها مِنْ حياتها ، وبرَيقُ الذهب من حياته أَقْوىَ من الفضة وأشَدُّ بَرِيقا ؛ وبَرِيقُ الجوهر من حياته ، وهى أَقْوَى من الذهب ؛ فكلٌّ واحد من هذه الأَشياء قد احْتَظَى [٢] من الحياة ؛ ولكن كلٌّ واحد أَقوى من الآخر .

فالجوهرُ يُضِىءُ البيت من نوره ، والذهبُ والفضةُ ليس لهما ذَلك ؛ فمَنْ كانت نفقَتُه فى ضيافة المعرفة من الدَّرَاهم فصيَانَتُها والإحسانُ إليها لاَتَخْلُو من الدَّنَسِ والأَوْساخ والتَّضْيِيع والتَّفْرِيط .

ومَنْ كانت نَفْسُه فى ضيافةِ المعرفة من الدَّنانير يسلمُ من الأَوساخ والأَدْنَاس ، ولكن لا يَخْلُو من الغُبَار .

ومَنْ كانت نفقَتُه فى ضيافة المعرفة من الجَوْهَر سلِمَ من الغُبَار وجميعِ مايُتَّقَى منه ويُصَان عنه ، ولم يزل طَرِيًّا نَقِيًّا ؛ لأَنَّ قَلْبَه

(١) المنة : النعمة .

(٢) احتظى : حظى ، وكان له حظوة وحظ .

حَيِيَ بالله بحياةِ الجوهر ؛ فذلك قولُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : الإيمانُ حُلْوٌ نَزِهٌ ، فَنزِّهُوه .

أحب القلوب الى الله :

وعنه صلَّى اللهُ عليه وسلم : إنَّ للهِ تعالى أَوَانى فى الأَرض ، ألَاوهِيَ القُلوب ، وأَحَبُّ القلوبِ إلى الله تعالى أَصْفَاها وأَرَقُّها وأَصْلَبُها .

فأَصْفَاها لله تعالى ، وأَصلبُها فى ذاتِ الله تعالى [٧٧] ، وأَرقُّها للإخوان

وقال فيما يَحْكِي عن ربِّه تبارَكَ وتَعالى : ولستُ أَسكُنُ البيوتَ ، وأَىَّ بيت يَسَعُنى ، والسمواتُ حشْوُ كرسيى ، وإنى فى قَلْبِ الوَادِع الضعيف ليِّن القلب .

فحيَاةُ القلبِ مِنْ هذا الذى ذكره : إنى فى ذلك القلب .

مثـل التقـوى

مثَلُ التَّقْوى مثَل رجل أَصاب جوهرةً نفيسةً قيمتُها بيوتٌ من الدنانير ؛ أو ثوباً فيمتُه أَلْفُ دينار ، أَو جاريةً لها ثمنٌ غال ؛ شخَصَتْ إليها الأَبصارُ مَنْظَرًا ومَخْبرًا ؛ أو صُرّةَ مِسْك ذَكِيّ [١] الرِّيح ؛ أَو بَازِىّ [٢] طيرٍ أَبْيَض تامّ الجثَّة مقدار الدرهم التامّ أَهداه إليه ملك عال .

فأَنْتَ تُبْقِى على الجَوْهَرة مخَافةَ السُّرَّاق [٣] ،ولا تعرِضها إلاَّ على

---

(١) مسك ذكى : ساطع ريحه (القاموس) .

(٢) البازى : ضرب من الصقور (القاموس) . (٣) السراق : جمع سارق .

مَنْ عنده مِنْ فنون الأموال ، مخافةَ أنْ يُدَلِّسها[1] فيَقْبض منه الجوهرة ، ويُبدِّلها بالزجاج شبهة ، ولا يعرف هو الجوهرَ من الزجاج ؛ فهى عندكَ مكنونةٌ فى اللّفائف والحُقَّة[2] والدُّرْج[3] ، وتَقِيها من الغُبَار ومِنْ كل آفَة ونحوها .

وكذا تَتَّقِى على الثوب اتِّقَاءَ مِثْله من اللَّفِّ والطَّىّ ، ووَضْعه فى الصندوق ، ورَبْطه فيما بين اللَّوحين .

وتَتَّقِى على صُرَّة المِسْك فلا تَفْتَحها لئلا يذهبَ رِيحها ، ولا يَصِل إليها غدّار ، فتُعوَّض من كبد الضأْن وغيره .

وتَتَّقِى على الجارية ، فتحبسها ، وتصونُها ، وتُلْبِسها لباس مِثْلها ، وتُطْعِمها طعامَ مِثْلها ، وتمنعها عن الخروج والبُروز[4] لئلا يطَّلعَ عليها أَحَدٌ ، أَو يحبّها ظالم ؛ فيخرجها من يَدك ، ويَبْقَى قَلْبُك مُعَلَّقا بها مع الصُّراخ والعَوِيل .

وتَتَّقى على البازِىّ مِنْ كل آفَة لئلا يَنْكسرَ جَنَاحُهُ ، فيعجز عن الطيران ، وإنْ قَصَّرْتَ فى بعض تَرْبِيته ومُدَاراته لايَأْلَف ، وتركَ الإلْفَ ، ويَطير ويَتْرُكك خَاليا ، فلا تراه أَبدًا .

---

(١) مكانها كلمة غير مقروءة فى (ب) .

(٢) الحقة : وعاء من خشب .

(٣) الدرج : ما يحفظ فيه الشئ : السفط .

(٤) البروز : الظهور .

فانظر كيف تَتَّقى على الأَشياء ، وكيف حذَرُك وحرَاستك لهذه الأَشياء ، وتلطفك بها ،وصِيَانتُك لما تخوّف عليهم[1] من الآفات ، وضَيَّعْتَ حراسةَ أَعظمِ الأَشياء قَدْرًا ، وأَنْفَسها خَطَرًا[2] ، وهو مُخُّ التَّقْوَى[3] ، فقد عظُمَت حجةُ اللهِ عَليكَ ؛ لأَنَّ هذا القلبَ خزانَةُ اللهِ تعالى وضعَ فيها جوهرًا نفيسا لايُحَاطُ بمبلغ ثمنه ، وهى المعرفةُ .

فإِنْ نظرتَ إلى نَفاستها وقَدْرِها لم تَقْدِرْ أَنْ تُحيط بثمنها علْما ، ولا ائْتَمَنْتَ عليها أَحدًا .

وإن نظَرْتَ إلى بَهَائها[4] ونُورها اتَّقَيْتَ عليها من كل دُخُان من الشهوات لئلا يَلِجَ[5] الخزانةَ فيدنِّسها .

وإِنْ نظرت إلى رِقَّتِها اتَّقَيْتَ عليها من كلِّ صدْمَة مِن قِبَل النفس أَنْ تَصْدِمها .

وإِنْ نظَرْتَ إلى طِيبِ رِيحها اتقيتَ عليها من كل شىء من المَعَاصى .

وإن نظَرْتَ إلى اصطبارها الطاعات فتَشْتَئ[6] قلوبهم بالدعاء إلى الله تعالى اتقَيْتَ عليها من كلِّ تَضْييع ؛ تربّيها وتعاهدها بما

---

(١) هذا بالأصول

(٢) أنفسها : أغلاها . خطرا : قدرا .

(٣) المخ : خالص كل شىء .

(٤) البهاء : الجمال .

(٥) يلج : يدخل .

(٦) اشتأى : سبق .

يتعاهد مِثْلها تربية مِثْلها ، لئلا تَطير عنكَ ؛ فلا يَبْقَى معك سِوى معرفةِ الفِطْرة ، معرفة الكُفَّار .

فمنّ اللهُ تعالى على الموحِّدين بمنَّة [1] عظيمة أنْ أعطاهم نورَ الهدايةِ حتى وجدوه . ونطَقُوا بكلمة الشهادة ، وأمرهم بأنْ يتَّقُوه على ما أَعْطَاهم ؛ وهو النورُ الذى أَشرقَ فى قلوبهم ، ثم مِنْ قُلوبهم إلى صُدورهم . فيَجْعلونه فى وقايةِ الحراسة ، لئلاَّ يَصِلَ إليه ماليس له بأَهلٍ ؛ فإن المعرفةَ قد أُيِّدت بالعَقْل والعلم ، والفَهْم والفِطْنَة ، والحِفْظ والذِّكْر والذِّهن . .

فهذه الأَشياءُ حولَها ، قطعَ اللهُ بذلكَ أَلسنةَ الآدميين عن نَفْسه ، لئلاَّ يكونَ لأَحد عليه حجَّةٌ لإتيان معاصيه أَو سوءِ مايأْتيه؛ فبِقُوَّةِ هذه الأَشياء يحرسُ معرفتَه ، ويَذُبُّ [2] عنها مكْرَ النَّفْسِ ودَوَاهيها ، وكَيْدَ العدوِّ حتى تصير المعرفةُ فى وقَاية منها.

وأَمر بالتقوى لقوله سبحانه وتعالى [3] : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاته ولا تَمُوتُنَّ إلا وأَنْتُم مُسْلِمُون) [4] .

---

(١) منة : نعمة .

(٢) يذب : يدفع .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٠٢ .

(٤) روى البخارى ، عن مرة ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حق تقاته ، أن يطاع فلا يعصى ، وإن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . .

التقوى على سبع جوارح :

ففَهِمُوا بهذه الأَشياء أَنَّ التَّقْوَى على سبع جَوَارِح : العينان، والأُذنان ، واليَدُ ، و اللسان ، والرِّجْل ، والبطن ، والفَرْج ؛ فلا يستعمل واحدًا منهم [1] إلا بما أُطلق له ، وأُذِنَ له فيه .

فأَقْبَلُوا إلى حفْظِها ، فوجدوا أَنفُسَهم بين أَمرين : بين أَمرٍ هو طاعةٌ ، وبين أَمْرٍ هو معصيةٌ ، وفيه عَيْب ؛ لأَنه عمل على غَفْلَة فيما لم يُؤْذَنْ له فيه ، فله فيه عُقوبةٌ. ولو أَتى بمَا أُذِنَ له ولكن على غَفْلة بلا حِسْبَة ولا نِيَّة رُمِيَ بها على وَجْهِه ، وخاب عن ثَوَابه وجَزَائه .

وقد أَمر بأَن يُتَّقَى حقَّ تُقَاته ؛ قال الله تعالى [2] : (يـأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاته) ، ففَهِمَ العبادُ عنه أَنَّ حقَّ تُقَاته أَنْ يُطِيعَ اللهَ فلا يعصى ، ويَتَّقِى عن المعاصى ، وعن كل عمل على غَفْلَة بلا حِسْبةِ ولا نِيَّةِ ؛ فصار التَّقْوَى على ضَرْبين : ضرب منها التقوى عن المعاصى ، وضَرْب منها التقوى عن عَمَلٍ على غَفْلَة بلا حِسْبَةٍ ولا نيّة ؛ فذَا تقوى الظاهر ، وذى تقوى الباطن ؛ فالعبادُ أَكثَرهُم أَقْبَلُوا على تَقْوَى الظاهر حتى أَحْكَمُوه ، وكَفُّوا جَوَارحَهم عن المناهى ، فلما صارُوا إلى تَقْوَى الباطن — وهو أَلَّا يعملوا شيئا — مِمّا أُذن لهم فيه على غَفْلة حتى يكونَ لهم نِيّة وحِسْبة اشتدّ عليهم ذلك وعَجَزُوا عنه ؛ لأَنَّهم فى غطَاءٍ عن ذلك .

---

(١) هذا بالأصول .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٠٢

وقد قال اللهُ تعالى [١] : (فَاتَّقُوا اللهَ مااسْتَطَعْتُم ، واسْمَعُوا وأَطِيعُوا ، وأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكم [٢]) . أى فى الفرائض ، فبَقِيت العامَّةُ على هذا التقوى الظاهر - وهو حفْظُ الجَوَارِح السبع ، وعَمَلُه الذى أُذن له فيه فى غفلة ؛ ففى كلِّ عَمَل عُيوبٌ موجودة ، وزِينةُ الأَعمال مفقودةٌ ، ومع فَقْدِ الزِّينة العيوبُ موجودة. ووَجِدَتْ [٣] طائفةٌ من العامة وَجْدًا شَدِيدًا أَنْ رأَوْا عامَّةَ أَعمارِهم من الأَكْلِ والشرب واللّبس ، والكلام ، والسكوت ، والمَشْى والذهاب ، والنظر والاستماع ، بلا نِيَّة ولاحِسْبَة ، فلا يجدون غَدًا فى ميزان الحقِّ منه شيئا فيُثَابون عليه ؛ ولذلك قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم [٤] : الأَعمالُ بالنِّيّات .

(١) سورة التغابن ، آية ١٦

(٢) قال القرطبى (١٨ - ١٤٥) : لاخلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك .

والمعنى : فاتقوا الله أيها الناس ، وراقبوه فيما جعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام ؛ فتتركوا الهجرة . ماastطعتم ، يعنى وأنتم للهجرة مستطيعون .

واسمعوا وأطيعوا : اسمعوا ماتوعظون به ،وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه .

وأنفقوا : قيل : هو الزكاة . وقيل : هو النفقة فى النفل . وقيل : هو النفقة فى الجهاد . وقال الحسن : هو نفقة الرجل لنفسه .

(٣) وجدت : غضبت .

(٤) صحيح مسلم : ١٥١٥ ، وروايته فيه : إنما الأعمال بالنية ، وإنما لكل امرئ مانوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه .

=

وقال أيضا : لاعَمَلَ لمن لا نيَّةَ له ، ولا أَجْرَ لِمَنْ لاحِسْبَةَ له ؛ فحزن المؤمنون على تعطيل العُمْرِ على هذا الوَجْه ، فرَحِمَهم اللهُ على ذلك ، فقال جَلّ ذكْرُه [١] : (يـأَيُّها الَّذين آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُم فُرْقَانًا ويُكَفِّرْ عنكم سيِّئَاتِكم ويَغْفِرْ لكم ، واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم [٢]) .

فقال أهلُ التفسير : أىْ مَخْرَجا ، ولكن هذه كلمةٌ مُبْهَمَة ، ولم يُفَسِّروا ماالمَخْرج ؟مِنْ أين ؟ وإلى أين ؟ وإنما المَخْرَج من ظُلْمةِ ودُخان الشهوات بالأَنوار التى يُعْطى .

وقال جَلَّ ذِكْرُه فى مَوْضِعٍ آخر[٣] : (يـأَيُّها الذين آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثيرًا . وسَبِّحُوه بُكْرَةً وأَصيلا . هُوَ الَّذي يُصَلِّى عَلَيْكُم ومَلَائِكَتُه [٧٨] لِيُخْرِجَكُم مِنْ الظُّلماتِ إلى النُّور

= وقال فى شرحه : أجمع المسلمون على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده وصحته . قال الشافعى وآخرون : هو ثلث الإسلام .

(١) سورة الأنفال ، آية ٢٩

(٢) فرقانا : فصلا بين الحق والباطل .

والمعنى : إذا أتقى العبد ربه ، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وترك الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات ، وشحن قلبه بالنية الخالصة ، وجوارحه بالأعمال الصالحة ، وتحفظ من شوائب الشرك الخفى والظاهر بمراعاة غير الله فى الأعمال والركون إلى الدنيا ، وبالعفة عن المال — جعل له بين الحق والباطل فرقانا ، ورأفة فيما يريد من الخير إمكانا .

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣

وكانَ بالمُؤْمنين رَحيمًا [١]) .

ولما أَقبلوا على التَّقْوَى الظاهر ، وهو حِفْظُ الجوارح [٢] عن المَنَاهى ، وأَحْكَمُوا هذه التَّقْوى . ثم ذكروا ذِكْرًا كثيرا عند كل نِعْمة وبُؤْس . وسَبَّحُوه بُكْرةً وأَصيلا . ليَعْمُروا ماخرب منهم . وليَتَداركُوا بذلكَ التسبيح أَدْنَاسَ العُيوبِ . ويتطهَّروا ، وصَلَّتْ عليهم الملائكةُ ؛ وصلاةُ الملائكة أَنْ تَسْتَغْفِرَ لهم من العيوب ، وصَلَّى عليهم الربُّ جلَّ وعَلَا ، وجعل لهم مَخْرجًا .

فأَمَّا صلاةُ الربِّ جلَّ جلاله فأَن يسأَلَ لهم بنفْسه من نَفْسه نُورَ الفُرْقَانِ حتى أَوْجَبَ لهم ذلك ، وهو نورُ الفُرْقَان ؛ فعندها أَخْرجهم من ظُلمَاتِ النَّفْس إلى نُورِ اللهِ تعالى ؛ وإنما سُمِّى نُور الفُرْقَانِ بهذا ، لأَنه نورٌ يَفْرِقُ بين الحقِّ والباطل ، وقد ذهبت الغَفْلةُ ، وإنما الغَفْلةُ حِجابٌ أَصْلُه من شهواتِ النفس ، وهى

(١) اذكروا الله : أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه ، ويكثروا من ذلك على ماأنعم به عليهم ، وجعل تعالى ذلك دون حد لسهولته على العبد ، ولعظم الأجر فيه .

وسبحوه بكرة وأصيلا : اشغلوا ألسنتكم فى معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير .

هو الذى يصلى عليكم : الصلاة من الله على العبد هى رحمته له وبركته لديه . وصلاة الملائكة دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم .

ليخرجكم من الظلمات إلى النور : من الضلالة إلى الهدى .

(٢) الجوارح : الأعضاء .

كالدُّخَانِ فى الصَّدر ؛ فهى ظُلمات تَحْجُبُ عَيْنَى الفؤادِ عن مُعَايَنَةِ الحقِّ ، حتى يَنْفِىَ الباطلَ الذى يَجِىءُ من النفس إلى الصَّدر ، فيتراءى لعينى الفؤاد . يُريد أنْ يُمِدَّه بذلكَ إلى نَفْسه ، فإذا هو باطلٌ لايُثَابُ عليه غَدا . فإذا أخرجه اللهُ تعالى من هذه الظلمات بِصَلاته عليه وإيجابه له هذا النُّور ، واستغفرت له الملائكةُ لتلكَ العيوب ، حتى إذا وَلج [١] هذا النُّور ، فوجد مكانًا طاهرًا مُقَدَّسا ، فأَشرقَ النورُ ، واستقرَّ فى الصدر — فعندها اسْتَوَى له الأَمْرَان ، ونال كِلَا التَّقْوِيَيْن : الظاهرِ ، والباطنِ ؛ فلا يَعْمَلُ شيئا إلا على ذِكْر ونِيَّة وحِسْبَة . دقَّ ذلك الشىءُ أو جَلّ [٢] ؛ فأدرك ذلك النورُ القَلْبَ من الصدر فى أَسْرَعَ من اللحظة ، لِعظَمِ ذلك النورِ ، حتى يَرْتَقِىَ من القلب إلى مَحلِّه مِنَ العَلْياء ، حتى تَصير الأَشياءُ كلُّها له وبه . وهم أَصحابُ القَبْضَةِ ، فبه يَنْطق ، وبه يُبْصر ، وبه يَسْمَع ، وبه يَبْطش ، وبه يَعْقِل ، وهو قولُ اللهِ جَلّ ذكره [٣] : (أَلَا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُون [٤]) .

---

(١) ولج : دخل .　(٢) قل أو كثر .　(٣) سورة يونس ، آية ٦٢

(٤) لاخوف عليهم فى الآخرة ، ولا هم يحزنون لفقد الدنيا . وقيل : لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ أى من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضى عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن .

قال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من عباد الله عبادا ماهم بأنبياء ولا شهداء . تغبطهم الملائكة والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى . قيل: يارسول الله ، خبرنا من هم؟ وما أعمالهم فلعنا نحبهم. =

ثم وصفهم مَنْ هم ، وما عَملوا ؛ فقال [1] : (الذين آمَنوا وكانُوا يَتَّقُون) [2] .

فهؤلاء طَبَقةٌ آمَنُوا به حقًّا ، فاطمأَنَّتْ قلوبُهم بأَحكامِه عليهم من المحبوب والمكروه ؛ رَضُوا به ربًّا ، ورَضُوا بأَحكامه عليهم حُكْما ، وذَلُّوا لِرُبُوبيَّته خُشَّعا ، وآثروهُ [3] على أَنفسهم حَيَاءً ، وبذَلُوا لَهُ نفوسَهم جودًا وسَمْحًا [4] . وكان تَقْوَاهم على المَشَاهد كما ذكر فى أَوَّل الآية من قوله عزَّ وجل [5] : (وماتكُون فى شَأْن وَمَا تتْلُو منْهُ مِنْ قُرْآنٍ ولا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ؛ إذ تُفيضون فيه) [6] ؛ فصارت شهادَتُه عند كلِّ عَمَل يُفيضون فيه مُعَاينة القَلْب . فهابُوا اللهَ هيبةً ماتَتْ لها نفوسُهم مَوْتًا ، وأَحَبُّوا اللهَ حُبًّا حَيِيَتْ قلوبهم به حياةً وعُبُودةً فى كلِّ لحظة ؛ فصارت أَنْفَاسُهم ولحظاتُهم عبادةً ، وكل حركة منهم طاعةً ، ووَجَدُوها غدا فى

= قال : هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها ؛ فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . ثم قرأ : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(١) سورة يونس ، آية ٦٣ . (٢) أى يتقون الشرك والمعاصى .

(٣) آثروه : فضلوه .

(٤) سمحا : سماحاً ، وجوداً ، وكرما .

(٥) سورة يونس ، آية ٦١

(٦) كنا عليكم شهودا ؛ أى لعلمه . تفيضون فيه : أى تأخذون فيه . يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل إذا اندفع فيه .

ميزان الحقّ ؛ فهذا تَقْوَى الباطن تَقْوَى الأَوْلياء .

مثل عمال الله

مثَل عُمَّال اللهِ تعالى مثلُ مَلِك دَعَا خيّاطا فقال له : اقْطَعْ هذا الثوبَ وخِطْهُ بين يَدَىّ ، فلم يَأْلُ هذا الخيّاطُ [١] جُهْدًا فى إظهار حِذْقِه [٢] وخِفَّةِ يده . فلما غاب عنه ترك خِفَّةَ اليَد ، وحُسن الابتداء ، ووَجَازة [٣] الفِعْل ؛ ولكن أَحْكَمَ الخياطة وأَتْقَنها وزَيَّنها ، لأَنه ذَاكرٌ للعَرْضِ عليه .

والآخر رجل دَعَاه المَلكُ فقال : اذْهَبْ بهذا الثَّوْبِ فاقْطَعْه وخِطْه ، وأَنفِذْه إلى فلان الرَّاعى ؛ فإذا غاب عنه رَفَع عنه بَالَه . فكيفما قطعه وخَاطَه جوَّزَه ؛ لأَنه لم يشعر برُؤْيَة الملك ، ولاذَكَرَ العَرْضَ عليه ، وإنما به ارتفاعُ العمل ؛ فيقول : قد عملت . وآخذ الأُجرة .

وإنما جرَّأَهُ على ذلك غَفْلَتُه [٤] عن رُؤْيَةِ الملك وعن العَرْضِ عليه .

فكذا عُمّالُ اللهِ تعالى على ثلاث طبقات : فعامل يَعْمَلُ للهِ كأَنه

---

(١) لم يقصر .

(٢) حذقه : مهارته . يقال : حذق الرجل فى صنعته : مهر فيها ، وعرف غوامضها ودقائقها .

(٣) سرعة الفعل .

(٤) فى ب : غفلته عنه فى رؤية الملك .

يَرَاهُ ، وعامِلٌ كأنه يَراهُ اللهُ ، وهو قولُه صلى اللهُ عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : الإحسانُ أَنْ تعُبدَ اللهَ كأَنَّكَ تَراه ، فإِنْ لم تكن تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ .

فقال جبرَيل صلوات ُ الله عليه : فإذا فعلتُ هذا فأَنَا مُحْسنٌ ؟

قال : نعم . قال : صَدَقْتَ فهى دَرجة المحسنين .

فالأَوّل يعمَلُ للهِ كأنه يَرى رَبَّه مشاهدةً ، والآخر يعْمَل كأَنه يراه ربُّه .

فالأَول قد أَخذته رُؤيتُه ربَّه . والثانى قد أَخذته رُؤْية ربِّه إياه .

فالأَوّل أَعلى من الثانى ، لأَنه قد كُشِفَ له الغِطَاء ، ورَفِعَ الحجابُ فيما بينه وبين رَبِّه ؛ وهو قولُ ابن عمر رَضِىَ الله عنه حين كلَّمه عُرْوَة بن الزُّبير رَضِىَ اللهُ عنهما فى الطَّوافِ فلم يُجبْهُ إلى أَنْ قال ما قال . فلما خرج قال : إِنَّكَ قد كلَّمْتَنِى وإِنَّا كُنَّا نَتَخَايَلُ[1] اللهَ بَيْنَ أَعْيُننا .

ورُوِى عن مالك بن دِينار رَحِمَه الله أنه قال : مكتوب فى التوراة : ياابْنَ آدَمَ لاتَعْجزنَّ أَنْ تَقُومَ بين يدىّ فى صلاتِك باكيا ، فإنى أنا اللهُ الذى اقتربتُ لقَلْبكَ ، وبالْغَيْب رأيتَ نُورى .

فهذا لمن رفع له الحجاب حتى رأى نورَه وهو أَعْلَى .

---

(١) نتخايل : نتخيل .

والثانى رُفِع الحجابُ له بقَدْرِ ما رأى أنه ينظُرُ إليه ويراه ولم يَعْدُ .

وأمّا سِوَى الرُّؤْية وهو قولُه صلى اللهُ عليه وسلم : فإن لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَراك - فهذا الثانى يعْمَلُ وقَلْبُه إلى العَرْضِ الأَكبر ؛ وهو قولُه تعالى [١] : (يَوْمئذٍ تُعْرَضُون لاتَخْفَى مِنْكُمْ خافِيَة [٢]) .

فيجهد هذه وليس له زِينَةُ العَمَل ؛ إنما له إحكامه ؛ فهذا صادقٌ ، والأَوّلُ صِدِّيق ؛ هذا محجوب ، والأول من وراء الحجاب ، قد انكشف له الغِطَاءُ فبه يعمل .

من يعمل على الغفلة :

وعامل ثالث يعمَلُ على الغَفْلَة ، ليس على قَلْبه ذِكْرُ المشاهدةِ ، ولا ذِكر العَرْض ؛ إنما هى عادةُ النَّفْسِ تعملُ بأَعمالِ البِرِّ على العادة والجُزَاف [٣] ، وعلى تَرائى الثَّوَابِ من غير تصحيح ولا طَهارة القلب ، ولاتَتَوَقَّى ؛ فأَعمالُه تُوضَع فى الخزائن ليُحَصَّلَ [٤] ماقى

(١) سورة الحاقة ، آية ١٨

(٢) يومئذ تعرضون ؛ أى على الله . لاتخفى منكم خافية ؛ أى هو عالم بكل شئ من أعمالكم .

(٣) أصل الجزاف : بيع الشئ لايعلم كيله ولا وزنه . ويقال لمن يرسل كلامه إرسالا من غير قانون : جازف فى كلامه ، فأقيم نهج الصواب مقام الكيل والوزن . والمراد يعمل من غير هدف ، ولا دفع ؛ وإنما عمله بطبيعته .

(٤) حصل مافى صدره : ميز مافيها من خير وشر .
أو هى يحصل -- بضم الصاد : أى يظهر .

صدْره يَوْمَ العَرْض ؛ فإنّ الله تعالى كان شاهدًا عليه فى وقْت عمله ، لايَخْفَى عليه شَىْءٌ ؛ فقد قال اللهُ جَلَّ ذكره [١] : (يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُور . واللهُ يقْضِى بالحَقِّ والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِه لا يَقْضُونَ بِشَىءٍ إنّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير [٢]) .

والصادقُ يُعْرَض على اللهِ تعالى حين ينظُرُ إليه ، فإذا وقعت نظرَتُه إليه أَشْرقَ لنظرته نورُ العمل ، فازداد نُورًا ، وازدادَ قلْبُ العاملِ فى الأَرض نُورا ؛ لأَنّ الأَعمالَ تُرْفَعُ إلى اللهِ تعالى ، والنيةُ فيه باقيةٌ ، وهى أَصْلُ العَمَلِ التى منها بَدأَ العَملُ ؛ فمضى العملُ إلى اللهِ تعالى .

وأَصْلُ العَمَلِ باقٍ فى القَلْبِ متَّصِلٌ بالعمل [٧٩] ، فإذا وقعت نظرةُ اللهِ على العَمَلِ فأَشرقَ وازْدَاد نُوراً خالصاً ، وتأَدَّى ذلك إلى هذا الأَصْل فأَشْرَق القلْبُ بما تأَدَّى من النُّورِ وهى النية — فهذا شأْنُ الصدِّيقين والصادقين ، وهذا تفسير القبول .

---

(١) سورة غافر ، آية ١٩ ، ٢٠

(٢) خائنة الأعين : الأعين الخائنة . قال ابن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر . وما تخفى الصدور : وماتكنه وتضمره . والله يقضى بالحق : يجازى من غض بصره عن المحارم ومن نظر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها . والذين يدعون من دونه : يعنى الأوثان . لايقضون بشئ ؛ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك .

وإنما قيل قبول ؛ لأنه عُرِض على اللهِ فيكون في قُبَالةِ[1] وَجْهه الكريم حيث نَظَر إليه ، ومالم يُعْرَض عليه ووُضع في الخزائن فذاكَ لتَخْليط فيه حتى يُحَصَّلَ يومَ القيامة ، وإنما يظهر قبولُه وردُّه يَوْمَ القيامةِ ؛ وهذا الذى عُرِضَ قُبَالَةَ وَجْهِهِ ظهر قَبُولُه في الحال .

مثل الواعظ

مَثَلُ الواعظِ مثل رجلٍ ينفُخُ في كِيْرٍ[2] له ، فعلى قَدْرِ قُوَّةِ المِنْفَخ[3] وقُوَّة الريح التى فيه تَصِلُ النَّفْخَةُ إلى تلك الجَمَرات حتى تتوقَّد تلك النارُ ، وتُحْمِي جُدرانَه مِنْ حول تلكَ النارِ ، ويَتَلَظَّى[4] ويُضِيءُ ذلك البيتَ ، ويذُوبُ مافى الكُورِ[5] ذهبًا كان أو فضة أو نُحاسًا أَو حَدِيدًا حتى يَزُولَ عنه خَبَثُه[6] ، وتَبْقَى صَفْوَتُه[8] ،

---

(١) قبالته — بضم القاف : تجاهه (القاموس) .

(٢) الكير : زق الحداد الذى ينفخ به ، ويكون من جلد غليظ ، وله حافات ، وجمعه كيرة وأكيار .

(٣) المنفخ : المنفاخ ، آلة النفخ .

(٤) يتلظى : يتوقد ، ويتلهب .

(٥) في الأصول كلها : الكير وزاه تحريفاً .والكور : مجمرة الحداد وقد سبق معنى الكير .

(٦) خبث الحديد والفضة : مانفاه الكير إذا أذيبا ، وهو مالاخير فيه (اللسان — خبث) .

(٧) صفوته : خالصه .

فإنْ كانت المِنْفَخة [١] صَغيرةً لم يكن لنَفْخه قُوّةٌ تؤدّى إلى الجَمْرة ، فالجمرةُ بحالها مع الرَّماد والخُمود ؛ وإنْ كانت المِنْفَخةُ كبيرةً ولكن فيها خُروق ، فكلما مَدَّها حتى تَمْتَلئ من الرِّيح ، فإذا عصرها خرجت الريحُ من تلك الخُروق ولم يَتَأَدَّ إلى الجمرةِ منه إلاَّ قليلٌ ، فهى بحالها جامِدةٌ ، ذاتُ رَماد ، لا تتلظَّى [٢] ولا تُضِئُ البيتَ . فإذا لم يَكُنْ بها خروق ، والمِنْفَخةُ كبيرةً ، والنافِخُ ذاقوةٍ وصلت النفخةُ إلى الجَمْرَةِ فتوقَّدَت و أَضاءت البيتَ ، وحَميت الجُدْران ، واستحرّ [٣] الوَقود ، واستمدَّ ، وذَابَ ما فى الكُور [٤] ، ورمَى بخَبَثه ، وصفَّى الباقى — الذهبَ والفضة ؛ فصارت نُقْرةً صافية تصلحُ للدَّراهم والدَّنانير ؛ فإذا ضربت كلَّ شىء يروجُ فى الأَسواق .

فالوا عِظُ إذا وعَظَ مِنْ قَلْبِ عالمٍ لكن لم يَكُنْ لعلْمِه سلطانٌ لم تَصِلْ إلى القلوبِ نَفْخَتُه ، والإيمان فى القلوبِ مثلُ الجَمْرة ، والجَمْرةُ إذا بَقيت فى الشهوات عَلاَها غُبارُ الشَّهَوات ورَمَادُها ، فإذا لم يَصِلْ إلى القَلْبِ نَفْخَةُ سلطانِ الوَعْظِ — مثْلَ النَّفْخ إذا لم يَصِلْ إلى الجَمْرَة بقيت — ذاتَ رَمادٍ ولم تتوقَّد ، وإنما يَستمع إلى

---

(١) المنفخة : آلة النفخ .

(٢) لاتتلظى : لا تتقد ولا تتوهج .

(٣) استحر : اشتد .

(٤) فى الأصول كلها : الكير ، ونراه تحريفا . والكور : مجمرة الحداد . وقد سبق معنى الكور فى الصفحة السابقة .

ذلك أُذُنُ القلبِ ، واتَّعَظَ به ساعةً من النهار ، ثم يَدْرُس [١] ذِكْرُه ويُعَطِّل ؛ لأَنَّ القلبَ لم يَعِهِ ؛ لأنه لم يَكُنْ له سُلْطانٌ ، فتنْفُذَ الأُذنُ إلى باطنه ، فتمتزج بنورِ الإيمان ، فيشتمل عليه الإيمانُ ، فذَاكَ وِعَاءُ القلب للموعظة .

فإذا كان لعِلْمِه سُلْطانٌ ولكن لم يكن لقَلْبِهِ سلطانٌ فوعَظَ به ، ونظر إلى نَفْسه فى ذلك الوَعْظ ، فرأى نَفْسَه فوعظها بمنزلةِ المِنْفَخ الكبير الذى فيه خُروق ، فخرج الرِّيحُ من تلكَ الخروق ، ولايَصِلُ إلى الجَمْرَة إلاَّ قليلٌ منه ، والغبارُ والرَّمَادُ باقٍ على الجَمْرَةِ والبيتُ مظلم ، ولا تَحْمىَ الجُدْرَان ، ولا يَذُوبُ مافى الكُورِ ، فلا يُزايلُ [٢] الخَبَثُ من ذلك الذهب والفِضَّة .

فإذا كان عِلْمُ الواعظِ ذا سلطان وعن قَلْبٍ ذى سلطان ، ناظِرًا بنُور ذلك السلطان إلى جلالِ اللهِ الذى منه بَدَا [٣] ذلك السلطان فى قلبه طارت عَنْ عَيْنَى فؤاده رُؤْيةُ نفسه ، وقطعَه شغْلُه بجلالِ اللهِ عن الالتفاتِ إلى النَّفْس ، وزينها فى ذلك يقينُها ، فأَدَّتْ ذلكَ الوَعْظَ مع سُلطانه إلى القُلوبِ ، ورَمَى كلَّ غُبَارٍ وَرَمَاد على جَمْرَةِ الإيمان ؛ لأَنَّ الشهواتِ لابَقاءَ لها مع السلطان .

---

(١) يدرس : يمحى .
(٢) يزايل : يفارق .
(٣) بدا : ظهر .

وإذا أَوْرَدَ القلْبُ سلطانَه على الصدر خافت النفسُ فسكَنَتْ عن تَلَظِّيها ، فانقطع دُخَانُها ، وانكشفت الجَمْرَةُ عن غِطَائها وغُبارِها ، فتلظَّتْ ، وأضاءَ الصَّدْرُ ، واستحرَّ القَلْبُ ، فأَبصرت أَعْيُنُ فُؤَادِ السامعين الذين خلصت إلى قلوبهم النَّفْخَةُ — صورةَ تلك الأَشياء التى وصفَها الواعظُ ؛ فصارت أُمورُ الآخرةِ مُعاينةً على تلك القلوب ، فأَجابت القلوبُ منهم والنفوسُ إلى مادُعُوا إليه ، من الصِّدْقِ والوَفَاءِ للهِ تعالى ؛ فما دام الوَاعظُ بهذه الصفة فإجابةُ القلوبِ له خوفًا وإلقاءً باليدين سلْمًا ؛ لأَنه وصل إلى قلوبهم خوفُ السلطانِ الذى كان فى قَلْبِ الواعظِ ، فصار كالنَّافخ بالكير بالمِنْفَخِ الكبير الذى ليس فيه خروق ، ولكن مع هذا لا يُؤْمَنُ عليهم الارتدادُ على العَقِبَيْن ، والرجوعُ عن هذه الأَحاديثِ إلى إجابةِ النفوسِ ، إذا سكن عنهم الخوفُ دَعَتْهُم إلى فِتْنَةٍ تَعْرِضُ لهم من الشهوات بشىءٍ .

فإذا انتقلَ الوَاعظُ عن هذه الدَّرَجةِ إلى دَرَجة أَعْلَى من هذه حتى وَلَجَ(١) منازلَ المُحِبِّين ، ووصلَ إلى الملك ، واحتظى(٢) من مجالس مَلِكِ الملك ، وشَرِب من الكأْس الأَوْفَى(٣) من شَرَابِ خالقه ، وهو شَرَابُ المَحَبَّة ؛ وهو حُبُّ اللهِ له ، لاحبُّه للهِ ، صار علْمه

---

(١) ولج : دخل .
(٢) احتظى : حظى ، ونال الحظوة ، والحظ .
(٣) الأوفى : الكامل .

ذا سلطان ؛ لأنه يُعَايِن بفؤاده عَمَّا يَنْطِقُ به ؛ فتلكَ الأَنْوارَ سلطانٌ عليها ، فإذا وَعَظ كان وَعْظُه رِيَاحَ مَنَافِخِه [1] مِنْ ملك الأُلُوهة ، ومِنْ ملك الحبِّ ، ومِنْ ملك الله.

وإذا وصلت إلى القلوبِ صارَتْ موعظته قيدًا للقلوبِ ؛ وليس لهذا العَبْد التفاتٌ إلى النفس ، ولا للنفس مَهْربٌ أيضا.

فالأَوّل رِياح مَنَافِخِه [1] من ملك الجَلاَل ؛ فخافت القلوبَ ، ووَجِلَتْ [2] ، وخَمَدتْ شهواتُ النفس من الخَوْف.

فإذا كان حدَثٌ أو فَتْرَة [3] دَرَس [4] هَوْلُ الخَوْف ؛ فأَطْلَعَت النَّفْسُ رَأْسَها ؛ لأَنَّ الخوفَ يسكِّنُ النَّفْس ، ويُخْمِدُ الشهواتِ ، ولا يُقَيِّد.

والحبُّ يُقَيِّدُ الشهواتِ عن طبائعها ؛ فتتضاعَفُ كلُّ شَهْوة من اللذة أضعافا بِحلاوَةِ الحبِّ ، فيتعلق القَلْبُ بتلك الحلاوَةِ ، ويشتملُ عليه ، والتزقت النَّفْسُ بالقلب لِمَا وجدَتْ من الَّلذَّة ، وما يُحيطُ به من نُورِ العظَمة حارسًا للحُبِّ ، حتى لايحدثَ من النفس ، فتترك الأَدَب ؛ وصار القَلْبُ مُقَيَّدًا بحلاوةِ المحبَّة ...

---

(١) منافخ : جمع منفخة ، آلة النفخ .

(٢) وجلت : خافت.

(٣) فترة : ضعف ولين أو انقطاع .

(٤) درس : امحى.

مثل المدعو الى دار السلام

مثَلُ [١] المَدْعوّ إلى دَارِ السلامِ فأَجاب مثَلُ رَجُلٍ دُعِيَ إلى عُرْسٍ فأَجاب ، فلما نَظر إلى نَفْسه رأى فى نفسه هَيْئَةً ؛ فعلم أَنْ ليس له مع هذه الهيئةِ مكانٌ فى ذلك العُرْس ، ولا يُتْرَكُ للدخول ثَمَّة [٢] ؛ لأَنه نَظَرَ إلى شَعر وَسِخ مُلْتفّ برأْسه ، ولحيته غَيَّرها الدخانُ حتى اصفَرَّت ؛ وإلى أَظافيرَ قد طالت ، وبَرَاجِم [٣] قد توَسَّخت ؛ ودَرِنَتْ [٤] ، وثياب دَنِسَة ، وخُلْقان [٥] ، ورائحة مُنْكَرة ؛ ومع هذا كلِّه قد بات فى المَزَابِل ؛ فانْقَطع طَمَعُه من أَنْ يُتْرَك للدخول فى تلك الدار بهذه الهيئة ؛ فكيف يَطمَعُ أَنْ يَدْخُلَ دارَ السلام ودَارَ الجلال مع أَوساخ الذُّنوب وأَدْنَاس العيُوب ، ودَرَنِ الخَطَايا ،

---

(١) فى سورة يونس ، آية ٢٥ : والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. ودار السلام : الجنة . وقال قتادة والحسن : السلام : هو الله ، وداره الجنة .

وسميت الجنة دار السلام ، لأن من دخلها سلم من الآفات . وقيل : دار السلام هى دار السلامة ، فالسلام والسلامة بمعنى . وقال يحيى بن معاذ : يابن آدم ، دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه ؟ فإن أجبته من دنياك دخلتها ، وإن أجبته من قبرك منعتها .

(٢) ثمة : هناك .

(٣) البراجم : رءوس عظام الأصابع من ظهر الكف ، إذا قبض الشخص كفه ارتفعت .

(٤) درن الثوب : وسخه .

(٥) خلق الثوب : إذا بلى ، فهو خلق .

ونَتَنِ [٨٠] المعاصي . وأقذارِ السيئات ؛ وهو يَعْلَمُ أنه حين يُدعى إلى عُرْسِ الدنيا أنه يأخذ مِنْ شَعره ، ويُنقِّي من دَرَنه ، ويَغْسلُ رَأْسَه ولِحْيَته ، ويُقَلِّمُ أظافيره ، ويَغْسلُ ثيابَه ، ويتطيَّبُ ويتزيَّن ؛ فإذا نظروا إليه مع هذه الهيئة أَخَذُوا بيده ، وأَدخلوه ، أجلسوه على الصَّدْرِ ، ورَقُوا [1] به على معالى الوَسائِد [2] ؛ وصاحبُ العُرْس عالم بما كان فيه مِنْ هيئة بالأَمْس . فيعلم أنَّ هذا إنما هَيَّأَ [3] لعُرْسه ، فيُكرِمه غايةَ الكرامة .

فهذا مَثلُ عَبْدٍ تائبٍ قد أَزال عن نَفْسه الفُضُولَ من كل شيء . لم يُطْلِق له الشُّرُعَ [4] ، وهي المعاصي ؛ وتأَدَّب بأَدَب الإسلام ، وتزَيَّن بالزَّهَادة [5] والتَّقْوى ، وتَطيَّبَ بصدْق الباطن من صحة النيَّة ، وإخلاص العبودية ، وبَذْلِ النفس لله ، ومحاسنِ الأَخلاق ؛ وكان وَلِيًّا من أَولياءِ اللهِ تعالى ، فقدمَ على ربِّه وقد سبقت هذه المحامدُ مَذْمُومَاته ؛ فغفر له مغفرةً ؛ لايُبْدِي [6] له شيئا من سالِف [7]

---

(١) رقوا به : ارتفعوا .

(٢) معالى الوسائد : الوسائد العالية .

(٣) في ا : هنأ .

(٤) الشرع : جمع شراع .

(٥) الزهادة : الزهد .

(٦) لايبدى : لايظهر .

(٧) سالف : سابق .

سيِّئاته ، وجاد عليه بفَضْلِه الذى سهَّلَ له سبيلَ الشفاعةِ فى عَدَدٍ كثير من خَلْقه .

فالَّذى صار إلى ذلك العُرْسِ بتلك الهيئةِ القبيحةِ مُنع فى الطريق عَنْ أَنْ يأْتِيَ الباب ، وجلس هنا لكَ ليأْخذَ من شَعره ونَشَرَه [1] ، وكلّ فضول أَتى به ، فإذا أزال من نفسه تلكَ الفُضُولَ أُتِيَ به بعده فى المجلس والمائدة ؛ فالذى صار إلى العَرْضَةِ مع هذه الهيئةِ السيئةِ مُنِع عن دار السلام ، وبَقِيَ فى مجلس الصِّرَاط ، حتى تأْخذَ النارُ من شَعَره ونَشَره أَكْلاً أَكْلاً ، وحَرْقًا حَرْقًا ، كلَّما احترقَ عادَ كما يُرَى له حتى يأْخذَ الحقُّ منه ماوجبَ له عليه ، ثم تُدْرِكهُ الرحمةُ مِنْ أَرْحَم الراحمين ، فيتخلَّص فيُكْسَى ويُطيَّبُ ، فيذهب إلى دار السلام .

مثل الذى ينطق بأسماء الله ويدعوه بها ويتلو كتاب الله وليس له نور تلك الأشياء

مَثَلُ الذى ينطِقُ بأَسماءِ الله تعالى ويَدْعُوه بها ، ويَتْلو كتابَ الله تعالى ، وليس له نورُ تلكَ الأَشياءِ فى صَدْره ، كمثَل شَرَرِ الحديدة المُحْمَاة إذا ضُرِبَتْ بالمِطْرَقَتين ، فرمَتْ بالشَّرَرِ ، ثم يَنْطفِئُ من

(١) النشر — محركة : المنتشر ، المتفرق .

ساعته ، وليس له لَهَبَانٌ[1] ولا حَرَارةٌ ولا ضَوْءٌ يُضِيءُ بها .

كذا الناطِقُ بهذه الأَسماء ، والتالى لكتابِ اللهِ تعالى إذا أَخْرج الكلمات من صَدْرٍ تلَطَّخَ[2] بالشهوات لايكونُ لكلماته من النُّورِ مايَنْفذُ شُعَاعُه فيَسْطع ضَوءُه .

فالناطقُ الذى له نورٌ فى قَلْبِه كمثَل نَفَّاطَ[3] رَمَى بِنِفْطٍ ، وكحريق اشتعل ناراً ، فأَحرقَ ماحَوْلَه ، وسطع ضَوْءُه ، فأَضاءَ كلَّ شَيْءٍ ، وإن لكل حرف منْ كلامِه نُورا . وما أَنزل على عبده فإنما أُنْزِل مع النُّور ، فإذا دَنَا من الصَّدْرِ استقبلته أَدناسُ الشَّهَوات ، وظُلْمة الهَوَى ، والحِرصُ والرَّغْبةُ ، والكِبْرُ والحَمِيَّة[4] . والحَسَد والبَغْى ، والتَّجَبُّر والتَّعَزُّز ، والتمَلُّقُ والاقتدار ، والعلوّ والتِّيه والتعظيم – رجع النورُ كأَنه يقولُ : هذا ليس بمكانى ، إنما أَحُلُّ بصَدْرٍ طَهُر عن هذه الظلمات والأَقذار ، فهناك محلُّه ، ومَعْدِنى يقفُ خارجا يلتمس صَدْرًا بريئا من هذه الأَشياء ، فمن احتمل عِلْمَ هذه الأَشياء عَلِمَ الحروف ، ثم أَخذها بالصوت بكلمات ، فذاكَ العالم .

---

(١) اللهان : اللهب ، واشتعال النار إذا خلص من الدخان .

(٢) تلطخ : تلوث . ولطخه بسوء : رماه به .

(٣) النفط : ماتوقد به النار ويضاء به . النفاط : من رمى بالنفط .

(٤) الحمية : الأنفة ، والاستنكاف ، والاستكبار .

العلم علمان :

أترى ماقاله عليه السلام : العلمُ علمان ؛ فعلْمٌ على اللِّسان ، وذاك حجةُ اللهِ تعالى على خَلْقِه . وعِلْمٌ على القَلْبِ ، فذاك العلمُ النافعُ .

فمن احتمل فى صَدْرِه عِلْمَ هذه الأشياء بلا نوُر فهذا عِلْمُ الذِّهْنِ تلقّاه تعلُّما وتحفُّظا ؛ فهو على لسانه ، ولطائفُ الحروف ومعانيـهاهو محجوبٌ عنها ومستورةٌ عنه ؛ فإذا لفَظَتْها[1] شَفتاه ، وهو الحروف فهو كالشَّرَر يَخْمُد ويَنْطفِئُ من ساعته فلا يرْتَفِع ، ولا يُضِئُ الصدورَ ، ولا يُحْرِق الشَّهوات ، ولارَيْنَ[2] الذُّنوب من خَوْفِه ؛ والذى رَاضَ نَفْسَه حتى تَطَهَّرَ من تلك الأدناس ، وزايَلَتْهُ[3] تلك الظلمات . فخَلا صَدْرُه من ذلك ، فطاب وطَربَ وطَهُر ؛ فجاءَ النورُ فوجَد مكانا قد طاب وَطَهُر ؛ وطهارَتُه من تَقْوَاه من هذه الأشياء فى تَقْواه . وطيبُه من حياةِ القُرْبَة ؛ وذلك أنَّ العَبْدَ كلما ازْدَادَ طهارةً من هذه الأشياء ازداد قُرْبَةً ، وكلما ازداد قُرْبَةً ازْدَاد حياةُ قَلْبِه ، لأنه إنما يَحْيَا قَلْبُه بالحىّ الذى لايَمُوتُ .

فصاحبُ هذا إذا وجد ذلك النورُ مِثْلَ هذا الصدر وَلَج[4] فيه

---

(١) لفظتها : تلفظت بها . وفى الأصول كلها : شفتيه . ونراه تحريفا .

(٢) الرين : الدنس . ران ذنبه على قلبه رينا : غلب (القاموس) .

(٣) زايلته . فارقته .

(٤) ولج : دخل .

نورَ ذلك الكلام ، فإذا نطق به خرج منه الشُّعَاعُ الساطعُ [١] ، فأَحرق مافى الجَوْف ، فأَضاءَ البيت ؛ بمنزلة ذلك الحريق الذى أَحرق ماحَوْلَه ، وأَضاءَ الفضاءَ ؛ فذاك العِلْمُ النافعُ الذى قاله صلَّى الله عليه وسلم .

آدم لما أهبط الى الأرض :

ورُوِى فى الحديث أَنَّ آدَمَ صلواتُ اللهِ عليه لما أُهْبِط إلى الأَرض ابْتُلِى بالحَرْثِ والنَّسْج ، فقال : يارَبِّ ، شغلْتَنِى بهذا ، وقد كنتُ أَسمعُ تَسْبِيحَ الملائكةِ ومَحَامِدَهم ؛ فأَوْحَى اللهُ تعالى إليه أَنْ قُلْ الحمد للهِ حَمْدًا يُوَافِى نِعَمَه ، ويكافِئُ مَزِيدَه ؛ فإنكَ إذا قلْتَ هذا غلبْتَ جميعَ الخَلْقِ فى المَحَامد والتسبيح .

دواوين ثلاثة :

وإنما غَلَب الخَلْقَ لأَنَّ العَبْدَ فى أَثقال النِّعم ، ولا ينفَكُّ منها إلا بالحمد ، فيحتاج لكل نعمة إلى حَمْدٍ ليتخلَّص منها .

ودِيوانُ النعم غَيْرٌ ، وديوَان الحساب غير ، وديوان السيئات غَيْرٌ ، وديوانُ مظالم العِبَادِ غير ؛ فيُنْشَرُ على العبد يوم الحسابِ دَوَاوِينُ ثلاثة ، كذا جاءَنا عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

فكان العَبْدُ مُحْتَاجا عند كل نعمة إلى حَمْدٍ ؛ فتفضَّلَ اللهُ عليه ، وأَعطاه كلمةً جامعةً تَتَشَعَّبُ تلك الكلمةُ وتتجزَّأُ عددَ كلِّ نعمة

---

(١) الساطع : المرتفع .

لله عليه حتى تذهَبَ إلى كلِّ نعمة فتَلْزَمها ، حتى إذا وقف غَدًا بَيْنَ يَدى اللهِ تعالى ، ويَنْشُر عليه دِيوانَ النعمةِ ، وجدَ عند كلِّ نعمة نُورًا قد لزمها ؛ وذلكَ نورُ الشُّكْرِ ، نَطَق بحمده هاهنا جملة ، فتوزَّع وانقسم بأَجزائها على جميع النِّعم ؛ فكأَنه يقولُ جلَّ ذِكْرُه على وَجْهِ المُبَاهَاة (١) : ملائكتى ، هذا عَبْدٌ خلقْتُه من تُراب ، فبلغ من مَعْرِفته إيّاى أَنْ شكَرنى على كلّ نعمَةٍ ، فيرى الملائكةُ نِعَمَه ، مع كلِّ نعمةٍ نُورٌ قد لزمها ؛ وهو نورُ شُكْرِ الْعَبْدِ من تلك النعمة التى قد نطقَ بها ، فيقول اللهُ تعالى : فهذا للنعمة التى وَجَّهْتُ إلى عَبْدى ، وهذا النورُ الذى وجَّهَهُ عَبْدِى إلىّ لما توجهت إليه ، فعلموا بذلك للعبد على رءُوس الخَلَائق يومئذ بتلك المُبَاهَاة ؛ لأَنه قال : الحمدُ للهِ حَمْدًا يُوافِى نِعَمَه ، ويكافِئُ مَزِيدَه ، أَوْفى (٢) حَمْدُه نِعَمَهُ ، فلَقِىَ كلَّ نعمة جزءٌ من ذلك الحمدِ ، وبَقِىَ للمزيد أَجزاؤه حتى يكافِئَه بها يَوْمَ المَزيد والزيادة ؛ فإذا لقيه العَبْدُ لَقِى من نوره ، وكذا لقيه الحمد ولقيه بأَجْزَاءِ المكافَأَة ، وهو حُبُّه ؛ لأَنَّ العبْدَ لايَقْدِرُ أَنْ يُكافِئَ رَبَّه [٨١] عن رؤيته والنظرِ إليه بشىءٍ إلاَّ بحُبِّه إياه ؛ فإنما حَمدَه الْعَبْدُ بهذا الحَمْدِ الذى له من نُور الحبِّ مايتجزَّأُ ، فيلحق كلَّ جزءٍ منه كلَّ نعمةٍ من اللهتعالى عليه فتلزمها ، ويلحق أَجزاءَ المزيد فيقوم ،

---

(١) يباهى : يفاخر .

(٢) أوفى : عدل وساوى.

حتى إذا برز للخَلْقِ يوم الزِّيَادة ؛ ولَقيه العَبْدُ بِحُبِّه مكافِئًا لما صنع الرَّبُّ من رَفْعِ الحجاب ، وإظهار جَلَالِهِ على عَبْده ؛ فهذه كلمةٌ قد ملأَت الدُّنيا والآخرة ؛ فلذلك قال لآدم عليه السلام : إذا قلتَ هذا فقد غلبْتَ جميع ما خلقْتُ ؛ فإنما عَظُمَ ذلك ، لأَنَّ الكلامَ حين جاءه جاءَ مع النُّور ، ووَلَج [١] صَدْرَه مع نُورِ الكلام ، فلما نطق به خرج من النُّور والشُّعَاعِ ماوسع النِّعَمَ أَجزاؤه ، وبقى المكافأةُ يوم المزيد مايكون كِفَاءه [٢] ، والذى لم يتَطَهَّرْ من هذه الأَدْناس فإنما فى صَدْرِه من عِلْمِ الحروف المؤلَّفة ؛ فتلك الكلمةُ والصوتُ الذى يُبْرِزُها [٣] به فإنه قوةٌ لتلكَ الحروف ، حتى تتجزَّأ ؛ فيلحق كلَّ نعمة ويلزمَها ؛ وإنما ثباتُ العَبْدِ على النطق ؛ فإنه قد أَعمل العَبْدُ جوارحَه [٤] فى الطاعات ، و أَثقال النِّعم والشكر باقية عليه .

نشر ديوان النعم :

فإذا وقَفَ بين يدى اللهِ تعالى ، ونُشِرَ دِيْوانُ النِّعم وُجِدت النِّعَم خاليةً من أَنوارِ الشكر ، فاستحيى مِنْ لَهْوه وغَفْلَته وبَطَالَته [٥] ؛ فيبقى فى شُكر النعمة ، والنعمةُ تَقْتَضى شُكْرَه ، فحينئذ إمّا مُعَذَّب

---

(١) ولج : دخل .

(٢) كفاؤه : ما يكون مكافئا له .

(٣) يبرزها : يظهرها .

(٤) جوارحه : أعضاءه .

(٥) يقال بطل الأجير من العمل فهو بطال بين البطالة .

وإما مَغْفور ؛ فأَعطى اللهُ المؤمنين جُمَلَ الكلامِ ، وأعطاهم شُكْرَ النِّعمِ كلمةً ؛ فلحق نورُها جميعَ النعم بأَجزائها ؛ فصارت كلُّ كلمة مقرونةً بها شكر العبد .

كلمات أعطاها الله العبد :

فأَعطاهم لنَفْيِ الشَّكِّ كلمةً صارت مقرونةً بكل شئ خلقَه اللهُ تعالى للعباد ، نافية للشكِّ عنه ؛ وهى كلمةُ الشهادة : لاإلَه إلاَّ الله محمدٌ رَسُولُ الله .

وأعطاهم لتنزيهِه كلمةَ : سبحان الله ؛ فصارت مَقْرُونةً بكل مَديح إليه . فإذا سبَّحه بحمده فقد أَتى بجميع المَحَامد .

وأَعطاهم لِذلَّةِ العبودة [1] كلمةً : وهِيَ قول : اللهُ أَكبر ؛ فإذا كبَّره فقد تواضَع ، وأَلْقَى بيديه سَلْمًا .

وأعطاهم للقُوَّة على هذه الأَشياءِ كلمةً ؛ وهِيَ قولُ العبد : لاحَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله ؛ فإنما تخرجُ هذه الكلمةُ من العَبْد مع نُورِ الكلمةِ حتى يعملَ بعملها ، ويبلغَ مَبْلَغَها ؛ فإذا قال العبد : الحَمْدُ لله ـ فإنما هى كلمةجملة ؛ فإذا شَرَطَ وأَشار إلى شَئْ ٍ موصوف فقال : حَمْدًا يُوَافى [2] نعَمَه ـ خرجت الكلمةُ بنورها .

---

(١) العبودة : الطاعة .

(٢) يوافى : يعادل ويساوى

فمن كان له ذلك النورُ ، فتوزَّعت وانقسمت على جميع نِعَمِ اللهِ تعالى ، فلحقت كلّ نعمة قِسْطها [١] فلزِمَتْها ، فيتخلَّص من أثْقال النِّعَم ؛ لأنَّ الله تعالى قال فى تنزيله [٢] : (وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاتُحْصُوها) .

فإذا عجز العَبْدُ عن عَدِّ النِّعم لم يُحْصِها ، فعلَّمه كلمةً تلحق بأجزائها كلَّ نعمة على حِدَتِها ، فوافَاها حتى اقترنا : كلُّ نعمة وشُكْرُ العَبْدِ مقرونٌ بها لما نطق بهذه الكلمة .

وهذا الكلامُ إنما يخرجُ من هذه الأَفْواه حروفًا مؤلَّفةً ، والأَنوار كسوتُها معها نزلَتْ للعباد مِنَ السماء ، والعِبَادُ متفاوتون فى النُّطْقِ بهذه الكلمة كالشأْن فى الأَنْوار .

مثل ذلك مثل الخواتيم :

ومَثَلُ ذلك مثل الخَوَاتيم [٣] . فليس بين خَوَاتِيم الناسِ كَثِيرُ تَفَاوت ؛ فإنَّ أَكْثَرها فيما بين مِثْقَالٍ ومِثْقالين ؛ فعامَّةُ أَوْزَانها بهذا القَدْرِ من الفِضَّةِ أَو مِنَ الذهب ، إنما الشأْن فى الفُصوص التى تبايَنَتْ [٤] جواهِرُها : فرُبَّ جَوْهرِ فَصٍّ لخاتم لايُساوى دِرهما ،

---

(١) القسط : الحظ والنصيب .
(٢) سورة إبراهيم ، آية ٣٤
(٣) جمع خاتم ؛ وهى حلى للإصبع .
(٤) تباينت : اختلفت .

ورُبَّ فص تبلغ قيمتُه آلافًا من الدراهم والدّنانير . فكذا النَّطقُ[١] بهذه الكلمات مُتَفَاوتٌ فى إبرازها لَفْظًا وقراءة ودُعاءً ؛ ولكن التفاوت فى المَعادنِ التى فيها هذه الأَنْوار ، وعلْمِ هذا الكلام .

وتفاوتُ هذا أكثَرُ من تَفَاوُتِ الفُصوص أضعافا ؛ فكلمةٌ تخرجُ من قَلْبٍ ، مَعْدنُ ذلك القلبِ الدُّنيا ، فذاكَ يبغى به الثوابَ . وكلمة تخرج من قَلْبٍ ، مَعْدنُ ذلك القَلْبِ العُقْبى[٢] . وكلمة تخرجُ قَلْبٍ ، معدنُ ذلكَ القلبِ المَلَكُوت . وكلمةٌ تخرجُ مِنْ قلبٍ ، معدنُ ذلكَ القلبِ مالك الملك بين يَدَيْه ؛ فإنما استنار قَلْبُه بذلك النورِ ، وكلُّ كلامٍ يخرج منه من ذلك النور .

مثل الغافل عن الله تعالى

مَثَل الغافِل عن الله تعالى مثَلُ رجُلٍ أَخذ المَلِكُ بيده ، فطاف به فى قصوره وبساتينه ومُنتَزَّهَاته حتى عايَنَ مافيها ، ثم أدخله فى خزانته ؛ فطافَ به ، فأَرَاهُ جميعَ مافى خزانته ، ثم أَفْشى إليه أَسرارَه التى تكونُ فى عداد الثوابِ والدرجات وأَسرارتَدْبيرالملك ، أَراد بذلك أَنْ يتعلَّق قَلْبُه به ، وتطمئن إليه نفسه ، ويكون من خواصّ خَدَمِهِ بين يَدَيْه ، لايَبْرحُ من الخدمة ؛ فتعلَّق به قلبُه ، واندسَّ فى أُموره ، ولزم بابَ الملك ، ونَسِيَ أَحوالَ نَفْسَه ، فلو وَسَّعَ

---

(١) فى ا : المنطق .

(٢) العقبى : الجزاء .

عليه بعد ذلك ، أو ضيَّق ، أو بَرَّهُ أو منعه برَّه ، لم يَبْرَح الباب ؛ لـمَا اطَّلَع عليه من أسراره ؛ لأنه عرفه معرفةً لاتَتَّهمه[1] فى المَنْع والضِّيق .

وآخَر فتح له البابَ ، فوقف به على الباب ولم يَطُفْ به ولا أطْلَعه على أسراره ، وبَقِيَ على الباب ليس له دُخولٌ على الملك ولا مَعَهُ سرٌّ ولا شىء ؛ فإذا هذا الشىءُ أحَلَّه هذا المَحَلَّ ، خرج من الباب ، وقام مع ذلك الذى لايُؤْذَنُ لهم بهذه الكرامات ، فأُعجب العقلاءُ من فعْل هذا ـ أنَّ الملكَ اختاركَ من الجميع ، وعطف عليك ، وأظهر عليكَ مَحَبَّتَه ، وعليك بَسَطَ رَأْفَتَه وشفقته ، وآثَرَكَ[2] على هذا المَلَإِ[3] الكثير ، فأخذ بيدكَ من جُمْلتهم ، واستَخْرجَكَ وخلَّصكَ مِنْ بينهم ليَطُوفَ بك فى قصوره ، وليُطْلِعَكَ على أسراره ، واختارك لكَشْف أسراره عليك فى تدبير المملكة ؛ فتركتَ ماهنا لكَ ، ووليْتَ مُعْرِضًا لم تَرَ شيئا ، وأقبلْتَ على فَهْمِ نَفْسك تَتَشَبَّهُ فى سيرتك وآدابك وأعمالك بهذا المخذول المَطْرُود المحروم على الباب الذى لم يعْبَأْ به ، كأنَّ جميعَ ذلك عندكَ لاشىء ؛ وتركهم كأنهم فى مَفَازَة حَيَارَى ، ثم لم يَزَالُوا فى أعمالهم حتى أوْقَعهم فى أرض شاكة[4]

---

(١) فى ا : لاتهمة . وفى ب : تهمه .

(٢) آثرك : فضلك .

(٣) الملأ : الجماعة .

(٤) شاكة : كثيرة الشوك .

مُلْتَفَّة أشجارها ، حَديدة شَوْكها ؛ فهم فى فَيَافٍ (١) جِيَاعٍ عِطاش جَرْحى من ذلك الشَّوْك والحَسَك (٢) ؛ فما الذى يُؤمنك أَنْ يَرمِىَ بك الملكُ لتَشَبُّهكَ بهم فى آدابهم وسيرتهم . فيُنَحِّيك (٣) إلى الباب ، ويَسُدّه عَنْك ، حتى تقعَ فى مَفَازَة الحيرة والأَرض الشاكة .

فربُّنَا جَلَّ جَلاَلُه خَلق دَارًا ، فحشاها بالرحمة . وملأَها بساتين ونعيما وريَاضًا (٤) ، وقُصورا . وأَعدَّها لعباده ، وخلق سِجْنًا ، فحشاها بسلطانه وغَضَبه ، وملأَها بعَذابه ، وأَعدَّها للذاهبين برقابهم ، وأَظهر من مُلْكه فى مَلَكُوت عَرْشه ، ولا حاجةَ له إلى شىءٍ من ذلك ؛ إنما فعل هذَا كله من أَجْل الآدَمِيِّين مِنَّةً ، [٨٢] فاختار مِنْ كلِّ أَلْفٍ مِنْ عباده واحدًا ، ففتح البابَ له حتى عايَنَ هذه الأَشياءَ ، وتركَ الباقين فى مفازَة الحيرة الشاكة وهى المعاصى ؛ فتَردَّوْا (٥) فى آبارِ الكبائر وجرف الجَبَابِرة . ويرتعون فى القاذرات والكُنَاسات ، فإذا كان هذا الواحدُ المختارُ المفتوح له الباب ، والمقبولُ فى الدار ، والمُطَّلِعُ على الخزائن والأَسرار — أَحْمقَ لَهَا عن

---

(١) الفيافى : جمع فيفاء : الصحارى . والمكان المستوى . والمفازة لاماء فيها .

(٢) الحسك — محركة : نبات تتعلق ثمرته بصوف الغنم ، وورقه كورق الرجلة وأدق . وعند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب .

(٣) ينحيك : يبعدك . (٤) رياض : جمع روضة : الحديقة .

(٥) تردى : سقط .

فَتْح الباب وعَمَّا اطلعَ عليه ورَجا فيه - خرج من الدار ، و أقبل على ظُلمات نَفْسه الخائنة ، وغَرَّه العدوُّ ، و أخرجه رُوَيدا رُوَيْدا [١] من الباب الذى فتح له ، فَوَلَجه [٢] فأبصره بالاستلذاذ وقَضاءِ النَّهمات [٣] والأَمَانى الكاذبة نفسيّة وشهوانية ، قد أجلب له حتى تَأَشَّر نَفْسُه ، وتَبْطَر [٤] ، ويمتلئ من لَذَّتها والفرح بها ، فيُورثه الأَشَر والبَطَر حتى يخرجه إلى مالم يُطْلقْ له من ذلك النَّوع الذى أُحلَّ له ، ويتعدى حُدُودَ الله فيه حتى أَشِرَ وبَطِر ، وتعدَّى حدودَ الله فيها وتجاوَزَها ، فقد ظلم نَفْسه ، حتى يَصِيرَ عادِيًا يَسْتَرِقُ من اللهِ نَفْسَه وجَوَارحَه ويَعْدُوهَارِبًا ؛ فسمَّاه عاديًا فى تنزيله بفعْله ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى [٥] : (والَّذينَ هُمْ لفُرُوجِهِمْ حَافِظُون . إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهم فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومين . فمن ابْتَغَى وَرَاءَ ذلك فأُولَئكَ هُمُ العَادُون [٦]) .

---

(١) رويدا رويدا : شيئاً فشيئاً .

(٢) ولجه : دخله .

(٣) النهمات : جمع نهمة : الحاجة ، والشهوة .

(٤) الأشروالبطر : كفر النعمة وعدم شكرها .

(٥) سورة المؤمنون ، آية : ٥ ، ٦ ، ٧

(٦) الذين هم لفروجهم حافظون : خطاب للرجال خاصة دون الزوجات ، بدليل قوله : إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم . إلا على أزواجهم : أى أزواجهم اللاتى أحل الله لهم ، لا يجاوزون . فأولئك هم العادون : سمى من نكح من لا تحل له - عاديا ، وأوجب عليه الحد لعدوانه .

فلا يزال العَدُوُّ يَسُوقُه فى مَفَاوِز [1] الحياة حتى يَرْمِىَ به إلى النار سَوْقَ الحمَار الدَّبِر [2] ، الجَوَّال فى أَفْنِية [3] الدُّور ، يَرْتَعِى فى كِنَاسِهِم [4] حتى يَرْمِىَ به إلى الشاكة الملتفة أَشجارُها وشَوْكُها ، فسجنه فيها حتى لايَقْدِر أَنْ يخرجَ منها ، كلما اضطرب لزِمَتْه حِدَّةُ الشَّوْك ، وأَوجعَتْه جِراحَتُها ؛ وهى الكبائر من الدِّمَاءِ والأَموال والبَغْى [5] والعلوّ ، والجرأة على الله تعالى .

فكلٌّ ماذَكَرْنَا عايَن فى تلك الفُسْحَة ، والتفت إليها ، التفت مِنْ بُعد ؛ وذلك لِبُعْدِ قَلْبِه ؛ فعايَن ذلك كالجبالِ من البُعد الذى تَباعد ؛ فالقَلْبُ قَلْبُ الموحِّدين ، واللسان لسانُ الموحِّدين ، والنَّفْسُ نَفْس الكافرين بما تشبَّهَ بهم فى الأَعمال والسيرة .

وهذا جَزَاءُ مَنْ رَفَع اللهُ لقَلْبِه عَلَمًا فأَعرض عنه ، وهذا جزاءُ مَنْ أَقبل على نَفْسه بعد كَرَامةِ الله تعالى إياه ، حتى يَبْقَى فى العذاب غَدًا ، وفى دَارِ الهَوَان دَهْرًا ، لايَدْرِى كم أَمَدُ [6] ذلكَ الدهر .

---

(١) مفاوز : جمع مفازة ، وهى الموضع المهلك .

(٢) الدبر — بالتحريك : قرحة الدابة ، والجمع دبروأدبار ؛ دبر — كفرح ، وأدبر فهو دبر .

(٣) أفنية : جمع فناء ، وهو من الدار : مااتسع من أمامها .

(٤) الكناس : مايستتر به .

(٥) البغى : الظلم .

(٦) الأمد : الغاية

المرارات :

فذاق مَرارةَ الحياة ، وذاقَ مرارةَ الموت ، وذاق مرارةَ القَبْر ، وذاق مرارةَ فَتَّانَى[1] القَبْرِ ، وذاق مرارةَ عَرْضِ المعاصى والسؤال والنُّشُور[2] ، وضِيق المقام ، والصِّراط والصُّحُف ، ووَزْن الأعمال ، حتى تدرِكَه رحْمَتُه يومًا ؛ أو يكون رجلا قد غلَبَ عليه الشَّقاءُ لكُفْرَانه نِعَمَ اللهِ تعالى .

فمن فُتح له الباب ، فكفرَ النِّعْمَة ، واستخفَّ المنَّةَ[3] ، وآثَر[4] الشَّهْوة ومَرْضَاةَ النفسِ ؛ فبدَّل نعمةَ الله كُفْرًا ، فأَحَلَّ قَوْمَه دَارَ البَوَار[5] ، جهنَّم يَصْلَونَها فبئس القَرَار[6] .

فانقلب فيه مَنْكوسًا ، وسُلِبَ ماأُعْطِى ، وأُخرِجَ من الباب إلى الآبار المترَدِّيَة[7] المَنكُوسة فيها بلايَد ولا رِجْل ، فبَقِى فيها أَبدًا ؛ فلادَاعِىَ ولا مُجِيب ، لايَدْعُوهُ الله أَبدًا إلى نفسه ، ولايُجيبه إنْ دَعَاه .

---

(١) فتانا القبر : منكر ونكير (القاموس) .
(٢) نشر الله الموتى : أحيا هم .
(٣) المنة : النعمة .
(٤) آثر : فضل .
(٥) أحل قومه : أنزلهم . قومه : الذين اتبعوه . دار البوار : البوار : الهلاك (مفردات الراغب) ؛ وقيل جهنم .
(٦) القرار : المستقر .
(٧) المتردية : تردى فى مهواة : سقط فيها .

اعتمال العقل :

ومَنْ رُزِق عَقْلاً فاعتمل عقْله فيما فُتِح له من الباب ، فعقد قَلْبَه على طاعةِ الناصح الرَّشِيد ، وهو العَقْلُ الدالُّ على اللهِ تعالى وعلى مَرَاشد [١] أُمورِه ، فلم يزل العقلُ يمهِّدُ له ، ويُزَيِّن له ، ويُدَبِّره بالأَخلاق الكريمة ، والأَعمالِ السنِيّة [٢] ، والأَفعالِ المرضية ، والأَقوالِ البَهِيَّة [٣] ، والإِشارات الشهية ، والمَرَاتب العَلِيّة . حتى وقَفَه على حَدِّ الأَمانة ؛ فصار أَمينَ اللهِ تعالى فى أَرْضه ؛ بلغَ سِرَّهُ ، ومَحَلّ نَجْوَاه [٤] ، ومَعْدن [٥] حِكْمته ؛ وخزانةُ جَوْهره علت فى المرتبة ، وأَقام بالباب يُلَازِمُ اللَّيْلَ والنهارَ ، ولايَبْرَحُ مكانَه ، وأَخذ من الحظوظ حظًّا صار عند الملك وَجيهاً [٦] ، كلما شاءَ دَخلَ عليه بلا إِذْن ، وأَينما شاءَ قَعد فى مجالسه من الاقتراب والدُّنوّ [٧] ، فائْتَمنه على خزانته ، ووضع عنده تَدْبِيرَه وأَسرارَه ، ونفذ حُكْمه فى مُلكه ، فيُقْسم عليه فيُبِرُّ [٨] قَسَمه ، ويتمنى

---

(١) الرشد : الصلاح ، وإصابة الصواب .

(٢) السنية : الرفيعة .

(٣) البهاء : الجمال .

(٤) ناجاه نجوا ونجوى : ساره . والنجوى : السر (القاموس) .

(٥) معدن كل شئ : حيث يكون أصله .

(٦) وجه وجاهة فهو وجيه ؛ إذا كان له حظ ورتبة .

(٧) الدنو : القرب .

(٨) يبر قسمه : يمضيه على الصدق .

فيُسْعِفه بِمُنَاه ؛ ويَشاءُ ويُرِيد فيُمْضى (١) مشيئاته وإراداته ؛ وهذا فى دار الدنيا . حتى إذا قَدِم عليه فيَالَهُ مِنْ مَقْدم لايُحَاط بوَصْفِه : مِنْ سروره بلقاءِ اللهِ تعالى ، وتمكُّنِه من مَعَالى الدرجات ، والمصير إليه فى الفِرْدَوس (٢) الأَعْلى ، زائراً لا يُحْجَب فى النَّظَر ، ولا يؤَخَّرُ ؛ ولهذا قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : لا يعجبنّكم إسلامُ أَحَدٍ حتى تعلموا ماعُقدة عَقْلِه ؛ فالإسلام ظاهرٌ ، وعقده العقل باطنٌ مستورٌ عن الخَلْق ؛ فمن اعتبر بما رأى من ظاهرِ الإسلام من نفسه أو مِنْ غيره ، فهو مَغْبون (٣) ، حتى يعلمَ على أىِّ شىءٍ عقدة (٤) العَقْلِ ؛ فواحدٌ قد فَتَح له البابَ ، ورَزَقه العقلَ . فاطَّلع مَطْلعه . وقبل مَاعَرَضَ عليه ثَمَّ ولا يظهره ، وأقبل على نَفْسِه مُكبًّا على وَجْهِه لقضاءِ الشَّهَوات فى عاجلِ الدُّنْيا ، فصارت عقدةَ عَقْله طَلَبُ النَّهمات وأحوالُ النفس ، يخادِعُ اللهَ ويعمَلُ فى العُبُودَة (٥) بالجُزَاف والغَفْلة « والشايذبوذ » على التجويز ، ويَتَمَنّى الكرامات على اللهِ تعالى ومَعَالى الدرجات ، ويَعُدُّ تلكَ الأَمَانى من نفسه رَجاءً ،

---

(١) أمضيت الشئ : نفذته .

(٢) أصل الفردوس : البستان يجمع كل مايكون فى البساتين والمراد به الجنة .

(٣) مغبون : منقوص .

(٤) عقدة : عزم .

(٥) العبودة : الطاعة .

ويقول : أَرْجُو رَبِّ وأُحْسِن الظنَّ به ، وإنما [١] هو أمانى وليس برجاءٍ ؛ وقال الله جلَّ ذكره [٢] : (لَيْسَ بأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتابِ . مَنْ يعملْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يجدْ له مِنْ دُون اللهِ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا) [٣] .

مثل معرفة العامة

مَثَل معرفةِ العامةِ مثل رَجُلٍ فى يديه جَوْهَرة ، فهو متحيِّرٌ فى شَأْنِها ، لايَدْرِى ماقيمتُها ؛ فمرةً يُخَيَّلُ إليه أنها لاتُساوِى إلاَّ دِرْهما ، فلا يجد فى قَلْبه كبيرَ فَرَح ، ولا فى نَفْسه غَناءً [٤] ، ومرةً يأْمُلُ أَكثرَ من ذلك ، فإذا قِيل له : إنَّ هذه جوهرة مما يُصابُ بها وِقْرٌ [٥] من الدنانير امتلأَ سرورا وفَرَحًا ، وانبسطت جَوَارِحُه ، واستغنت نَفْسُه ، حتى وجد قوةً بالغَنَاءِ [٤] فى جميع جَسده مِنْ

---

(١) هذا بالأصول .

(٢) سورة النساء ، آية ١٢٣ .

(٣) قالت اليهود والنصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان منا ، وقالت قريش : لن نبعث . فأنزل الله : ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجزبه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجز به فى الدنيا أو فى الآخرة .

(٤) الغناء : الاكتفاء (المختار) .

(٥) الوقر — بكسر الواو : حمل البغل أو الحمار ، ويستعمل فى البعير . وفى الأصول كلها : وقرا ، وأراه تحريفا .

قَبْلِ أَنْ يَمْلِكَ الدنانير . ومِنْ قبل أن ينكَشِفَ له الغطَاءُ عن شأْنِها : ماذا يُصيب بِها ؟ كان فى قَلْبِهِ تَحَيُّر ، وفى نَفْسِه غَائلة ، وجوارِحُه مُنْقَبِضة .

قلوب العامة فى معرفة ربهم

فكذا قلوبُ العامَّةِ فى معرفة رَبِّهم ؛ يزعمونَ أنهم يعرفون رَبَّهم ، وتلك معرفةُ التوحيد ، يُوَحِّدُونه ولا يُشْرِكونَ به شيئا ، وهم فى عَمًى مِنْ وَرَاءِ ذلك ؛ ولذلك قَدَر الشيطانُ أَنْ يُهزَّهم هَزًّا عن الاستقامة فى أحوال النفوس ؛ ولَهَوْا عن الواحدِ الذى وحَّدوه رَبًّا .

ومَنْ عَرفه معرفةَ الآلاءِ [1] ، ومعرفةَ المعروفات ، امتلأَ قَلْبُه فرحا ونَفْسُه غِنًى ، بمنزلةِ مَنْ دخلَ بيتا مُظْلِمًا مُمْتَلِئا دنانير ؛ فهو فى تلكَ الظُّلْمةِ مُتحيِّرٌ ضَعيف ، فلما أَضاءَ البيتُ أَبصر تلك الدنانيرَ التى فى البيت ، واستغنى استغناءً بحيث لايَضُرُّه مافاته [٨٣] وما أُصيبَ منه من الضَّرر والمصائب .

قال له قائل : وما مَعْرُوفاته ؟

معروفات الله جل جلاله :

قال : جلالُه [2] وجَمَالُه ، وعظمَتُه وبهاؤه [3] ، وبَهْجَتُه

(١) الآلاء : النعم .
(٢) الجلال : العظمة .
(٣) بهاؤه : جماله .

ورَحْمته ، وسُلْطانه ومَجْده ، ومنَنُه [١] وعَطْفه ، وغنَاه وسَعَته ، وكرَمُه ورَأْفتُه ؛ فمَنْ عَرف ربَّه بهذه المعرفة امتلأ قَلْبه فرَحا ، ونَفْسُه غنِىٌّ ، وقويَتْ جوارِحُه . وفَسُح [٢] أَمَلُه ، وعَظُم رَجاؤُه ، واستغنى بغِنَى اللهِ ، وتوسَّعَ فى سعة اللهِ ، واجتمعت همَمُه ، وصَلُب إيمانُه ، واستقام هُدَاه ، وثبت رُكْنُه ، ووَفَى [٣] إسلامُه ، وصدقت عُبُودَتُه [٤] ، وشَرُف ذِكْرُه فى العُلاَ ، ونَبُل جَاهُه ، وكان من المختصِّين برحمته ، المَهْدِيِّين بولايةِ اللهِ تعالى .

وهذه المعروفات كلُّها فى حظِّ النفس ، فمتى لم تَعْرِف النفسُ رَبَّهَا بهذه الصفات فهى متحيِّرةٌ فقميرة خاملةٌ مُغْتَرَّة ذَابلة .

مثل موت واحد من المؤمنين

مثَلُ مَوْتِ واحدٍ واحدٍ من المؤمنين مثل شهودٍ شهدُوا عند الحاكم فنقَص مِنْ عدَدهم واحد ، إمَّا برُجوع أو بغَيْبَة منها ، وإمَّا برجُوعه عنها ، فكلما نَقَص منهم واحدٌ زاد الوَهن [٥] فى ذلك الأَمْرِ ؛ وذلكَ أَنَّ الله تباركَ اسْمُه خلقَ الآدمىَّ ، وأَحلَّه مَحَلاً لم يحلَّه لأَحد مِنْ

---

(١) مننه : نعمه .
(٢) فسح أمله : اتسع وقوى .
(٣) وفى إسلامه : كمل وتم .
(٤) عبودته : طاعته .
(٥) الوهن : الضعف .

خَلْقه ؛ وسخرَّ له [1] مافى السموات ومافى الأَرْض ، وسمَّاهم بِاسْمَيْنِ فى تنزيله ، دَلَّ الاسمانِ على محله ؛ أَحدهما الآدَمِىّ ، والآخر حَبِيب .

فأَمَّا آدم فهو الوَصل . يقال فى اللغة : آدَمَنِى أى وَصلنى ، وكذا سُمِّى الإِدَام إِدَاما ، أَى يُوصِل ذلكَ الخُبْزَ .

ورُوى أَنَّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم أخذ كِسْرَةَ [2] خُبْزٍ بيمينه وتَمْرًا بشماله ، فأَكلهما . وقال : هذه إِدَامُ هذه ؛ أى هذه التَّمْرَةُ وُصْلَةٌ بهذه الكِسْرة .

فآدَمُ عليه السلام خلقه اللهُ بيَده ، وقَرَّبه بباءِ الوُصْلة ، فقال : خُلقْتَ بيدى - والباءُ للوصل ، وسمَّاه آدَم فى تنزيله ، وسمَّى أَولاده آدَمِيِّين بهذا الاسم ، فقال [3] : (يابَنِى آدَمَ) ؛ ثم سمَّاه إِنساناً ، وسمَّى أَولادَه الناس ، فقال [4] : (لقد خَلَقْنَا الإِنْسَانَ) ، لأَنه لَمَّا خلقَ من الطِّين أَنِسَ [5] به وبقُرْبه ، فبقيت تلكَ الإِنْسِيَّة فِينا ، فليس أَحَدٌ من أَولادِه - بَرّ ولا فَاجِر - إلا يَأْنَسُ

(١) سخر له مافى السموات والأرض : ذلله وأخضعه (معجم ألفاظ القرآن) .

(٢) الكسرة من الخبز : القطعة منه .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٢٦ وغيرها .

(٤) الحجر ، آية ٢٦ ، وفى غيرها .

(٥) أنس به : إذا سكن إليه القلب ولم ينفر (المصباح) .

بربّه فى المنافع والمضارّ . وإليه يلجأ . وإليه يَفْزَع [١] . وبذِكْره يأنس فى جميع أحواله وأموره . إلا أنه إذا وجد بُغْيَتَه [٢] ، وأدرك نَهْمته [٣] من حاله . اشتغل بالحاجة والبُغْيَة ، ولَهَا عنه إلاّ عصابة [٤] من الموحّدين .

أولياء الله تعالى :

وهم أولياءُ اللهِ الذين عجن طينَتهم بحُبّه ، فأُشْرِبَتْ قلوبُهم [٥] حُبَّه ؛ فهم الذين بُغْيَتُهم فى الدّارين مولاهم وخالقُهم ومليكُهم ، قد ملك حبّه قلوبَهم . ولا يقدِرُ شئ دونه أنْ يَمْلِكَهم .

طائفة أخرى :

فأمّا مَنْ [٦] دُونَهم من المؤمنين فطائفةٌ منهم أقرّت بتوحيده ، وقبِلَتْ العُبُودَة [٧] صدْقًا من قلوبهم . ثم ملكتْهُم نفوسُهم الشّهوانية حتى خلَطُوا العبودَة ؛ فمرةً [٨] تزِلُّ قدَمُه ، ومرة تثبُت ؛ فتراه فى جميع أمره مرةً مُطيعا ، ومرة عاصيا ؛ مرةً لاهيًا . ومرةً مُقْبِلاً .

---

(١) يفزع : يلجأ .

(٢) بغيته : طلبته .

(٣) نهمته : حاجته وما يشتهيه .

(٤) عصابة : جماعة .

(٥) أشربت قلوبهم حبه : خالط حب الله قلوبهم .

(٦) من دونهم : من هم أقل منهم .

(٧) العبودة : الطاعة .

(٨) تزل قدمه : لاتثبت .

وطائفة نافرة :

وطائفة منهم نَفَرت نفرةً مُنْكَرة ، وأَدْبرت [١] عن عبَادته ، وأَقبلَتْ على عبَادة مَنْ دُونه ؛ مِن الشمس والقمَر وسائر [٢] المخلوقين ؛ وأَشْرَكُوا باللهتَعالى فى مُلْكه .

الثابت على التوحيد :

فمَنْ ثبت على توحيده ، وقبل ماجاءَ به الرسولُ عليه السلامُ ، سمَّاه مُؤمنا ومُسلما ، وتائبا وعابِدًا ، وحامدا وصائما ، وراكعًا وساجدا ، وشاكرا وصابرا ، ومُحْتَسِبا [٣] ، وخالصا ووَليًا .

المدبر الذى ركب بعض شهواته :

ومَنْ أَدْبر بالكلية سمَّاه مُفْسِدًا وكافرا .

ومنْ ركِبَ بَعْضَ شهواته وقَلْبُه معه ، سمَّاه ظالما لنفسه مِخْلَطًا [٤] ؛ ثم ذكر فى تنزيله : إنَّ اللهَ يُحِبُّ التوّابين ؛ ويُحبُّ المتطهِّرين . ويُحِبّ المتقين . ويُحِبُّ الشاكرين ؛ ويُحِبُّ الصابرين ؛ ويُحِبُّ المحْسِنين . واللهُ وَلِىُّ المؤْمنين .

---

(١) أدبرت : رجعت ، وانصرفت .

(٢) سائر : باق .

(٣) الاحتساب فى الأعمال الصالحة وعند المكروهات : هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم طلباً للثواب المرجو منها (النهاية) .

(٤) المخلط — بالكسر : الذى يخلط الأشياء فيلبسها على السامعين والناظرين .

وقال فى حقّ المدْبِرين : إنّ اللهَ لايحبُّ الكافرين . لايحب الظالمين . لايُحِبُّ المُفْسدين .

فسمّانا فى تنزيله أَحِبَّاء مع جميع هذه الأَسماء التى هى محاسن الأَخلاق منّا . فخلَق هذا الخَلْق كلَّه عُلْوًا وسُفْلاً ، وخلقَنا من قَبْضة مِن تُرَاب ، فوضعنا فيما بين هذين سبعة أَطباق مِنْ فوق ، وسبعة أَطباق من تحت ؛ والأَطباق المرفوعة من فوق معلّقَةٌ بالرحمة ، والأَطباق من تحت موضوعةٌ على الهَبَاء [1] .

فى بيـان الهبـاء :

قال له قائل : ماالهَبَاءُ ؟ قال : غُبار الثَّرى [2] .

وجعل الطبقَ الأَعلى الذى نَحْنُ عليه لنا بِسَاطًا ، وزَيَّن لنا هذا البِسَاطَ بأَلوانِ الزينة من الذَّهَب والفضة ، من الجِبَال والجَوَاهر ، والبحار والنبات ، من القِفَار ؛ ذات أَلوانٍ من المَطَاعم والمَشَارِب ، والملابس والمَشَامّ ، وسائر المنافع ، والدوابّ وسائر الحيوان ؛ ثم بسط على هذا البِسَاطِ بساطَ العُبودة [3] ، مِنَ الذِّكْرِ والقِيام ، والرُّكوع والسجود ، والصيامِ والصّدقَة . والحجِّ والجِهَاد ، وسائرِ أَعمال البر والطاعات ، ثم بسط على هذَيْن البساطَيْنِ بساطا

---

(١) الهباء : دقاق التراب ، والشئُ المنبث الذى يرى فى ضوء الشمس .

(٢) الثرى : التراب ، أو التراب الندى .

(٣) العبودة : الطاعة والعبودية .

آخر ؛ وهو بساطُ الرُّبُوبية والتدبير ؛ ثم أقامَنا معَاشرَ ولدِ آدم على بساط الهَبَاء ، ودعانَا إلى دَار مُلْكِه ، ودارِ السلام فى جِوَاره ، ودارِ القَرَار ، ودارِ السُّكون ، ودارِ السرور ؛ وقد نَشر بِساطَ العبُودَةِ على بساط الزِّينة ؛ فكلما قطَعْنَا مِنْ بساطِ العُبُودة شِبْرًا ، وتخَطَّيْنَاه ، وطَوَيْنَاه حتى نَنْتَهى إلى الأَجَل الذى أجِّلَ (١) لنا ، والوَقْت الذى وُقِّتَ لنا ، فدَعانا اسمًا اسْمًا دعوةً لايقدرُ أَحَدٌ منا أَنْ يمتَنِعَ من الإجابة . وقد طوَى مِنْ بساط العبودة ماطَوَى ، فنَلْقَى اللهَ تعالى به فى تلكَ العَرْضةِ يوم الموقف بين يَدَيْه .

من أراد الله بـه خيرا :

فمن أَراد اللهُ به خيرا قذفَ فى قَلْبِه نورًا أَحيا قَلْبَه به ، ففتح عَيْنَى فؤاده فى صَدْرِه ، ثم أَشرقَ فيه نورُ التوحيد حتى أَنارَ قَلْبَه وأضاءَ ، ثم أَعطاه نورَ العَقْلِ حتى بانَ له أَمْرُ العُبُودةِ . فقبلها عَنْ رَبِّه ، إنما يَأْتمر (٢) بجميع مايَأْتيه عن الله ، ويَنْتَهِى عن جميع مانَهاه اللهُ تعالى عنه ، ثم اقتضاه الوفاءَ بذلك ؛ فوقع العَبْدُ فى كدٍّ ومُجَاهدةِ النفسِ الشهوانية ، والعدوّ الحاسد ، والهَوى المُرْدِى (٣) ؛ فلم يزل العَبْدُ يتشَمَّرُ (٤) لذلك ويجتَهِدُ ، ويُدَاوِمُ على ذلك ،

(١) أجل الشئ : جعل له أجلا ومدة ووقتاً .

(٢) أمرته فأتمر : أى سمع وأطاع (المصباح) .

(٣) المردى : المهلك .

(٤) شمر فى العبادة : إذا اجتهد وبالغ .

ويُقَاسى غُمُومه وعُسْرَه . ويتضرَّعُ إلى اللهِ تعالى ويستغيثُ به حتى يَرْحَمَه ؛ فأَجاب دعوتَه . فأَيَّدَهُ بِرُوحٌ منه .

فلما جاءَت تلكَ الأَنوارُ على قَلْبه سقط عنه الجهد ، واستراح من المُجَاهَدة ؛ وذلك قوله تعالى (١) : (أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلكم خُلَفَاءَ الأَرْض) (٢) .

فجعله وليًّا مِنْ أَوليائه ، وخليفةً من خُلفاء أَرْضِه ، وإمامًا من من أَئمّةِ الهُدى ، وحَبِيبًا مِنْ أَحبّائه ؛ وذلك قوله تعالى (٣) : (إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارةٌ بالسُّوءِ إلا مارَحِمَ رَبِّ) (٤) .

فالمرحوم صِفَتُه ماذَكَرْنَا ، ومَنْ سقَط عن هذه الصفةِ فهومَرحوم أَيضا بالتَّوْحيد . حيث أَنْقَذَهُ مِنْ الشِّرْكِ . ومَنَّ عليه بهداية التوحيد. وقال (٥) : (يَهْدِى اللهُ لِنُورِه مَنْ يَشَاءُ) .

---

(١) سورة النمل ، آية ٦٢

(٢) المضطر : هو ذو الضرورة المجهود . يكشف السوء : يزيل الضر والجور . ويجعلكم خلفاء الأرض ، أى سكانها ؛ يهلك قوماً وينشئ آخرين .

(٣) سورة يوسف . آية ٥٣

(٤) أمارة بالسوء : مشتهية له . إلا مارحم ربى : إلا من رحم ربى ، فما بمعنى من . قال القرطبى (٩ — ٢١٠) : وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ماتقولون فى صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية ؟ قالوا : يارسول الله ؛ هذا شر صاحب فى الله . قال : فوالذى نفسى بيده إنها لنفوسكم التى بين جنوبكم .

(٥) سورة النور ، آية ٣٥

فلما خلقَ اللهُ تعالى [٨٤] هذا الخَلْق ، وابتدأ خَلْقَ هذه القَبْضة من تُرَاب ، شَهد بنفسه لنفسه أنه لاإلَـهَ إلا هُو ، وشَهِدَت الملائكة بذلك ، وشَهد أُولو العلْم من الآدَميّين بذلك . ثم أنَارَ شهادَته فى قلوب الموحِّدين حتى شَهِدُوا على شَهَادته ، عالمين بالشهادة مُوقنين به ، عالمين بالمشهود له ؛ وذلك قوله تعالى [1] : (إلا مَنْ شَهِدَ بالحقِّ وهم يَعْلَمُون) . فهم بأَجمعهم أَهْلُ رَحْمته ، وأَهلُ رأْفته وأَحبابُه ، سابِقُهم ومُقْتَصدهم وظالمهم [2] .

السابق والمقتصد والظالم :

فمَنْ مات منهم ظالما كان أَو مُقْتَصدًا أَوسابقا فكلُّهم حبيب اللهِ ومأْثورُه ، ومُخْتارُه ومَرْحومُه ، ومَرْءُوفه ومُوَحِّدُه ، وشاهده فى الأَرض [3] ؛ فمتى مات واحدٌ منهم فقد نقص من أَهل شهادته

---

(١) سورة الزخرف ، آية ٨٦

(٢) الظالم لنفسه : الكافر أو الفاسق . والمقتصد : المؤمن العاصى ، أو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها . والسابق : التقى .

وانظر فى معنى هذه الكلمات الثلاثة القرطبى : ١٤ — ٣٤٨

وفى معجم ألفاظ القرآن :

ظالم : مجاوز للحق . مقتصد : معتدل لا ينحرف نحو الإفراط ولا نحو التفريط . سابق : متقدم .

(٣) فى القرطبى (١٤ — ٣٤٦) : قرأ عمر بن الخطاب الآية ٣٢ من سورة فاطر : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير » ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج . وظالمنا مغفور له .

شاهدٌ فقد حلَّ بعُقْدَة الوَهن (١) فى أهل السموات والأرض ، والجبَال والبحار ، والشَّجرِ والدوابّ ، والخَلْق والخليقة ؛ والكلُّ إنما استقَرَّ على الأَرْضِ بتوحيد الموحّدين ؛ وذلك قول الله تعالى (٢) :

﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهم ببَعْض لفَسدَتِ الأَرْضُ ، ولَكنَّ الله ذُو فَضْل على العالَمين ﴾ (٣) .

ورُوِى فى الخبر أَنَّ اللهَ تعالى قال : ياموسى ؛ لولا مَنْ يُوَحِّدُنى لسيلَتْ جَهَنَّمُ على الكافرين سيلا .

وإنما دَخَل الوَهَن عليهم ؛ لأَنَّ كلَّ مُؤْمنٍ رُفِعَ من الأَرض انقطعت حِصَّتهُ من الرحمة . وانقطع مَدَدُه منَ البَرَكة .

فإذا افتقدت السمواتُ والأَرضُ الرحمةَ الدارَّة من العلىِّ إلى

---

(١) الوهن : الضعف .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٥١

(٣) لولا أن يدفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض وهلكت . قال سائر المفسرين : ولولا دفاع المؤمنين الأبرار عن الفجار والكفار لفسدت الأرض وهلكت . وذكر الثعلبي حديثاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يدفع العذاب بمن يصلى من أمتي عمن لا يصلى وبمن يزكى عمن لا يزكى وبمن يصوم عمن لا يصوم وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يجاهد عمن لا يجاهد ، ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ماأنظرهم طرفة عين ؛ ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولادفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

ولكن الله ذو فضل على العالمين : بين سبحانه أن دفعه بالمؤمنين شر الكافرين فضل منه ونعمة .

العَبْد ، والبركة المنتشرة فى أحوال العَبْد وأموره – بكت السموات والأَرض .

وإذا افتقدت العُبُودَةَ السمواتُ والأَرض ومَنْ عَبَدهُ على وَجْه الأَرض ، وأنوار الطاعات المُنْتَشرة من العَبْد إلى اللهِ تعالى فى جَوِّ السماءِ بَكَتَا لفَقْدِه .

مثل المتكل على ماله

مَثَلُ المُتَّكِلِ على مالِه مَثَلُ عَبْدٍ أعطاه مَوْلاَهُ رَأْسَ مالٍ ليتصَّرف ويَتَّجِر ، والربحُ للعبد ؛ فضرب العَبْدُ بهذا المالِ يمينا وشمالا ، وتصرَّف فى أنواع التِّجَارات والبضائع ، فباع واشترى ؛ فصار هذا المالُ كلُّه نَسيئةً (١) . وإذا نظر فى الدِّيوان (٢) رأى أَنَّ على فلان كذَا وعلى فلان كذا ، وعلى فلان كذا ؛ فتجمَّع أُلوفٌ أَضْعاف رَأْس المال ، كلُّها نَسيئة ؛ فإذا كان أَحْمَق (٣) طابت نَفْسُه بالآلاف التى يُحْصِيها واتَّكَل عليها ، ولا ينظر إلى ماتَحَصَّل له فى يده ، فكم من غَرِيمٍ (٤) بايَعْتَه على الوفاءِ ، وهو عندك مَلِيٌّ (٥) ؛ فإذا أَتى

(١) نسأه : أخره .
(٢) الديوان : مجتمع الصحف . يريد الدفتر الذى يقيد فيه ما على الناس من دين .
(٣) الحمق : فساد فى العقل .
(٤) غريم : مدين .
(٥) ملئ : غنى متمول .

على ذلكَ مدةٌ ظهر إفلاسُه ، ولَوَى [١] ماعليه ، فلم يحصل له منه إلاَّ كتابةُ اسْمِه فى دِيوانك ، وتَقْدير مَاعليه حسابا ؛ وربما يحصِّل منه شئ وذهب بشئ فأَنْتَ على غير ثِقَةٍ مِنْ غُرَمائك حتى تقبضَ منه ، وتنقد بعد القَبْضِ وتستَيْقِن بأَنها خِيَار تَنْفُق [٢] فى كلِّ سُوقٍ إلا فى سُوقِ الوَضَح [٣] التى لاتُبَاع ولا تشترى إلا بالدَّرَاهم الوَضح [٤] .

فالعَبْدُ المُؤْمِنُ قد أَعطاه اللهُ تعالى رأْسَ المالِ ؛ وهو الإيمان والتوحيد ، وأَمَره أَنْ يتَّجِرَ بأَنواع من الطاعات و أعمال البِرِّ ، والأَرباح لك ، لتُنْفِقَ على نفسك يوم فَقْرك ؛ فإذا اتَّجر ورَبِح من الصوم والصلاة والزكاة والحج وسائر [٥] أعمال البِر ؛ فهذه الأَعمالُ كلُّها كأُولئكَ الغرماءِ الذين يَرْجُو أَرْباحَهم التى رَبِح على رَأْسِ ماله ، أَى أَعمال الطاعات كلّها ؛ رِبحُ التوحيد ، والتوحيد رَأْس المالِ لايُقْبَلُ عمَلٌ إلا به ، ومنه يخرجُ رِبْحُ المُؤْمِن ؛ لأَنه لم يتَبَيَّن القبولَ فهو على غَرَرٍ [٦] منْهُ ، فإذا اتَّكَل على هذه ،

---

(١) لواه ماعليه : أنكره .
(٢) تنفق : تروج .
(٣) الوضح : حلى من الفضة .
(٤) الوضح : الدرهم الصحيح .
(٥) سائر : باق .
(٦) الغرر : ماكان له ظاهر يغر المشترى وباطن مجهول .

وحُوسِبَ يَوْمَ الحساب ، وحُصِّلَ مافى الصُّدُورِ [١] ، وطُولِبَ بالصِّدْقِ والإخلاص منها ، فلم يوجَدْ فى كثيرٍ منها الصدقُ والإخلاصُ ، فرَضِىَ بذلك العملِ ؛ فكان كهذا الغَرِيمِ الذى ظهَرهاهنا إفلاسُه ، فلم يَنَلْ منه رِبْحًا ، وخِيفَ على رَأْسِ ماله أيضا ؛ لأَنَّه عَمِلَ لغير الله تعالى ، واستهزأ بـأَمْرِ اللهِ تعالى ، وآثَرَ [٢] دُنْيَاه وهَوَى نَفْسِه على مَحْبُوبِ اللهِ تعالى ومختارِه ؛ فهذا كهؤُلاءِ الغُرَماءِ الَّذين ظهرهاهنا إفْلَاسُهم ، فلم يَبْقَ فى أَيْدِيهم إلادِيوانُ الكتَبة .

فالعَبْدُ إنْ كان كيِّسا [٣] يَبِيعُ ويَشْتَرِى نَقْدا برِبْح يسير ؛ لأَنَّ اليَسِيرَ من الرِّبْح مع قِيامِ رَأْسِ المال خَيْرٌ من الرِّبْحِ الكثير مع هلاك رَأْسِ المال ؛ أَو إذا باع نَسِيئةً يـأْخذُ بالثقة ، وعَامَلَ الغُرماءَ بالوَثَائق ؛ إمّا الرَّهْنُ أَو الكَفَالة [٤] على مَلِى [٥] ؛ واستَقْصَى النَّظَر ، ثم لم يُقْنِعْهُ ذلك فهو أَبدًا خائفٌ من أنْ يَضِيعَ رَأْسُ المال ورُبَّما غَرِق فى الربح للنَّسِيئة ؛ ومع ذلك الخَطَرُ باقٍ ؛ وذلك لأَنَّه ربما يَهْلك الرَّهْنُ فيهلك بما فيه مِنَ الدَّيْن ، أَو يموت الكَفِيل ، أَو يَغِيب غَيْبةً منقطعة ؛ فيهلك مالُه .

---

(١) حصل مافى الصدور : ميز مافيها من خير وشر .

(٢) آثر : فضل ، وقدم .

(٣) كيساً : عاقلا .

(٤) الكفالة : الضمان .

(٥) ملى : غنى .

فكذا مَنْ عامل فى الطاعات ووقع فى الأهواء ؛ مثل القَدَريَّة[١] ، والجَبْرِيّه ، والمُعَطِّلة ، والمشبّهة ؛ فغرق رَأْسُ مالِهم فى أرباحهم ؛ فصارت كلُّهانَسيئةً من غير ثِقَة ولا ملاءٍ[٢].

فالكيِّسُ لَمَّا رأى ذلك قال : إنى لاأبايع ولا أُتَاجِرُ أحدًا إلاَّ برَهينة وكَفيل[٣] ووَثائق ؛ فالقليلُ من الربح مع وَفَارَةِ رَأْسِ المال خَيْرٌ من كثير الأرباح مع تَضْييع رأسِ المالِ ؛ فإذا المالُ والأرباحُ قد ذهبت كلُّها ؛ لأنها صارت فى غير مَلاءَةٍ ولا ثِقَة ؛ فإنَّ هذه الأرباحَ كلَّها على خَطَر ؛ فينبغى أنْ يكونَ كفيلُه ثقةً مُجانِبَ الأَهْوَاءِ .

وكُنْ على حَذَرٍ وتَقْوى من الاستماع إلى كلامهم ؛ فإنه كلُّه هَلَاكٌ وتَوًى[٤] ؛ والْزَمْ السَّوَادَ[٥] الأعظم الذى أشار إليه صاحبُ الشَّرْع صَلَواتُ اللهِ عليه ، واتَّبعْ سَبيلَه[٦] ؛ فقد أَمَرَنَا اللهُ تعالى فى

(١) ارجع إلى هامش رقم ١ صفحة ٢٠٦

(٢) الملاء : الأغنياء المتمولون ، أو الحسنو القضاء منهم ، الواحد ملىء ، وقد ملأ — كمنع وسمع . ملاءة وملاء .

(٣) كفيل : ضامن .

(٤) توى : هلاك (القاموس) .

(٥) السواد : جملة الناس ومعظمهم ،وقد أشار إليه الرسول فى قوله : عليكم بالسواد الأعظم ، ، أى جملة الناس ومعظمهم الذين يجتمعون على طاعة السلطان ، وسلوك النهج القويم (النهاية) .

(٦) سبيله : طريقه .

تنزيله بذلك ؛ فقال جَلّ ذِكْرُه [1] : (لقد كانَ لَكُمْ في رَسول اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[2] .

فالأُسْوَةُ الحسنةُ اتِّبَاعُ كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم . وسُنَنِ خلفائه الراشدين المَهْدِيِّين الذين قَضَوْا بالحق ، وبه يَعْدِلون [3] .

وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلم فى خطبته : إنكم ستَرَوْنَ مِنْ بَعْدى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسُنَّتى وسُنَّةِ الخلفاءِ من بعدى ، عضُّوا عليها بالنَّواجذ [4] .

فاتِّكَالُ الكَيِّس [5] على رَحْمةِ اللهِ تعالى الذى أَعْطَى منها رَأْسَ المال ، فتلكَ رَهِينتُه ووثيقتُه ؛ وحُسْنُ ظَنِّهم باللهِ تعالى كفيلُه ، فأَوْفَرُهم من حُسْنِ الظنِّ به أقواهم كفيلا ، و أَمْلؤهم أداءً ومُقْتَضيه من غُرَمائه دَعَوَاته وتضرُّعه إلى اللهتعالى .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١

(٢) الأسوة : القدوة . وهذا عتاب للمتخلفين عن القتال ؛ أى كان لكم قدوة فى النبى صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله فى خروجه إلى الخندق . وقيل : الأسوة فى جوع النبى صلى الله عليه وسلم . أو الأسوة فى جميع أحواله ، فلقد شج وجهه ، وكسرت رباعيته . وقتل عمه حمزة ، وجاع بطنه ، ولم يلف إلا صابراً محتسباً وشاكرا راضياً .

(٣) وبه يعدلون ؛ أى فى الحكم .

(٤) النواجذ من الأسنان : الضواحك التى تبدو عند الضحك . أو أقصى الأسنان . ومعنى عضوا عليها بالنواجذ : تمسكوا بها كما يتمسك العاض بجميع أضراسه (النهاية)

(٥) الكيس : العاقل .

فعليكَ بحفْظِ الرَّهْن لئلا يَهْلك فَتَذْهبَ بِدَيْنك ؛ واحْبِس الكفيلَ لئلاَّ يَغيبَ فيذْهَب بما عليه ؛ وعليك بالتقاضِى [١] كلَّ يوم بالدُّعاءِ والتضَرُّع والبُكاءِ بالنيَّات الخالصةِ لِتُجَابَ .

مثل حركات المؤمن

مثَلُ حركاتِ المُؤْمنِ مع الحفَظة مثَلُ رجلٍ له حُرفاءُ [٢] في السُّوقِ ، يُنْفِقُ مالَه فيما يَظْهَر فيه حاجةٌ من السُّوق ، يأْخُذُ من الخبَّاز الخُبْزَ ، ومن القَصَّاب [٣] اللَّحْم ، ومن البَقَّال الحَوائج ، ومنَ الآخَر الفواكه [٨٥] ، ومن البَزَّاز [٤] مايحتاجُ إليه ؛ فهم يكتبون حِسَابَهم ، فإذا أُهِلَّ [٥] الهِلالُ ، وأَخْرَجُوا عليه حسابا جَمّا [٦] وديوانا [٧] طَوِيلا ، فإن قَضَى [٨] ما عليه على رَأْسِ كلِّ شهر تَخِفُّ عليه المئونة [٩] ، وهنِئَتْ له النِّعْمَة ؛ وإنْ

---

(١) في أ : بالنقاض !
(٢) حرفاء : جمع حريف ، وهو المعامل .
(٣) القصاب : الجزار .
(٤) البزاز : بائع البز ، وهو نوع من الثياب .
(٥) أهل الهلال : ظهر .
(٦) جماً : كثيراً .
(٧) الديوان : مجتمع الصحف ، يريد أوراقاً طويلة كتب فيها حسابه وديونه .
(٨) قضى : أدى .
(٩) المئونة : الثقل .

تَغَافَلَ عن ذلك حتى توالَتْ عليه وَظَائفُ [١] الشُّهور والسنين غَرِق فى الدين .

كذا الْعَبْدُ بَيْنَ نِعَمٍ كثيرة ، وديُون كثيرة . والحقُّ يَقْتَضِيه شكر كُلِّ نِعمة ، والعَدْلُ يَقْتَضِيه الاستغفارَ والإنابةِ [٢] من كل خَطيئة . فإذا كان العَبْدُ مُنْتَبِها حَيِّ القلب أَخَذَ لكلِّ نعمة حَمْدًا ، ولكل خَطيئة تَوْبة واستغفارا ، حتى تخفَّ عنه السيئاتُ وأَثْقالُ النِّعم ، ويَمَّحِى مافى الديوان .

وإن تغافلَ عن ذلك ، وحَمِد حَمْدَ الْغَافلين ، واستغفر استغفارَ السّكَارَى على العادة - خرج الحَمْدُ والاستغفارُ منه . ولم يَجِدْ مَسَاغًا [٣] ؛ لأنه ليس بقَلْبه طَرِيقٌ إلى اللهِ تعالى ؛ والطريقُ مسدودٌ بالْهوَى والشهوات - رَجَع الحَمْدُ والاستغفارُ إلى فَمه ، وتراكمت أَثقالُ النِّعَمِ وأدناس الذنوب على القلب فغرقته ، فصار القلب غريقا فى الذنوب كالذي ضربنا له فى المثل ، وكالذى يغرق فى الماء ولم يجدمتعلقا به ولا تخلصا يحصل به الخلاص فيغرق ويهلك فيرجع إلى أنفاسه لايجد متنفسا فيموت غرقا . ومن كان لقلبه طريق إلى الله تعالى وجد حمده واستغفاره مَساغًا إلى مَحلِّ الحَمْدِ والاستغفار ؛

---

(١) الوظيفة : ما يقدر من عمل ورزق وطعام وغير ذلك (المصباح) .

(٢) أناب إلى الله : رجع .

(٣) مساغاً : قبولا ، وسهولة .

فوقعت فى مَحَلِّه ومَرْتَبته ؛ فخففتْ عليه الأثقالَ ، وصارَ كنَهْرٍ وجد مساغًا ؛ فجَرَى بسلاسة ، وإنْ لَمْ يَجِدْ مَسَاغًا تراجَعَ الماءُ فصار بَحْرًا يغرق فيه صاحبُه .

مثل العمال بطاعة الله

مَثَلُ العُمَّالِ بطاعة الله تعالى مَثَلُ مَلِك له عبِيد اختارهم لِلْخِدْمة بين يديه على مَرْأَى العَيْنِ ، فمن استَحْلَى منهم خدمتَه يَظْهَرُ ذلكَ فى حِلْيَته وكسْوَته ، فَواحِدٌ بين يديه فى قُرْطُق [1] واحد ومِنْطَقَة [2] ، وغَيْرُه يَدْرُجُ [3] بين يديه على قَدَمَيْه .

وآخر مَعَ قَرَاطِق كثيرة ، بعْضُها على بَعْض ، مِنْ بَيْنِ دِيباج وحَرير وساج [4] وكتَّان ، لَوْنٌ على لَوْن ، ومِنْطَقة ذَهب فيها فُصُوصٌ وجواهر ، كلُّ فَصٍّ له ثَمَنٌ نَفيس وإكْليل كمثلها ، وبيَدِه ضَبَائر [5] الرَّيْحَان مِنْ كلِّ لَوْنٍ من الوَرْدِ والْبَانِ والياسمين ، يفوحُ منه رِيحُ المِسْك .

فعَيْنُ هذا المَلِكِ على مِثْلِ هذا الخادم ؛ فإذا سار بين يَدَيْه سارَ على مَوْكبه بحَرَسه ولِوَائه .

---

(١) القرطق : لبس . وقرطقته فتقرطق : ألبسته إياه فلبسه . وجمعه قراطق . (القاموس) .

(٢) المنطقة : كل ما شد به الوسط (اللسان — نطق) .

(٣) يدرج : يمشى .

(٤) الساج : الطيلسان الأخضر ، أو الأسود (القاموس) .

(٥) ضبائر : مجموعات .

فإنما نال هذه الرُّتْبَةَ والمَحَلَّ والتمكين ؛ لأنه استحلى صورته وخِلْقَته ، وهَيْئته وخِدْمته ، وأدبه وكِيَاسَته ، وظَرْفه ، ومَحاسن أفعاله ، وطهارة خُلُقه ؛ ولو كان دَميما فى خلقته ، سَمِجًا [(١)] أَبْلَهَ [(٢)] فى أخلاقه ، سيِّئ الخُلُق ، كَسْلان الخدمة ، لم ينَلْ من هذه المرتبة شيئا إلاَّ مايَقِيه مِنَ الحرِّ والبَرْدِ ، ويَسْتُرُ عَوْرَته ، ويُشْبِعُ بَطْنه .

فكذا العُمَّال بطاعةِ اللهِ تعالى إنما يَعْمَلُونَ بإِذْنِ رَبِّهم ؛ فمَنْ كان طاهرَ الخُلُق ، كَيِّسَ الذِّهْنِ ، فَطِنَ [(٣)] الفَهْم ، عاقِلَ اللُّبِّ [(٤)] ، ذا حَظٍّ [(٥)] من الحِكْمة كان الإِذْنُ لَهُ بين يدى الملك أَوْسَعَ وأكبر ، وكان كالعَبْد الذى تلوَّنَتْ كسوته وزِينتُه بين يدى المَلِك ؛ فإنما كساهُ الملكُ بهذه الألوان ؛ لأنه وجده بحيث يَلِيقُ به هذه الألوانُ كلُّها ، وأعطاه ضَبائِرَ الرَّيْحَان لنَزَاهته [(٦)] وطيبه وكِيَاسته ؛ فهذا العَبْدُ بطهارة خُلُقه ، وصَفَاءِ قَلْبه ، ووَفَارة [(٧)] عَقْله ،

---

(١) سمج : قبح ، والسماجة : القبح .

(٢) بله : ضعف عقله ، وهو أبله ، وهى بلهاء . وفى الأصول : أبلهاً .

(٣) الفطن : الحاذق العارف بالشئ حق المعرفة .

(٤) اللب : العقل .

(٥) الحظ : النصيب .

(٦) نزه الرجل : تباعد عن كل مكروه ، ورجل نزه الخلق ونازه النفس : عفيف متكرم .

(٧) وفارة : تمام .

وإدراك حكمته - سقاه الملكُ الأعلى شربةً من كأسِ حُبِّه حتى سكر عَقْلُه عن جميع أحوال النفس ، حتى صار كلُّ أمورِه من المحبوب والمكروه عنده حُلْوًا ، يجدُ ثمرةَ الحُبّ ، فبكياسةِ ذِهْنه أدركَ دَقائقَ الحكمة . وبفَهْمه وفِطْنَته بلغ محلَّ الخِدمة ، وعَرفَ أوقاتَ الملك و أوقات الأَشياء ؛ فإن الخِدْمةَ ذاتُ ألوان وفنون ؛ وبعَقْله ولُبِّه عَظَّمَ أمْرَها وصانَها ، وبحِكْمته أمسكها اللهُ تعالى ؛ فهذا الكيِّسُ الفَطِن الذى إذا نالَ الحِكمةَ نظر إلى عمل من أعمال البِرّ ، فيقول : ماهذا ؟ ففَهِم أنَّ هذا محبوبُ اللهِ تعالى - قام إلى ذلك مُحْتَسبًا [١]

قال له قائل : بينِّ واحدًا مِنْ هذا [٢] حتى نَفْهَم .

قال : إنَّ اللهَ تعالى أمرنا بالصَّلاةِ والصَّوْمِ وغيرهما ، فإذا نَظَر الكَيِّسُ بنور الحكمةِ أنَّ فى الصلاة أمْرَه [٣] ، وفيها قِيامٌ بين يَدَيْه . ودَلَّهُ عليه عِلْمٌ بفهمه وحكمته ، أنها محبوبُ اللهِ تعالى ؛ فهل أحبَّ قيامى بين يديه إلا مِنْ أَجل أنه أَحَبَّنى ، فبحُبِّه إياى أَعطانى موطنَ القيَام بين يَدَيه ، فاطَّلَع بفهمه على أمْرٍ عظيم ، يَسْتَدِلّ بذلك على أنه حبيبُه . ومن حبِّه له أحبَّ كونَه بين يديه ؛

---

(١) احتسب الأجر على الله : ادخره عنده لا يرجو ثواب الدنيا .

(٢) هذا بالأصول .

(٣) أمره : أمر الله .

فإذا فهم هذا كانت صَلاَتُه قُرَّةَ عَيْنه ، وخُروجه عنها مصيبة عظيمة . وكذا فى كل نوع من أنواع البِرِّ هذا .

مثل الثناء والتسبيح

مثل الثَّنَاء والتسبيح لله تعالى مَثَلُ ملكٍ بين يديه خَدَم ، استقبله أَمْرٌ ، فوجَّهَهُم إلى عَمَلٍ لايَنْفَكُّ فى ذلكَ العمل [١] ؛ فوجَّه عَبِيدَهُ وعَسْكَره إلى ذلك الأَمْرِ ، فذهبوا عِجَالا [٢] فأَتَمُّوا ذلكَ الأَمْرَ ، ورَجعوا إلى مَقَام الخدْمة مُنْتَصبين ؛ فما مِنْ أَحدٍ منهم رَجَعَ عن طريقه الا أَخَذَه من غُبَار الطَّرِيق .

ولما أَرادوا الدخولَ بين يدى الملك فأَوَّلا نَفَضُوا الغُبَار عن رُءُوسهم وثيابِهم حتى يدخُلُوا على الملك على هيئتهم التى كانت لهم قَبْلَ ذلك بين يديه ، مع الطَّرَاوَة [٣] والنَّقَاوَة [٥] .

فكذا العِبَاد المؤمنون إذا مارسُوا أُمورَ الدنيا ، وخالطُوا الخَلْقَ لم يَخْلُوا من الغُبَار والأَدْنَاس الذى حلَّ بهم ، وإن اجتَهَدُوا فى الصِّدْق والتقوى والتدبُّر ؛ فيرجعون إلى رَبِّهم بالثَّنَاء والتسبيح ليكونَ ذلك نَفْضًا لما لَحِقَهُم من الأَدناس ، ونالهم من الغُبَار والدُّخان ، ليتطهَّروا ؛ فيصيرون أَهلاً للدخول بين يَدَى مَليكهم .

---

(١) فى ب : العلم .

(٢) عجالا : مسرعين .

(٣) الطرى : الغض .

(٤) النقاوة : النظافة .

مثل المجتمعين على ذكر الله بكرة وعشيا

مَثَل المجتمعين على ذِكْرِ الله بُكْرةً وعَشِيَّةً ، فذكروه ، ثم رَفَعُوا إليه أَيْدِيهم مُرْتَقِبين [١] ، فسأَلُوهُ الرَّغَائب [٢] مَثَلُ قوم مِنَ الفُقَرَاءِ والمساكين لهم « وارنبد » بالأَعجمية ، كلُّهم على عصى اجتمعوا ، وأَخذَ كلُّ واحدٍ منهم بِيَدِ صاحبِه حتى صاروا كلُّهم كواحد ، ثم اجتمعوا على بابٍ وبابٍ وبابٍ ؛ منهم مَنْ يَرْكض برِجْلِهِ رَكْضًا [٣] ، ومنهم برَأْسِه هَزًّا ، ومنهم بالأَيْدِى شَدًّا ، ومنهم بالأَلْسُن لَحْنًا ، وبالأَصوات لَحْنًا [٤] وغِنَاءً . وبالعيون لَحْظًا ؛ فلهم دُنوٌّ [٥] من كلِّ بابٍ على تلكَ الحالِ ، فيُخْرَجُ لهم من كل بابٍ شَىْءٌ [٦] ؛ فمن باب ثِيَابٌ ، ومن بابٍ طعامٌ ، ومن باب شَرَابٌ ، ومن بابٍ فَوَاكه ، ومن بابٍ لحم ، ومن باب إِدَام [٧] .

فكذا المجتمعون على ذِكْرِ اللهِ إذا طاب ذِكْرُهم ، وسُقُوا بالكأْس الأَوْفَى ؛ فطرِبُوا وملَكَتْهُم بَهْجَةُ الحبيبِ ، ودَبَّ فيهم سُكْر الكَأْس ،

---

(١) مرتقبين : منتظرين .
(٢) الرغائب : الرغبات .
(٣) ركضاً : جرياً .
(٤) لحن فى قراءته : طرب فيها .
(٥) دنو : قرب .
(٦) فى أ ، ب : شيئاً ، تحريف .
(٧) الإدام : ما يؤتدم به .

وطارت عقولُهم إلى وَلِيّ الكَأْس ، فسقَوا هناك [٨٦] صِرْفا (١) فاعتادَ أَوَّلهم وقائدهم على محلِّ النَّجْوَى ، وتُحْفَة (٢) التحيةِ ؛ ولهم دَوَران وطَوَاف على الأَبوابِ لاسِيَّمَا ولهم من كل بابٍ اسْم تحفة ونَوَال على قَدْرِ حَظّه من ذلكَ الاسْمِ ، وعلى ما تضمَّنَ ذلكَ الاسم .

مثل أسماء الله تعالى

مَثَلُ أسماءِ اللهِ تعالى مثَلُ ملكٍ له بُستان أَحاطَه بحائط ، وله غَرْسٌ و أَشجارٌ ذاتُ أَلوان من الفواكه وفُنونٍ (٣) النِّعَم ، فساقَ إلى عَبِيده : كُلُوا من هذه الثِّمارِ ، واشْرَبُوا من هذه الأَنْهار ؛ فهذا مَعَاشُكم ومَأْوَاكم ، ولكن شأْنكم مَرَمَّة (٤) هذا البُسْتَان ؛ من جَرْيِ النهر ، وحِفْظِ البساتين من مَنَابِت السُّوءِ ؛ فإنكم لو قَصَّرْتُم فى هذا الأَمْر فَعَن قريبٍ انْكَبَس (٥) النَّهْرُ ، ويَبِست الأَشجارُ ، ونبتت مَنَابتُ السوءِ من القَتِّ (٦) وغيرها ؛ فتتغيَّرُ الأَلوانُ ، ولا تَتَوَرَّد .

فانظروا إلى نَزَاهة هذه الثِّمارِ والأَوْرَاد والرَّيَاحين ، فمن لم يسمَنْ على أَكْلِ هذه الثمار ، وشرب هذا الماءَ فعلى أَيّ شيءٍ يَسْمَن ؟

---

(١) صرفاً : خالصاً .

(٢) تحفة : هدية ، فالتحفة : ما أتحفت به غيرك .

(٣) فنون : أنواع .

(٤) مرمة : إصلاح .

(٥) كبس البئر والنهر يكبسهما : طمهما بالتراب .

(٦) القت : حب برى لا ينبته الآدمى (المصباح) .

فالماء أصله واحد في الصَّفاء والعذوبة . فإذا نظرتَ إلى ثمرة كل شجرة وجدت إحداها حلوًا ، وأخرى حامضًا ، وأخرى مرًّا ، وأخرى باردا ، وأخرى حارًّا . وأخرى بين الحموضة والحلاوة ؛ فكل شيء له نفع دون صاحبه .

فكذا الله تعالى هيَّأ لعباده بُستانا ، وأحاط له حائطا ، وشقّ نهرًا ، وأجرَى الماء . وأنبتَ الأشجارَ ، وأخرج من كلِّ شجرة لونا من الثمرة ؛ فالحائطُ مِلْكُه ، والنهر لِصْقُه [1] ، والماءُ ماءُ الحياةِ — أجْرَى ماءَ الحياةِ في نَهْرِ اللُّطْفِ إلى هذه الأشجار ، وهو أسماؤه الحُسْنَى . وأجرى إلى العبا د كلَّ اسم حُلْوًا وحامضًا ، وعَذْبا ومُرًّا ، وباردًا وحارًّا . فمِنَ اسْمِه الرزَّاق رزَقهم ، ومِنَ اسْمِه التوَّاب تاب عليهم . ومِنَ اسْمِه الغَفَّار غفر لهم . ومِنَ اسْمِه العزيز جاد عليهم ، ومن اسْمِه الرءُوف رَؤُف بهم ، ومِنَ اسْمِه الرحمن رَحِمهم في دينهم ، ومِنَ اسْمِه الرحيم رَحِمهم في الدنيا والآخرة ، ومِنَ اسْمِه الوَكيل توكَّلَ بهم ، ومِنَ اسْمِه الكَفيل تكفَّلَ لهم ، ومن اسْمِه العظيم أغناهم ، ومِن اسْمِه الجليل أعزَّهم . ومِنَ اسْمِه الكريم أكرمهم ، ومِنَ اسْمِه المنَّان مَنَّ عليهم بالرحمة العُظْمَى ؛ فهَدَاهُمْ . ومِنْ اسْمِه « الله » اجتباهم [2] ووَلَّهَ [3] قلوبَهم وعلَّقَ ؛ فمِنْ كلَّ اسْم أهدَىَ إليهم

(١) لصق الشيء بغيره لصقاً ولصوقاً : لزق . وهو لصقه : بجانبه .

(٢) اجتباهم : اختارهم .   (٣) الوله : شدة الحب .

ما وُضِعَ فى ذلك الاسم ؛ لأنه مِنْ أجلهم أخرج الأسماءَ إليهم ؛ فمَنْ كان أشدَّ محافظةً لهم ، وإكْبَابًا عليهم ، وأدْوَم قياما على نَفْسه ، كانت فُوَّهَةُ نَهْرِهِ أوْسع ، والماءُ فيه أكثر . ووجدنا أنَّ هذه الثمرةَ إنما يُسيغُها آكِلُها بالماءِ الذى فى قَبْوِ حَنَكه . ويَجِدُ لذةَ الأشياءِ بذلك فى ذلكَ الموضع ، فبتلك القُوَّةِ ينتفعُ بهذه الثمار .

فكذا القَلْبُ إذا لم تكُنْ فيه تلكَ المحبَّةُ اللذيذة التى يجِدُ حلاوَتَها فى قَلْبِه لم يجِدْ حلاوةَ هذه الأسماء ؛ فبالحُبِّ ينالُ طعمَ ما فى هذه الأسماءِ من هذه المعانى التى فى الاسم . فلكلِّ اسْم بما فيه من معناه أكلا يسمن عليه ، كما يسمنُ صاحبُ الأشجارِ من أكْلِ تلك الثمار التى أثمرت هذه الأشجارُ ؛ فالأسماءُ ثمرتُها معانيها ، وسُقْيَاها ماءُ الحياةِ ، فإذا لم يكن القَلْبُ حيًّا لم تكُنْ له تلكَ المحبةَ التى من الحياة العطائيّة ؛ فإذًا هذه الأسماءُ له كالأشجارِ التى قد انقطع ماؤُها فلم تُثْمِرْ ، ولم تتورَّقْ ، ولم تتوَرَّدْ . ويَبِست الأشجارُ فلا تصلُحُ إلا للحَرْق .

وإذا أجْرى ماءَ الحياة ، وانْتَبَه القَلْبُ ، وحَيِىَ باللهِ جاءَت المحبَّةُ .

فبِحَلاوَةِ المحبَّةِ تَحْلُو الأسماءُ ، ويجدالقلْبُ لذةَ تلك الحلاوَة .

ويرطب بذلك اللَّطف (١) ؛ لأَنَّ في الأَسماءِ صِفَاتِ المحبوب ولَطَفَه (١) ، وآلاءه (٢) ، وأَخلاقه ، وكرمَه ، ورَحمتَه ، وأَفضالَه ؛ فعلى قَدْرِ محبَّتِه له يجدُ حلاوَةَ الصفاتِ ، واللَّطَف ، والآلاءِ ، والأَخلاقِ ، والعَطْفِ ، والكرم ؛ وتَعْظُم أَفعالُه عندك ، ويَأْخُذ مِنْ قَلْبِك سلطانَ ذلك الفِعْل ؛ فإِذا أَثنى على ربِّه ، أَو مَدحَه ، أَو دَعاه باسم من أَسمائه ، فإِنه يُخْرِجُ كلمتَه مِنْ فِيه على قَدْرِ سُلطانه من القَلْب ، ومَمْلكة القلب من الحياة والمحَبَّة .

مثل من يردد ذكر الله في قلبه

مَثَل مَنْ يُرَدِّدُ ذِكْرَ اللهِ في قلبه ولسانِه مثلُ ماءٍ راكدٍ في مَوْضعٍ قد أَحاطَ به زَبَد وغُثَاءٌ (٣) ، فإِذا هاجت الريحُ فضَربت الماءَ يَذهب ذلك الغُثَاءُ والزَّبَد إِلى ناحيةٍ من الماءِ ، وبَقِيَ الماءُ صافيًا ، فكلما ازْدَادَ هيَجَانُ الرِّيح ازداد اضطرابُ الماءِ ، فازدادت صفوةُ الماءِ ، حتى يَأْتي بمَحْضِ (٤) الماءِ الذي في وَسطه .

فكذا كلما تردَّدَ الذِّكْرُ ، وتَتَابَع ، ازدادَ قوةً في قَلْبه ، وصفوةً في ذِكْرِه ، حتى تَمْلأَ مِنْ نُورِ ذِكْرِه السمواتُ والأَرْضُ .

(١) لطف الله بنا لطفاً : رفق بنا ، فهو لطيف بنا (المختار) .

(٢) آلاؤه : نعمه .

(٣) الزبد من البحر وغيره : كالرغوة . والغثاء : البالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل .

(٤) محض الماء : خالصه وصافيه .

وكذا جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنَّ الْعَبْدَ إذا قال الحمدُ لله ملأَ نُورُه ما بين السماءِ والأَرض . وإذا قالها ثانياً ملأَ ما بين العرش إلى الثَّرى [١] .

ففي أول دفعة قالها صَفَّتِ المَجْرَى . وذهب الغُثَاءُ المحيطُ على الصَّدْرِ . فظهر الصَّفَاءُ . فإذا قالها ثانياً فإنما قالها مِنْ صَفَاءِ العِلْمِ باللهِ ، فازداد طريقُ مَجْرَاها صفاءً ، فأخرجها من مَحْضِ القَلْبِ عن عَيْشٍ [٢] الحَمْدِ ؛ لأَنَّ عِلْمَ هذه الكلمة في قلبه ؛ فكلما انكشفَ الغِطَاءُ عن العلم كان أَصْفَى وأَنْوَر ، وأعظم أَجْرًا ، حتى ملأَ ما بين الخافِقَيْنِ [٣] ومن العَرْشِ إلى الثَّرَى مِنْ نُور الكلمةِ مِنْ فِيهِ .

مثل من يعبد الله بلا علم

مَثَلُ مَنْ يعبُدُ اللهَ بلا عِلْمٍ مثلُ مَنْ يتَّجِرُ بلا بَصَرٍ في السِّلَع [٤] ، ولا عِلْمٍ بأسعارِها ولا بجَوَاهرِها ولا بقيمتها ، ولا بنَقْدِ الأَثْمان ، فإذا اشترى اشترى بغلاءٍ ، وإنْ باعَ باعَ بوَكْس [٥] ، وإن اقتضى زُيُوفاً [٦] وبهرجة [٧] على عمًى ودُلْسَة [٧] .

(١) الثرى : التراب . أو التراب الندى . ويريد الأرض .

(٢) في ا : عش . (٣) الخافقين : المشرق والمغرب .

(٤) السلعة : البضاعة . وجمعها سلع (المصباح) .

(٥) وكس : نقصان . (٦) زافت الدراهم : ردأت .

(٧) البهرج : الردئ من الشئ . ودرهم بهرج : ردئ الفضة . وفي أ ، ب : ونبهرجة !

(٨) الدلسة : الخديعة . ودلس البائع تدليساً : كتم عيب السلعة من المشترى وأخفاه . ويقال أيضاً : دلس دلساً - مثل ضرب ضرباً . والتشديد أشهر (المصباح) .

مثل من يتعلم العلم ولا يعمل به ولا يعلمه الناس

مَثَلُ مَنْ يتعلَّم العلْم ولا يعمَلُ به ولا يعلِّمُه الناس مثَلُ رَجُلٍ رزقه اللهُ مالا كثيرا فكنَزَه تحْتَ الأَرضِ . فلا يُنْفِقُ منه على نَفْسه ، ولا يصلُ الناسَ به ؛ فلا ينتفعُ به هو ولا غيره ؛ وصار وَبالاً [١] عليه في المَعَاد .

ومثَله أيضاً مثَل الكلبِ اتَّخذ مَأْوًى [٢] في مَعْلَف [٣] فيه تِبْنٌ كثير ؛ لايَعْتَلِفُ هو، ولا يَدَعُ غَيْرَه ليَعْلِفَ به دَوَابَّه ؛ فكلَّ مَنْ قصدَ ذلك نَبحه ودَفَعه [٤] عنه .

فهذا أيضا لا يعملُ به فيَنْفَعه في الدارين . ولا يعلِّمُ غيره ؛ لايسلك به طريقَ الجنة هو بنفسه ، ولا يُرْشِدُ غَيْرَه .

مثل من يتعلم العلم ويعمل به ولا يعلم غيره

ومثَلُ الذي يتعلَّمُ العلْمَ فيعملُ به ولا يُعَلِّم غيره مثَل رجُلٍ رزقه الله مالاً جمًا [٥] ، فانتفعَ به ، وتنعَّم به آناءَ الليلِ والنَّهار ، ولا يعطفُ بشيء منه على الجيران والأَقارب والمسلمين .

مثل من يتعلم العلم ويعمل به

ومثَل مَنْ يتعلَّمُ العِلْمَ فيعملُ به مثلُ رجُلٍ رَزَقَهُ الله مالاً

---

(١) الوبال : الضرر والمكروه يلحق المرء .

(٢) المأوى لكل حيوان : سكنه .

(٣) المعلف : موضع العلف . والعلف : ماتأكله الدابة .

(٤) دفعه : رده ومنعه .

(٥) جماً : كثيراً .

طَيِّبًا . فانتفع به وتنعَّمَ به ، وأَنْفَقَ على الجيران والأَقارب والمسلمين.

مثل من يتعلم العلم ولا يعمل به ويعلمه الناس

ومثَل مَنْ يتعلَّمُ العِلْمَ ولا يعْمَلُ به ويعلِّمه الناسَ مثلُ رجل [٨٧] رزَقَه اللهُ مالا كثيرا فكلُّ مَنْ أَخذَ منه أَو سرق منه لايُبَالِي به ، ولا يُنْفِقُ على نفسه وعلى عِيَاله شيئا(١) . وتموت عياله جُوعا وعُرْيا(٢) وهو أَيضا فى بُؤْس وفَاقَة (٣) من المطعم والمَشْرب ، لايُطيق أَنْ يأْكلَ منه شيئًا (١) بنفسه ، أَو يُنْفِق على عِيَاله ؛ فقد خَسِر هو فى الدُّنْيَا والآخرة .

ومَثَل مَنْ يتعلَّم العِلْمَ ولا يعمَلُ به ويَبْذُله للناسِ للمُبَاهاة (٤) والرِّفْعَة فى الدنيا مثَل السِّراجِ يُضِيءُ للناس ويَحْرِق نفسه .

ومثَله أَيضا مثَل رجُلٍ وضَع السِّراجَ على طَرَف سَطْحه فانتفعَ به المارُّون ، وهو فى بَيْتٍ مظلم لم ينتَفِعْ به . وهو محتاجٌ لذلك .

ومثَل مَنْ يطلُب العلومَ الكثيرةَ وجَمْعَها ، ولم يَعْمَلْ بها ، ولا يُرَى أَثَرُ ذلك عليه . فيجمع العلومَ والكتبَ دائما ولا يَشْبع من طلبها مَثَلُ مَنْ يجمَعُ كلَّ يومٍ وساعةٍ طعاما كثيرا فى بيته من فُنُونِ الأَطعمةِ والأَشْرِبَة والفواكه والطَّيْرِ مما يَتسارع إليه الفَسادُ ،

---

(١) فى الأصول : شيءُ — تحريف .

(٢) فى ب : عرى — تحريف .

(٣) فاقة : فقر .

(٤) المباهاة : المفاخرة .

ولا يطعم منه شيئا وهو جائع غَرْثَان (١) ؛ فكلَّ يوم ٍ يأكلُ مقدار رَغيف مِنْ ذلك مما قد يَبِس وتَكَرَّجَ (٢) ، ويَنْظُرُ إلى ألوانِ الأشياءِ ، ويَبْخَلُ على نفسه ، ولا يشْبَعُ مِنْ جَمْعه كلَّ يوم ، إلى يوم مَوْته ؛ فيَنْتَن بَيْتُه ، وفسدت الأشياءُ ، فتُلْقَى (٣) ، ولا يأكُلها أحَدٌ . وقد مضى .

مثل من يبتغي نزول الرحمة قبل التوبة

مَثَلُ مَنْ يَبْتَغِي (٤) نُزُولَ الرحمةِ من اللهِ تعالى قبْلَ التوبةِ مثَلُ سَاكنٍ فى بيتٍ قد آذاهُ الحرُّ والغمُّ والذِّبَّان (٥) . فكلما دخله يَتَصَبَّبُ فيه عَرَقًا ، ويتقلَّبُ فى غَمِّه ، ويتأذَّى بالذِّبَّان ؛ فإذا أراد أنْ يتزوَّج فيه ، ويتَنَعَّم بالجلوس والنَّوْم والقَرار ، فأوَّلاً ينبغى أنْ يُخرِج مافى البيت من القُمَاشَاتِ (٦) والأطعمة التى فيها مَجْمَع الذِّبَّان ، فذهب فاحتال له فَرَشَّه ، فلا يزال يُديمُ الرشّ بالماء حتى يبرد ، ويبرد الماءُ ؛ فكلما دخله استقبله رَوْحُ (٧) ذلك الرَّشّ ، وطِيبُ ذلك الرَّوْحِ ، فأوَّل فِعْله أنْ يبتدىء فى كَنْسه ؛ فإنَّ فى ذلك

---

(١) غرثان : جوعان (القاموس) . وفى ب : عريان .

(٢) تكرج الخبز : فسد وعلته خضرة .

(٣) تلقى : ترمى .

(٤) يبتغى : يطلب .

(٥) الذبان : الذباب .

(٦) القماش : ماعلى وجه الأرض من فتات الأشياء .

(٧) الروح — بالفتح : نسيم الريح ، والراحة (القاموس) .

البيت قَمَاشَ ونُثَارَ [١] الطَّعَامِ ، ومجمع الذِّبَّان [٢] ، وثُفْل [٣] الفَوَاكه ، وما يُرْمَى به ؛ فليس مِنْ شأْن هذا الذى يُرِيدُ رَوْحه أَنْ يتركَ هذا البيت شِبْه كُناسة ، ويرشّه بالماء ليروح عنه [٤] مغتمه ، فإنَّ هذا يَزِيدُهُ رَائحةً مُنْكَرةً ونَتَنا ، ولكن يكْنُسه مرةً ثم أُخرى بالمِكْنَسة الثقيلة ، ثم يكنسه بالمكنسة الَّلَيِّنة ، ثم يرشُّه بالماء رشًّا بعد رَشٍّ ، فإذا دخله وجد روح ذلك الرشُّ ؛ فإنَّ فى الماء رطوبة وبرودةً ؛ فَيَرُشُّ الماءَ فى كلِّ مرةٍ حتى تَنْشَفَ [٥] الأَرضُ الماءَ ؛ ويكنسُه أُخرى ، ويرشُّ الماءَ ، ثم يَبْسُطُ الحَصِيرَ حتى يطيبَ ، وتَزُولَ عنه الرائحةُ المُنْكَرة ، فإذا انتشفت الأَرضُ رطوبةَ الماءِ بَقِى روح البرودة هناك ، وذهبت الحرارةُ والغُمَّة [٦] ؛ فحينئذ إذا دخل يَجِدُ الروحَ والراحةَ ، فافترقَ الذِّبَّان .

فكذلك صَدْرُ الآدمىّ وقَلْبُه ؛ فإنَّ الشهواتِ فى قلبه ؛ فنَفْسُ الآدَمِىّ كالأَتُّون [٧] الذى يَتلظَّى [٨] لَهَبُ نارِه من الشهوات والهَوَى ،

---

(١) القماش : ماعلى وجه الأرض من فتات الأشياء . ونثر الشئ : رماه متفرقاً . والنثار : ما تناثر منه (القاموس) .

(٢) الذبان : الذباب .

(٣) الثفل : حثالة الشئ ؛ وهو الثخين الذى يبقى أسفل الصافى .

(٤) فى ب : عند .

(٥) تنشف الأرض الماء : تشربه .

(٦) غم اليوم والسماء غما ، وأغم — بالألف : جاء بغم من تكاثف حر أو غيم .

(٧) وتشدد ياؤه أيضاً : الكانون .

(٨) يتلظى : يتوقد .

وشَعلها مُتـأَدِّية إلى جوَارحه ؛ فشُعلة منها تتـأَدَّى إلى العَيْنِ ، فكلما رَمَى ببصره بِقُوّةِ تلك الشُّعْلةِ إلى شيءٍ من زينةِ الدنيا رجعت إلى النَّفْس بلذَّة يَسكر عَقْلُه بها ؛ لأَنَّ تلك اللذةَ سرَى حُبُّها فى نَفْسه ، فتـأَدَّى بذلك الحبِّ إلى الصَّدْر . فسكر العَقْلُ مِنْ ذلك وتَدَنَّس ، فانْكَمَن فى الدماغ ، وامتنع من الإشراقِ ، وافتقد الصَّدْرُ شُعَاعَه الذى كان يَرْمى إلى الصَّدْرِ فيُشْرِقُ على الصَّدْرِ ، ويستنيرُ منه ؛ بمنزلة شَمْسٍ شُعاعها تُضِيءُ به الأَرض ، فيحول بينها وبين الأَرْض سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ قامت بإزَاءِها [١] ، فذهب ضوءُها ، فيصير البيتُ مُظْلما كالليل أَوْشِبْهه .

وشُعْلةٌ منها تتـأَدَّى إلى السَّمْع ، فكلما أَلْقَى سَمْعَه إلى شيءٍ تلذَّذَ به السَّمْعُ . فتـأَدَّت اللذةُ إلى النفس ، فثار دُخانُها إلى الصدر .

وشُعْلةٌ منها تتَـأَدَّى إلى اللسان . وشُعْلة إلى الحَلْقِ . وشُعْلة إلى الفَرْج . وشُعْلة إلى اليَدِ للبَطْش والتناول والبَذْل ؛ وشُعْلة إلى الرِّجْــل .

فهذا الصَّدْرُ كمَزْبَلةٍ ، وفيه فَوَرَانُ هذه الشهواتِ ؛ والبَطْنُ كالأَتُون الذى يُطبَخُ فيه اللَّبَنُ قد احتدَّتْ حرَارَتُه وحَمَيَانه ، فصار اللبنُ فيه أَجزاء [٢] ، يقال بالأَعجمية (بخته) ؛ فلايزال يَمْضُر [٣]

(١) إزاءها : محاذية لها .

(٢) فى ب : آجراً .

(٣) مضر اللبن : حمض وابيض .

الَّلبَنَ ويَذُوب حتى يصير كزُبْرَةِ[١] الحديد ؛ فكذا الشهوات فى البَطْن ، حتى صارت بتلك الصفة ، فمتى يُفْلِحُ هذا ؟ وكيف يَعْبُدُ ربَّه ؟

تطهير الصدور

قال الإمامُ أبو عبد الله[٢] رحمه الله : فمنْ شأْنه أَنْ يبتدىءَ فى كَنْس هذا الصَّدْرِ أَنْ يَقُمّه[٣] حتى يُخْلِيَ صَدْرَه من كُنَاسةِ الذُّنوب ، وقُمَاشَات العُيُوب والفُضول التى فيها ؛ فإذا جاهَد فى هذا حقَّ جِهَاده كما أَمره اللهُ تعالى فى تنزيله[٤] : (جَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)[٥] - فإذا فعل ذلك فحينئذٍ أَمطر اللهُ فى قَلْبِه مَطَرَ الرحمة ، فرشَّ صَدْرَه بماءِ الرحمةِ ، فثارت البرودةُ إلى الجَوْف . فأَطفأَتْ نيرانَ الشهوات ، فبرد الأَتُون ، وصار الصَّدْرُ مُرَوَّحا ببَرْدِ الرحمة التى أَمطرت عليه .

فمَنْ أَراد أَنْ يتعرَّف هذا مِنْ نفسه أنه هل وَصل إليه مطَر الرحمةِ فلينْظُر إلى هذه الشَّهَوَات التى ذكرناها التى فى جَوْفه . هل

(١) الزبرة : القطعة من الحديد .

(٢) الإمام أبو عبد الله : هو المؤلف .

(٣) قمه : كنسه .

(٤) سورة الحج ، آية ٧٨ ، والآية : وجاهدوا . . .

(٥) حق جهاده : قيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتهاء عن كل ما نهى عنه ؛ أى جاهدوا أنفسكم فى طاعة الله وردها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان فى رد وسوسته ، والظلمة فى رد ظلمهم ، والكافرين فى رد كفرهم : (القرطبى : ١٢ - ٩٩) .

سكن تَلَظِّيها (١) ، وانقطعَ لَهَبُها عن الجَوارح ؟ وهل سكنت حدَّةُ بصره بالنظر ، وحِدَّةُ سَمْعِه بالاستماع ، وحِدَّةُ حَلْقه عند المضغ والتَّلَمُّظ (٢) ، وحِدَّةُ لسانه ، حتى ينطقَ فى وقتِ دَوران العرقين بذلك اللسان ، وحدة يَده حين تناول ، وَحِدَّةُ ورِكَيْه حين يَضْطربان باختلاف القَدمين وتخطِّى الركبتين ؛ فإذا افتقد الحدَّةَ فى هذه المواضع فقد استَيْقَن أنَّ التلَظِّى قد سكَنَ فى الجَوْف ، وأنَّ القوةَ — قوةَ الشهوةِ — قد ضعُفَت ؛ فعندها يعلم أنَّ مطرَ الرحمةِ من الماجد الكريم ، العزيز الوهَّاب ، قد حلَّت به ، وأمطرت على صَدْرِه وقَلْبِه حتى طَفِئَت (٣) نارُ الشهواتِ فى نفسه ، وبرَدَ الأَتُّون :

فالكيِّس (٤) هاهنا فَهِمَ وأَدركَ أَمْرَه ، فقال فى نفسه : لم يَزَلْ رَبِّى ماجدًا رَحيما جوَادًا ، فكيف احتبسَتْ عنى رحمتُه حتى عملَتْ هذه النيرانُ فى جَوْفى ماعَملَتْ ، حتى فَضَحنى عند رَبِّى وعند ملائكته الكتَبةُ ، وعند سمائه وأَرْضه ؛ ثم رجَع إلى عَقْله فبَصَّرَه (٥) عَقْلُه أَنَّ هذه الرحمةَ امتنعت عنكَ ؛ لأنكَ تحتاجُ إلى غَسْلِ بيتك

---

(١) تلظيها : توقدها .

(٢) تلمظ : أخرج لسانه فمسح شفتيه . أو تتبع الطعم وتذوق (القاموس) .

(٣) طفئت النار — كسمع : ذهب لهبها . (القاموس) .

(٤) الكيس : العاقل .

(٥) بصره : عرفه .

حتى تطهِّرَهُ من الأَدْنَاسِ والأَوساخ ، فأَقْبَلَ إلى الازدِيَاد كَنْسًا بعد كَنْس ، حتى صار بهيئة مِنْ كثرة تفقُّده أَلاَّ تَسْخُوَ (١) نَفْسُه أَنْ يتركَ فيها تِبْنَةً أَو أَدقَّ (٢) من التِّبْنة فى ذلك البيت حتى يرفعَها [٨٨] ، فكلما ازداد من ذلك توقِّيًا وتفقُّدًا ازداد رَوْحَ قَلْبٍ ، وطيبَ نَفْس للرُّوح والقَلْب ؛ فالنفسُ الدَّنيّة (٣) إذا شَعَرت برحمةِ الله تعالى ، وعلمَتْ بذلك ، تنَزَّهَتْ فى ساحات رِيَاضها ، ومَرَحت فى جِنَانها (٤) وأَشِرت وبَطِرت (٥) ؛ فإذا كان القَلْبُ أَبله (٦) غَتِماً (٧) ، وأُعطى علْمَ الرحمة أَنَّ الله تعالى رَحِيم ، نقل ذلك العِلْمَ إلى النفس حتى تَأْشَرَ (٨) وتَبْطر ، وتَسْتَرْوِح ، وتركض فى فُسحة اللَّذات ، وتستَرْوِح إلى ذلك العلم أن الله تعالى رءُوفٌ رَحيم ، يتردَّى (٩) بذلك فى آبَار الهلاك .

فإذا كان القلْبُ كيِّسا نَقلَ ذلك العلم إلى العَقْل ، فيُبْصِر

---

(١) تسخو نفسه : ترضى .

(٢) أدق : أصغر .

(٣) الدنية : الوضيعة .

(٤) جنان : جمع جنة ؛ وهى الروضة والبستان .

(٥) الأشر والبطر : كفران النعمة ، وعدم الشكر عليها .

(٦) فى أ ، ب : أبلهاً .

(٧) غتم — كتعب ، فهو غتم : لا يفصح شيئاً .

(٨) فى ب : نشر .

(٩) يتردى : يسقط .

العَقْل ، وقال له : هل يستحقُّ الموصوفُ بالرحمة أَنْ تبذُلَ نفسك وتقومَ له بأَمره على أشفار عَيْنيك ، وتضع أموره على رأسك من التعظيم ؛ فإِنَّ الرحمةَ مَديحه ، والممدوح بالرحمة من عَبِيده فى دار الدُّنيا تَسْمُو إليه الأَبصارُ ، وتَهْتَشُّ[١] إليه النفوسُ بهذه الخَصْلَة الموجودة فيه .

وكذا كلُّ خصلةٍ من خصالِ الكَرَمِ من الحُسْن والبَهَاء تَجِدُها فى عَبْد من عَبِيده ، فإِذا عرفتَه بتلك الخصلةِ أَحببتَه عليها حبًّا يَأْخُذُ بقلبك ، ويَسْبى[٢] نَفْسَك ؛ فَرَبُّك الممدوح بهذه المدَائح الموصوف بهذه الصفات أَحقُّ وأَقْمن[٣] أن تأْخذَ مدائحهُ قلبَك وتَسْبِى نفسك ؛ فإِذا علمت أَنه رَحيم فزِدْ فى تعظيمه وتَوْقيره بأَنبيائه وأَحبَّائه وشغوفا بكلامه ، ونصائحه ومَوَاعظه لك شفقةً عليك ورأْفةً بك .

فهذا العَقْلُ يَدُلُّ هذا القلبَ الكَيِّسَ على هذا .

فإِذا كان أَبْلَهَ مالَ إِلىَ النفس ، وقارنَها بالفَرَح بهذه الرحمة أَنَّ ربَّنا ملكٌ كريمٌ رَحِيم ، فتَعَالَ حتى نَرْكُضَ فى هذه الشهوات والنَّهَمَات[٤] نَنْتِطرُ بها ، ونَسْتَقْصِى فى نَهَماتها ؛ فإِذا علِمَه فى

---

(١) تهتش : ترتاح وتنشط .
(٢) يسبى : يأسر .
(٣) أقمن : أحق وأجدر .
(٤) النهمة : الحاجة والشهوة .

هذا بأَنَّ ربَّنا رَحِيم ، قد سودَ وجْهَه ، وأَحْرَق جَسدَه ، ونكَّس قَلْبَه ؛ ولذلك كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يتعوَّذُ دُبرَ[1] كلِّ صلاة : اللهم إنى أَعوذُ بكَ من علمٍ لايَنْفَعُ ، وقَلْبٍ لايَخْشع ، ودُعاءٍ لايُسْمَع ؛ لأَنه قَلْبٌ أَبْلَه[2] جاهل بربّه ، فهو وإن عَلِمَ أَنَّ أَنَّ ربَّه رَءُوف رَحيم فهو جاهلٌ بالرحمة ، لايَدْرِى ماالرحمةُ إلاَّ علْمَ اللسان ؛ فعِلْمُه بالرحمةِ مقدارُ ما أَنْ يقولَ فى نفسه : إنه إذا رُحِمَ فقد نجا من النار ، ولا يَعْلَم بجَهْله بنفسه وبربِّه أَنَّ للهِ تعالى نقمات وسَطَوات يتمنَّى العَبْدُ أَنْ يُصْرَفَ به إلى النار .

العار والخزى بين يدى الله

حدثنى أَحمد بن مَخْلَد ، حدثنى محمد بن أَبى بكر المُقَدَّمى[3] ، عن المُعْتَمِر بن سليمان ، عن خاله فَضْل بن مُؤَمَّل الرَّقَاشى[4] ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر بن عبد الله رضىَ الله عنه ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : والذى نَفْسُ محمدٍ بيده ، إنَّ العارَ والتَّخْزِية لَيَبْلُغان بالْعَبْد فى المَوْقف بين يَدى اللهِ تعالى مايتمنَّى أَنْ يُنْصَرف به ، وقد علم أَنما يُنْصَرفُ به إلى النار .

---

(١) دبر كل صلاة : بعد كل صلاة .
(٢) أبله : ضعيف العقل .
(٣) والتقريب .
(٤) واللباب .

فالعارُ والخِزْى بَيْنَ يدى اللهِ تعالى وجَعُهُ على الأكباد والقلوب ، وعلى الأَرواح ، ووَجَعُ الأَرواح والقلوبِ والأَكباد يَضْعَف[1] على وَجَع الأَجساد أَضعافًا لاتُحْصَى ؛ لأَن الرُّوحَ بحياته يَأْلَم ، والجسدُ بالروحِ يَجِدُ الأَلَم ؛ فإذا خلص إلى الجَسدِ شَىْءٌ أَلم[2] الرُّوحُ منه ، وإذا خلص إلى الروح شئ تضاعفَ الأَلَم للحياة التى فى الرُّوح وشدة شعوره بالأَلم .

المعذب من الموحدين

فالمعذَّبُ من الموحِّدين إذا أُلقِىَ فى النار أُميتَ إماتةً حتى تحرقَ النارُ جسدَه ، ثم يَحْيَا بعد ذلك ؛ هكذا رُوِى لنا عن رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى[3] : (فإنَّ لَهَ جَهَنَّمَ لايَمُوتُ فيها ولا يَحْيَا). قال : أَمَّا الذينَ هم أَهْلُها فإنهم لايموتون ولا يَحْيَوْن[4] . وأَمَّا الذين ليسوا من أَهلها فإنَّ النارَ تُميتُه إماتةً ثم يقوم ويشفع .

معناه عندنا أَنَّ الذين لايموتون فيها ولا يَحْيَوْن ، ليست لهم

---

(١) ضعفهم : كثرهم ؛ أى يزيد . . .

(٢) ألم : تألم .

(٣) سورة طه ، آية ٧٤

(٤) قال القرطبي : هذه صفة الكافر المكذب الجاحد ، فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته .

تلك الحياةَ التى فى الجنَّة ؛ لأَنَّ حياةَ أَهلِ الجنة من قُدْس الحياة تحت العرش ، فبِنَسِيمها يَحْيَا أَهلُ الجنة .

حياة أهل النار

وحياةُ أَهْلِ النارِ من غُسَالة[1] أَهْلِ الجنَّة حين يشربُون مِن ماءِ الحياةِ على بابِ الجنة حتى تزولَ عنهم أَدْنَاسُ[2] الآدَمية ، وأَسْقامُها ، وأَثقالُها وأَذَاها ؛ فتجرى تلكَ الغُسَالةُ إِلى باب النار فتَسْقِى أَهْلَ النارِ حتى يَحْيَوْا بتلك الغُسالة ؛ ولا يتهَنَّوْنَ بها ؛ فتلكَ حياةٌ يجدونَ بها أَلَمَ الحياةِ ولا يجدونَ طِيبَ الحياة ؛فلا حياةَ ولا موتَ ؛ فهذا الموقوفُ بين يَدَيِ اللهِ تعالى فى العارِ والتخزية[3] أَشدُّ عذابا فى ذلك الخَوْفِ والهَوْلِ والحَياءِ مِنَ الذى أُميتَ فى النارِ ، والنارُ تحرقُ جسدَه ؛ والرحمةُ من الله تعالى محيطةٌ به ، لايزالُ يَقْتَضِى بها نَجَاتَه وخلاَصَه حتى يخلِّصه اللهُ تعالى ، ثم يُرْمَى به إِلى الجنة طاهرا .

مثل من يحشر فى الموقف على تلون الاحوال

مثل مَنْ يُحْشَرُ إِلى الموقف غدًا على تلَوُّنِ الأَحوال مَثَلُ عَسْكرٍ نُودىَ فيهم بالرَّحِيل حين انفجار الصُّبْحِ ، ففُتِحَ بابُ المدينةِ ، فخرجوا ؛ فراكِبٌ على هِمْلَاج[4] بلغَ المنزلَ[5] ضَحْوَةً قبل أَنْ

(١) الغسالة : ما غسلت به الشئ .
(٢) أدناس : أوساخ.
(٣) التخزية : الذل والإهانة .
(٤) الهملاج : من البراذين : المذلل المنقاد (القاموس) .
(٥) المنزل : المكان الذى تقرر أن ينزلوا فيه .

ينالَه حَرُّ النَّهارِ ، فوجدَ المَنْزِلَ خاليا فنزل على مُخْتَارِهِ فى أَلْطَفِ مكان و أَنْزَهِهِ وأَكْثَرِه مرفقا ، ووجد الأَعلافَ مُهَيَّأَة ، والسوقَ مُزَيَّنًا خاليا ، والمياه صافية ، والمساقِىَ نظيفة طَيّبة ؛ فينال من كل شئ على مُنْيَته واختياره ، حتى إذا انْتَصَفَ النَّهَارُ جاءت الرُّكْبان على دَوَابِّ الحُمُر مع الأَثقال ، وازْدَحَموا على المنازل فى المنازل ، ومالُوا على الأَعْلَاف والأَسواقِ حتى تضايَقَت الأَمْكِنَةُ والأَعلاف ، و أَقبلوا على سَقْىِ الدواب على الازدحام ؛ فإذا كان آخر النهار جاءت أَصحابُ الدَّوَابِّ القُطف[1] ، فوجدوا بقيةَ الماءِ والأَعلاف ، ولم يَجِدُوا مكانا فى المنزل ، فنزلوا فى الصحراء ، وهم بَعْدُ فى ضَوْءِ النهار يُبْصِرون أَنْ ينزلوا ويجدوا[2] شيئا من العَلَف والماء ومايحتاجون إليه ، حتى إذا أَمْسَوْا جاءت الرَّجَّالة[3] فنزلوا حَوْلَ المَنْزَلِ بالبُعْد من المرافق ، ولم يجدوا شيئا من المياهِ والأَعلاف إلاَّ بقية ، ومن المساقى الماءَ مع الكدورة والطِّين ، حتى إذا جَنَّ[4] الليلُ جاءت الرجَّالَةُ الزَّمْنَى[5] والأَعْرَجُون والعُمْيَان ونحوهم يتخبَّطُون الطريقَ

---

(١) قطفت الدابة : ضاق مشيها ، ودابة قطوف .

(٢) فى أ ، ب : أن ينزلون ويجدون — وأراه تحريفاً .

(٣) الرجالة : الذين يسيرون على أرجلهم .

(٤) جن الليل : ستر ، يريد أظلمت الدنيا .

(٥) الزمنى : المرضى .

ولا يَجِدون مَوْضِعَ نزولٍ إلا في الخرابات والأرض الشاكة [١] والكُناسات والمُتَغَوَّط [٢] ، في ظُلْمَةِ الليل وهجوم البَرْدِ والرياح والأنْداء من الثلوج وغيرها ، فلا مكانَ ولا عَلَفَ [٨٩] ولا مرفق ولا كِنَّ [٣] ولا مُسْتَقَرّ ؛ فهم يتمنَّوْن انكشاف [٤] الليلِ وانفجارَ الصبح ، ولا صُبْح .

فهذا مَثَلُ أهْلِ الحَشْرِ غَدا إلى اللهِ تعالى ، وذلك قولُ الله تعالى [٥] : (ونُفِخَ في الصُّورِ فجَمَعْنَاهُم جَمْعًا [٦]) . وقال اللهُ جلَّ جلالَهُ [٧] : (ونُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُمْ من الأَجْدَاثِ إلى رَبِّهم يَنْسِلُونَ [٨]) .

يحشر الناس ركبانا ورجالة وعلى وجوههم

وقد قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : يُحْشَرُ الناسُ أثْلاثًا : ثُلث رُكبان ، وثُلُث رَجَّالة ، وثُلث على وجوههم . رُكْبَانُهم قول

---

(١) التى فيها الشوك .
(٢) المتغوط : مكان الغائط .
(٣) الكن : الستر .
(٤) فى ب : انكشاط .
(٥) سورة الكهف ، آية ٩٩
(٦) فجمعناهم جمعاً : يعنى الجن والإنس فى عرصات القيامة .
(٧) سورة يس ، آية ٥١
(٨) الصور : القرن . الأجداث : القبور . ينسلون : يخرجون .

الله تعالى [١] : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ المتَّقِينَ إلى الرَّحْمَنِ وَفْدًا [٢]﴾ . قال على رضى الله عنه نَجَائب [٣] .

وإنما تَلَوَّنَ حَشْرُهم لأَنَّ المراكب متفاوتةٌ كما ضَرَبْنَا فى المثَل مِنْ فارسٍ ، وراكِب حمارٍ ، وصاحبِ قَطُوفٍ ، ، وراجِل ، ومَنْ دونَه من الزَّمْنَى وغيرهم ؛ فيصل إلى الموقف على قَدْرِ مَرْكبه ، ومَرْكبُه معرفةُ اللهِ تعالى ؛ فذاك مَرْكبُ قَلْبُه إلى اللهِ تعالى بقَدْرِ معرفته لله تعالى وعِلْمِه بالله تَعالى ، يصلُ إلى اللهِ تعالى بنيَّته فى الأَعمال ؛ ففُرسانهم السابقون المُقَرَّبون ؛ وتفاوُتُ سَبْقِهم فى الأَعمال بتلك القلوبِ الفَوَارس على قَدْر تفاوتِ مَرَاكبهم ، كتفاوُتِ الخيولِ هاهنا فى دَارِ الدُّنيا ؛ فَرُبَّ فرسٍ تبلغُ قيمتهُ وثمنهُ أَلفًا [٤] من الدراهم ، ورُبَّ فرس أَلف من الدنانير ؛ ثم مِنْ بعدهم المُقْتَصِدُون وهم على قُطُفِ [٥] الدوابّ والأَثقال والحمولات ، ثم مِنْ بعدهم أَصحابُ الحُمر يَفتُرون [٦] مَرَّة ويقومون أُخرى ، مرةً رُكْبَانا ، ومرةً مُشَاة ، يسوقون حُمُرَهم بالعَنَاءِ والعَجْز ، حتى بلغوا المَنْزِلَ ؛

(١) سورة مريم ، آية ٨٥
(٢) وفداً : ركباناً على نجائب طاعتهم .
(٣) والقرطبى : ١١ — ١٥١
(٤) فى أ ، ب : ألف ، وأراه تحريفاً .
(٥) قطف : جمع قطوف : وهى من الدواب وغيرها : البطئ .
(٦) فتر عن العمل فتوراً : انكسرت حدته ولان بعد شدته .

ثم مِن بعدهم الرجَالةُ حُفَاةً وأصحاب كارَات[1] على ظهورهم وأعناقهم ، قد حَفيت أقدامُهم ، ونكبَتْ[2] أكتافُهم ، وانعقرت[3] من الحمولات التى على أعناقهم ومن تلك الكَارَاتِ ؛ فهم رجَّالة الدينِ ؛ ليس لهم نيّات ولا تَقْوَى ولا تَقيّة ، يَخْتَبِطون الطَّريق فى الدِّين تَخبُّطا على العادة «والشايذبوذ» ، يعملون على العادة والتجويز ؛ فهؤُلاءِ هم أَهلُ العامَّة فى أسواقهم ، يستترون بالوُضوءِ والصلاةِ ، والصَّومِ ، والصدَقة ، والشرائع ؛ وقلوبُهم مشحونةٌ بحبِّ الدنيا ، ومفتونةٌ بالشَّهَوات ، قد ضَيَّعُوا أَحكامَ الفرائض ، وتَوَثَّبُوا[4] فى الحدود ، ويعملون أعمالَ البرِّ على العادة بالجُزَاف[5] والتخبُّط ، قد نَسُوا المَعَاد ، وخلَوْا من ذِكْرِ الموت وخَشْيَةِ اللهِ تعالى فى السرّ ، وأهملوا الوَرَع ؛ فهم سُرَّاقُ الأَسواقِ فى مكايلهم ومَوَازينهم ، وتَضْييع أماناتهم .

ثم مِنْ بعدهم هؤلاءِ المُتَهوِّكُون[6] المَفْتُونونَ فى الدنيا

---

(١) الكارة من الثياب : ما يجمع ويشد ، والجمع كارات (المصباح) .

(٢) النكب : داء فى الكتف . وفى ب : نكدت — بالدال .

(٣) عقره عقراً : جرحه .

(٤) يقال : توثب فى ضيعتى : استولى عليها ظلماً . أى ضيعوا الحدود ، ولم يقفوا دونها .

(٥) أصل الجزاف : بيع الشىء لا يعلم كيله ولا وزنه . والجزاف أيضاً : المساهلة .

(٦) المتهوكون : والمهتوك الساقط فى هوة الردى .

حيَارَى سكَارى ، فهم عُرْج وزَمْنَى [١] وعُمْى ، لايصلون إلى المنزل إلا بعد أهْوَال وشدائد وعجائب . ثم بَقُوا فى ظُلْمة الصِّراطِ ، ونَفَخات النارِ ، ودُخَان الحَرِيق .

صفة فارس من السابقين :

قال له قائل : صِفْ لنا فارسا من السابقين ماصِفَتُه ؟

قال : ذاكَ فارِسٌ رَكِبَ مَرْكبا من مَرَاكب المعرفة يَطِيرُ قَلْبُه إلى اللهِ تعالى فى كلّ وَقْتٍ وأَمْرٍ وحُكم ، حتى لو استقبلَتْهُ نِعْمَةٌ طار قَلْبُه إلى المُنْعِم ، ولَهَا عن النعمة ، وإذا استقبلته شدَّةٌ طار قلبُه إلى المقدر . ووقف بباب القُدْرَة ينظر إلى تقديره له ذلك قبل الَّلوْح والقَلَم . وخَلْقِ العَرْشِ والكرسِىّ ، والجنة والنار ، فهاب أنْ يلاحِظَ غَيْرَ ذلك الذى قدَّرت له نفسه بشهواتها وأُمنيتها ، وإنْ ذَكَر الرِّزْقَ طار قَلْبُه إليه ، وإنْ ذَكر أَمْرَ الرزق طار قلبُه إلى الرازق . فوجد الأَمْرَ مفروغا منه ، وأَنَّهُ قد ضمِنَ له ذلك ، وأُبرز ضمانَه فى الَّلوْحِ ، وإنْ نابَتْهُ نائبةٌ طار قلْبُه إلى مانَابَهُ عنه ، فنزل منازلَ الواثقين بكرمه ، وأَحسنَ الظنَّ به ، ووَثِق به ، وسكَن فى مَحَلِّه لربه . مطمئنَّ القَلْبِ والنفسِ ، وإنْ أعْوزَه [٢] أَمْرٌ وأَزْعَجه ، طار قَلْبُه إلى المدبِّر ، فتعلَّقَ به مضْطَرًّا إليه مُفْتَقِرًا إلى ما أَمّلَه

---

(١) عرج : جمع أعرج . زمنى : مرضى .

(٢) أعوزه أمر : أحوجه أمر .

ورَجَاه ؛ فهذا رَاكِبٌ نال مرْكبًا سَرِيًّا بَهِيًّا هَنِيًّا [١] ، ما أسرع مايَبْلُغُ به يَوْمَ المَحْشَر إذا بُعِثَ مِنْ قَبْرِه فيجد مكانا فى ظلِّ العَرْشِ من قبل أَنْ تَجِيءَ الرحمة ، وقد نال أَهْلُ المَحْشَرِ فى المَوْقِف من العَطَش والجُوع والحَرِّ .

حدثنى محمد بن يَحْيى بن أَكْرَم بن حَزْم القُطَعِى [٢] ، حدثنى بِشْر بن عُمر الزَّهْرَانى ،حدثنى ابْنُ لَهِيعة ، عن خالد بن أَبى عِمْرَان ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رَضِىَ اللهُ عنها ، عن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم أَنه قال : طُوبَى [٣] للسابقين إلى ظِلِّ اللهِ تعالى . قيل : مَنْ هُمْ يارَسُولَ اللهِ ؟ قال : الذين إذا أُعْطُوا الحقَّ قَبِلُوهُ ، وإذا سُئِلوا بذلوه ، والذين يَحْكُمونَ للناس بحُكْمِهم لأَنفسهم .

فصاحبُ هذه الصِّفَةِ قَلْبُه حىٌّ بالله ، ونَفْسُه سَخِيةٌ مُنْقَادةٌ لله ، قد ذلَّت بحدّة الحياة لله واقفًا عقله بعدل الله ، يَحْكُمُ لخَلْقِه بحُكْمِه لنفسه ، فمَرْكَبُه من أعلى المراكب ، وأَجود الحيوان .

مثل العامل يعمل أعمـال البر

مَثَلُ العاملِ الذى يعمَلُ أَعمالَ البِرِّ على طريق الثوابِ والعقاب مثلُ نَهْرٍ اجتمع فى مَوْضِع فيه مِنَ البَرْدِىِّ والحطَبِ ، وأُصول الأَبَاءِ [٤] ونحوها ، فخاض فيه إنسانٌ ؛ ففى كلِّ موضع وصَلتْ

---

(١) سريا : من خيار المراكب . بهيا : جميلا .

(٢) والتقريب . (٣) طوبى : اسم الجنة وقيل هى شجرة فيها .

(٤) الأباء - كسحاب : البردية أو الأجمة ، أو هى من الحلفاء والقصب (القاموس)

يَدُهُ يقَعُ فى يده شَىْءٌ من تلك الأَشياءِ ، وبعضها على ظَهْرِه ورَأْسه وبَطْنه . فيخرج من النهر متلوّثا بها .

فأَهْلُ الغَفْلةِ يَجْمعون حركاتِ الجَوَارح بأَعمالِ البِرّ ، وليس لهم من ذلك إلا الظاهرُ فى مَقَاصِدهم ونِيّاتهم إلاَّ الثوابُ الذى وَعَدَ اللهُ لعمّاله بذلك ، فعلى قَدْرِ طَهَارتهم وصِدْقهم يُثَابون من الجنَّةِ أَجورَ عمالتهم ، وتَعَبَ أَجسادهم ؛ وتلك الطاعةُ تُنَالُ من أَنوارِ الإِيمان . وتلك نيَّات أَنوار الإِيمانِ الذى اعتقدوه فقط .

فأَمّا أَهْلُ الانتباهِ فيعملون الأَعمالَ عُبُودةً [١] لله ، عارفين موُقنين عالمين بالله ؛ فمَثَلهم كمثَل مَنْ يَغُوصُ فى البَحْرِ والأَنهار ، فيضربُ بيده فى غَوْصِه ، فبلغ فى يَده جوهرة لايُحيط بثمنها عِلْمٌ من نَفَاسَتِها [٢] وصَفَائِها ، فهم يَدْخُلُونَ فى الطاعات بحركات الجَوَارِح ، ولكن فى قلوبهم من العجائب ماتعجَّب الملائكةُ إذا رفعت إلى اللهِ تلك الحَرَكاتُ فى حَشْوِها من الأَنْوار مايَمْلأُ الأُفُقَ الأَعلَى .

وأَهلُ الغَفْلةِ حَشْوُ حركاتهم فى الطاعات أَنوارُ نِيّاتهم ومَقَاصدهم ، وتلكَ من نُورِ الإِيمانِ الذى اعتقدوه .

وأَهلُ الانتباهِ حَشْوُ حركاتهم فى الطاعات ؛ لأَنَّ فى حركات جَوَارِحهم نورَ الحُبّ ، ونورَ الحياءِ ، ونورَ الشوقِ والحنين ،

---

(١) عبودة : طاعة .

(٢) نفس الشئ نفاسة : رغب ويتنافس فيه .

والتضرع ، والقلق ، والسرور والبهجة ؛ والشكر ، والذكر الصافى [٩٠] ، والإقبال على الله ، والإنابة ، والخشية ، والخضوع والتسليم ، ورؤية المنة[1] ، والتبرى من الحول[2] والقوة ؛ فهؤلاء غواصون يغوصون فى كل حركة فى بحور المعرفة فى وقت مرورهم فى استعمال الجوارح ومضيهم فيها بقلوبهم ؛ ويستخرجون من غوصهم الدر اليتيم[3] ، والجوهر النفيس ؛ لأن القلب خزانة الله تعالى ، وفيها نوره ؛ فإذا طهر العبد ساحة الخزانة ؛ وهى الصدر — ظهرت فى تلك الساحة من باب الخزائن فى وقت عمل يعمله — عجائب لا توصف من هذه الجواهر والدرر ، وحركات الطاعات ذات صور ؛ فكل طاعة لها صورة ومثال ، وفى كل صورة يعملها ثواب[4] فيرائى بها ربه ، ويتزين العبد بتلك الصورة لما فيها من الجواهر لمعبوده ؛ فهذا عبد يتزين بجواهره من كنوزه ، حتى إذا جاز هذه الخطة ، ووصل إلى فرديته[5] ، فكان هذا عبدا[6] تزين لله بالله ، وكان الله مستعمله فى قبضته ، وهى دعوة أجل العباد ،

(١) المنة : النعمة .
(٢) الحول : القدرة على التصرف (القاموس) .
(٣) درة يتيمة : لانظير لها (المصباح) .
(٤) فى ا ، ب : ثواباً ، ونراه تحريفاً .
(٥) فرديته : وحدانيته .
(٦) فى ب : عبد .

واحد من السبعة الذين لقيهم يونس صلواتُ اللهِ عليه ، وكان يَدْعُو ويقول : اللهمَّ بكَ أتزيَّنُ فاجْعل اليقين شِعَارى ، والصَّبْر دثَارى[1] ؛ فهذا عَبْدٌ تزيَّن بالله .

مثل من وثق بالله فى ضمان رزقه

مَثلُ مَنْ وَثِقَ بالله فى ضَمَانه فى رِزْقه وكِفَايته ومَوَاعيده مثل مثَلُ مَنْ ضافَ[2] مَلِكًا من الملوك ، فدعاهُ الملكُ ، فخاف من دَعْوَته ، وامتنَع واحتالَ لنَفْسه هرَبًا وامتناعا لقلَّةِ ثِقَته به ؛ لأنه لايَدْرى مالَه عنْدَ الملك فى الغَيْب ؛ فعلم المَلكُ بحاله ، فوجَّهَ إليه وَلدًا من أولادِه رَهينا[3] عنده ، وقال : هذا وَلَدِى عندكَ وثيقة ، فاحْضُرْ إلىّ ، فإنى أفى لكَ بالأَمان والوَفاءِ بكلِّ ماوعدْتُك .

فسكن الخائفُ بذلك الرَّهين ، واطمأنّت نَفْسُه ، وعلم أنّ الرِّهَانَ[3] لُطمأْنينةِ القَلْب والأَمَان ، ولا محالةَ يَفِى له بذلك .

فالمُؤْمِنُ وضعَ اللهُ تعالى فى قلبه نورَه ، ثم ضَمِن له الرزقَ والكفايةَ ، وأمره بالعُبُودَةِ[4] ، ودعاهُ إلى طاعته ، ووعَده حُسْنَ

---

(١) الشعار — بالكسر : ماولى الجسد من الثياب . والدثار : مايتدثر به الإنسان ، أى يتلفف به ؛ وهو ما يلقيه عليه من كساء أو غيره فوق الشعار .

(٢) ضاف ملكا : نزل به ، وصار ضيفاً عنده .

(٣) الرهن : ما وضع عندك لينوب مناب ماأخذ منك . والرهين : كل ما احتبس به شىء .

(٤) العبودة : الطاعة .

المآب [١] ؛ فكُلَّما نظَر المؤمنُ إلى هذا الرَّهين الذى عنده اطمأنَّ ، وحَسُنَ ظَنُّه به ، وقال فى نفسه : لو لم يُرِدْ بى خيرا ماوضَع مِثْلَ هذا الجَوْهَرِ النفيسِ فى وثيقة ورَهْنًا ، فبذل نَفْسَه لَهُ ، وأَلْقَى [٢] بيَدِه ، وارتفعت التُّهْمَة [٣] وسوءُ الظن وخوفُ الرزق .

مثل أهل الثبات فى الأعمال

مثلُ أهلِ الثَّباتِ فى الأَعمال مثلُ مَلِك له ثلاثة أَعْبُد [٤] ، فأَعطى كلَّ واحدٍ منهم قَضيبَ [٥] كَرْمٍ ليَغْرِسَه ويُعَمِّرَه ويُثَمِّره ، ويَحْمِلَ شرابَ عَصيره إليه ؛ فعَمَد [٦] أَحدهم إلى كَرْمِه فجعله مُرَبّىً [٧] لَهُ ، وقام بعِمَارَته فى السَّقْيِ ، وتقليب الأَرْضِ ، يَكْرِيه [٨] ويُسَرْقِنُهُ [٩] ويشدّه وما يصلح [١٠] لها ، حتى أَدْرك وأَثمر ؛ فإذا جاءَ أَوَان عَصِيره فعصره فَملأَ زقًّا صافيًا صِرْفًا [١١] من العَصِير .

---

(١) المآب : المرجع .
(٢) ألقى بيده : سلم .
(٣) التهمة — بسكون الهاء وفتحها : الشك والريبة .
(٤) جمع عبد .
(٥) القضيب : الغصن المقطوع .
(٦) عمد إليه : قصد .
(٧) مربى له : مكان يربى فيه وينمى .
(٨) كريت النهر كرياً : حفرت فيه حفرة جديدة .
(٩) السرقين : الزبل .
(١٠) هذا بالأصول كلها .
(١١) صرفاً : خالصاً .

وعَمَدَ الآخرُ إلى قَضيبه فسقاهُ سَقْيًا دُون سَقْى [1] ، ولم يثمِّرْهُ ، ولم يَقُمْ بعمَارَتهِ مِثْل الأَول ؛ فأَدْرك الكَرْمُ ، ولكن ليس لشجرهِ نَزاهةٌ وطَرَاوةٌ ، ولا لِعَنَبه من الحلاوَةِ مايكونُ لمثله ، فعصر و ملأَ زِقَّهُ ممزوجا بالماءِ .

وعَمَدَ الثالثُ إلى قَضيبه فسقاه واحدةً ، ولَهَا عنه ، ولم يُثَمِّره ، ولم يَقُمْ بعمارته بشئ ، حتى أَدْرَكَ عِنَبُه ، كلُّه حامِضٌ ، ليس فيه من الطَّرَاوَةِ والماءِ شئ ، فعصره كذلك ، فلم يَمْلأْ الزِّقَّ ، فنفخ فيه حتى امتلأَ ريحا ، فصار فى رَأْى العين كالممتلئ .

يَحملُ كلٌّ واحد زِقَّه إلى الملك فرأى الملكُ كلَّها . فى رَأْى عَيْنه ممتلئةً ؛ فحلَّ من الأَول وِكَاءه [2] فذاقَه ، فرآه شرابا صِرْفًا لذيذا ، فأُعجب الملكُ بذلك وقَبِلَه واستحْلَاه ، ووافَقه و أَعدَّله جَزيلا [3] ، و أكرمه ، وخلع عليه خِلْعَةً [4] بَهِيَّة [5] ؛ فحلَّ وِكَاءَ الثانى فذَاقَه فوجده ممزوجا بالماءِ ، ولم يَجدْ له كثيرَ حلَاوَة ؛ فرمى به وَجْهَه ، و أَخرجه من بين يَدَيْه .

فلما حلَّ وِكَاءَ الثالثِ خرجت الريحُ ، فبقَى فى الزِّقِّ شىءٌ قليل ،

---

(١) أى لم يواظب على سقيه .

(٢) الوكاء : أصله حبل يشد به رأس القربة . وأوكيت السقاء : شددت فمه بالوكاء .

(٣) جزيلا : عطاء كثيراً .

(٤) الخلعة — بالكسر : ما يعطيه الإنسان غيره من الثياب منحة .

(٥) بهية : جميلة .

فلما ذاقه وجده حامضا غَيْر مُدْرك [١] . فضرب بالزِّق على رَأسه ، وأخرجه من بين يديه ، وسقطت الجلدة بين يديه .

عمال الله تعالى على ثلاثة أصناف

فعُمَّالُ اللهِ تعالى ثلاثةُ أصناف : فعامل تَصْدُرُ أعمالُ بِرِّهِ مِنْ قَلْبٍ سَقيم ، فصدْرُه مُغَيِّم بسقَم قَلْبِه من أمراض الذُّنوب ، وغَيْمه من دُخانِ الشَّهَوات وقضاءِ المُنَى [٢] ؛ فقوَّةُ عمله إنما هى [٣] من نُور التوحيد فقط ، فإذا خرج عمَلُه حشو نوره الذى بدر من التوحيد ؛ فالأعمالُ قوالبُ ، وحَشْوُهَا الأنوار . فصاحبُ هذه الصِّفَةِ كصاحب زِقٍّ [٤] منفوخ فيه حين حُلَّ وِكَاؤُه خرجت الريحُ ، وبَقِى فى أسفله شىءٌ يَسير قَليلٌ . وتساقط الزِّقُّ ؛ فإذا رُفِع عَمَلُ هذا إلى الله تعالى لم يظهَرْ منه من النُّور إلا بمقدار النُّور الذى ذكرنا ، وسائرُها حركات [٥] الجَوَارِح بلا نُور .

والثانى خرج عمَلُه إلى اللهِ تعالى ممتلئا نُورًا ممزوجا بنُورِ الرَّجاء والنَّوال [٦] من الله تعالى ؛ فطمَعُ نَوَالِه أذهبَ حلاوةَ عَمَلِه .

والثالث خرج عمله إلى اللهِ تعالى ممتلئاً نُورا من نُورِ القُرْبَة ،

---

(١) غير مدرك : غير ناضج .

(٢) المنى : ما يتمناه .

(٣) فى ب : إنما هو . . .

(٤) الزق : السقاء ، أو جلد يجز ولاينتف للشراب وغيره .

(٥) سائرها : باقيها .

(٦) النوال : العطاء .

حَشْوُ ذلك النور حُبُّ اللهِ تعالى ، لم يَبْتَغ [1] به غَيْرَ وجهه الكريم من غير أَنْ يلتفتَ إلى نفس ولا طَمَع ؛ فلما رُفِعَ إلى اللهِ تعالى ظهر منه من النورِ ما أَحَاطَ بالمعرضِ من العَرْشِ ، وانتشر فى جَوَانبه ، وملأَ الخزَائِنَ ؛ فهذا عَمَلُ المُقَرَّبين والثانى عَمَلُ المقتصدين . والثالث عَمَلُ المُخْلصين الظالمين لأَنفسهم .

مثل الطاعات فى الزينة

مثَلُ الطاعات فى الزِّينة مثَلُ زينة الثَّوْبِ المنسوج المنقوش بألوانِ النقوشِ ، فكلُّ مَنْ نظَر إليه فى هذه الزينةِ ذَهِل عَقْلُه من حُسْنه وبَهائه [2] ، وسَبَى [3] قَلْبَه بهجتُه ؛ فالناظرون إلى زينةِ الأَعمالِ أَحقُّ أن تَسْبِيَ منهم قلوبَهم بزينتها وبهائها وبَهْجتها .

قال له قائل : مازِينةُ الأَعمال ؟

قال : زِينتها فى لَبَقها [4] ؛ فمن احْتَظَى من اللَّبَق زَيَّنَها ؛ فزينة الثيابِ إنما ازدادت باجتماعِ الأَلْوَانِ المنسوجةِ بعضها ببعض ، فإذا تلوَّنَت على العيون على اختلافِ أَلوانها ونقُوشها التذَّتْ بتأْليفها ، فزينةُ الأَعمالِ فى لَبَقها ، فمن احتظى من اللَّبَق رأَى زينتها .

---

(١) يبتغى : يطلب .
(٢) البهاء : الجمال .
(٣) سبى : أسر .
(٤) لبق به الثوب : لاق به .

قال له قائل: ضربْتَ المَثَلَ بشىء فأَفْهِمْنا به، فبيِّن لنا نَوْعًا[1] من ذلك نَفْهَمْ.

قال: فانظُرْ إلى الصَّلاةِ فإنما هى قيامٌ، ثم انتصابٌ، ثم تكبير، ثم وُقوف، ثم ثَنَاءٌ[2]، ثم تِلاوة، ثم ركوع، ثم سجود، ثم جُثُوٌّ[3]، ثم ارْتِغَاب[4] ثم تسليم؛ فهذه أَفعالٌ مختلفة، وأَقوالٌ مُتَباينةٌ؛ ولكلِّ فِعْلٍ زينة، ولكل زينة بَهَاءٌ؛ وبَهَاؤه من أَصله الذى منه بَدَأَ وإِلَيْهِ يَعُود.

فإذا اجتمعت هذه الأَنواع على التَّفَاوُت بعضها فى بعض تلوَّنت [٩١]، وازْدَانَتْ، والتذَّت القلوبُ بتلك الأَفعال والأَقوال؛ ثم الملتذُّون بها على دَرَجاتهم فى التراثى؛ فطائفةٌ منهم تَلْحَظُ فى أَعمالهم إلى حركاتهم فيها على الخضوع والذِّلَّة؛ يتذَلَّلُون لمَليكهم بتلك الحركات عُبُودَةً وأَسْرًا.

وطائفة تَلْحظُ إلى حركاتهم فيها إلى فَرَحِ اللهِ بفِعْلِ العَبِيد؛ فهم يَتَقَلبُون ويتصرفُون فيها التذاذًا بِفَرَحِ اللهِ تعالى ومَسراته بتلك الأَفعال، وقوله لعيسى عليه السلام: ياعيسى، تَحَرَّ[5] مَسَرَّتى؛

---

(١) فى ب: نوع – تحريف.

(٢) الثناء: المدح.

(٣) جثا: جلس على ركبتيه (المصباح).

(٤) ارتغب: ابتهل، وتضرع.

(٥) تحراه: تعمده، وطلب ماهو أحرى بالاستعمال (القاموس).

وهو قوله صلى الله عليه وسلم [١] : لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ العَبْدِ من أن يضل أحدكم رَاحِلَتَه [٢] فى أرضٍ فَلَاةٍ [٣] ، عليها زادُه ومَتَاعُه ، فيضرب يمينا وشِمَالًا فلا يَجِد ، فيقول فى نفسه : أَرْجِع إلى ذلك الموضعِ فأموت فيه ، فوطَّن نَفْسَه [٤] على ذلك ؛ فإذا رجع إلى ذلك الموضع وَجدَ راحِلتَه قائمةً هناك عليها زَادُه وشَرابُه ومَتَاعُه .

وكذلك الصَّوْمُ إنما هو دَعوةُ القلب النَّفْسَ إلى تَرْك الشهوات ليَوْمِه الذى يُريد أن يُصْبح فيه ، والنفسُ تَتثاقلُ وتَنْفرُ عن ذلك النَّفْرة التى تَنْفر ، وتتثاقَلُ عن تَرْكها حتى إذا أجابت القَلْبَ إلى ذلكَ ارتحلَ القلْبُ إلى الله تعالى بانقياد النَّفْس له ومُتَابَعَتها إيّاه ، وقَبولِ القَلْب من الله تعالى ذلكَ التَّرْكَ والكفَّ عن الشهوات من الطعام والشراب والنِّساء ، والحفْظَ للسَّمْع والبَصَر واللسان عَمَّا لايَحلُّ ، ثم إلى النَّفس عازما ؛ فذاك الارْتجاعُ زينةُ عَمَله فى العزيمة عند الرُّجوع إلى النفس وقَبُوله من الله تعالى ؛ فجاء بذلك القبول ،فأحاط بالنَّفْس ؛ فتلكَ الإحاطَةُ عَزيمةُ القلب ، وانقيادُ النفسِ وثاقه [٥] إياها ، فربَضَت النفسُ ساكنةً .

---

(١) صحيح مسلم : ٢١٠٣

(٢) الراحلة : المركب من الإبل .

(٣) فلاة : أرض لا ماء فيها .

(٤) فى صحيح مسلم : فوضع رأسه على ساعده يموت . ووطن نفسه على الأمر توطيناً : مهدها لفعله وذللها .

(٥) هذا فى الأصول .

هذا مُبْتَدأُ (١) الصَّوْم . فمنْ مُبْتَدَأ هذا اليوم إلى آخره فى صَدْره خواطرُ . وعلى ظاهر جَوارحِه عَوَارضُ تحتاجُ النَّفْسُ إلى أنْ تتجرَّعَ مرارةَ تلكَ الشهوات خاطرةً (٢) كانت أَو عارضة ؛ فكلما خطر ببَاله فى صَدْرِه بين عيْنَىْ فُؤاده خَطْرَةٌ هاجَ البالُ ، واشتهت النفوسُ لتلك الشهوة ، وسكَّنها القلبُ، فريضَتْ (٣) ، كان لها بكل خاطرة وعارِضة تتجرَّعُ النَّفْسُ مرارةَ التَّرْكِ جزاءٌ عند الله تعالى ، فمن يُحْصى هذه الخطراتِ والعَوَارضَ إلَّا الله تعالى .

ولذلك قال : الصَّوْمُ لى . وأنا أَجْزى (٤) به ؛ لأَنَّ النَّفْسَ تجرَّعَتْ مرارةَ الترَّكِ لله تعالى . والقَلْبُ وَفَى بما قَبِلَ من اللهِ تعالى ؛ فالثوابُ بتجرُّع المرارةِ . والجزاءُ للقلب بالوَفَاءِ .

فطبقةٌ منهم فى هذه الخَطرات والعَوارض فى درَجةِ ملاحظةِ الثوابِ والعقاب .

وطائفة منهم فى دَرَجَةِ ملاحظةِ حُبِّ اللهِ تعالى فتلاشَت المَرارَاتُ بِحَلاوة حُبِّه .

وطبقة منهم فى دَرَجةِ ملاحظةِ مَسَرَّاتِ اللهِ تعالى وقُرَّة العَيْن ،

---

(١) مبتدأ : أول .

(٢) الخاطرة : مايخطر فى القلب من تدبير أمر .

(٣) ريضت : ذللت .

(٤) أجزى به : أثيب به وأكافئ .

فيفْتَقدون[1] المرارات لابتهاج نفوسهم بمسرات الله تعالى .

مثل المعرفة التي لم تضيء

مَثَلُ المَعْرِفة التي لم تُضِئ مثلُ لؤلؤة بيضاء صافية نقيَّة . ثم تجدها قد دخلَتها صُفْرةٌ بطول استعمالها من العَرقِ والحرِّ والبرْدِ وأدْناسِ[2] الجسدِ وغيرها ، وترى ياقوتةً أيضا بمائها وصَفَاء لونها قد ذهب صفَاؤها وتغيّر لونُها بطول لُبْسها ؛ فأصحابُ الجواهر أبْصَرُ بما يغسلون تلك اللؤلؤةَ لتزولَ صُفْرتُها وتعودَ إلى حالها.

وكذا الياقوتةُ تُعَالَجُ حتى تعودَ إلى مائها وصَفَائها.

فكذا المعرفة تجدُها حُلْوةً نَزهة نَيِّرةً ، فعلى طُول مُجَاوَرَتها بشهوات النَّفْسِ ومُلاَمَستها إياها تَجدُها مُتَغيِّرةً قد افتقدَتْ حَلاوتَها ونَزَاهتها وطيبَها ؛ لأنَّها قد تدنَّسَتْ[3] بأدْناس الشهوات ، فيجب أنْ يُحْتَال لأمْرِهَا حتى تعودَ كما كانت .

قال له قائل : فكيف يكونُ ذلك ؟

قال : أليس هذه[4] الياقوتة ، واللؤلؤة – جوْهَرُها[5] قائم! وإنما افْتُقِد صَفَاؤها وماؤها لِمَا لزِقَ بها من الدَّنَس ، وتغيّب عنها

---

(١) افتقد الشيء : فقده (المصباح) .

(٢) أدناس : أوساخ .

(٣) تدنست : توسخت .

(٤) في ا : هذان .

(٥) جوهر كل شيء : ما خلقت عليه جبلته .

صَفَاؤها ؛ فبالمعالجة زالَ عنها ماكان لَزِقَ بها ، وعادت إلى حالها ، وظهر صفاؤها ؟ فكذا المعرفة قَائمةٌ إلاَّ أنَّ أَدناسَ الشهوات حجَبَتْ عنكَ إشراقَها لما حلَّت فى عَيْنِ فُؤَادكَ فى صَدْرك ، فصارت كشمس انكسفت ، فذَهبَ ضَوْءُها وإشراقُها ، فإذا انْجَلَتْ عن الكسوف عاد إليها مُضيئا .

فكذا المعرفةُ إذا غَشيَتْها[1] الكبائرُ فقد انكسفت شَمْسُكَ ، فصِرْتَ فى لَيْلٍ دَامِسٍ[2] ، فلو اجتنبتَ الكبائرَ دُونَ الصغَائر وهى السيِّئاتُ ، فأَنْتَ فى نهارِك فى سَحابٍ وغُيُوم ؛ فلو دَامَ هذا الغَيْمُ والسَّحَابُ لم يَنْعَقِدْ لكَ حبَّةٌ من حبُوب الأَرض ، ولا نضجت ثمرةٌ من أثمار أَشجارك ؛ ووجدتَ الآدَمِيَّ مقسوما على ثلاثة أَجزاء :

قلب بما فيه من الإيمان ، وروح بما فيه من الطاعةِ ، ونَفْسٌ بما فيها من الشهوة . والقلبُ يقتضى الإيمان . والرُوحُ تقتضى الطاعةَ . والنفس تقتضى شُكْرَ النعم ؛ والعَبْدُ مُقَصِّرٌ فى الثلاث كلِّها ؛ فحبُّه لربِّه يوفى تقصيراته ، فكلما كان حُبُّه أَوْفَرَ كان أَثْمَرَ لتوفير تَقْصيراته ؛ لأَنَّ أَصْلَ المعرفةِ قائمة ، لكنها مُتَغَيِّمة ، فإذا أَحبَبْتَها كلها عملتَ بلا تقصير ، فلا تحتاج إلى التوفير .

---

(١) غشيتها : أتتها أو غطتها .

(٢) دامس : مظلم .

ومَثَل ذلك مثَلُ عَبْدَيْن لكَ اقْتَضَيْتَهما الإقرارَ لكَ بالعُبُودَةِ [١] والاستقامة بين يَدَيْك ، واقتضَيْتَهما ماوظَّفْتَ [٢] عليهما من الخَراج ، واقتضَيْتَهما شُكْرَكَ ؛ فَقَصَّرا فى جميع ذلك ؛ وكان أَحدُهما أَظهرَ حُبًّالك من الآخَر ؛ فإن كان أَحَدُهما أَكثَرَ عَمَلًا والآخَر أَقلَّ ، فنظرت إلى قلَّته ، وقُلْتَ فى نفسك : وهذا يحبنا فنحن نَقْبلُ منه بحبِّه إيانا مُوَفَّرًا .

مثل الائتمار بأمر الله

عن زيد بن أَسْلَم رَحِمه الله أنه قال لى : حديثان أَحدّث بهما إذا خَلَوْت :

مَثَلُ الائتمَار بأَمْرِ الله تعالى ومثل القلوب مَثَل أمير وُلِّى على كُورَة [٣] فورَدَها ، فوجد الكُورَةَ غيَاضا ومُروجًا وآجَاما [٤] ، فيها الخَنَازيرُ والسِّبَاعُ ومياهُ النَّزّ [٥] ، فلما نظر إليها رجَعَ ناكِصًا على عَقبَيْه [٦] ، فقال : ليس مع هذا النَّزِّ قوَامٌ ، ولا مَعَ هذه الخنازير عَيْشٌ ولا إِمْرَة .

(١) العبودة : الطاعة .

(٢) ماوظفت : ماقدرت .

(٣) الكورة : الناحية ، وتطلق على المدينة .

(٤) الغياض : جمع غيضة ، وهى الشجر الملتف . والمروج جمع مرج ، وهو الأرض ذات نبات ومرعى . والأجمة : الشجر الملتف .

(٥) النز : ما يتحلب من الأرض من الماء .

(٦) نكص على عقبيه : رجع .

ووَلَّى آخَرُ على كُورَةٍ أُخْرَى ، فوجدها ذات قُصورٍ وبَساتين ، وأنهار جارية وأشجار ، ومساكن نَزِهَة ، وسُكَّان كثيرة . وأسواق مُزَيَّنَة ، فيها أَلوَانُ المَتْجَر ؛ فحلَّ بهم ، واستقرَّ قرارُه ، وملكَهُم وتَأَمَّر عليهم ؛ ففتح بابَ خزائنه ، وقَسَّم كنُوزَه فيما بينهم [٩٢] حتى أَغْناهم وقوَّاهم .

فأَمر اللهُ تعالى عبادَه بأُمورٍ ، ونهاهُمْ عن أَشياءَ ، لالجرِّ نَفْع ولا لدَفْعِ ضُرّ ، لكن رحمةً منه عليهم ، ورأْفةً بهم ؛ فمَنْ وافاهُ [١] أمرُه فوجد صدره مشحونا بأَشغال أَحوالِ النفس ، وقلْبَه مشْغُوفا [٢] بحبِّ الدنيا ، ونفْسه مفْتُونةً بالشهوات والمُنى [٣] ، وعقله معتوها [٤] بالْهوى رجع الأَمير قهقرى ، ولا يجد مَحلاً ولا مُستقرا ؛ لأَن في هذا القلبِ من العتاهةِ [٤] ، وفي هذه النفس من النهمات [٥] والشهواتِ . وفي هذا الصدْرِ من الأَماني والفِتن ، والمكْرِ والغِلّ ، والحسَد والخِيانة ، وأَشغال وسْواسٍ [٦] العبْد ماهو أَقْبح ؛ لأَن هذه الأَشياءَ أَقبح من الخنازير ؛ ومِن الهوى ماهو أَكثر ضررًا من النَّزِّ . فكيف يَقْدِر الأَمير أَنْ يملكَ هذا القلب ، ويحلَّ بهذا الصَّدْرِ ،

---

(١) وافاه : أتاه .
(٢) مشغوفاً : محباً . متعلقاً .
(٣) المنى : الأماني .
(٤) العته ، والعتاهة : نقص العقل من غير جنون .
(٥) النهمات : الشهوات والحاجات .
(٦) الوسواس : مرض يختلط معه الذهن .

ويتملَّكَ على هذه النفس ؟ وكيف يقتضى العقل القيامَ بها ؟

ومَنْ وَافى إِمْرَتَه فوجد قَلْبًا مشحونا بحُبِّ اللهِ تعالى ، وصَدْرًا مُشْرِقًا بنُورِ الله تعالى ، ونَفْسًا مُزَيَّنة بنزهة بساتينِ اللهِ تعالى ، وعقْلًا مشحونا بنُورِ وَجْهِ اللهتعالى حلَّ به الامِيرُ فشرِبَ القَلبُ حلاوةَ الأَمر ، وطَعمت النفسُ لُبَابَهُ [1] ، وازداد العقلُ بالرأفة التى تضمَّنت الأَمْر ، وظهر العمَل على الأَركان على حَسَب ماوصَفْنَا من الباطن .

وهذا لما ذكرنا أن الله تعالى لم يأْمُرعِبادَهُ أمرا لجرِّ منفعة ، ولا نهاهم لدفع مضرّةٍ ، ولكن أمرهم رأْفةً بهم ورحمةً عليهم ، ولما فيه مصالحهم ، ودفع المضار عنهم .

أمر الله على نوعين :

فأَمْرُهُ على نَوْعين : فأَمْرٌ منه موافِقٌ طَبعه ، كقوله : كُلوا واشرَبوا [2] ... الآية . فتهتشّ [3] إليه النفس ، وتسَرَّبه .

وأمر يتثاقَل عليه ويتَباطَأُ ، كقوله : صم عن الأَكلِ والشرب ، فمَنْ ساكنَ قلبَه حبُّ اللهِ تعالى وعظمته وجلالته ، فشرِب قَلْبُه حلاوةَ الأَمر ؛ لأَنَّ حلاوةَ الحُبِّ تُحلِّيه ، وعَظَمته تغظِّمه ، وجلاله يجلُّه [4] ،

(١) طعم الشيءُ : ذاقه . ولباب كل شيءُ : خالصه .

(٢) فى ا : كل واشرب : الآية — تحريف . والآية فى سورة الأعراف (٣١) : يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين .

(٣) تهتش : ترتاح .

(٤) يجله : يعظمه .

فتعمل الأَركانُ على مافى الصدر والقلب ؛ فإن كان هذا الأَمْرُ محبوبا فهذه صفتُه ، وإن كان مكروها لاحظَتْ عَيْنُ فؤاده رحمةَ اللهِ ورأْفتَه عليه ؛ فمَرَّ فى ذلك الأَمْرِ كالسَّهْمِ ، وهانت عليه أثقالُها ، ورأى أَنَّ أَباه إذا أَقعده بين يدى الخَتَّان ليَخْتِنَه ، أو بين يدى الحجَّام ليَحْجمه ، أَو بين يدى الطبيب ليُشْرِبَه دَوَاءً من الأَدوية المُرَّة البَشِعة [١] ، فلم يَخْلُ مِنْ وَجَع وأَلَم وأَذَى ، ولكن لم يَتَّهِمْ والدَه فى ذلك لِما علم مِنْ رأْفته وشفَقَته عليه ، فكذا لَمَّا رأى مِنْ رأْفَةِ اللهِ ورحمته وشفَقَته عليه لايَتَّهِمُه بهذا الأَمر ، وإن كان غَيْرَ مُوَافق طبْعَه ؛ فقَبِله مسرعا ، وقام به على الاهْتِشاش [٢].

فهذا أَمير وافى قَلْبًا غَنِيًّا ، وصَدْرًا عامرا ، ونَفْسا طيِّبةً نَزِهَة ، ومَنْ كان بخلاف تلك الصِّفَة فقد وَافى أَمْرُه قَلْبًا خَرِبًا ، وصَدْرًا ذَا مُروج وخَنَازِير ، ونَفْسا بَطَّالة [٣] شَرِهَة ، وعَقْلًا مَعْتُوهًا بالهَوَى ، فأَمْرُ الله جلَّ وعَلَا على هذه الأَركان كما كان أَمْرُ اللهِ على المنافقين الذين كانوا مع أَصحاب رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ورَضِىَ عنهم ؛ لهم مقارَنَة معهم فى مَغَازِيه ، ومَجْمع الصلاةِ والصيام والجُمَع والأَعْياد ، وقلوبُهم حَزِبَةٌ ، فقد مضت تلكَ الصِّفَةُ ، ولا يزال فى

(١) طعام بشع : فيه كراهة .
(٢) الاهتشاش : الارتياح .
(٣) رجل بطال : ذو باطل (القاموس) .

كلِّ قَرْنٍ منهم يزدادُ ويَكْثُر حتى امتلأَت الأَرْضُ منهم ، وغَلَبَتْ ، وقلَّ أَهْلُ الصِّدْقِ .

وكذلكَ رُوِىَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم أنه قال : يَأْتِى على الناسِ زَمَانٌ لايَبْقَى من الإسلامِ إلا اسْمُه ، ومن القرآن إلا رَسْمُه ، ومساجدهم عامرةٌ من أَبدانهم ، وقلوبُهم خَرِبَةٌ من الهُدَى ؛ أُولئكَ شَرٌّ مَنْ تُظِلُّ السماءُ ؛ منهم تخرجُ الفِتْنةُ ، وعليهم تعُود .

الأجساد قوالب :

ثم إنَّ اللهَ تعالى خلَقَنا ؛ فجعل أَجسادَنا قوالبَ للقلوب ، ونُفُوسَنا مَعْدِنًا للشهوات ، ورءُوسَنا مَعْدِنا للعقل ، وصدورَنامَعْدِنا للعلم ، وقلوبَنا مَعْدنا لكنُوز المعرفة ، وأَكبادَنا موضعا للقوة ، ومَجْمَعًا للعروق التى تَجْرِى فيها القوَّةُ مع الدم ، وطِحَالنَا مَعْدِنَ الرأفة ، وجعلَ فينا روُحًا حَيًّا اشتمل على الجميع منَّا ؛ فظهرت الحركات بتلك الحياةِ فى جميعنا ، وأَشرق فى قلوبنا نور المحبَّةِ لتَحْيَا قلوبُنَا بالله ، وكتَم فيها نُورَالهدايةِ لنَهْتَدِىَ فى تلك الحركات بِهُدَى الله الذى هَدَى به أَحبَّاءَه ؛ وجعل المعرفةَ أَميرا على العَقْل ، وخلقَ الْهَوَى وجعله قَرِينَ العَدُوّ ، وجعل لهما سبيلا إليه حتى يُوَسْوِسَ العَدُوّ ، وجعلَ للْهَوى سُلطانا حتى يَقْهَرَ [1] بسلطانه العقلَ ، ويَطْمِس العِلْمَ ، ويَحْسِم بابَ الكبْر ، ويغلب الروحَ ، ويَخْدَع

(١) يقهر : يغلب .

النَّفْسَ . ويجعلها أميرا ؛ فإذا ذاقت النفْسُ طَعْم الإمَارة وعزَّها انخدعَتْ ومَرَّت معه ، فتظاهَرا [١] وخرَجا على القَلْب . فأَخذاه ، بمنزلة خارجىّ متغَلِّب خرج على وَالِى الكُورَة ، فأَخذه وقيَّده وسجنه و أَوْثَقه [٢] ، و أغار على كنوزه ، وفَرَّق جنُودَه ، وقعد أميرا . فخَرَّبَ الكُورَةَ . و أفسد الرعيَّة.

فأَمَرنا رَبُّنَا جلَّ وعَلا بأُمورٍ . ونَهَانَا عمّا يُفْسِدُ تَدْبيرَه فينا ، وهو المعاصى ؛ وذلك دَوَاؤنا وشِفَاؤنا . وصحةُ النفسِ من الأَسقام ؛ أَسقام الدين .

ثم يَنْصَحنا كما يَنْصَحُ الطبيبُ الرَّفيقُ بشفاءِ الدَّوَاءِ .

ثم حذَّرَكَ عن أَشْيَاء . و أَمرك بالحمايَةِ عنها ، فحذَّرنا رَبُّنَا اتباعَ الهوى ، وزِينَةَ الدنيا . ومُكَايدَة العدوّ وإجابة دَعْوَته ، و أَيَّدك بالعلم والعَقْلِ والمعرفة والحِفْظ والذِّهْنِ والفِطْنَة ، و أَيَّدك بكلامه المُهَيْمِنِ على الكتُبِ نُورًا وشِفَاءً لما فى الصدور ، وهُدًى ورَحمة ، و أَيَّدَك بأَسمائه تسعة وتسعين .

الدعاء لم يكن لسائر الأمم

وفتح لكَ بابَ الدُّعاءِ مالم يكن لسائِر الأُمم ، يقول اللهُ

(١) تظاهرا : تعاونا .
(٢) أوثقه : قيده .

تعالى[١] : (ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ[٢]) .

وإنما كانت[٣] للأنبياء خاصة دُونَهم ، حتى إذا نَابهم نَائبة فَزِعُوا إلى الأنبياء ليَدْعُوا لهم ؛ فلذلك كثرت أنبياؤهم لحاجتهم إلى ذلك ، حتى كانَ لِكُلِّ[٤] مَحَلَّةٍ نَبِىّ ونَبِيّان وثلاثة وأربعة وأكثر : لحاجَةِ[٥] العَبْدِ فى ذلك الموقف العظيم .

قال له رَبُّه : أَعطيتكَ ثلاثةً من الأُمَراءِ ، مامن أَميرٍ إلا ولَهُ سلطان وجُنْد ونَفَاذُ أَمرٍ ؛ أَفما كان لأُمَرائك من العُدَّة والقُوَّة مايغلبون هوَاك ؟ بلى ، قد كان ؛ ولكنكَ قد مِلْتَ إلى هَوَاك . ووضَعْتَ يدَك فى يده حتى أَسَرَكَ . وضيعْتَ أَمْرًا لى ، والمحاربةَ للنفس مع أُمرائى ، وقد أَمَرْتُك بالمجاهدة ؛ وقلتُ : [٦] (وجَاهِدُوا فى اللهِ حَقَّ جِهَادِه) ، وأَعطيْتُكَ الأُمَراءَ مع الجنود لمجاهدةِ نَفْسك وهَوَاك ، فملْتَ إلى

---

(١) سورة غافر ، آية ٦٠

(٢) قال القرطبى (١٥ - ٣٢٦) : الدعاء هو العبادة .
وكذا قال أكثر المفسرين ، والمعنى : وحدونى واعبدونى أتقبل عبادتكم وأغفرلكم .
وقيل : هوالذكر والدعاء والسؤال : قال أنس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : ليسأل أحدكم ربه حاجته حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع . ويقال : الدعاء هو ترك الذنوب .

(٣) كانت : أى الدعوة .

(٤) المحلة : المكان ينزله القوم .

(٥) فى ب : فى حجة .

(٦) سورة الحج ، آية ٧٨ .

النفسِ والهَوَى ، و أعرضْتَ عن الأُمراءِ والجنود ، و ألقيْتَ نفْسَك أَسيرا بين يَدَى الهَوَى ، حتى وضعكَ فى يدِ العدوّ ، وفَضَحك [٩٣] ، فخرجْتَ إلى هذا المجَمْع بين يدى الرحمنِ والأنبياء ، والأَولياء والملائكةِ ، مع هذه الأَعمال القبيحةِ والفضائح : اللسانُ لسانُ الأَولياء والأَعمالُ أعمالُ الأَعداء ، أفٍّ لعَبْدٍ أحْمقَ ، وزَبُون [١] أبْلَه ، أين كان علْمُك حتى تبلَّهْتَ [٢] ؟ وأَيْنَ كان عقلُكَ حتى تحمَّقْتَ ؟ و أين كان ذهْنُك حتى أعرضْتَ عن الله تعالى ، و أقبلْتَ على نفسك ، وتصامَمْتَ عن أدَبِ اللهِ تعالى وكلامِه ومَوَاعظه ، و أَصْغَيْتَ إلى وساوس شيطانك ؟ اتهمت مصالحَ اللهِ ، وانْخَدعْتَ لعَدُوّك ، وَعَدكَ عَدُوُّك الفقرَ ، و أمرك بالفَحْشَاءِ ، واللهُ وَعَدكَ مَغْفرةً منه وفَضْلا [٣] ، فآثرْتَ [٤] وَعْدَه وأَمْرَه على وَعْدِ رَبِّكَ ومغْفرته وفَضْله ؛ وإنما أُوتى العَبْدُ هذا منْقِبَلِ رقِّ النفس ؛ لأَنَّ النفْسَ إذا مَلَكها الهَوَى صارت رَقيقًا للْهَوَى مملوكةً ذليلةً ، تنقادُ للهوى حَيْثُما قَادها ، حتى [٥] يَهْوِى بها فى النار التى منها خرج إلى النفس .

---

(١) الزبون : الحريف ، والمعامل .

(٢) تبله : صار قليل الفطنة .

(٣) يقتبس من الآية الكريمة : الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم (سورة البقرة ، آية ٢٦٨) .

(٤) آثرت : فضلت .

(٥) يهوى : يسقط .

فالْهَوَى هو نَفسُ النَّارِ ، فإذا تنفَّست فإنما لها لَهَبان ونَفسان : نفس من السَّموم ، ونَفْسٌ من الزَّمْهَرير [1] ؛ فكلاهما في الهَوى : بَرْدُ الزَّمْهَرير [1] ، وحرارة السَّمُوم ؛ فإذا خلص إلى القلب بَرْدُ زَمْهَرِيرِ الهوى ، خَمدت حرراةُ حياةِ القَلْب ؛ فإذا ذهبت الحرارةُ مات القَلْبُ ، وجَمَد الدَّمُ .

أَلَا تَرَى إذا خرج الرُّوح جمد الدم ، ثم النَّفس ، وبَقِي دَمُ العروق على حاله ؛ وتلك دِمَاءُ الطبيعة .

في قلب المؤمن حياتان :

في قَلْبِ المُؤمِن حيَاتان : حياة الريح ، وحياة المعرفة ؛ وفيهما الحرارة ؛ فإذا جاءَ الهَوَى ببَرْدِه خَمَدت الحرارةُ التي في القلب ، فبَرَدَ القَلْبُ عن أَمْرِ اللهِ تعالى وعن دَارِ الآخرة ، وجاءَ العدوُّ بزينةِ الدُّنيا على أَثرِ الدنيا حتى سَبَى [2] قَلْبه بتلك الزينة ، ويُغْويه عن أَمْرِ اللهِ تعالى ؛ والغيُّ حوَّلَ [3] القلب عن الرشد ، وبالرُّشْدِ لازمت المعرفةُ القَلْبَ ، فهي ملازِمتُه أَبدا ، وبالرشد ثباتُ المعرفةِ ؛ والغَيُّ ضدُّ الرُّشد .

الرشد سر الله في قلب المؤمن :

قال اللهُ تباركَ وتعالى في تنزيله حيث بعَثَ رسولَه [4] : (قد تَبَيَّنَ

---

(١) الزمهرير : شدة البرد .

(٢) سبى قلبه : أسره وملكه .

(٣) فوا : حال .

(٤) سورة البقرة ، آية ٢٥٦

الرُّشْدُ مِنْ الغَيّ) . والرُّشْدُ : سِرُّ اللهِ تعالى فى قلوب المؤمنين ، لايَطّلِعُ عليه إلاّ الأَنبياءُ عليهم السلام ، والأَولياءُ فمنْ دُونَهم عجُزوا عن مَعْرِفة كُنْهِه [(١)] ؛ فالرِّقُّ بَرْدُ القلب وخمودُه عن حرارة حياةِ القلْبِ بـالله تعالى ، ومَوْت القلب عن الله تعالى ، وبَرْد النَّفْسِ وخمودُها عن التحلُّل للأَركان فى أَمْرِ الله تعالى ، فظهر على القَلْبِ الجمودُ والعَجْزُ ، وعلى النفس القَهْرُ وذَهابُ القوة والكسَلُ .

فكلُّ مَنْ مَلَكَهُ هَوَاه فقَلْبُه مقهور ذَليل لايعتزُّ بـأَمْرِ اللهِ ، ولا يـهتزُّ له ، لأَنَّ أَمْرَ اللهِ تعالى ملكُه وسلطانُه ، وزينتُه وبهاؤه وحلاوَته ، فإذاوافى قَلْبًا مَأْسُورا وصَدْرًا مُظْلما بـأَشْغَالِ الدنيا ، قد خَرَّبه الهَوَى ، وصَيَّرَ صَدْرَه مُرُوجًا وغِيَاضًا وآجَامًا ، يخوضُ فيها الخَنَازيرُ ، وتترَدَّدُ فيها الذِّئابُ والسِّباعُ ، والأُسْد والثّعالب . لم يَبْقَ هناك للأَمير سلطانٌ ، فإذا لم يكن للأَمير مَمْلَكَةٌ ولاسلطان فلم تَبْرُزْ زينتُه وبَهَاؤه ، ولم توجَدْ حلاوتُه ؛ فلذلك لا يجدُ صاحبُ الهَوَى طَعْمَ أَمْرِ اللهِ تعالى وحلاوَتَه ، ولا يرى بهاءَه وسنَاءَه وزينتَه ؛ فإذا عمل ذلك الأَمْرَ كان كالمُكْرَهِ الذى لا يَجِدُ بُدًّا ، أَو كالذى يُجَرُّ برجليه على مَوائد النِّعم وبساتين النُّزْهة ، كما تُجَرُّ جِيَفُ [(٢)] الميتةِ لتُرْمَى . ولايَجِدُ طَعْمَ ما حلَّ بالموائد ، ولا يشَمّ رَيَاحينَ البَساتين ولا يلتذّ بنُزْهَتِها .

---

(١) كنهه : حقيقته .

(٢) الجيف : الجيفة : الميتة من الدواب والمواشى إذا أنتنت ، والجمع جيف .

ومن خلص مِنْ رِقِّ الهَوَى فيُوسَم سِمَةَ [١] الأَحرار قَعد على موائد النِّعم ونُزْهةِ السُّنَن ، فكانت الأَعمالُ موائدَ غِرَاسه ، والذِّكْر بساتيته ونزهته ، فالرقُّ يُدَنِّسُ القَلْبَ ويَقْهَرُه [٢] ، فإِذا صار حُرًّا تطهَّرَ القَلْبُ من الأَدْنَاس ، وخرج من قَهْر الهَوَى ، فاعتَزَّ بالله ، واستَغْنَى بالله .

مثل أعمال البر فى الجسد

مَثَلُ أعمالِ البِرِّ فى الجسد مثلُ أيام الربيع إذا هاج الحرُّ من تحت الأَرض ، وذهب البَرْدُ من الجوِّ ، فإِذا غَشِى الحرُّ يُزُورَ الأَرض ، وعُروقَ الأَشجارِ ، انفطرت [٣] الأَرضُ ، واهتزَّتْ ورَبَتْ [٤] ، وتورَّدَت الأَشجارُ والأَورادا ، واخْضَرَّت الزُّرُوع والنباتُ فى الأَودية والجِبَال والبَرَارِى ؛ فهاجت رِيحُ كلِّ شئٍ ؛ فطاب الهواءُ ؛ فإِذا طابَ الهَوَاءُ من انْفِطَارِ هذه الأَشْياء ، ووَصَل نسيمُ الأَوراد [٥] والرَّياحين إلى الخَيَاشِيم ، فصارت شِفَاءً لأَجسامهم ، وصلاحًا لطبائعهم ، ومَرَمَّة لأَعضائهم ، وذهبَتْ عنهم زُهُومةُ [٦] الشتاءِ والدُّخان والأَدْنَاس

---

(١) السمة : العلامة . (٢) يقهره : يغلبه .

(٣) انفطرت : انشقت .

(٤) اهتزت : تحركت ، والأرض تهتز بالنبات ، لأن النبات لا يخرج منها حتى نزيل بعضها من بعض . ربت : ارتفعت وزادت . وقيل : انتفخت .

(٥) الأوراد : جمع ورد .

(٦) الزهومة : أصلها ريح لحم سمين منتن .

فكذا الأعمالُ السيئة كدَّرَتْ أحوالَ المؤمنين ، ودنَّسَتْ جَوَارِحَهم ، وثقلت أركانَهم ، ووَهنتْ [١] أعضاءهم ؛ فإذا خالطَتْها الأعمالُ الصالحةُ صارت شِفاءً للقلوب ، وقوةً للأركان ؛ كأيام الربيع ، وطِيبِ الهواءِ للأجساد التى وصَفْنَا ؛ وحَيِيَت القلوبُ بالأعمال الصالحة التى ماتت مِنْ تَعَاطِى الشهوات ، كالأرْض حَيِيَت بالأمطار فى الربيع من مِيَاهِ الحياة ، وكذا قال جلَّ جلالُه [٢] : (يـأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ ولِلرَّسُولِ إِذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكم) [٣] ؛ أى إن اللهَ تعالى دعاكم إلى طاعتِه فأَجيبوه ، ووَفُّوا له بما دَعاكم إليه تَحْيَ قلوبُكم به .

مثـل القلب والنفس

مَثَل القَلْب والنَّفْسِ مثَل القَوْسِ أعلاها أَوْسع من أَسفلها ؛ فإذا غَفَل عنها صاحِبُها أَخذ البيتُ الأَسفلُ من البيت الأَعلى قليلاً قليلاً حتى يَصِيرَ الأَعْلَى ضَيِّقًا والأَسفل واسعًا ؛ فلا تخرج الرميةُ عَن قُوَّة ، ولا تَبْلُغ المَقْصد .

فكذلك القلبُ ؛ هو فى غِنَاه وسَعَتِه وقُوَّته متمكِّنٌ فى التدبير ،

---

(١) و هنت : أضعفت .

(٢) سورة الأنفال ، آية ٢٤

(٣) الاستجابة : الإجابة ، فمعنى استجيبوا أجيبوا . مايحييكم : أى يحيى دينكم ويعلمكم . وقيل : إلى مايحيى قلوبكم فتوحدوه . وقال الجمهور : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من الأوامر والنواهى ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية .

وهذه الجوارحُ والنفس فى ضِيقها وفَقْرها وحاجتِها ، فلا تزَالُ تأْخُذُ من سعَةِ القلبِ ومِنْ قُوَّته حتى يَضْعُفَ القلْبُ ، ويَقِلَّ غناه ، ويَضيق ؛ فلا تخرج رَمْيَتُه مستويةً ، ولا عَنْ قوة ؛ فلا يصل إلى المقصود .

قال له قائل : ما الرَّمْيَة ؟

قال : النِّيّة الصادقة ؛ فالنيّةُ من القلب إذا خالطه عَلائقُ[1] النفسِ ضعُفَت النيةُ ، وخرج الفعلُ غير مستوٍ ولا صَافٍ .

قيل : مِثْلُ ماذَا ؟

قال بيانُه : رجل أَخرج شَطْرَ[2] مالِه ليتصدَّقَ به ابتغاءَ وجْهِ اللهِ تعالى ؛ فهذه نِيَّةٌ صادقةٌ خرَجت من قَلْب صافٍ صادق ، ثم قال : أَيْنَ أَضَعُها ؟ فحدَّثَتْه نَفْسُه أَنْ ضَعْها فى غَرِيمك[3] فلان ، لكَ عليه دَرَاهم ليَرُدَّ عليك قضاءَ مَالكَ[4] عليه ، أَوْ ضَعْها فى تَابِعيٍّ من خَدَمكَ ؛ فهذه عَلاَئق خالطت الصِّدْقَ الذى ادَّعى أَنه يُريدُ به وَجْهَ اللهِ تَعالى ، أَراد به غَيْر [٩٤] وَجْهِ الله تعالى ، عَرَضًا من عَرَض[5] الدُّنيا ؛ فزاغ[6] قَلْبُه عن الاسْتِواءِ إلى المَيْل إلى شئ عن اليمين إلى

---

(١) العلاقة — بفتح العين ويكسر : الحب اللازم للقلب ، وجمعه علائق .

(٢) شطر ماله : نصف ماله .

(٣) الغريم : الدائن .

(٤) فى ب : عمالك .

(٥) العرض : متاع الدنيا .

(٦) زاغ : مال .

الشمال ، وعن الأَعْلَى إلى الأَسفل ؛ كالقَوْس إذا جعلتَ بيتَ أسفله أعلاه ، وأعلاه أسفَله ؛ فإذا وَجَدَتِ النَّفْسُ إلى ذلك سبيلا اعتادَتْ ذَلك ، فمرةً أُخرى أَخذت القوةَ من القَلْب .

ثم أَخرج من ماله شطْراً آخَر ليُنفِقَه فى سبيلِ الله تعالى ؛ فقال : أَيْن أَضَعُه ؟ فطمِعَتْ نَفْسُه أَنْ يتصدَّق به على مَلأٍ [1] من الناس ، فتحمدك الناسُ على ذلكَ ، ويقال : إنه سَخِيٌّ خَيِّر ؛ فقد زالَ عن الاستواءِ إلى أَنْ بطلَتْ رَمْيَته حتى خرجَتْ من الْقَوْس ، فسقطت بالأَرض ، ولم يَصِلْ إلى مقصوده من الرَّمْيَة .

ثم أَخرج دِرْهما آخر ، فقال : أَيْنَ أَضَعُه ؟ فذهب فوضَعه فى مَعْصيةٍ ، فهذه رَمْيَةٌ لم يعمل القوسُ فيها ، فالقَوْسُ مُعَطَّلَةٌ ، والوتَر منقطع ، والسهْمُ مُعْوجّ ، والرَّمْيَة غير مسدَّدَة .

مثل المحق والمبطل

مثَلُ المحقِّ والمبْطلِ مَثَلُ رجلٍ بيده اليمنى كوزٌ مملوءٌ من ماءٍ عذْبٍ باردٍ صافٍ هَنِيّ مَرِيّ ، يجدُ عذُوبتَه فى لَهَاته [2] ، وبَرْدَه فى فيهِ ، وحلاوتَه فى حَلْقهِ ، وهناءَته ومَرَاءَته فى جَوْفه ؛ وبيده اليُسْرى كوزٌ فيه بَوْلٌ قَذِر مُنتْن ، وتراه يُؤْثِرُ [3] هذا على الماءِ

---

(١) الملأ : الجماعة .

(٢) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى الفم .

(٣) يؤثر : يفضل .

الصافى العَذْب ، ويشربُ من هذا الرِّجْس [١] ، فمَنْ نظَر إلى فِعْله أليس يُقْضى عليه بأحدِ الحالين : إما جنون ، أو سكر ؟

قال : فإنما مثَّلْتهما بكُوزَيْنِ ؛ لأنَّ الكوزَ وعاءٌ للماء ، والأعمال وعاءُ الحقِّ والباطل ، فعَمَلٌ رَضِىَ اللهُ به ، وأمركَ به ، وأحبَّه ، فالحقُّ فيه . وذلك العمل وِعاءُ ذلك الحقّ ؛ فأَىُّ ماءٍ أعذبُ وأبرد وأصفى وأهْنَأُ وأمْرَى من الحق !

وفِعْلٌ آخر زَجر اللهُ تعالى عنه وسخِطَه وأبْغَضه [٢] ، ونهاك عنه ، ومَقَتَ [٣] فاعلَه ، فالباطلُ فيه ، وذلك وِعَاءُ ذلك الباطل ؛ فمثلهما كمثل الكُوزَيْنِ فى يَدى ذلكَ على ما وصفنا ، أخَذَهُما رجل بيَدِه على ما وصَفْنَا ؛ فمن آثَر كُوزَ البَوْلِ على كُوزِ الماء العَذْب الهنئ المرئ لم يُوضَعْ أمْرُه إلَّا على الجنون أو السكر ؛ فمن آثَرَ [٤] الباطلَ على الحق لدُنْيا يُصيبها [٥] أو لنفسٍ يَغُرُّها ويُبَاهى بها فإنما هو لأحدِ أمرين : إما أن تكون المعرفةُ قد اختبأَتْ فيه فهو

---

(١) الرجس : كل شئ يستقذر . والرجس : النجس . أو النجس القذر الخارج من بدن الإنسان .

(٢) سخطه : لم يرض به . وأبغضه : كرهه .

(٣) مقته : أبغضه أشد البغض .

(٤) آثر : فضل .

(٥) يصيبها : ينالها .

منافِقٌ شاكٌّ فى ربّه أو مما يشرب صِرْفا [١] من حلاوة حُبِّ الدنيا فأَسْكَرَتْه ؛ ولذلك قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : حبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ ؛ فإذا أَصَمّه و أَعْمَاه نافَق ، فإذا آثر الباطلَ انْمَحَق الباطلُ وزَهَق [٢] ؛ وإنَّ الباطلَ كان زَهُوقًا [٣] . وتلاشت الدُّنيا عنه ، وبَطَل مُلْكُه بها ، وانتقلت إلى غيره ، ونَفْسُه الطالبةُ للْعزّ والجاهِ عادت جِيفَةً مُنْتِنةً ، ملأً بطنه صديدٌ وديدان .

مثـل العارف المنتبـه

مثَلُ العارِفِ المُنْتَبِه قبل الانتباه مَثَلُ عَبْدٍ له مَوْلىً [٤] ، ولكن لايعلمُ مَنْ مَوْلَاه ، [٤] وكان فى جَمْع عظيم ، وكلُّهم مَوالى العبيد ، فقال : أَيُّهم مَوْلَاىَ مِنْ بين هؤلاءِ ؟ فأَشارُوا له إلى واحد منهم : إن هذا مَوْلاكَ وسَيِّدُك ؛ فنظر إليه بعين الرِّضَا ، فوجده أَجْمَلَهم وَجْهًا ، و أَغْنَاهم مالا ، و أحسنَهم خُلُقا ، و أَطْهَرَهم سِيرة ، و أَجودَهم كفًّا ، و أَحلاهم منطقا ، و أنفذهم قَوْلا ، و أفرسهم فارسا ، و أَعْلمهم علما ، و أَبْهَاهم زِينة ، و أَرفعهم كِسْوَةً ، و أَوْسعهم مُلْكا ، و أَعظمَهم رَحمةً وتَحَنُّنا ، و أَشْكَرَهم لعبده ؛ فامتلأ هذا

---

(١) صرفاً : خالصاً .

(٢) زهق : زال وبطل .

(٣) فى سورة الإسراء آية ٨١ : وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

(٤) المولى : السيد .

العبدُ فَرَحًا لَمَّا وجَد مولاه على هذه الصفة ؛ واستطالَ [١] به على سائر [٢] العَبِيد مِنْ نُظَرائه ، واختال وافتخَر به ، ووجد القوةَ فى ظَهْرِه كلَّ القُوّة ، والسرورَ فى قلبه ؛ ورأى نَفْسَه لهذا المولى الذى وجدَه بهذه الصفات أنه ليس له كُفْوًا [٣] من أشكاله من العَبِيد بما وَجَد مَوْلىً مِثْلَ هذا .

فهذا حالُ العارفِ إذا انتبه مِنْ رَقْدته ، وعرَفَ أنَّ له رَبًّا بتلك الصفات التى كانت له تسعةً وتسعين اسما ، ووجد فى أسمائه تسعة وتسعين صِفَة ، فكلُّ اسْمٍ إذا دعاهُ به عرف أنَّ هذا اسْمُه على الحقيقة لا على الاستعارة ، وعلم أنَّ الصفةَ مِنْ وراءِ الاسم ، قد أعدَّله ماوضع من تلك الصفات لعبده ، فمتى يَسَعُ هذا العبد فى الدنيا وفى العُقْبَى [٤] متى وَجَد سيِّدَه بهذه الصفات !

مثـل العلم مثل المـاء

مثَلُ العِلْم مثلُ الماء ؛ فإن فيه حياةَ الأَرْض ، فالماءُ يَخْرُج به النباتُ ، ويشتدُّ نباتُها بالتُّرابِ المُلْقَى [٥] فيها ؛ فبه [٦] تتَقَوَّى

(١) استطال به : يريد أنه فخر به ، وتقوى .
(٢) سائر : باقى .
(٣) كفوا : مساوياً ونظيراً .
(٤) العقبى : يريد الآخرة .
(٥) فى ب : الملقاة فيها .
(٦) فى ب : فبها .

الأَرضُ ، ويشتدُّ نَبَاتُها ؛ فلو أَنَّ رجلا غَرَس أَغْراسا [١] ، ثم لَهَا عنها ، فلم يُلْقِ فيها التُّرَابَ ، ولم يَسْقِها بالماءِ ،يَبِست الأَغراسُ ، وبطَل عَمَلُه .

فكذا العِلْمُ فيه حياةُ القلوب ؛ يَحْيَا القَلْبُ بالعلم ، ويقوى تَشْتَدُّ باستعمال العلم بالعمل .

فلو أَنَّ رَجُلا تعلَّم العِلْمَ ثم لَهَا عنه ، فلم يَعْمَل فى انكشاف الغِطَاء عنه ، حتى يَصِيرَ العِلْمُ له مُعَايَنَةً ، ويُتَصَوّر فى صَدْرِه ؛ لأَن مِرْآته فى صَدْرِه ؛ فالذى يَسْمَعُ بأُذنى رَأْسِه يتأَدَّى [٢] إلى أُذُنِ فؤاده وبَصَر فُؤَاده ، ففى أُذُنَىْ فُؤاده وَقْر [٣] من رِيَاح الشهوات وأَهْوِيَتها ؛ فضلَّ سَمْعُه ، فتلاشى ما سَمِعَ بأُذنى الرأْس ، وعَمِى بَصَرُ فؤادِهِ عن صُورةِ ما يتصوّر من ذلك العلم فى قلبه ، فتراكم [٤] دُخَانُ الشهواتِ وفَوَران حريقها المتأَدِّى من جوْفِه إلى صَدْره ، فأَظلم عليه إشراقُ نُورِ شمسِ المعرفةِ عن صَدْره ، فَبَقىَ على لسانه كلامُ ذلك العلم ؛ وذلك الكلام وذَاكَ عبارة العِلْم .

فأَمّا العِلْمُ فقد احتجب وغَاب فى ظُلْمَةِ ذلك الدُّخَان والفَوَرَان ،

---

(١) الأغراس : جمع غرس ، وهو المغروس المزروع .
(٢) يتأدى : يصل .
(٣) وقر : ثقل .
(٤) تراكم : اجتمع . وفى أ : راكم .

فذهب عنه استعمالُه ، فلم يَبْقَ عِلْمٌ ولا عمَل ، إنما بقيَتْ عِبَارة اللِّسَان ، وتلك حجّةُ اللهِ على ابن آدم .

فهذا بمنزلة غارسٍ غَرس أشجارًا ثُمّ لَهَا عن سَقْيِها وتربيتها حتى يَبِس وبَطَل عَمَله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين .

مثل التائب

مَثَلُ التائب مثَلُ عَبْدٍ للملك أَبقَ [١] منه ، فصار إلى بَلَد من البُلْدَان ، فوَجَد الملكُ عليه وَجْدًا [٢] شديدا بكُفْرَانه بِنِعَمِه ، وذهابه بالرَّقَبَة ، وإيثارِه النَّهْمَةَ [٣] على الكَوْنِ بين يديه من الخِدْمَةِ وسقط مِنْ عَيْنِه .

فلما افتقد [٤] العَبْدُ عِزَّ القُرْبَةِ ، وشَرَف الخِدْمَةِ ، وحلاوةَ القيام ، وافْتَقَدَ مَرَافِقَه ، وغَلَبهُ العَجْزُ ، والشُّعُوثَة ، والكُدْرَة ، والعَنَاءُ [٥] فى طلَبِ المعيشة ، وحالةُ البُؤْس والفقر مِنْ تلك المرافق ورَخاءِ العَيْشِ - نَدِم على ما كان منه لِمَا حلَّ به ، ولم يَدَعْ [٦] شقاوةَ نَفْسِه أَنْ يرجع بنفسه إلى مَوْلاه .

---

(١) أبق العبد : هرب من سيده .

(٢) وجد عليه : غضب .

(٣) النهمة : الشهوة والرغبة .

(٤) افتقد : فقد .

(٥) العناء : المشقة أو الذل .

(٦) يدع : يترك .

وقد عَلِمَ الملكُ بما أَصابه وبما نَدِم ؛ فبعثَ إليه بِكُسْوَة ورَاحِلَة[١] وكتب كتاباً أَنِ ارْجِعْ إلينا ، فلكَ عندنا ما كانَ لكَ .

فارتحلَ عَنْ وطنه ذلك راجعاً إلى الملك ، فكلما مَرَّ بمِصْر وقَرْيَةٍ فيها نُزْهة مكثَ أياما ، وقَضَى نَهمه [٩٥] ثم يرتحل فيَهْجم على أُخرى مثْلِها فمكث هناك ؛ ثمَّ يرتحلُ ، والمَلكُ ينتظرُ وُصولَه وهو يتباطَأُ إلى اقتضاءِ الأَوْطَارِ والمُنَى .

فبينما هو كذلك إذ بعثَ الملكُ قاصدًا فأَخذه وقَيَّده وسجَنَه هناكَ فى بعض السجون إلى يَوْمَ يَدْعُوه للمُعَاتبة والحساب ؛ يوم موقَّت بذهاب العلَّة .

وعَبْدٌ آخر قِصَّتُه هذه القصة ، فلما ارتحلَ منْ مبتدإ أَمْرِه لا يُسْرع إلاَّ إلى ما لابدَّ له منه ، وقَطَع البُلْدَان والمفَاوِز[٢] والبُحورَ والجِبَالَ والآكام[٣] ، لا يَنَامُ ولا يُنيم ، كلما ازداد قُرْبًا بحضرة الملكِ اهتاج سَيْرًا وجِدًّا ، حتى وصلَ بابَ الملك ، فأُقيم بالباب فَنزل ، وأُشير له إلى مكانٍ يحطُّ رَحْلَه ؛ ففعل . وبَقِيَ هناك مدةً ليَتَزَيَّنَ ويتَأَدَّبَ ، ويعتاد ويتوقَّر ، ولتَزُولَ عنه الخِفَّةُ والاستبدادُ والعَجَلة ، ويلبس أَثْوابَ الخَدَم . ويتهيَّأَ للخدمة تَهَيُّؤًا يَصْلُحُ له بين يَدى

---

(١) الراحلة : المركب من الإبل .

(٢) المفاوز : جمع مفازة : أرض ليس فيها ماء .

(٣) الآكام : جمع أكمة ، والأكمة : الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله .

الملك ؛ فلا يزال هكذا فى مُدَّة طويلة حتى يُرْفَعَ السِّتْر ، ويُؤْذَنَ له بالدخول بين يديه ، فهو مادام يفكر ما فَعَل يأْخذُه بما صنع بالإِبَاق [١] حتى لا يَدْرِى ما يَصْنَعُ مِنَ الحَياءِ .

فإِذا عَلِم الملكُ مِنْ حاله أَنه يَسْتَحِى من ذلكَ بسطَ له بَسْطًا ، وبَرَّه بِرًّا ، ولم يذكر له شيئا مما صنع ؛ وقَبِلَه ووَلاَّهُ ولايةً سنيَّة ، وخَلع عليه خِلَعًا يظهر عنده أَنَّ الملكَ مِمَّنْ قد رَضِىَ عنه رِضًا لا يَسْخَطُ بَعْدَه ، وعاد كما كان فى محَلِّه ومَرْتَبته ؛ وذلك قولُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم صاحِبِ الشَّرْع : التائبُ منَ الذَّنْب كمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ .

مثل الخاشى

مَثَل الخَاشِى [٢] مثَلُ رجُلٍ وقعَ فى مَفَازةٍ لا يَرَى فيها أَشياء ولا عُمْران ولا نَبَاتَ ، فقد امتلأَ خَشْيَةً من ضَلاَلِ [٣] الطريقِ ، ومِنَ الظَّلماءِ ، ومن قلَّة القُوت .

وكمثَل رَجُل وقَع فى غِيَاضٍ [٤] ومُرُوج ، قد سبقَ إِليه العلمُ بأَنَّ المروجَ مواضعُ الأُسْد ؛ فالخشيةُ من الأُسْد كائنةٌ فيه .

---

(١) الإباق : الهرب .

(٢) الخاشى : الخائف .

(٣) ضلال الطريق : عدم الاهتداء للطريق .

(٤) الغياض : جمع غيضة ؛ وهى الشجر الملتف .

مثـل الخائف

ومَثَل الخائف كمثل رجُل رأى فى هذه المرُوج آثارَ خُطَاه ومأْوَاه الذى يَأْوِى إلى أَشْبَاله (١) .

مثـل العارف

ومَثَل العارفِ كمثل مَنْ عايَن الأَسد ، ونظر إلى شَخْصه فى ذلك المَرْج (٢) ، فأَخذت هيبةُ الأَسد بمجامع قَلْبه ، وركبت أَهوالُه نَفْسَه ، وصار كثوبٍ بال وحِلْس مُلْقًى (٣) مِنْ رَوْع (٤) القَلْبِ وفَزَع النفس .

مثـل أهل الارادة

مَثَلُ أَهل الإرادةِ فى دَرَجاتهم مَثَلُ خَدَم الملك كلٌّ واحد منهم قد اتَّخذَ على رأسه إكليلا وبارِقَةً فى يده ليَلْقَى بها الملك يوم العَرْضِ ، فعَمَد (٥) أَحدُهم إلى الذَّهَبِ الأَحمر الصافى فصاغَه ، ثم عَمَد (٥) إلى جَوَاهر ثمينةٍ من اللآلئ والياقوت والزُّمُرُّد فركَّبَها فُصوصا ، فبلغت قيمةُ إكليله مائة أَلْفٍ وزيادة .

وآخَر عَمَد إلى ذَهَب معمول مغشوش فصاغَه وركَّب فيه من

(١) الشبل : ولد الأسد وجمعه أشبال . والضمير للأسد .
(٢) المرج : أرض ذات نبات ومرعى ، وجمعه مروج .
(٣) الحلس : كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله . وبساط يبسط فى البيت . وفى ا : حلس ملقاة .
(٤) الروع : الخوف .
(٥) عمد : قصد .

الفصوص ما يُبَاعُ [١] بثمن يسير من الأخزاف [٢] ونحوه ، وعظام صدف ؛ فإذا كان يوم العَرْضِ . ولَقِيَهُم الملكُ فأنفذهم إلى سُوقهِ ليُعْطِيَ كلَّ واحدٍ منهم ثمنَه من الخزانة ؛ فعندها يظهَرُ الأَسَفُ والنَّدمْ على ما فَرَّطَ فى ذلك .

فعمَّالُ اللهِ تعالى فى هذه المراتب على إرادتهم ؛ فمن عَمِل على طريقِ الحُبِّ والتَّحَنّن فعَمَلُه كتلك الجواهر الثمينة والذهب الخالص ، فأَوْفَرُهم حبًا له أعْلاَهم ثمنًا لجوهرهِ . وأَصْفَى فى ذَهَبه ؛ فالذهبُ الخالصُ صدْقُه . والفصوص المركبة حُبُّه لمولاه .

فعمَّالُ اللهِ تعالى هكذا صِفَتهم ؛ فعاملٌ يخلط ويَشوبُ [٣] ؛ فهو كالذَّهَبِ المعمولِ الذى شَابَهُ ذلك النحاسُ والصُّفْرُ [٤] والأَدوية مع التخاليط ؛ إذا صفت إرادتُه بجهده لم يتفكَّرْ فى العلاقة ، فعمَلُه مع طَلَبِ الثَّوَابِ والنَّجَاةِ من العقاب ؛ فهذه فُصوصٌ ليس لها كثيرُ أثمان ؛ لأَنها ليست بجواهر . وكيف تكونُ جواهرَ وقد شَانَها [٥] طَلَبُ نَجَاةِ النفس وثَوَابها . فَبَالُ النَّفْس قائمٌ بين يدى مَوْلاه ، وقَلْبُه حِجَابٌ كثيفٌ يَحْجُبُه عن مولاه .

---

(١) فى ب : مايبلغ .
(٢) الخزف : الطين المعمول آنية قبل أن يطبخ ، فاذا طبخ فهو الفخار .
(٣) يشوب : يخلط .
(٤) الصفر : النحاس .
(٥) شانها : عابها .

وأَصحابُ الجَوَاهر فى أَعمالهم ؛ مَنْ عملَ لربِّه بلا علاقة ، وصدَق اللهَ فى ذلك العَمَلِ بالمجُاَهدةِ بطلبِ الصدق ، وخرج العَمَلُ منه منْ نارِ الحبِّ وفَوَرانِه ، فيصعد إلى الله تعالى ؛ فلا ينتهى حتى يصيرَ إلى مَحَلِّ الحُبِّ ؛ فهناك يُعْرَضُ ، وهناك يُقْبَل ، وهناك يُثَاب .

وأعمالُ هؤلاءِ الآخرين مُنْتَهَاها إلى العْرضِ على العرش .

أعمال هذه الأمة على ثلاث مراتب

فصارت أعمالُ هذه الأُمَّةِ على ثلاث مراتب : صِنْفٌ منهم يَرفع عَمَلُهم إلى الخزائن ، ويُرَبَّى[١] هناك بالرحمة ، فيصير الواحدُ عشرة ؛ وهو عَمَلُ المخلصين ، وذلك قول اللهِ جَلَّ ذِكْرُه[٢] : (مَنْ جاءَ بالْحَسَنَةِ فلَهُ عَشْرُ أَمْثالها).

وصِنْفٌ آخر يُرْفَعُ عَمَلُه إلى عِلِّيِّين إلى السِّدْرَة التى أَصْلُها فى الجنة ورَأْسُها بباب اللهِ ، فيُربىَّ هناكَ بالرأفة ، فيَصير الواحدُ سبعمائة ؛ وهو عَمَلُ الصادقين ؛ وذلك قولُ الله تعالى جَلَّ ذِكْرُه[٣] : (مَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَموالَهم فى سَبِيل الله كمَثَل حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّة[٤]) .

---

(١) يربى : ينمى ويزاد .

(٢) سورة الأنعام ، آية ١٦٠

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٦١

(٤) الحبة : اسم لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته ، وأشهر ذلك البر ، فكثيرا ما يراد بالحب .

وصنفٌ يُرْفع عَمَلُه إلى اللهِ تعالى حتى يُقْبِلَ اللهُ عليه ، فينظر اللهُ إليه فرَبَّاه هناك بنُصْرَته ، فيصير الوَاحِدُ آلافَ ألف ، ولا يُحْصى عَدَدَها إلا اللهُ تعالى ، وذلك قولُ الله تعالى [1] : (فيُضَاعِفَهُ له أضعافًا كثيرة) .

وإنما كان كذلك لأَنَّ هذه الأُمَّة أبرزت باليقين . فاستقرَّتْ قلوبُهم إلى حُكْمِ اللهِ تعالى ، وأُنْفِذَت إلى حُبِّ الله تعالى ، فوقعت أعمالُهم فى تربيةِ اللهِ تعالى .

مثـل العمال فى اخلاصهم فى العمل

مَثَلُ العُمَّال فى إخلاصهم فى العَمل مَثَلُ عَبْد دفَع إليه مولاه ثَوْبًا منسوجاً مختلِفَ السَّدَى [2] ؛ فطاقةٌ منه كَتَّان ، وطاقةٌ منه صُوف ، وطاقةٌ منه شَعر ، وطاقةٌ منه إبْرَيْسَم [3] ؛ فقال مولاه فى ظلمة الليل : استخرِجْ طاقةَ الإبْرَيْسم من هذه الطاقات ، ليَمْتَحِن حَذَاقَتَه [4] ، فإذا قدر على ذلك عظُمَ شأْنُه عند مولاه ، وصار أَمْرُه بين العبيد عجَباً .

فكذا المؤمنُ إذا أخلص الطاعةَ من بَيْنِ شهواتِ النفس وإعجابها وعَلائقها ، من الرَّغْبةِ ، والرَّهبة ، والحِرص والشَّرَه ، والغَدْر ،

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٤٥

(٢) السدى : ما يمد طولا فى النسج .

(٣) الإبريسم : الحرير .

(٤) الحذاقة : الحذق : والمهارة .

والخيانة ، والمكر ، والغِشّ ، والغِلّ ، والحسد ، والكِبْر ، والعُلُوّ ؛ أخلص طاعةً منْ بين هـذه الشهوات الدنيئة الرَّجِسَة[1] الدَّنسَة ، ثم خرج بها إلى اللهِ تعالى عَظُمَ شأْنُه ، وصار أَمْرُه بين الملائكة عجبًا ؛ كيف قَدر على مِثْلِ هذا ؟ وإنما هو لَحْمٌ ودَمٌ وطين وتُراب ، وشَهَواتٌ ، ولا تَعْلَمُ الملائكةُ بما أعطاه الله من القوة فى سِرٍّ أَسرَّه[2] من الجميع ، فبِتلْكَ قَدَر على مِثْلِ هذا .

مثل الأعمال فى زينتها

مَثَل الأَعمالِ فى زِينتها وبَهَائها مثل الأَثواب من الدَّيَابِيج[3] والوَشايش[4] ، فالوشايش فيها بأَلوانٍ . والأَعمالُ [٩٦] أَنواعٌ ؛ فثوبٌ منها أَبيضُ ليس فيه شئٌ من الأَلوان والنُّقُوشِ ، ومع ذلك خَشِنٌ ليس بجَوْهَرِى ، لأَنه مغشوش فى أَصْله ؛ فهذا غَيْرُ ثمين ؛ وإن كان فيكون قليلا نموذجَ شَىْءٍ من الثياب ، فلا يشترك الإِبَاقُ[5] وَوَكْس الثمن ؛ فهذا عَمَلٌ من صاحب تخليط ، وخُلق سئ وخُشونة رُوح ، فلا يُعْبَأُ بعمله بشئ .

وثوب ليس له جوهر إلاَّ أَنَّه خالصٌ ولا نَقْشَ له ، فهذا مما يُشْتَرى وَيُرْغَب فيه .

---

(١) الرجسة : النجسة . (٢) أسره : أخفاه .

(٣) الديابيج : جمع ديباج .

(٤) الوشى : نقش الثوب .

(٥) الإباق : هروب العبد من سيده . وكس الثمن : النقص فيه .

فهذا الصادقُ المُريد يَطْلُب مَرْضاته ، الذى قد لانت جَوارحُه للين نَفْسِه ، وخَشْعة قَلْبه .

وثَوْب جوهرى خالص كذلك ذو أَلْوان من النقوش ، ولكن ليس له طَرَاوَة ، ولن تُؤْخَذ العيونُ بحلاوته فهذا صديقٌ صار إلى الله بجُهْده ، فجُهْده نصْبَ عَيْنيه كلّما عَمِل عملاً رأى نَفْسه فى ذلك العمل ، فأَعجبه ذلك ، فهو يعمَلُ على التعظم ، ويجتهدُ فى العَمل ونيته ، ولكن ليس له لَبَق [1] .

وثَوب جيّد جَوْهَرِى خالصُ الغَزْل من الإِبْرَيْسَم [2] ، مُحْكَم النسج ، ملَوَّن النقوش بِفُنُون [3] الأَشياء ، من الأَشجارِ والطُّيور ، والتماثيل والتَّصَاوير ، فيزداد بثَمَنِه عشرة أَضعاف ، كلَّ مرة تَأْخُذه العيون بحلاوة لَبَقِه .

فهذا عَمَلُ أَهْلِ المحبَّةِ ، وهم أَهْلُ اللَّبَقِ فى أَعمالهم ، قد زايَلَتْهمُ الأَهواءُ والنفس ، والالتفاتُ إلى شئ سِوَى العُبودة [4] ، والفَرَح بشئ سِوَاه ، فأَعمالُهم بالسكينة والوَقَار ، والتعظيم والإِجلال ، وحَشْوُها حُبُّ اللهِ تعالى .

مثل عمل الذى لا لبق له

فمثَل عَملِ الذى لا لَبَق [1] له مثَلُ تلك النقوش التى تُنْقَش

(١) اللبق : الحذق ، والظرف ، ولبق به الثوب : لاق .

(٢) الإبريسم : الحرير .

(٣) فنون : مختلف .

(٤) العبودة : الطاعة .

على الحيطان والعيدان بألوان النقوش ، ولا تَلْتَذُّ العيونُ برُؤْيتها ، ولا تذوق حلاوَتَها ، حتى تُذَهَّبَ بالذهب ؛ فحينئذصارلها بَريق وإشراق ؛ فعندها تلتذُّ العيونُ بحلاوة زينتها .

فكذا الأعمال ؛ وإنْ صدرَتْ لا لَبَق لها إلا بحلاوة لبقها ، وهو حبُّ الله تعالى الذى هو أَقْوَى الأنوارِ ، وأنورُها وأَعْلاها وأَسْنَاها ؛ فهو جَوْهرى مُحْكَم ، وإنْ طالَ استعمالُه وابتِذَالُه فهو طَرِئُ النقوش ، حَسَنُ الهيئةِ ، كالثَّوْب الجوهرى المُحْكَم على ما وصفنا .

وإذا كان خَشِنًا لاجَوْهَرَ له فبقليل الابتذال والاستعمال دَرَستْ [1] تلكَ النقوشُ وتهافَتَتْ [2] ، وبرزَتْ قِيمتُه إلى ثَوْب أبيض خَلَق [3] .

فكذا العامل الذى قامَ به ، واجتهد فى طلَبِ الصِّدْقِ ، مع خشونة وأخلاقٍ سيِّئة لا تَدَعُه ، فقد نقش عَمَلَهُ وزيَّنه ، ولكن إذا طالت المُدَّة ، وكبرت سنُّه ، تهافتَتْ عنه تلك النقوشُ والزِّينة ؛ لأنه كلما كبر ازداد سُوءُ خُلُقه ، وضِيقُ صَدْره ، وخشونته ؛ فتعودُ حالُه وقَدْرُه عند اللهِ تعالى كما عاد ذلك الثوبُ الذى قد دَرس ،

---

(١) درست النقوش : خفيت آثارها .

(٢) تهافتت : تساقطت شيئا بعد شئ .

(٣) خلق : بال .

وصار ثَوْبًا خَلَقا لا نقوشَ فيه ، وتراجعت قيمتهُ إلى قيمةِ ثَوْب أبيض خَلَق .

مثـل من يجاوب الذاكرين

مَثَل مَنْ يجاوبُ الذَّاكرين والمؤذِّنين عند التهليل [١] على طَرِيق المُساعدةِ بلا رَوِيَّة ولا استعمالِ عَمَل - مثلُ رجل يُلْقِى فى زَرْعِه من التراب والعَلَف ليُقَوِّيه ، ثم امتنع من سَقْيه ، فما يزيدُه ذلك إلاَّ يَبَسا [٢] ، ويلقى عنه النبت [٣] . ومَنْ سقَاه سَقْيًا مُترادِفا [٤] مرّتين أو ثلاثا استخرج الماءُ قوةَ ذلك الملقى ، فأدّاها إلى الزرع ، فنبت وقَوِى واشتدَّ ساقُه ، وسَنْبَل [٥] ، وتَفرّع ، حتى أدرك الزرعُ وقَوِىَ .

فكذا مَنْ جاوبَ المُهَلِّلَ بدُونِ حَياةِ القَلْبِ ولا يفعلُ ما يقولُ ، فذلكَ كالترابِ الذى يُلْقَىَ فى الزَّرْعِ ، ومُنع سُقْيَاه ، لم يَزْدَدْ إلاثقلا ؛ لأنه إنما اقْتُضِىَ التهليلَ فى جميع عُمْرِه مَرَّةً واحدة ، وهو الإقرارُ بتوحيده ، وما سِوَاهُ تجديدُ الوَلَه ؛ فهذه الكلمةُ إنما تَقْتَضى مِنْه وَلَهَ القَلْبِ إليه ، فإذا لم يُوَلَّه قَلْبه إليه لم يُقْبَلْ ذلك منه ؛ لأنه

---

(١) هلل : قال : لا اله إلا الله (القاموس)

(٢) يبس : إذا جف بعد رطوبته .

(٣) فى ا ، ب : ويبقى عن النبت .

(٤) مترادفاً : متتابعاً .

(٥) سنبل الزرع : أخرج السنابل .

لما آمن اطمأَنَّتْ نَفْسُه ، وَوَلَهَ بالواحد ؛ فكلما ذهب مِنْ وَلَهِ قَلْبه عنه إلى شيءٍ غَيْرِه فإنما يذهبُ سهوًا لا عمْدًا ، فإذا سهَا عن ذِكْرِ الصانع ، واشتغل بالمصنوع ؛ لغَلَبَةِ حلاوةِ المصنوع على قَلْبه ، وحِدَّةِ شَهْوَتِه له فى نفسه ؛ فإذا بَقِىَ فيه خَرِبَ قَلْبُه ، وأظلم صَدْرُه ؛ فإذا هلَّلَ فإنما يجدِّد الوَلَهَ ، ويرجعُ إلى اللهِ تعالى ؛ فيربط القَلْبَ ، وتعود النفس طريّة .

فَهذا المجاوبُ إذا سمع تهليلَه ، فجاوَبَه على طريق المساعدة والغَفْلة فهو كالتُّرَابِ المُلْقَىَ على ذلك الزَّرْع بلا سَقْى ؛ فلا يزيدُه ذلكَ إلا ثقلا ، كذا هذا المجاوِبُ لا يزيده من ذلك إلا خسارا وحجّة .

ومَنْ نَطَق به على كَشْفِ الغِطَاءِ كان كمَنْ سقَى زَرْعَهُ بعد إلقاءِ التراب فيه ، فرَطُبَ ذلك الترابُ ، وتأَدَّتْ قُوَّتُه إلى الزرع ، فقوِى واشتدّ ساقُه ، وأَعجبَ الزُّراع ليَغيظَ به عدوَّه الكافرَ ، ووَعَد اللهُ عزَّ وجلَّ أُولئك بالمغفرة والأَجْرِ العظيم ؛ لقولِ اللهِ سُبْحَانَه وتعالى [1] : (وَعد اللهُ الَّذينَ آمَنُوا وعملُوا الصالحاتِ منهم مَغْفِرةً وأَجْـرًا عَظِيمًا [2]) .

---

(١) سورة الفتح ، آية ٢٩ : وقد أشار فى قوله : وأعجب الزراع . . إلى جزء من هذه الآية ثم ختم فقرته هذه بآخر الآية .

(٢) الذين آمنوا : المؤمنون وأعمالهم صالحة . أجراً عظيما : ثواباً لا ينقطع وهو الجنة .

مثل من يستمع قلبه الى حديث نفسه

مَثَلُ مَنْ يستَمع قلْبُه إلى حديثِ نَفْسه فيقبَلُ منها ، ويستشيرها فى أموره ، ويَقْبَلُ ما تُشير عليه — مَثَلُ رجلٍ معروف بالعَقْل والعِلْم ذى خَطَرٍ [١] وجاه ، يستشيره الناسُ فى أُمورهم — أَقبل على صَبى مع خُلْقَان و أدناس [٢] ، وبُزَاق [٣] ومُخَاط ، يلعَبُ بالتراب لَعِبَ الصِّبْيَان ؛ فهو يَستشيره فى الأُمور ، ويستمع مقالاته ، ويَقْبَلُ منه ، فكلُّ مَنْ نَظَر إليه من العُقَلاء تَحيَّرَ فى أمره ، وتعجَّبَ من فِعْله .

فكذا النَّفْسُ فى جَوْف الآدَمىّ بهذه الصفة : نَهمتُها [٤] اللعبُ والبَطالة ، من الشهوات والنَّهمات ، مع خُلْقَان الأَعمال و أَدْناس الذنوب ، وبُزَاق الغَضَب ، ومُخاط البُكاء ، جَزَعا على فَوات الدُّنْيَا ، ومَصائب أحوالها .

فإذا ذهبَ القَلْبُ الذى أَكرمَهُ اللهُ تعالى بمعرفته ، وزَيَّنَه بالعقل ، وشَرَّفه بعِلْم أَسمائه وعِلْم القُرْآن ، فأَعرضَ عن هذه العطايَا والهدايَا ، و أَقبل على حديثِ النفس وإشاراتها ، وإلى ما تَدْعُو إليه ، فقَبِلَ منها ، واستفاد بها ؛ فهذا شأْنٌ عجيب ، ومَنْ نظر إليه فيه حَيَّرَهُ .

---

(١) خطر : قدر ومنزلة . وفى ا ، ب : ذا .

(٢) خلقان : ثياب بالية . وأدناس : أوساخ .

(٣) البزاق : البصاق .

(٤) نهمتها : حاجتها وشهوتها .

مثل عمال الله تعالى على طريق الرجاء والثواب

مَثَلُ عمَّالِ اللهِ تعالى على طريقِ الرَّجَاءِ والثواب مثَل بَعير الرَحَا[١] ،يشدُّ على عصارى حَجَرِ الرَّحَا وأُخِذَ بعينيه ، فهو يَدُورُ على ذلك القُطْبِ[٢] والبَكرة فى أَرضٍ عشرة أَذرع ، لا يَبْرَحُ مِنْ تلك البُقْعة فى شَهْرِهِ ودَهْرِه ، ولايعرفُ سِوَى ذلك شيئا ؛ فالرَّحَا الأَعمالُ الثِّقَالُ ، وتَعَبُ الأَركان فيها . وطحْنُها[٣] الذى تَرْمِى به تلك الأَنوارُ التى تصعَدُ إلى السماءِ من تلك الأَعمال . والقُطْبُ الذى تدورُ عليه أَعمالُهم نيَّاتُهم ومَقَاصِدُهم يَبْتَغُون[٤] بها [٩٧] الثوابَ من اللهِ تعالى ؛ فهم الشَّهْرَ والدهرَ مَشَاغيل فى الأَعمال ؛ ودَوَرَانُ قلوبهم على طَلَبِ ذلك النَّوَال لا يبتغُونَ غَيْرَ ذلك .

مثل الصديقين العارفين فى الأعمال

ومَثَلُ الصدِّيقين العارفين فى الأَعمال مثل أَرْحِيَة الماءِ ؛ جاءَ الماءُ مُنْحَدِرا جِدًّا ودار القُطْبُ بما فيه من الأَجنحة ؛ فالماءُ علمهم بتَدْبير اللهِ وعِلْمِهم بالله .

مثل خاص الأولياء

مَثَلُ خاصِّ الأَولياءِ مثل أَرْحِية الريح ، جاءَت الريح فتحمل ذلك

---

(١) الرحا : الطاحونة .
(٢) القطب : قطب الرحا : ما تدور عليه .
(٣) الطحن : المطحون .
(٤) يبتغون : يطلبون .

الرَّحا ، فهو فى رَأْيِ العَيْنِ يَدُورُ كالطائر يَطير ، وسبَبُ دورانِه مُنْكَمِن ، فهؤلاءِ المستعملون فى القَبْضة ، أَسبابُ أُمورِهم قد انقطَعَتْ عن أَسبابِ أَهْلِ الدنيا ، وخَفيت لأَنها من عند الله تعالى .

مثل المؤمن والكافر والمنافق

مثَلُ المؤمنِ والكافر والمنافق مَثَلُ ثلاثة نَفرٍ أَتَوْا نَهْرًا عظيما فى مَفَازة[1] ، فوقع وَاحِدٌ منهم فى النَّهْرِ فسبَح سَبْحًا ، وخرج ؛ ووقَع الثانى ؛ فكلما كاد أَنْ يَصِلَ إلى شَطِّ النهر ناداه الثالثُ الذى لم يَدْخُلْ بَعْدُ فى النَّهْر : أن يا فُلانُ ، هَلُمَّ إلىّ إلىّ ، فإنَّ الطريقَ مَخُوف فتهلك . ارجع إلىّ ، فإنى أعلَمُ بطريقٍ آخر يُعْبَرُ بالسلامةِ على القَنْطَرة ؛ والذى خرج يُنَاديه : أَنْ إلىّ إلىّ ؛ فإنَّ الطريقَ آمِنٌ ، وعندى من النعيم ما لا يُوصَف ؛ فما زال يذهبُ إلى هذا وإلى ذاك حتى يَغرق فى الماءِ ويَهْلك .

قال قتادةُ رَحِمَهُ الله : فالأَوَّل الذى عَبَر مُؤْمنٌ مخلص . والذى لم يَعْبُرْ بَعْدُ كافر . والذى دَخل مُنَافِقٌ يَدْعُوه المسلمُ مِنْ ورَائه ، والكافر يَدْعُوه من خَلْفه ، وهو مترددٌ مُتَذَبْذِبٌ[2] حتى يأْتيَه الموتُ ، فيموت مُنافقا ، فيبقى فى قَعْرِ جَهَنَّم فى أَسفل السافلين .

ومصداقُ هذا قولُ اللهِ سبحانه وتعالى[3] : (إنَّ المُنَافِقِينَ

---

(١) المفازة : أرض لا ماء فيها .

(٢) تذبذب : تحير وتردد .

(٣) سورة النساء ، آية ١٤٥

فى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ولَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا [(١)]).

ومثَلَهُم أيضا مثَلُ أَهْلِ بلدة بَقُوا فى جُدوبة وقَحْط ، وشدَّة ويُبُوسة ، وعُسْر وضِيق وفَقْر ، فجاء رجلٌ بَهِىّ سَخِىّ ، كريم جَوَاد ، رءُوف رحيم . وقال لهم : أنا لَكُمْ ناصح أمين ، وإنكم بَقِيتُم فى هذه البُقْعَةِ فى هذه الشدة والمِحْنة [(٢)] ، فإنى أَدُلُّكم على أرض فيها خِصْبٌ وسَعَة . وخُضرةٌ وماءٌ ، ونَعِيم ؛ فارْتَحِلُوا إليها تَنْجُوا من هذه المِحْنَة ؛ فقومٌ قَبِلُوا نصيحتَه وارتحلُوا إلى تلك البُقْعَة ؛ فوجدوا ما أُخْبِرُوا وزِيَادةً . وقوم لم يصدِّقوه ولم يلتفتوا إلى كَلامِه ، وبَقُوا فى أرضهم فى القَحْط [(٣)] والشدَّةِ وجازُوا ذلكَ ، فنزلوا فيها واطمأَنُّوا بها فَرِحين بها ، مُعْجَبين بها ، وأرسلوا إلى هَؤُلاءِ القوم الذين بَقُوا فى دِيَارهم وأخبروهم بذلك : إنا وجَدْنَا ما وعَدَنَا الرجُلُ وزيادة ، تعالَوْا معنا تَنْجُونَ من هذه الشدة ، فلم يَقْبَلُوا ، ولم يخرجوا ؛ فلما لبثَتْ تلكَ الطائفةُ فى تلك الأَرضِ زَماناً وشهوراً وسَنِينا متنَعِّمين جاءَ الرجلُ ثانياً ، وقال : إنَّ فى موضع آخر أرضًا أحسنَ من هذه ، ونعيمُها ومِيَاهها وأَشجارها وثِمارُها أَضعافٌ من هذا ، فارْتَحِلُوا إلى هنالك .

---

(١) الدرك ؛ قعر الشئ ذى العمق ، فدرك البئر – مثلا : أسفله (معجم ألفاظ القرآن) .

(٢) المحنة : الاختبار . (٣) القحط : احتباس المطر ، وعام قحط : شديد .

فصدَّقَ بعضٌ منهم وارتحلوا ، فوجَدُوا هنالك أكثر وأطيب مما وَعَـدهم الرجلُ ، فمكثوا ثَمَّة [١] ، وأخذوا فى التنعُّم ، وبَقُوا فى الرَّفَاهية ، وبعَثُوا إلى أُولئك القَوْم الذين كانوا معهم فى الأَرض الأُولى فى النعيم : أَن وجَدْنَا ما وعدَنا الرجلُ الأَوَّل وزيادة ، هَلُمُّوا [٢] إلينا نعيش ونَتَنَعَّم . فأَبَوا ، وقالوا : لا نُعْطِى الموجود بالمفقود ، ولا نبدِّل ، فإذا سَحَابَةٌ جاءت من السماء فضربت الأَشجارَ ، فيَبِست بساتينُهم ومِيَاهُهم وما عندهم حتى هَلَكُوا جميعا .

فالناس كلُّهم فى ظُلْمَةِ الكُفْر وشِدَّةِ الشِّرْكِ والقَحْط والضِّيق فى مَفَاوِز [٣] الكُفْرِ حَيارَى فى عُسْرٍ وضيق . فجاءهم الرسولُ الكريمُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم . وبَيَّنَ لهم الهُدَى . ونَصحهم ، وبيَّنَ لهم طريقَ الحقِّ والصِّرَاطَ المستقيم ، فآمنَ به بعضهمْ ونَجَوْا من ظُلمة الكفر والبُؤْس والفَاقة [٤] . وأَخرجوا أَنفسهم من ظُلْمةِ الكفر ، وتَبَيَّنَ لهم طريقُ الرُّشْدِ من الغَيِّ .

وقَوْمٌ لم يَقْبَلُوا نصيحةً ؛ وهم الكفَّار فبَقُوا فى مَفَازةِ الكُفْرِ ، فى أَرضِ القحْط والجُدُوبَةِ ، والضِّيق والضَّنْكِ [٥] .

---

(١) ثمة : هناك .

(٢) هلموا إلينا : تعالوا .

(٣) جمع مفازة : الأرض لاماء فيها : الصحراء .

(٤) الفاقة : الفقر .

(٥) الضنك : الضيق فى كل شئ .

ثم إنَّ المُؤْمنين الذينَ آمَنُوا بالله ورسوله ، ثم لم يَرْتَابُوا [١] ، وجاهَدُوا بأَموالِهم و أَنْفُسِهم فى سبيل اللهِ أُولئكَ هم الصَّادِقُون — بَدَّلوا ما عندهم إلى دارِ القَرَار ونعيم الآخرة بما عندهم مِنْ نعيم الدُّنيا ، وارتحلوا إلى دَارِ الآخرة .

والمنافقون قالوا : لا نُعْطِى الموجودَ بالمفقود ، فَخَابُوا وخَسِرُوا ؛ ذهب الموجودُ من أيديهم ، ولم يَصِلُوا إلى الآخرة ، فبَقُوا فى نِفَاقهم وشكِّهم .

و أَما المؤمنون فخرجوا إلى الأَرْضِ الثالثة وهم الصادقون ، كما قال اللهُ تعالى فى وَصْفِهم [٢] : (أُولَئِكَ هم الصادقون) بقبولهم دار الآخرة خالصا ، لأَنَّ إيمانَهم كان خالصا مخلصا ؛ قال اللهُ تَعالى [٣] : (ولقد كَتَبْنَا فى الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِى الصالحون . إنَّ فى هذا لَبَلاغًا لِقَوْم عَابدينَ . وَمَا أَرْسَلْنَاك إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمين [٤]) .

---

(١) يرتابوا : يشكوا .

(٢) سورة الحشر ، آية ٨

(٣) سورة الأنبياء ، آية ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

(٤) الزبور : قيل : الزبور : كتاب داود . والذكر : توراة موسى .
عبادى الصالحون : أكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقوم عابدين : هم أهل الصلوات الخمس ، وقال ابن عباس : عابدين : مطيعين . قال القشيرى : ولايبعد أن يدخل فيه كل عاقل ؛ لأنه من حيث الفطرة =

وقد جاء في آخر النسخة (ب) ما يأتي :

تم بحمد الله ومنّه وحسّنِ عونه ، وصلى اللهُ على محمد
نبيه و أزواجه وذرِّيته و أصحابه وكافة أُمته
وجعلنا منهم بمنه وطَوْله

وفي نهاية نسخة (١) ما يأتي :

تمَّ بحَمْدِ الله ومَنِّه وحُسْنِ عَوْنه ، وصلى الله على محمد نبيه ، و أزواجه ، وذرّيته و أصحابه . وكافة أُمّته ، وجعلَنا منهم بفضله وطَوْله .

واتفق تمامه على يدى الفقير إلى رحمة الله على بن سليمان بن أحمدبن سليمان المرادى الأندلسى ، نفعه اللهُ به ، وعلمهً ما فيه ، وجعله من المُؤْتَمّين بنبيّه ، بفَضْله ورحمته ، وغفر له ولوالديه ، ولكافة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

=متذلل للخالق ، وهو بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة. وقال ابن عباس : هم أمة محمد الذين يصلون الصلوات الخمس ، ويصومون شهر رمضان.

وما أرسلناك : الخطاب للنبي محمد . قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس ، فمن آمن به وصدق به سعد ؛ ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق .

فهارس الكتاب

١ ـ فهرس الموضوعات

٢ — فهرس الآيات القرآنية *

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة البقرة	١٤ـ	٥	وإذا لقُوا الذين آمنُوا قالوا آمنَّا وإذا خلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنما نحن مستَهْزِئون. اللهُ يستهزئ بهم ويمدُّهم فى طُغْيانهم يَعْمَهون. أُولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى فما ربحَتْ تجارتُهم وما كانوا مُهْتَدين . مثَلُهم كمثَل الذى استَوْقَد نارا فلما أَضاءَت ماحولَه ذهب اللهُ بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يُبْصِرون . صمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يرجعون .
»	١٩	٧، ٨٠	أَو كصَيِّبٍ من السماء فيه ظُلماتٌ ورعد وبرق يجعلون أَصابعَهم فى آذانهم من الصواعقِ حَذَر الموتِ واللهُ محيطٌ بالكافرين .
»	٥٤	١٥٥	وإذ قال موسى لقومه : ياقوم ، إنكم ظلمتُم أَنفُسكم باتِّخاذكم العِجْلَ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أَنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التوّابُ الرحيم .
»	٧٤	٦	ثم قسَتْ قلوبُكم من بعد ذلكَ فهى كالحجارة أَو أَشدُّ قسوةً وإن من الحجارة لمَا يتفجَّر منه

(*) مرتبة على حسب ترتيب السور ، والآيات فى السور

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة البقرة			وإنَّ منها لما يهبطُ من خشْية الله وما اللهُ بغافل عما يعملون .
»	١١٦	٧٠	وقالوا اتَّخَذ اللهُ ولدا سبحانَه بل له ما فى السموات والأرض كلٌّ له قانتون .
»	١٢٥	٢٠٨	وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس و أمْنًا واتخذوا من مَقَام إبراهيم مُصلّى وعهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركَّع السجُود .
»	١٧٠	١٠	وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بل نتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يَهْتَدون .
»	١٧١	٩، ١٠	ومثَلُ الذين كفروا كمثَل الذى يَنْعِق بما لا يسمَعُ إلا دعاءً ونداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يعقِلون .
»	١٩٤، ١٩٥	٢٠٠	الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ والحرمات قِصَاصٌ فمن اعْتَدى عليكم فاعتَدُوا عليه بمِثْلِ ما اعْتَدَى عليكم واتَّقُوا اللهَ واعلموا أنَّ اللهَ مع المتَّقِين . وأنفِقُوا فى سبيل اللهِ ولا

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة البقرة			تُلْقُوا بأَيديكم إلى التَهْلُكة وأَحسنوا إن اللهَ يحبّ المحسنين .
«	٢١٩	٧٨	ويسأَلونكَ ماذا ينفِقُون قل العَفْوَ كذلك يبيِّنُ الله لكمُ الآيات لعلكم تتفكَّرون .
«	٢٤٥	٣٤٠	مَنْ ذا الذى يُقْرِضُ اللهَ قرضا حسنا فيضاعفَه له أضعافا كثيرة والله يَقْبِض ويَبْسط وإليه ترجعون .
«	٢٥١	٢٦٨	ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفسدت الأَرضُ ولكنَّ اللهَ ذو فَضل على العالمينَ .
«	٢٥٦	٣٢٤	لا إكراهَ فى الدينِ قد تبيَّن الرشْدُ من الغىّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسكَ بالعُرْوة الوُثْقى لا انفصام لها واللهُ سميعٌ عليم
«	٢٥٩	١٠	أَو كالذى مرّ على قرية وهى حاويةٌ على عروشها قال أَنىّ يُحْيى هذه اللهُ بعد موتها فأَماته اللهُ مائةَ عام ثم بعثه قال : كم لَبِثْتَ قال : لبثتُ يوما أَو بعضَ يوم قال : بل

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة البقرة			لبثتَ مائة عام . . . . . . فلما تبيَّن له قال : أَعلم أَن اللهَ على كل شيءٍ قدير .
	٢٦٠	١١	وإذ قال إبراهيمُ ربِّ أَرِنى كيفَ تُحيى الموتى . قال : أَوَلَمْ تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئنَّ قلبى ، قال : فخُذْ أربعةً من الطير فصُرْهنَّ إليك ثم اجعل على كل جبَلٍ منهنّ جزءًا ثم ادْعُهنَّ يأْتينكَ سعيا . . .
	٢٦١	١١ ، ٣٣٩	مثَل الذين يُنفقون أَموالَهم فى سبيل اللهِ كمثَل حبّةٍ أنبتت سبْعَ سنابلَ فى كل سُنْبلة مائةُ حبّة واللهُ يضاعفُ لمن يشاءُ واللهُ واسع عليم.
»	٢٦٢	١٢	الذين ينفقون أَموالَهم فى سبيل اللهِ ثم لا يُتْبِعون ما أَنفقوا منًّا ولا أَذى لهم أَجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون .
	٢٦٤	١٢	يأَيها الذين آمنوا لا تُبْطلوا صدقاتكم بالمَنِّ والأَذى كالذى يُنْفق مالَه رئاءَ الناسِ ولا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فمثَلُه كمثَل صَفْوانٍ عليه تراب فأَصابه وابلٌ فتركه صَلْدًا لا يقدرون على شيءٍ مما كسبوا . . .

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة البقرة	٢٦٥	١٣	... ومَثَلُ الذين يُنْفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ وتَثْبيتا من أَنفسهم كمثل جنَّةٍ برَبْوَةٍ أَصابها وابلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْن فإن لم يُصبْها وابلٌ فطَلٌّ ...
«	٢٦٨	٣٢٣	الشيطانُ يعدكم الفقرَ ويأْمركم بالفحشاء واللهُ يعدُكم مغفرةً منه وفضلا واللهُ واسع عليم.
«	٢٨١	٦٨	واتَّقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كلُّ نفس ما كسَبَتْ وهم لا يُظلمون .
سورة آل عمران	٨	٢٠٤	ربَّنا لا تُزغْ قلوبَنا بعد إذ هديْتَنا وهَبْ لنا من لَدُنْكَ رحمةً إنك أَنْتَ الوهابُ .
«	١٤	١٨٢	زُيِّنَ للناس حبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقَنْطرةِ من الذهب والفضة والخيلِ المسوَّمة والأَنعامِ والحَرْث ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا واللهُ عنده حُسْنُ المآب .
«	٣١	١٠٨	قل إن كنتم تحبون اللهَ فاتبعونى يحببْكم اللهُ ويغْفرِ لكم ذنوبَكم واللهُ غفور رحيم .
«	٧٣	١٥٤	ولا تؤمنوا إلا لمَنْ تبِع دينكم قل إنَّ الهدى هُدى اللهِ أَنْ يُؤْتى أحدٌ مثْلَ ما أُوتيتم

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة آل عمران			أو يحاجّوكم . . .
«	١٠٢	٢٢٤ ، ٢٢٥	يـأَيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاته ولا تموتُنَّ إلا وأَنتم مسلمون .
«	١١٧	١٤	مثل مايُنْفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قوم ظلموا أَنفسهم فأَهلكته وما ظَلمهم اللهُ ولكن أَنفُسَهم يظلمون .
	١٣٠	٢٠٠	يـأَيها الذين آمنوا لا تـأْكلوا الربا أَضعافاً مضاعفة . . .
سورة النساء	١٢٣	٢٥٨	ليس بـأَمانيّكم ولا أَمانىّ أَهلِ الكتاب من يعمَلْ سوءًا يُجْزَ به ولا يجِدْ له من دون اللهِ وليّا ولا نصيرا .
«	١٤٥	٣٤٨	إن المنافقين فى الدَّرْك الأَسفلِ من النار ولن تجدَ لهم نصيرا .
سورة المائدة	١٥	٥٩	يـأَهل الكتاب قد جاءَكم رسُولُنا يبيّن لكم كثيرا مما كنتُم تُخْفُون مِن الكتاب ويَعْفو عن كثير . قد جاءَكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين .
	٢٧	٨٥	واتلُ عليهم نبـأَ ابنى آدمَ بالحق إذ قَرَّبا

السورة	رقم الآية	الصفحة	
			قُرْبانًا فتُقبّل من أحدهما ولم يتقبَّل من الآخر قال : لأَقتُلنَّك قال إنما يتقبَّلُ اللهُ من المتقين .
سورة المائدة	٤٨	٦٢	و أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحق مصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومهَيْمنًا عليه . . .
«	٦٨	٢١٧	قل يـأَهل الكتاب لستُم على شئ حتى تُقيموا التوراةَ والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربّكم . .
«	٧٤	١٥٥	أَفلا يتوبون إلى اللهِ ويستغفرونه واللهُ غفور رحيم .
«	٩٠	٢٠٠	إنما الخمر والميسر والأَنصاب والأَزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .
«	٩٥	٢٠٦	يـأَيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيدَ وأَنتم حُرُم ، ومن قتله منكم متعمِّدا فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم . . . . ومن عاد فينتقم اللهُ منه والله عزيز ذو انتقام .
سورة الأنعام	١١٠	١٣٨	ونقلِّب أَفئدتَهم وأَبصارَهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرةٍ ونذَرُهم فى طغيانهم يعمهون .
«	١٢٢	١١٦ ، ٢٨١	أَو من كان مَيْتا فأَحييناه وجعلنا له نورا

السورة	رقم الآية	الصفحة	
			يمشي به فى الناس كمَنْ مثَلُه فى الظلماتِ ليس بخارج منها . . .
«	١٦٠	٣٣٩	من جاءَ بالحسنةِ فله عشْرُ أَمثالها ومَنْ جاءَ بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مثْلَها وهم لا يُظلمون .
سورة الأعراف	٢٦	٢٦١	يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا . . .
«	٣١	٣١٨	يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحبّ المسرفين .
«	١٤٦	٦٩	سأَصرفُ عن آياتى الذين يتكبرون فى الأَرض بغير الحق وإن يروا كل آية يؤمنوا بها . . .
«	١٧٥ ، ١٧٦	١٧، ١	واتلُ عليهم نبَأَ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأَتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأَرض واتبع هواه فَمثلُه كمثل الكلبِ إن تحمِلْ عليه يلهَثْ أَو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة الأنفال	٢٤	٢١٩ ، ٣٢٧	يـأيها الذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يُحْييكم واعلموا أنَّ اللهَ يَحُولُ بين المرءِ وقَلْبه و أنه إليه تُحْشرون.
«	٢٩	٢٢٧	يـأيها الذين آمنوا إنْ تتَّقُوا اللهَ يجعلْ لكم فُرقانا ويكفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم واللهُ ذو الفَضْل العظيم .
«	٣٨	١٥٥	قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قد سلف وإنْ يعودوا فقد مضَتْ سنَّةُ الأوّلين.
سورة التوبة	١١١ ، ١١٢	٤٩	إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بـأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتَلون وعدا عليه حقا. . .فاستبشروا ببَيْعكم الذى بايعتم به. . . التائبون العابدون الحامدون . . . والحافظون لحدودِ الله وبشر المؤمنين .
سورة يونس	٢٤	١٧	إنما مثَلُ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماءِ فاختلط به نباتُ الأرض مما يـأْكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرضُ زخرفها وازَّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمْرُنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا كأن لم

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة هود	١٢٠	١٨	وكُلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسلِ ما نثبّت به فؤادك . . .
سورة يوسف	٥٣	٢٦٦	إنَّ النفْسَ لأَمّارة بالسوء إلا ما رَحِمَ ربى . . . . .
سورة الرعد	١٤	٢٠	له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفَّيه إلى الماء ليبلغَ فاه وما هو ببالغِه وما دعاءُ الكافرين إلا فى ضلال .
»	١٧	١٩	أَنزل من السماء ماءً فسالَتْ أَوديةٌ بقَدَرِها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاءَ حليةٍ أَومتاع زبدٌ مثلُه كذلك يضربُ الله الحقَّ والباطل فأَمّا الزبَدُ فيذهب جُفَاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكث فى الأَرض كذلك يضرب الله الأَمثالَ . . .
سورة ابراهيم	١٨	١٥	مثَلُ الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرماد اشتدت به الريحُ فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد.
»	٢٤ ، ٢٥	٢١ ، ٣٤	أَلم تر كيف ضرب اللهُ مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أَصلُها ثابتٌ وفروعها فى السماء.

السورة	رقم الآية	الصفحة	
			تُؤْتي أُكُلها كلَّ حينٍ بإذْنِ ربّها ويضربُ اللهُ الأَمثالَ للناس لعلهم يتذكرون.
سورة ابراهيم	٢٦	٢١ ؛ ٣٤	ومثلُ كلمة خبيثة كشجرةٍ خبيثة اجتُثَّتْ من فوق الأَرض مالها من قرار.
»	٣٤	٢٤٩	وإنْ تَعدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصوها . . .
»	٤٥	١	وضَرَبْنَا لكم الأَمثالَ
سورة الحجر	٢٦	٢٦١	ولقد خلقنا الإنسان من صَلْصالٍ من حَمَأٍ مسنون.
	٩٢	٦٨	فوربِّكَ لنسأَلنَّهم أَجمعين.
سورة النحل	١٨	١٥٨	وإن تعدوا نعمةَ الله لا تحصوها إن اللهَ لغَفُور رحيم.
»	٥٧	٢٢	ويجعلون لله البناتِ سبْحَانَه ولهم ما يشتهون.
»	٦٩	٦٥	يخرجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ أَلوانُه فيه شفاءٌ للناسِ . . .
»	٧٤	٢	فلا تضربوا للهِ الأَمثالَ . . .
»	٧٥	٢٢	ضرب اللهُ مثلاً عَبْدًا مملوكا لا يقدرُ على شيءٍ ومَنْ رزقناه منّا رزقًا حسنا فهو يُنفِقُ منه سرًا وجهرًا هل يستوون . الحمد لله ، بل

السورة	رقم الآية	الصفحة	
			أكثرهم لا يعلمون.
سورة النحل	٧٦	٢٣	وضرب اللهُ مثلا رجُلَيْن أحدُهما أبكمُ لا يقدرُ على شئ وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجّهْه لا يأْتِ بخير هل يستوى هو ومَنْ يأْمرُ بالعدل وهو على صراط مستقيم.
»	٩٢	٢٣	ولا تكونوا كالتى نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخَلاً بينكم أَنْ تكونَ أُمةٌ هى أربى من أُمة . إنما يبلوكم اللهُ به وليبيننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون.
»	٩٤	٢٤	ولا تتخذوا أيمانكم دخَلاً بينكم فتزلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها وتذوقُوا السوءَ بما صددْتُمْ عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم.
»	١٢٨	٢٠٣	إن اللهَ مع الذين اتَّقْوا والذين هم محسنون .
سورة الاسراء	٢٣	٢٠٣	وبالوالدين إحسانا .
»	٨١	٣٣١	وقل جاءَ الحقُّ وزهق الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهـوقا.
سورة الكهف	٥٧	١١٥	إنَّا جعلنا على قلوبهم أَكنَّةً أَن يفقهوه وفى

السورة	رقم الآية	الصفحة	
			لبَيْتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون .
سورة العنكبوت	٤٣	٢	وتلك الأَمثالُ نضربُها للناس وما يَعْقِلها إلا العالمون .
سورة الروم	٢٨	١ ، ٢٨	ضرب اللهُ مثلا من أنفُسكم هل لكم مما ملكَتْ أَيمانُكم من شركاءَ فيما رزقناكم فأَنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخِيفَتِكم أنفسكم كذلك نفصِّل الآيات لقوم يعقلون .
سورة لقمان	٢٢	١٣٨	ومن يُسْلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسكَ بالعروةِ الوُثْقى .
سورة الأحزاب	٢١	٢٧٣	لقد كان لكم فى رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنة لمن لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .
»	٤١ — ٤٣	٢٢٧ .	يأَيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكْرًا
		١٦٠	كثيرا . وسبّحوه بكرةً وأَصيلا . هو الذى يصلِّى عليكم وملائكتُه ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما .
»	٤٤	١٦٦	تحيتُهم يوم يلقَوْنه سلامٌ وأَعدّ لهم أَجرًا كريما .

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة الأحزاب	٤٧	٦٩	وبشِّر المؤمنين بأَنَّ لهم من الله فضلا كبيرا .
سورة يس	٥١	٢٩٩	ونُفِخ فى الصُّور فإذا هم من الأَجداث إلى ربّهم يَنْسِلُون
سورة ص	٢٣	١٨	إن هذا أَخى له تسعٌ وتسعون نعجةً ولى نعجةٌ واحدة فقال : أَكفِلْنيها وعزّنى فى الخطاب .
سورة الزمر	٣	١١٤	مانَعبدهم إلاَّ ليقرِّبونا إلى الله زُلْفَى.
«	٢٢	١١٦	أَفمن شرحَ اللهُ صدْرَه للإسلام فهو على نور من ربِّه .
«	٢٩	٢٩	ضرب اللهُ مثلا رجلا فيه شركاءُ متشاكسون ورجلا سلَما لرجُل هل يستويان مثلا ، الحمد لله ، بل أَكثرهم لايعلمون .
«	٤٣	١١٤	أَم اتخذوا من دونه شفعاء .
سورة غافر	١٩ . ٢٠	٢٣٤	يعلم خائنة الأَعين وماتُخفى الصدور ، واللهُ يَقْضى بالحق والذين يدعون من دونه لاَ يَقْضُون بشىءٍ إن الله هو السميع البصير.
«	٦٠	٣٢٢	ادعونى أَسْتَجِب لكم . . .
«	٧١ ، ٧٢	٦٨	إذ الأَغلالُ فى أَعناقهم والسلاسلُ يُسْحبون فى الحميم ثمّ فى النار يُسْجَرون .

السورة	رقم الآية	الصفحة	
سورة غافر	٧٥	٦٨	ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأَرضِ بغير الحق وبما كنتم تمرحون .
سورة فصلت	٤١	٦٢	وإنه لَكِتابٌ عزيز .
سورة الشورى	٢٣	١٢١	ذلكَ الذى يبشِّر الله عبادَه الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ قل لا أسأَلكم عليه أَجرا إلا المَوَدَّةَ فى القُرْبى ومَنْ يقْتَرِفْ حسنةً نَزِدْ له فيها حسنًا إن الله غَفورٌ شكور .
سورة الزخرف	٩	١١٣	ولئن سأَلْتَهم مَنْ خلق السموات والأَرضَ ليقولُنّ خلقهنّ العزيزُ العليمُ .
	٨٦	٢٦٧	إلا مَنْ شهد بالحق وهم يعلمون .
سورة الجاثية	٢٣	٩٦ ، ١١٥	أَفرأَيت من اتَّخذَ إلهه هواهُ وأَضلَّه اللهُ على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون .
سورة محمد	١٧	١١٩	والذين اهتدوا زادهم هُدًى وآتاهم تقواهم.
سورة الفتح	١٨	١٢٩	لقد رضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة .
«	٢٩	٣٤٥	ذلك مثَلُهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل

السورة	رقم الآية	الصفحة	
			كزرع أخرج شطأه فآزره فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بكم الكفارَ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات مغفرة وأجرا عظيما .
سورة الحجرات	٧	١٠٤	واعلموا أن فيكم رسولَ الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتُّم ولكن الله حبَّب إليكم الإيمانَ وزيّنه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفْرَ والفسوقَ والعصيان أُولئك هم الراشدون .
سورة النجم	١١	٧٤ ، ١٣٧	ما كذب الفؤاد ما رأى .
سورة الرحمن	٦٠	٦٩	هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان .
سورة الواقعة	٧٧	٦٢	إنه لقرآنٌ كريم .
سورة الحديد	١٢	٦٩	يوم ترى المؤمنين والمؤمناتِ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم .
سورة المجادلة	٢٢	٨٩	أولئك كتَبَ فى قلوبهم الإيمانَ ...

٣ – فهرس الأحاديث والأخبار

(*) مرتبة حسب ورودها في الكتاب .

الصفحة

الصفحة

٤ - فهرس الأعلام

٥ – فهرس مراجع التحقيق والشرح

المرجع	الطبعة
الإصابة لابن حجر	تحقيق على البجاوى نهضة مصر بالفجالة
تاج العروس	
تفسير القرطبي	طبعة دار الكتب
تفسير ابن كثير	طبعة عيسى الحلبى ، ودار الشعب
التقريب لابن حجر	المكتبة العلمية بالمدينة المنورة
تهذيب التهذيب	حيدر آباد
سنن الترمذى	مصطفى الحلبى
سنن ابن ماجه	عيسى الحلبى
سنن النسائى	مصطفى الحلبى
صحيح مسلم	طبعة عيسى الحلبى
الفائق للزمخشرى	»
القاموس المحيط	
القرآن الكريم	
الكشاف للزمخشرى	المطبعة البهية المصرية
اللباب لابن الأثير	القدسى
لسان العرب لابن منظور	
مختار الأغانى	الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر
مختار الصحاح	
المصباح المنير	
معجم ألفاظ القرآن الكريم	مجمع اللغة العربية
المغازى للواقدى	مطبعة جامعة اكسفورد
النهاية لابن الأثير	

صواب الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الصـواب
٣٣	١	وضرب
٦٤	٢٢	البذاء
٨٨	١٥	الحرز
١٠١	١٢	فيرائى
١١٠	٢١	جمح
١٢٤	١١	ووخْزَة
١٦١	٩	بعمل له
١٦٢	١٩	لريّها
١٨٣	١٥	آية ٧٦
٢٨٥	١٣	وإن اقتضى اقتضى
٢٩٣	٥	الدَّنيّة
٣٠٢	١١	وأمنيتها
٣١٤	٦	وتغيرً

رقم الايداع بدار الكتب ٣٠٥٥

مطابع المختار الاسلامى

الصفحة

٤ – فهرس الأعلام

٥ - فهرس مراجع التحقيق والشرح

المرجع	الطبعة
الإصابة لابن حجر	تحقيق على البجاوى نهضة مصر بالفجالة
تاج العروس	
تفسير القرطبى	طبعة دار الكتب
تفسير ابن كثير	طبعة عيسى الحلبى ، ودار الشعب
التقريب لابن حجر	المكتبة العلمية بالمدينة المنورة
تهذيب التهذيب	حيدر آباد
سنن الترمذى	مصطفى الحلبى
سنن ابن ماجه	عيسى الحلبى
سنن النسائى	مصطفى الحلبى
صحيح مسلم	طبعة عيسى الحلبى
الفائق للزمخشرى	«
القاموس المحيط	
القرآن الكريم	
الكشاف للزمخشرى	المطبعة البهية المصرية
اللباب لابن الأثير	القدسى
لسان العرب لابن منظور	
مختار الأغانى	الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر
مختار الصحاح	
المصباح المنير	
معجم ألفاظ القرآن الكريم	مجمع اللغة العربية
المغازى للواقدى	مطبعة جامعة اكسفورد
النهاية لابن الأثير	

صواب الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الصـــواب
٣٣	١	وضرب
٦٤	٢٢	البذاء
٨٨	١٥	الحرز
١٠١	١٢	فيرائى
١١٠	٢١	جمح
١٢٤	١١	ووخْزَة
١٦١	٩	بعمل له
١٦٢	١٩	لريّها
١٨٣	١٥	آية ٧٦
٢٨٥	١٣	وإن اقتضى اقتضى
٢٩٣	٥	الدَّنيّة
٣٠٢	١١	وأمنيتها
٣١٤	٦	وتغيراً

مطابع المختار الاسلامى

رقم الايداع بدار الكتب ٣٠٥٥